

الحوزة العلميّة
في النجف الأشرف

الكتاب التاسع

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية

على الساحة السياسية العراقية
حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري
وارتداداته العابرة لقرنه
"مقاومة الاحتلال والطائفية السياسية"

هوية الكتاب

- « اسم الكتاب: الحوزة العلمية في النجف الأشرف/ الكتاب التاسع: الحضور الفاعل
للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية حتى نهاية القرن الرابع عشر
الهجري وارتداداته العابرة لقرنه "مقاومة الاحتلال والطائفية السياسية".
- « المؤلف: د. عبد الهادي السيد محمد تقي الحكيم.
- « المطبعة: دار الوارث للطباعة والنشر.
- « الطبعة: الأولى.
- « سنة الطبع: ١٤٤٧هـ / ٢٠٢٥م.
- « حجم ورق الكتاب: ١٧ × ٢٤ سم (وزيري).
- « عدد الصفحات: ٥٠١.
- « الإخراج الفني الداخلي: أحمد الرصافي.

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد () لعام ()

الحوزة العلميّة في النجف الأشرف

الكتاب التاسع

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية

على الساحة السياسية العراقية
حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجري
وارتداداته العابرة لقرنه
"مقاومة الاحتلال والطائفية السياسية"

الدكتور

عبد الهادي الحكيم

الطبعة الأولى



تقديم

الديباجة

يمكن القول بثقة بأنّ الحوزة العلمية وزعيمتها المرجعية الدينية أفضل مؤسسة إسلامية في زمن الغيبة. كما يمكن القول بثقة أيضاً بأنّ مرجعية النجف الأشرف هي المرجعية الأمّ لحوزات أهل البيت عليه السلام المنتشرة في شرق الأرض وغربها طيلة القرون العشرة الماضية ما خلا حقبة محدودة، وهو ما تحدثت عنه مفصّلاً في كتبي الثمانية الصادرة عن (الحوزة العلمية في النجف الأشرف) تلك التي صدرت قبل هذا الكتاب (التاسع) والكتب الثلاثة التي ستلحقه أيضاً.

أمّا هذا الكتاب والكتاب العاشر الذي يليه فقد خصصتهما للدور السياسي للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية ابتداءً من القرن الثاني عشر الهجري إلى الانتفاضة الشعبانية المباركة. وبالتحديد ابتداءً من سنة (١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م) إلى سنة (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م).

ويعود سبب عدم كتابتي عن المدة السابقة لثورة المجتهد السيد شبر الحويزي -وأقصد بها المدة المبتدئة بالاحتلال العثماني للعراق إثر الغزو الذي تعرّض له بقيادة السلطان العثماني سليمان القانوني سنة (٩٤٠ هـ / ١٥٣٤ م)- فيعود إلى عدم عثوري قبل ثورة سماحة السيد شبر الحويزي -أحد مجتهدي حوزة النجف الأشرف في القرن الثاني عشر الهجري- على أيّ دور سياسي فعّال للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية.

كما يعود سبب عدم كتابتي عن دور المرجعية الدينية على الساحة العراقية بعد الانتفاضة الشعبانية المباركة حتى يوم الناس هذا إلى أنّ هذه المدة الغنية

بالبحث والتوثيق والتقصّي والتحليل والاستنتاج تحتاج إلى كتاب مستقل لاستيعابها والوقوف عندها ولا يكفيها أن يغطّيها فصل من كتاب أو ما شابه.

ولعلّي في غنى عن تبيان أسباب تصدّي المرجعية الدينية للدور السياسي على الساحة العراقية. وهل غير حفظ بيضة الإسلام الأصيل، ودفع غائلة الأعداء وشروهم عن العراق بشكل عام وشيعة عراق علي والحسين عليهما السلام بشكل خاص هو المحرّك الفعّال لهذا التصدّي ضدّ المعتدين الغاشمين؟ سواء أكانوا غزاة مهاجمين تكفيرين، أم محتّئين أجنب، أم عراقيين طائفيين، أم حكماً جابرة ظالمين، أم متسلّطين فاسدين، أم أمثالهم من هؤلاء وأولئك.

ولئن حدّد البحث في هذا الكتاب مجاله الزمني بما تقدّم، ونطاقه ومداره الخاص بمحدّدات ثلاثة هي: مرجع من حوزة النجف الأشرف، له حضور سياسي فاعل على الساحة السياسية العراقية دون غيرها من الساحات السياسية في بلدان إسلامية أو شيعية أخرى، فنطاق البحث غير معنيّ أصلاً بمراجع من غير حوزة النجف الأشرف، وإن كان لهم حضور سياسي فاعل على الساحة السياسية العراقية، والبحث غير معنيّ أيضاً بدور مراجع من حوزة النجف الأشرف ليس لهم حضور فاعل على الساحة السياسية العراقية، كما أنّه غير معنيّ كذلك بمواقف مراجع من حوزة النجف الأشرف لهم حضور سياسي فاعل في شأن سياسي غير عراقي، سواء أكان في دولة ما من دول المنطقة أم في العالم.

وطبيعي وفق هذه المحدّدات أن تعتمد المنهجية -بعد مدخل تأسيسي يعرض مواقف علماء البلاط العثماني وسلاطين دولتهم وولاتها ضد شيعة العراق ومدنه المقدّسة- على التسلسل الزمني لمواقف مراجع دين من حوزة النجف الأشرف لهم دور فاعل في الشأن السياسي العراقي، مرجع بعد مرجع، وصولاً إلى نهاية

القرن الرابع عشر الهجري وارتدادات أحداث هذا القرن لما بعده وذلك وفق خطة بحث تقاسمها خمسة عشر فصلاً، وخاتمة.

أمّا الفصل الأول من هذا البحث فقد كان فصلاً تأسيسياً خُصّص لإلقاء الضوء على (المعاملة الطائفية التكفيرية لشيعة العراق من قبل المحتلّين العثمانيين: سلاطين، وولاة، وشيوخ إسلام)، مستعرضاً بعض فتاوى كبار علماء البلاط العثماني التكفيرية الطائفية ضدهم، واقفاً عليها، وعلى تطبيقاتها العملية على أيدي سلاطينهم العثمانيين وولايتهم وحكامهم في العراق، منتهياً بعد تحرّج إلى أنّ التمييز الطائفي ضد شيعة العراق في الحكم وفي غيره من مناحي الحياة الأخرى المختلفة، بدأه وأسّس أسسه المحتلّون العثمانيون الطائفيون العنصريون قبل تأسيس الدولة العراقية سنة (١٣٣٩هـ / ١٩٢١م)، وسار عليه الحكام اللاحقون لهم المتربعون على دست الحكم في العراق من محتلّين إنكليز، ومن تلاهم ممّن نصّبهم المحتلّون من ملوك ثم من رؤساء جمهوريات ورؤساء وزراء ووزراء فمن دونهم من متسلّطين طائفيين ظالمين في العهدين الملكي والجمهوري على نهج سابقينهم من العثمانيين العتاة.

وأزعم أنّ العراق لن ينعم بالسلم المجتمعي، ولن يكون بمقدوره استعادة مجده الأثيل ودوره الحضاري المشهود، ولن يسوده السلم والعدل والرخاء والازدهار والرقي والتقدّم والسعادة والرفاه والنهوض والتقدّم والريادة، إلّا بأن يأخذ مواطنوه كلّهم بتنوّعاتهم الدينية والمذهبية والإثنية والمناطقية - وبخاصة المظلومون المهمّشون من أغلبيته الشيعية المضطهدة على مدى قرون وقرون - حقوقهم كاملة غير منقوصة.

ولعلّ في مقدمة ما يساعد على منحهم حقوقهم المسلوبة تأسيسهم لإقليم

الوسط والجنوب مع ضمان حقّهم في حسن توزيع للثروة يتناسب طردياً مع ما يقدّمه الإقليم الجديد لخزينة الدولة، مدعوماً بإعلام محترف ومحروساً بقوة عقائدية شابة غير مسيّسة مرضيّة من المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، قوة همّها الأول رضا خالقها ونبيّه وآل بيته الأطهار، لا المنافع المادية الزائلة، حسينيّة التضحية والفداء في سبيل مبدئها الولائي الحق، ولدينا من متطوّعي فتوى الدفاع الكفائي المخلصين خير أنموذج معاش على أمثالهم، إضافة لكونهم مدرّبين تدريباً قوياً فاعلاً يتجدّد باستمرار مع تحديث دائم لآخر ما يتوصل إليه العلم من أمور فنيّة دقيقة تخصّ عملهم.

أما إذا حالت الظروف بين شيعة العراق وبين تحقيق مطمحهم في إنشاء إقليم خاص بهم، فقد يمكن لإنشاء إقليم عربي بالمواصفات المتقدّمة يشمل كل الأراضي العراقية باستثناء إقليم كردستان أن يشكل بعض الحل لشيعة العراق. وقدماً قيل (العدالة أساس الملك).

هذا ما تناوله الفصل الأول من فصول هذا الكتاب.

أمّا الفصل الثاني فقد استعرض: (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية خلال القرن الثاني عشر الهجري. الثورة الشيعية المسلّحة ضد المعاملة الطائفية التكفيرية لشيعة العراق من قبل المحتلّين العثمانيين)، ملقياً الضوء على ثورة مغمورة أعلنها أحد علماء حوزة النجف الأشرف المجتهدين في هذا القرن ذلك هو سماحة السيد شبر الحويزي ضد العثمانيين الحاكمين الظالمين، وقد حظيت ثورته بدعم وتأييد واضح من أحد مراجع حوزة النجف الأشرف تلك الآونة، هو المرجع الكبير سماحة الشيخ محمد مهدي الفتوي أستاذ المجتهد الثائر إلا أنّ الثورة لم يكتب لها النجاح لخيانة بعض الشيوخ المتنفّذين.

في حين وقف الفصل الثالث على (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية خلال القرن الثالث عشر الهجري. الجهاد الدفاعي ضد الوهابيين التكفيريين الغزاة وحفظ الأمن الداخلي والخارجي) متمثلاً بإصدار المرجع الأعلى في ذلك الوقت سماحة الشيخ جعفر كاشف الغطاء فتوى الجهاد الدفاعي ضد هجمات الغزاة الوهابيين التكفيريين على مدينة النجف الأشرف، مستعرضاً هذا الفصل سعي مرجعين دينيين كبيرين هما كلٌّ من سماحة المرجع الأعلى الشيخ جعفر كاشف الغطاء المتقدم ذكره ونجله سماحة المرجع الأعلى الخلف الشيخ موسى كاشف الغطاء اللذين وُفِّقا أيّما توفيق في مهمة صعبة هدفها الرئيس هو إقامة تفاهم وصلاح بين الدولتين المسلمتين الجارتين المتقاتلتين على الأرض العراقية: إيران، وتركيا.

كما تمكّنت المرجعية الدينية اللاحقة لهما بزعامة سماحة الشيخ حسن آل كاشف الغطاء من إقناع الوالي التركي الجزائر نجيب باشا بعدم شنّه هجوماً دمويّاً على مدينة النجف الأشرف بعد استباحته لمدينة كربلاء المقدسة في مجزرة دموية فظيعة أدمت قلوب المؤمنين وهتكت حرمة المدينة المقدسة.

ونتيجة لسعة نشاط المرجعية السياسي على الساحة العراقية في القرن الرابع عشر الهجري فقد ارتأيت تقسيمه على فصول عدّة، تخصص كل فصل منها بنشاط محدد لمرجع ديني أو مراجع محددين في زمن محدد، فتناول الفصل الرابع: (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية خلال الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري. إيقاظ الأمة وتبني الحركة الدستورية. من قبل كل من المراجع السيد المجدد الشيرازي، والشيخ الخراساني والشيخ النائيني)، وتتمحور حول إصدار مرجعها الأعلى سماحة السيد محمد حسن الشيرازي المعروف

بالمجدد الشيرازي فتوى بتحريم استعمال (التنباك) أو التدخين في إيران من أجل إلغاء عقد احتكاري منحته إيران لشركة بريطانية، نصّ على حصر تجارة التنباك الإيراني بالشركة البريطانية المستغلة، ما اضطرّ الشاه إثر فاعلية الفتوى وتأثيرها الشعبي الجارف إلى إلغاء الاتفاقية تحت الضغط الحوزوي والجهاهيري الشديد، فكان من تداعيات تأثير هذه الفتوى - وهو الداخل في مدار بحثي هنا - إيقاظ الوعي السياسي في الحوزة العلمية النجفية، بل وفي العراق عموماً، وما تبع ذلك من نشاط سياسي مرجعي حوزوي فعّال أدى إلى تبني شطر من مراجع وعلماء حوزة النجف الأشرف وعلى رأسهم المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني المعروف بـ(الأخوند الخراساني) حركة الدستوريين الموسومة بـ(المشروطة)، بل ووضع أسسها المعرفية من قبل المرجع الشيخ النائيني، وتفعيل المشروطة على الساحات السياسية العراقية والنجفية منها خاصة، إضافة إلى تأثيراتها الكبيرة المباشرة على الساحتين السياسيتين الإيرانية والتركية.

وأما الفصل الخامس المعنون بـ: (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري). إعلان الجهاد الدفاعي ضد الاحتلال البريطاني للعراق) فتناول حركة الجهاد الدفاعي ضد المحتل البريطاني للعراق، المتمثل بإصدار المجتهد سماحة السيد محمد سعيد الحبوبي حكماً شرعياً بوجوب الجهاد الدفاعي ثم قيادته شخصياً لجهة القتال ضد المحتل الإنكليزي الغازي للأرض العراقية سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م)، بعدها أصدرت المرجعية العليا بزعامة سماحة السيد محمد كاظم اليزدي فتواها بالجهاد الدفاعي ضد الغزاة الإنكليز المحتلين للعراق، بل ومشاركة نجل المرجع الأعلى السيد اليزدي في العمليات العسكرية ممثلاً للمرجعية الدينية العليا رفقة

العديد من المراجع والمجتهدين في جبهاتها المشتعلة الثلاث، وحين خيبت ساحات المقاومة أمل المرجعية الدينية والمجاهدين وتقدمت القوات البريطانية الغازية نحو بغداد، أصدر المرجع الأعلى السيد اليزدي فتواه الثانية بالجهاد الدفاعي ضد المحتلين الإنكليز سنة (١٣٣٤هـ/ ١٩١٥م) في مسعىٍ أخير منه لمنع احتلال الإنكليز لبغداد.

أما الفصل السادس من البحث فقد تناول (دور المرجعية الدينية السياسي في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري. ثورة النجف الأشرف ضد الاحتلال البريطاني للعراق) فقد تطرق إلى ما أعقب التصدي للغزو البريطاني للعراق سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) من وقائع وما تبع ذلك من ثورة عرفت بثورة النجف الأشرف ضد الإنكليز أشعل فتيلها قسم من العلماء الحوزويين ومن تبعهم من الشيوخ والشباب الثوار في النجف الأشرف سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) وموقف المرجعية الدينية منها ذلك الوقت.

أمّا الفصل السابع فقد اقتصر البحث فيه على (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية خلال الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري. إعلان الجهاد الدفاعي ضد المحتلين ونشوب ثورة العشرين الفراتية)، مستعرضاً بإيجاز وقائع ثورة العشرين المجيدة ضد استمرار الاحتلال الإنكليزي للعراق سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) تلك الثورة التي أوقد شرارتها المرجع الأعلى سماحة الشيخ محمد تقي الشيرازي بفتواه التاريخية ثم أجج أوارها بعد وفاته خلفه سماحة المرجع الأعلى الشيخ فتح الله الأصهباني المعروف بشيخ الشريعة الأصهباني. وأقول لقد استعرضت في هذا الكتاب ثورة العشرين بإيجاز شديد لأنني خلال تتبعي لأحداثها وظروفها التفصيلية وجدت أن دراستها لا تسعها

مساحة فصل في هذا الكتاب ولذلك فقد خصصت الكتاب العاشر كله لها لأنها من بين أمور أخرى كثيرة استطاعت إقامة أول شكل لنظام حكم وحكومة للشوار الوطنيين العراقيين على أرض عراقية هي النجف الأشرف، سابقة بذلك أول حكومة عراقية شكلها المحتل الإنكليزي للعراق بشهرين.

في حين تناول الفصل الثامن عرضاً لصور من موقفي شيعة العراق وسنته وكبار علمائهما من الاحتلال البريطاني للعراق (١٩١٤-١٩٢٠م) حيث استعرض الفصل موقفين مختلفين عكسا صورتين متباينتين خلال الاحتلال البريطاني للعراق هما: موقف شيعة العراق وكبار علمائهم من جهة، وموقف سنته وكبار علمائهم وشيوخهم ووجهائهم وعامتهم وبخاصة في بغداد العاصمة من جهة ثانية.

وتناول الفصل التاسع المعنون بـ(الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري. تصدي المرجعية للانتداب البريطاني على العراق وللمعاهدة العراقية - البريطانية الظالمة على العراق)، ما قامت به المرجعية الدينية في العهد الملكي ابتداءً من سنة (١٩٢١ إلى سنة ١٩٥٨م) خلال تصديها للانتداب البريطاني على العراق، وموقف مراجعها الكبار كل من: سماحة المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني، وسماحة المرجع الشيخ محمد حسين النائيني، وسماحة المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي خريج حوزة النجف الأشرف وغيرهم من المراجع والمجتهدين وكبار العلماء في قضية الرافض المطلق لتشكيل الجمعية التأسيسية تحت الانتداب البريطاني، بل وحرمة المشاركة في التصويت على عضوية تلك الجمعية التأسيسية التي أنيط بها مهمة التصديق على الاتفاقية العراقية البريطانية، ووضع دستور للعراق، وسنّ أنظمة انتخابات لمجلس النواب العراقي في ظل الانتداب البريطاني على العراق.

أما الفصل العاشر المعنون بـ(بعض من مظهرات الطائفية السياسية في العهد الملكي (١٩٢١-١٩٥٨م) فتناول بالاستهجان والغضب التشكيك بأصالة وعروبة شيعة العراق ووطنيتهم والتمييز الواضح ضد تمثيل الأغلبية الشيعية في السلطة التنفيذية والجيش والقبول في الكلية العسكرية وفي مجال الإدارة من قبيل قلّة متصرفي الأولوية والقائم مقامين ومدراء النواحي من الشيعة والتمييز في التعليم والبعثات وفي مجالي الصحة والعمران ومشاريع البنى التحتية بل حتى في السلطة التشريعية تلك السلطة التي من المفروض أن تمثل أبناء العراق في الانتخابات. مع ذكر لما قام به الشيعة وكبار ممثليهم من رفض واحتجاج وثورة على هذا التهميش والتمييز والفرقة بين أبناء الشعب الواحد في مناصب الدولة الواحدة.

أمّا الفصل الحادي عشر فقد استعرض (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في الربع الثالث من القرن الرابع عشر الهجري، متمثلاً بالتصدي للطائفية السياسية من خلال مذكرة الهيئة العامة للشيعة وميثاق النجف الأشرف والثورات الشيعية المحتجة) وقد حمل عبء المهمة الكبيرة مرجعها سماحة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الذي وقف على تفاصيل مطالب الشيعة ضد ظلم وهضم وتهميش وتعتدي الحكومات الملكية المتعاقبة على حقوق الشيعة، وذلك بإصداره لـ(ميثاق النجف الأشرف).

أمّا الفصل الثاني عشر فقد تناول بالبحث: (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري. مقاومة الطائفية السياسية والتهميش والظلم ضد الشيعة في العهد الجمهوري. مرجعية الإمام الحكيم) مبيناً ما قامت به المرجعية الدينية العليا بزعامة الإمام السيد محسن الحكيم خلال حقبة العهد الجمهوري وما قبله من دور مهم ضد سياسة الاستبداد والطائفية

والتسفير والظلم والقتل والخروج عن قيم الإسلام ومبادئه الحقّة على صعيدي الوطن والمواطن وغير ذلك، وما ألهمته مرجعيته العليا وأذرعها وارتداداتها من وعي جماهيري كبير في عقول وقلوب ومشاعر الأغلبية الشيعية للمطالبة بحقوقهم المغتصبة من خلال التعبير عن هويتهم الدينية والسياسية والاجتماعية وأمثالها.

أما الفصل الثالث عشر المتناول لـ (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري وامتداداته وفجائعه العابرة لقرنه من خلال مقاومة الطائفية السياسية والتهميش والظلم والتسفير ضد الشيعة في العهد الجمهوري. مرجعية الإمام الخوئي) فقد وقف سماحته على ما تعرضت له الحوزة العلمية وعموم الشيعة من ظلم وقهر وتشريد وتهجير وقتل على الهوية وإبادة جماعية وقصف للعتبات المقدسة وهتك لحرمة المدن الشيعية واستباحتها تحت شعار (لا شيعة بعد اليوم) مع بيان لموقف سماحته الداعم للانتفاضة الشعبانية.

أما الفصل الرابع عشر فقد تركّز بحثه على: (الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة السياسية العراقية في الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري من خلال مقاومة الطائفية السياسية والتهميش والظلم ضد الشيعة في العهد الجمهوري. مرجعية الشهيد الصدر الأول) متناولاً موقفه المبدئي ومواقف العديد من كبار العلماء والقوى الشيعية الناهضة لهذه الطائفية المقيتة إضافة لاعتقال أكبر أسرة علمية حوزوية وإعدام العديد من علمائها، متطرقاً إلى ما عانته المرجعية وما ابتلي به شيعة أهل البيت (عليه السلام) خلال هذه المدة من مصاعب ومصائب ومجازر ومقابر جماعية وإعدامات واعتقالات بالجملة في حقبة زمنية مليئة بالفواجع والمواجه والمعاناة والآلام والحروب والويلات.

في حين تناول الفصل الخامس عشر والأخير بعضاً من مظهرات الطائفية السياسية ضد الشيعة في العهد الجمهوري، واقفاً على بعضها ومحلياً بعضها التفصيلي الآخر لما تقدم خلال الفصول الثلاثة السابقة وذلك تجنباً للتكرار. أما وقد انتهت بي الديباجة إلى إلقاء الضوء على ما تضمّنته الفصول المتقدم ذكرها من أدوار نظرية وعملية، فقد ختمت فصول الكتاب بخاتمة مختصرة وملحق.

وإذا كان لي وأنا أضع اللمسات الأخيرة على ديباجة كتابي التاسع هذا فإنه ليحسن بي أن أضع أمام أنظار القراء الكرام ما قد يلقي ضوءاً على قسم من أسباب ما استعرضته فصوله العديدة متجلياً بما ذكره مسؤول أجنبي كبير في هذا الجانب. لقد تناول مسؤول بريطاني في تلخيصه لأثر تصدّي الشيعة عسكرياً ومادياً وتعبوياً بدافع ديني ووطني للاحتلال البريطاني للعراق وبخاصة في ثورة العشرين فكتب يقول: "إنّ للأجيال اللاحقة من سياسة العراق (السنة) أن يقدّروا الجميل الذي يدينون به للبريطانيين في إنقاذهم من النجف (الشيعة)". وإن أدّى ذلك إلى تسليط أقلية طائفية على رقاب أغلبية ساحقة مارست في حكمها ما يتطلب إدانة دولية باعتبارها جرائم ضد الإنسانية، أو قد تصل إلى جرائم إبادة جماعية، لم يدركها على حقيقتها البشعة إلا المصطلون بنارها طيلة عقود وعقود.

هذا وقد انتهى الباحث العراقي المعاصر د. عباس كاظم إلى أن "جذر مشكلة دولة العراق الحديثة، كما يبدو، هو حكم الأقلية السنية المفروض من البريطانيين على الأغلبية الشيعية، وهو نظام سياسي ظلّ قائماً لعقود بالقمع والعنف المتكرر، واستخدام الجيش العراقي ضد العراقيين لضمان بقاء هذا النظام الاستبدادي، وإخضاع المعارضين خلال جميع الأنظمة في القرن العشرين" ٢. رغم أن الشيعة

يشكّلون الأغلبية السكانية في العراق ليس الآن بل منذ الاحتلال البريطاني للعراق قبل أكثر من مائة عام.

فقد أشار الإحصاء السكاني الذي أجرته الإدارة البريطانية عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) إلى أن "الأقلية العربية السنية... كانت نسبتهم لمجموع سكان العراق حوالي (١٩٪)، والشيعة (٥٥٪)، ونسبة الأكراد (١٨٪)، أما مجموع الشعب آنذاك فقد كان ٢٦٤٣٠٠٠ نسمة"^(١).

ولئن أوصل الباحث المتقدم ذكره تبعات جذر المشكلة العراقية إلى نهاية القرن العشرين، فإني أراها ممتدة إلى العقدين الأول والثاني ونصف العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين الذي قطع شهوره الأخيرة حالياً، وستستمر هذه التبعات كما أحمّن حتى يأذن الله بانتهائها متى ما غيرنا ما بأنفسنا، وفق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢). فتلك سنة كونية. وما مآسي وويلات ما بعد سقوط النظام البائد في سنة (٢٠٠٣م) - وآخرها، وليس آخرها، تصنيع وتسويق المنظمات الإرهابية وإمدادها بالرجال والمال والسلاح وكل القضايا والمستلزمات اللوجستية الأخرى ومنها: (القاعدة في بلاد الرافدين)، الوهابية الفكر والممارسة، ثم (داعش) الوهابية السلفية التكفيرية الإرهابية - إلا امتداد لجذر المشكلة الطائفية نفسه.

أرجو أن ينهض الواعون من الشيعة سواء أكانوا حوزويين أم سياسيين أم مثقفين، أم جماهير، أم منظمات مجتمع مدني أم منصفين من غيرهم أم مطلعين على حقيقة ما جرى في الماضي ضد هذه الطائفة المقهورة مما مسطور بعضه في هذا

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين: ٣٨. نقلاً عن (الشيعة والدولة القومية في العراق) حسن العلوي: ٣ - ٣٨.

(٢) سورة الرعد. الآية ١١.

الكتاب وغيره بما يحفظ للغالبية الشيعية المظلومة في العراق والمنطقة حقوقها المهضومة بتطبيق العدل والمساواة في الحقوق والواجبات والإنصاف على الجميع. ولا يسعني وأنا أختتم ديباجتي هذه إلا أن أتقدم بالشكر والامتنان لسماحة الشيخ عبد المهدي الكربلائي (حفظه الله) المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المطهرة على تفضّله بطلب تولّي إصدار هذه الموسوعة بكتبها الإثني عشر كتاباً كتاباً حتى إذا اكتملت طُبعت كموسوعة كاملة.

كما أشكر مؤسسة (رواد) على الاهتمام بطباعة هذه الكتب ومنها هذا الكتاب، لتضاف هذه الكتب إلى مشاريعها العملية في مجال الإدارة الحديثة. والشكر موصول للجامعات والكليات والمكتبات العامة والخاصة ومنها: مكتبة الإمام الحكيم العامة والعتبة العباسية المقدسة ومؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث والمكتبة الرقمية وجميع الأساتذة والباحثين الكرام الذين تفضّلوا عليّ فأعاروني بعض كتبهم النادرة.

أسأل الله ﷻ أن يتقبل عملي بقبوله الحسن الجميل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (١).

والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على رسوله وآل بيته الطيبين الطاهرين، وسلّم تسليماً كثيراً.

عبد المحمودي الشير محمد نقيّ الحلي

النجف الأشرف. العراق

رجب المرجب ١٤٤٦هـ/كانون الثاني ٢٠٢٥م



الفصل الأول

مدخل تأسيسي

المعاملة الطائفية التكفيرية لشيعة العراق
من قبل المحتلّين العثمانيين: سلاطين،
وولاة، وشيوخ إسلام



من أجل تأصيل التعامل التكفيري الطائفي للعثمانيين تجاه شيعة العراق، ونتيجة لاتباع حكام العراق اللاحقين لهم من محتلين إنجليز أو ملكيين أو جمهوريين لسياستهم العدائية لشيعة العراق يحسن بي أن أُلَمَّ إماماً كافياً يجلي حقيقة ما جرى ويلقي الضوء على الجذور الأولى لهذه السياسة التمييزية ضد شيعة العراق مغطاة بفتاوى تكفيرية وتطبيقات عملية تنفيذية عليها من قبل السلاطين والولاة والحكام والمسؤولين.

ذلك أنه منذ أن غزت الدولة العثمانية العراق عام (١٥٤٠هـ/ ١٥٣٤م) في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، كانت ترى الشيعة أعداء ألداء، بل كفاراً، نتيجة لصدور فتاوى دينية من شيوخ إسلامهم وكبار علمائهم بتكفير الشيعة واستباحة دمائهم وأعراضهم وممتلكاتهم.

وفيما يأتي نماذج من تلك الفتاوى مع العمل بها من قبل سلاطينهم ضد الشيعة.

١ نماذج من فتاوى شيوخ الإسلام العثمانيين بتكفير الشيعة

لقد تم استحصال باكورة تلك الفتاوى المكفرة للشيعة من قبل أويس رئيس إحدى القبائل الأفغانية خلال سفره إلى الحج سنة (١١١٨ هـ / ١٧٠٧ م)، مستغلاً فرصة وجود علماء أحناف في الموسم فاستفتاهم، وهو حنفي المذهب في "أمر قتال العجم ونهب أموالهم وسبي نسائهم وأطفالهم، فأفتوه كلهم بذلك إلا الفقيه عبد الكريم السندي فإنه امتنع عن مثل هذه الفتوى"^(١).

وحين عاد أويس إلى أفغانستان شنّ غارات على الصفويين الشيعة فاستطاع سنة (١١٢١ هـ / ١٧٠٩ م) من الاستيلاء على قندهار. ولمّا توفي أويس سنة (١١٢٧ هـ / ١٧١٥ م)، وخلفه ابنه محمود واصل حربه ضد الشيعة الصفويين حتى استطاع سنة (١١١٧ هـ / ١٧٢٢ م) من احتلال أصفهان عاصمة الصفويين، وأسر الشاه حسين آخر ملوكهم، ثم أقام وليمة دعا إليها ثلاثمائة من أعيان أصفهان، فذبحهم، ثم قرر ذبح مائتين من أطفالهم بعد ذلك، ولم تبرّد كل تلك الدماء سخونة شهوته للدم الشيوعي فعمد إلى ذبح ثلاثة آلاف من الجنود الإيرانيين الذين ناصرهم بدعوى أنهم ما داموا خانوا ملكهم الصفوي فسيخونونه لاحقاً، وهكذا استمر يقتل ويقتل خمسة عشر يوماً حتى سالت الدماء أنهاراً، وكادت أصفهان أن تفرغ من أهلها. وهو ما "كشف إسرافه في الفتك منذ هذا الوقت حتى تاريخ موته في (١٧١٠ هـ / ١٧٢٥ م) عن كونه رجلاً مجنوناً"^(٢).

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي: ٩٩ / ١.

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ١٦١.

وقد نحنا شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ابن كمال باشا منحى من سبقه من علمائهم فأصدر فتوى بتكفير الشيعة جاء فيها ما نصّه: "نحن لا نشك في كفرهم وارتدادهم، وأن ديارهم دار حرب، وأن نكاح ذكورهم وإنائهم باطل بالاتفاق... وما ذبحه واحد منهم يصير ميتة... وأما رجالهم فواجب قتلهم، إلّا إذا أسلموا... ويجب أن يعلم أيضاً أن جهادهم كان فرض عين على جميع أهل الإسلام الذين كانوا قادرين على قتالهم"^(١).

كما أصدر ابن أبي السعود أفندي العمادي صاحب التفسير الشهير فتوى مشابهة بتكفير الشيعة^(٢).

ومثلها ما أفتى به الشيخ أبو الثناء محمود الآلوسي مفتي بغداد "وكان شديد التعصب على الشيعة، مصرّاً على محوهم من الأرض وإتلافهم، ولعله بلغتك (رسالته) التي حلّ فيها دماءهم وأموالهم"^(٣)، ولعل الشيخ يقصد بالرسالة الوارد ذكرها في كتابته، هي رسالة الآلوسي المسماة: (الرسالة اللاهوتية في رد أمهات مسائل الإمامية) وللآلوسي غيرها أيضاً من قبيل (النفحات القدسية في الرد على الإمامية).

ولم ينته الأمر بعلمائهم عند هذا الحد من التكفير، بل زاد الشيخ نوح الحنفي مفتي البلاط العثماني على ما تقدم حين أفتى ليس بتكفير الشيعة فحسب، بل

(١) رسالة في إكفار قزلباش (أي الشيعة) ضمن مجموعة بمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة برقم ٢٥٩٧، ٤٨٦

ب-٤٨٧. وينظر: شيخ الإسلام ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية. د. سيد باغجوان: ٥٧.

(٢) ينظر: شيخ الإسلام ابن كمال باشا وآراؤه الاعتقادية. د. سيد باغجوان: الباب الأول: ٥٧. دار الكتب العلمية. بيروت لبنان. ٢٠٠٢م.

(٣) نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري للشيخ عباس كاشف الغطاء. مطبوعة ضمن كتاب (العقبات العنبرية في الطبقات الجعفرية): ٣٣٨.

بعدم قبول توبة من تاب منهم أيضاً بقوله: "يجب قتل هؤلاء الأشرار الكفار تابوا، أو لم يتوبوا"^(١).

٢ نماذج تطبيقية لعمل الحكام العثمانيين بفتاوى تكفير الشيعة

لقد عمل سلاطين العثمانيين بفتاوى تكفير الشيعة ويأتي في مقدمة هؤلاء السلاطين، السلطان سليم "الذي أطلق عليه لقب (ياوز) ومعناه (البطّاش) فاتخذ من نفسه زعيماً لأهل السنة، واستحصل على فتوى تعتبر الشيعة خارجين على الدين الإسلامي وأن الواجب يقضي بمحاربتهم وقتلهم"^(٢).

فمن ذلك ما ورد في كتاب (تاريخ كتاب الدولة العلية العثمانية) قوله: "أمر السلطان سليم بحصر عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد العجم بطريقة سرية، ثم أمر بقتلهم جميعاً، فقتلوا، ويقال إن عددهم كان يبلغ نحو أربعين ألفاً"^(٣).

وإذا كان د. محمد فريد وجدي قد ذكر المجزرة دون الوقوف على تفاصيلها، فإن د. الوردى وقف على تفاصيل مجزرة السلطان سليم ضد الشيعة الذين يعتبرهم "مارقين عن الإسلام" باعتباره "حامي السنة".

ومن أجل القيام بمجزرته تلك فقد "نظّم السلطان نمطاً من الشرطة السرية وأرسل أفرادها في شتى أرجاء البلاد العثمانية الآسيوية منها والأوروبية بغية إحصاء عدد الشيعة فيها، وقد تبين له أن عددهم يناهز السبعين ألفاً بين

(١) تنظر: العقود الدرية في تنقيح فتاوى الحامدية. ابن عابدين: ٩٤ / ١ - ٩٦.

(٢) دراسة في طبيعة المجتمع العراق. د. علي الوردى: ١٢٩ نقلاً عن: البلاد العربية والدولة العثمانية. ساطع الحصري: ١٣ - ١٦.

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية. محمد فريد بك: الطبعة الأولى: ٥٣. ينظر أيضاً: الخلافة العثمانية. ٢٥٣.

رجل وامرأة وطفل، وبعد أن تأكد من عددهم ومبلغ تركزهم في الأماكن المختلفة أرسل جنوداً إلى تلك الأماكن بنسبة عددهم، ثم أوعز إلى أولئك الجنود أن يلقي كل واحد منهم القبض على من بقربه من الشيعة في وقت معين. وتم عندئذ قتل أربعين ألفاً من الشيعة، بينما أودع الباقون في السجن المؤبد^(١).

ويؤكد هذه الحقيقة الباحث لونكريك متحدثاً عن سياسة السلطان العثماني سليم وكيف أنه: "خلد الأشهر الأولى من حكمه بالذبح المتقن لجميع الشيعة أينما وجدوا"^(٢). ذلك أن الإمبراطورية العثمانية "لا بد لها من التوسع أكثر فأكثر من أجل أن يحصل السلطان على مجد أعظم، ونشر الديانة الحقّة، وملء الخزينة"^(٣). ويعني الكاتب ب(نشر الديانة الحقّة) للعثمانيين، أي (نشر السنّة الحنفيّة الحقّة)، مقابل (القضاء أو تحجيم الشيعة غير الحقّة).

أسوق هذه المقدمة لما لها من علاقة بسلاطين العثمانيين وولاتهم على العراق، فقد كتب والي بغداد العثماني حسن باشا، رسالة للقائد الأفغاني مير محمود الذي احتل أصفهان وارتكب المجازر الدموية البشعة فيها، يسأله عن دوافعه التي دعت له لعل ما فعل بشيعة إيران، فأجابه القائد الأفغاني مير محمود: "بأنه رأى من واجبه الديني وحميته الإسلامية أن يطهر البلاد من الكفرة الفسقة الذين عاثوا في الأرض فساداً (...)"، وأنه من الموالين للدولة العثمانية، ويستمدّ منها العون لشدّ أزره في سبيل المحافظة على شعائر الدين الإسلامي، وإزالة الكفر والفسوق من بين المسلمين"^(٤) مطباً - في جوابه على رسالة والي بغداد العثماني حسن باشا -

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٤٥ / ١.

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق. الحديث. ستيفت هيمسلي لونكريك. ترجمة جعفر الخياط: ٣٣.

(٣) أربعة قرون من تاريخ العراق. الحديث. ستيفت هيمسلي لونكريك. ترجمة جعفر الخياط: ٤٣.

(٤) دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء. رسول حاوي الكركوكلي: ١٦.

بمدح الدولة العثمانية، وإطراء مواقفها أحسن إطراء.

ثم في سنة (١١١٣هـ / ١٧٠١م) أصدر مفتي اسطنبول الشيخ عبد الله فتوى تدعو إلى الجهاد في سبيل محاربة (الروافض) وإزالة البدع، وشدد أزر القائد الأفغاني مير محمود في "جهاده ومناصرة أتباعه وعساكره" وخلاصة الفتوى أنه: "لما كان الروافض المقيمون في إيران منذ عهد إسماعيل الصفوي قد عاثوا في الأرض فساداً... فإن بلادهم تعتبر ديار حرب، وتطبق عليهم أحكام الشريعة فيما يختص بالمرتدين، وتجب محاربتهم، وتطهير البلاد منهم، وقد استحصل شيخ الإسلام فتويين آخرين من علماء الدين بهذا الصدد"^(١).

ومما زاد الطين بلة على العراق والعراقيين، ذلك الخلاف الدموي العنيف الذي نشأ بين الإيرانيين الصفويين الذين يزعمون أنهم حماة شيعة العراق، والعثمانيين الذين يزعمون أنهم حماة سنة العراق، فكلما اشتد الخلاف السياسي المذهبي بين الدولتين المتخاصمتين انعكست ويلات طائفياً على العراق، حرباً إثر حرب، وبلاءً إثر بلاء، واحتلالاً دموياً إثر احتلال.

بهذه الخلفية الطائفية التكفيرية حكمت الدولة العثمانية العراق ذا الغالبية الشيعية الكبيرة. يقول الباحث حنا بطاطو: "قبل قرابة ألف سنة خلت، كان أبو بكر الخوارزمي (...) قد حسد شعب العراق لأنه -كما قال- "يوجد بينهم مقاما أمير المؤمنين والحسين، سيد الشهداء... ولأن الشيعة (بين أشياء أخرى) عراقية"^(٢).

(١) دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء. سابق: ١٧. وينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٠٢/١ - ١٠٤.

(٢) العراق. الكتاب الأول. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية: ٥٩ - ٦٠. وينظر: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. ستيفت هيمسلي لونكريك: ٤٤. وغيرهما كثير.

٣ موقف العثمانيين وقادة جيوشهم من شيعة العراق

سعى العثمانيون المحتلون للعراق إلى استخدام أساليب مختلفة في حربهم ضد شيعة العراق، تنوعت أشكالها بحسب الظروف المتاحة إلى اعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية بل أكثر، وعدّهم أقلية معادية على الرغم من أكثريتهم العددية، إلى وضع العراقيين أمام تقدمهم وتحسن أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلى منعهم من تولي المناصب العليا في الشؤون السياسية والإدارية والعسكرية والقضائية، إلى قمع حرياتهم في ممارسة عقائدهم الدينية، إلى حظر إحياء مراسمهم الدينية العاشورائية بشكل عام، إلى التضييق عليهم ما أمكن للحيلولة بينهم وبين التقدم العلمي من خلال وضع العراقيين أمام قبولهم في المدارس والمعاهد والجامعات، إلى غير ذلك من شؤون الحياة المختلفة، وصولاً إلى أشدها ضراوة وهو ما سعى إليه ولاتهم ضد شيعة العراق تطبيقاً منهم لفتاوى التكفير فاستحلّوا دماءهم وأودعوه في غياهب السجن وانتهكوا حرمتهم بشن الحروب والهجمات على مدنها وقراها وعشائرها وبخاصة في وسط وجنوب العراق، ولم يكتفوا بذلك بل أقدموا على استباحة مدنها المقدسة بعد اقتحامها من قبل الجيش العثماني الغازي، وتقتيل أهلها وهتك حرمتهم والتمثيل بجثثهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، مصحوبة هذه الهجمات البربرية بمنح الجنود والضباط المحتلين للمدن الشيعية الإذن العام والحرية المطلقة بقتل الأنفس وهتك الأعراض وسلب الأموال وتدنيس المقدسات، إلى غير ذلك من الجرائم والانتهاكات والتعديات التي تخالف أبسط القيم والأخلاق والأصول والأعراف الإنسانية والدولية، وسأضرب لكل أمر مما تقدّم مثلاً أو شاهداً أو توثيقاً تاريخياً، باختصار.

٤ اعتبار العثمانيين شيعة العراق أقلية معادية

أما عدّ العثمانيين الشيعة في العراق - وهم الغالبية العظمى من مواطنيه - أقلية معادية، ووضع العراقيين أمام تقدمهم الدراسي والعلمي والحضاري فكان واضحاً جلياً، فمثلاً في "ولاية بغداد كانت هناك (٧١) مدرسة ابتدائية، ومدرسة ثانوية، ودار معلمين، ومدرسة للحقوق، وأخرى للصناعة. وبقيت تلك المدارس ممنوعة على الشيعة حتى مجيء الاحتلال البريطاني.

وقد أشارت إلى ذلك مس بيل خلال إعادة افتتاح دار المعلمين التي ضمت (٨١) طالباً كان من بينهم بضعة من الشبان الشيعة، ذاكراً أن هذه ظاهرة لم يكن لها وجود أيام الترك^(١).

لقد استشعر كبار علماء النجف الأشراف أهمية دراسة أبناء الشيعة في المدارس الحديثة بعد احتلال العراق من قبل الإنكليز وذلك سداً للحاجة الكبيرة، فقد جاء جواب المجتهد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبى عن سؤال وجهه إليه بعض من وجوه شيعة بغداد عن "أمر المدارس الحديثة هل هي حلال أم حرام. فكان جواب المجتهد السيد الحبوبى: إنها ضرورية للشيعة فضلاً عن كونها حلالاً، ثم تبني الحبوبى الفكرة، وذهب إلى بغداد، فنزل في ضيافة الحاج داود والد الحاج سلمان أبو التمن، وهناك دعا إليه وجهاء الشيعة وأخذ يحرضهم على ضرورة فتح المدرسة، وجاء لهم بالأدلة العقلية والنقلية في الرد على من يقول بتحريمها"^(٢).

وعندما "قررت الهيئة التأسيسية لمدرسة الجعفرية تقديم عريضة لوالي بغداد

(١) ينظر: وضع الشيعة تحت الحكم العثماني. د. صلاح عبد الرزاق. بيروت نيوز عربية. ١/ ٧/ ٢٠٢٠.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣/ ٢٦٤.

بتاريخ (السادس من شهر شوال سنة ١٣٢٦هـ) يطلبون الإذن بفتح المدرسة... امتنع في أول الأمر، ولكنه بعد جهد ومشقة وافق على فتح المدرسة، وبخاصة بعد أن علم أنه لا يوجد أي جعفري في المدارس الحكومية.

ويذكر الأستاذ علي آل بازركان أنه عمل على إقناع الوالي بوسائل مختلفة. ويقدر القارئ أهمية فتح المدرسة الجعفرية إذا علم أن الفرقة الجعفرية وهي تؤلف الأكثرية في العراق كان يحظر عليها في الدور السابق الاستبدادي القيام بأمر المكاتب العمومية الجعفرية فكانت تقتصر على المدارس البسيطة في النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية حيث كان يدرس علم الفقه وبعض العلوم الدينية واللغة العربية لا غير^(١).

وحين فتحت المدرسة الجعفرية أبوابها في بغداد كانت "أول مدرسة حديثة للشيعة في العراق باسم مكتب الترقّي الجعفري العثماني"^(٢).

ويوثق ذلك أيضاً السياسي العراقي، السنّي المذهب، كامل الجادرجي ذلك بقوله: "كانت الطائفة الشيعية تعدّ في زمن السلطان عبد الحميد وبالحقيقة في زمن الدولة العثمانية أقلية تنظر إليها الدولة بعين العداء، فلم تفسح لها مجالات التقدم في أية ناحية من نواحي الحياة العامة".

ويضيف: "ومن الأمثلة البارزة على ذلك أنها كانت لا تقبل لها تلميذاً في المدرسة الحربية، ولا يقبل منها فرد في وظائف الدولة، إلّا ما ندر، وعند الضرورة

(١) الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. د. عبد الله فياض: ٨٤ وما بعدها.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣/ ٢٦٤. نقلاً عن الوقائع الحقيقية لعلي آل بازركان: ٤٥ - ٥٠. وينظر نص البيان المعنون (جواب الاستفتاء من الجعفرين) المنشور في جريدة الرقيب بتاريخ ٥ نيسان ١٩٠٩ م وجاء فيه "إن أساطين العلماء الأعلام المجتهدين في النجف وكربلاء دفعوا للشبهة الواقعة في أذهان الجلهة قد كتبوا العموم الجعفرية يحثونهم ويشوقونهم... وذكروا أن ذلك من أفضل الأعمال الخيرية".

القصوى، وحتى في مدارس الدولة الإعدادية القليلة، كانت توضع العراقيل في طريق دخول أبناء الطائفة فيها... لأن الدولة كانت لا تعتبر هذه الطائفة جزءاً منها"^(١).

ومن طريف هذا الأمر قصة ذكرها المرحوم الوزير السابق عبد الكريم الأزري عن الوزير نوري فتاح باشا (وكلاهما من وزراء العهد الملكي) خلال لقاء جمعهما صدفة في عمان، أن نوري فتاح باشا قصّ عليه كيف تحولت أسرته الشيعية التركمانية التي كانت تسكن قرية تسعين في كركوك - وكل سكان قرية تسعين شيعة - إلى أسرة سنّية حنفية المذهب، بعد أن رغب جده الذي تربطه بمتصرف كركوك حينها علاقة خاصة بأن يدخل ابنه فتاح باشا (المدرسة الرشدية) ليصبح ضابطاً، فأجابه المتصرف بأن الدخول في المدرسة الرشدية محظور على الشيعة مطلقاً، وأن السبيل الوحيد لذلك هو أن يستبدل مذهبه الشيعي الجعفري بالمذهب السني الحنفي، وذلك بأن يذهب إلى المحكمة، ويسجل فيها استبدال مذهبه، ويؤكد التخلي عن المذهب الجعفري بشهادة من المحكمة يأتي بها إلى مدير المدرسة الرشدية، وعندها سيستطيع المتصرف مساعدته. وهكذا كان له تحقيق ما أراد، فقبل ابنه في المدرسة الرشدية العسكرية، وأصبح بعد ذلك ضابطاً، وتدرّج في الرتب العسكرية والمناصب الحكومية حتى وصل إلى ما وصل إليه لاحقاً بتقلده المنصب الوزاري^(٢).

يذكر أن مدحت باشا الإصلاحية المشيع بالأفكار الليبرالية الغربية - بحسب قول حسن العلوي - : "لم يستطع أن يتجاوز العرف العثماني التقليدي في عدم قبول

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين: ٣٣. نقلاً عن: من أوراق كامل الجادرجي. طبعة بيروت: ٨٦.

(٢) مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: ٣٤٦. وينظر: وينظر: الطائفية في العهد العثماني. د. عبد الخالق حسين. الحوار المتعدد. نشرة إلكترونية. العدد: ٣٠٥٧ في ٨/٧/٢٠١٠.

العراقيين الشيعة في المدارس العسكرية التي كان قد أنشأها لأول مرة في بغداد، وكان القبول فيها مفتوحاً لغير الشيعة من الطلاب المتخرجين في الكتاتيب"^(١).
لقد كان من نتائج السياسة التمييزية الطائفية في المؤسسة العسكرية أن أصبح كبار قادة الجيش العراقي سنّة، يقودون جيشاً جنوده وأفراده وصغار متسبيه شيعة، فمنذ الاحتلال العثماني للعراق، إلى الاحتلال الإنكليزي له، إلى العهد الملكي، إلى العهد الجمهوري، حتى سقوط النظام البائد في العراق سنة (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) وهو ما شاهدناه وعاصرناه وذقنا مرارته، وذاقها الشيعة المستضعفون المهمّشون كان "الضباط سنّة، أمّا الأفراد الذين يقودهم هؤلاء الضباط فكانوا يؤخذون في أكثريتهم من العشائر الزراعية الشيعية في الجنوب"^(٢).
وعلى الرغم من ذلك فقد نفّذ السلطان العثماني عبد الحميد إجراءات عملية سنة (١٣٠٨هـ/ ١٨٩١م) منها إصداره تعليمات إلى الصدر الأعظم بنقل جنود في بغداد، يتممون إلى الطائفة الشيعية، إلى جيوش أخرى، والمحافظة على وجود الجنود السنّة وحدهم فقط في بغداد^(٣).

حظر دخول الشيعة لأجهزة الدولة التشريعية والتنفيذية والقضائية

أمّا التمثيل السياسي للشيعة زمن الاحتلال العثماني فكان شبه معدوم، فلو أخذنا تمثيل العراق في (مجلس المبعوثان) العثماني الذي هو بمثابة مجلس نواب

(١) الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. حسن العلوي: ١٧١ - ١٧٢.

(٢) العراق. الكتاب الأول. حنا بطاطو: ٦٧.

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني وموقفه من الشيعة. عبد العزيز بن صالح المحمود. الرائد. سلسلة إلكترونية شهرية متخصصة بشؤون الفرق من منظور أهل السنة. العدد ١٢٠ ١٤٣٤.

ينتخبه الشعب لتمثيله، لرأينا أن مجموع الفائزين المنتخبين من العراقيين في الدورات الانتخابية (١٣٢٦ و ١٣٣٠ هـ/ ١٩٠٨ و ١٩١٢ م) كان سبعة وثلاثين عضواً، كلهم من السنة، وفيهم من اليهود والمسيحيين، ما عدا عضواً واحداً شيعياً فقط^(١).

وفي الجهاز التنفيذي شابه تمثيل الشيعة فيه تمثيلهم في الجهاز التشريعي المتقدم، فقد "التزمت النخبة الحاكمة في العراق العثماني بالتسنن... وشغل الشركس والأتراك السنة المناصب العليا في الحكومة"^(٢) دون الشيعة في الأعم الأغلب.

وأما في الجهاز القضائي فقد كان القضاة يعملون وفق ما يقتضيه المذهب السني الحنفي حتى في المدن الشيعية المقدسة، فمثلاً تم "تعيين قاضي سني في كربلاء، منسجماً مع ما يرتئيه القاضي السني في بغداد، فقد تولّى القضاة السنة النظر بجميع الدعاوى القضائية، بل حتى في حالات شملت وجود طرفين من الشيعة في كربلاء، وعلى نحو مماثل عينت الحكومة واعظاً سنياً لأداء الخطب بعد صلاة الجمعة، وإزجاء البركات على السلطان العثماني"^(٣)، وكذلك في المدن الأخرى أيضاً.

يقول الوزير السابق في العهد الملكي عبد الكريم الأزري: "لقد كانت الحكومة العثمانية حكومة طائفية متحيّزة ومضطهدة للشيعة الجعفرين - فأوقفت بحكم ولايتها على أموال الدولة - على المؤسسات الدينية والخيرية والثقافية

(١) ينظر: حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر (١٨٣ - ١٩١٨ م). د. علاء الدين السيد محمد تقي الحكيم. رسالة دكتوراه غير مطبوعة. المبحث الرابع.... نقلاً عن نشأة الدولة (١٩٠٨ - ١٩٢١) غسان العطية: ١٣.

(٢) العثمانيون و شيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣. خوان كول وموجان مومن: دراسة وترجمة د. نهار محمد نوري ١٨٤٣: ٦٨ - ٦٩.

(٣) العثمانيون و شيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣: ١١٨.

السنيّة من جوامع ومساجد وتكايا وميآتم ومدارس وغير ذلك قسماً غير قليل من الأملاك العقارية والأراضي الزراعية وغيرها التي تعود ملكيتها للدولة وهذه كما تعلم تؤلّف القسم الأكبر من الأوقاف التي تديرها مديرية الأوقاف العامة... وقد حرمت الأكثرية الشيعية العربية من جميع هذه الأوقاف حرماناً تاماً^(١).

ولم يكتفِ العثمانيون بذلك بل زادوا عليه بأن كانت تصرف أموال الوقف الشيعي -إلا ما قلّ ونذر- على جهات ومؤسسات دينية سنيّة، فهناك وثائق تدلّ على أن إيرادات الأراضي الموقوفة بشكل عام كانت تُصرف لصالح المدارس الدينية السنية وعلمائها، ذلك أن "السلطات التركية كانت من الناحية العملية لا تعترف بأهلية أيّة جهة من الجهات بتملك الأملاك الحقيقية غير دائرة الأوقاف التي تدين بالمذهب العثماني الرسمي، وهو المذهب السنيّ... وكان ما يفعله الأتراك اعتيادياً أن يتجاهلوا الغرض المذكور في مضبطة الوقف... ويجب أن يكون مفهوماً أن دائرة الأوقاف في زمن الترك كان يديرها السنّة لفائدة السنّة بالكلية تقريباً"^(٢)، فمثلاً بعد احتلال السلطان مراد لبغداد سنة (١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م) وإعلانه العفو العام "رُسم للمفتي يحيى أن يعيد بناء قبة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وأوقفت لها أوقاف كثيرة معظمها من أملاك الشيعة لتنفق على إدامتها"^(٣).

كما "كان الإمام السنيّ الذين الذي كثيراً ما كان يقتصر المصلون وراءه على

(١) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزرعي: ٣١.

(٢) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ٢٧-٢٨ و ٣٢.

(٣) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٩٨.

الموظفين الموجودين محلياً فقط، يتقاضى راتباً كاملاً من الأوقاف بينما كان يترتب على الإمام الشيعي الذي يتألف تابعوه من سكان القرية بأجمعها أن يعتمد في معيشتة على الصدقة العابرة، وعلى الرغم من المبالغ الطائلة التي كانت تستحصل من رسوم الدفنية فإن مخصصات قليلة جداً كانت تخصص لتوفير العتبات الكبرى في النجف و كربلاء والكاظمية وسامراء وتنظيفها وكانت الرواتب التي تدفع في هذا الشأن تقل في مستواها بكثير عما كان يدفع منها في الجوامع السنية، ولم يكن استياء الناس في المناطق الشيعية من تقاضي السنة لرسوم الدفنية على جنازات الشيعة المتدينين الذين تنقل رفاتهم إلى المدافن الموجودة في إحدى العتبات المقدسة يعزى لأسباب مالية فقط، وإنما كانت الظلامة الحالية ذات تأثير ممض فيهم^(١).

هذا ما كان من تعامل العثمانيين الطائفي مع شيعة العراق في الأجهزة التشريعية والتنفيذية والقضائية ناهيك عن حظر دخولهم للمدارس، والوظائف، والمناصب، والمؤسسات العسكرية، والأمنية، وأضرارها.

"لقد كان من نتائج هذا الظلم الصارخ أنه لم يكن بين الضباط العسكريين في الجيش العثماني ولا ضباط عسكري شيعي واحد كما لم يكن يوجد في الجهاز الإداري المدني لتلك الحكومة ولا موظف مدني شيعي واحد. وعندما انهارت الإمبراطورية العثمانية في سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) إثر الحرب العالمية الأولى لم يكن يوجد على حد علمي في جميع الأجهزة الحكومية العسكرية والمدنية التي خلفتها تلك الإمبراطورية وراءها في العراق ولا ضباط شيعي واحد ولا موظف مدني شيعي واحد"^(٢).

(١) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ٣٢.

(٢) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ٤٢.

٦ حرمان الشيعة من حقهم في توزيع أراضي الدولة

لقد مارس العثمانيون سياسة طائفية في توزيع الأراضي الزراعية على سكان العراق حتى باتت سياسة مستحكمة ليس في المناطق التي يسكنها الشيعة والسنة فحسب بل حتى في المناطق الشيعية أو ذات الغالبية الشيعية في جنوب العراق ووسطه، فقد كان ملاك الإقطاعيات الكبيرة في غالبيتهم من السنة، وغالبية فلاحيها من الشيعة.

ونظراً لاعتماد مبدأ الولاء في التوزيع فقد كان الحاكم العثماني يخصّ القبائل السنّة الموالية للسلطان العثماني ببيع أراضي الحكومة مقابل مبالغ زهيدة واستمر الوضع هكذا مدة الاحتلال البريطاني للعراق.

وقد عرف أن سبب "عزوف الأتراك عن تملك الأراضي في الجزء الجنوبي من العراق كان منبعثاً عن نزعة طائفية".

ذلك أن "الأغوات الأكراد في الشمال، والمستفيدين العرب من الطابو في الموصل... حصلوا على مساحات واسعة من الأرض كملك صرف... أما العشائر والشيوخ في الجنوب فقد خرجوا صفر اليدين من نظام الطابو"^(١).

وكان نتيجة تلك السياسية التمييزية الإقصائية بعد انتهاء احتلال الدولة العثمانية للعراق أن "كان الملاكون الأكثر نفوذاً في لواء البصرة في تلك الأيام -وباستثناء واحد فقط- من السنّة، بينما كان مزارعو بساتين نخيلهم في أكثرية الساحة من الشيعة.. وكان زعماء المجتمع العربي في مدينة البصرة نفسها من السنّة أيضاً،

(١) ثورة ١٩٢٠ الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق د.

بينما كانت أكثرية سكان المدينة من الشيعة، وفي مدن أخرى عديدة في الجنوب... كان العنصر السني الذي شكّل أقلية دائماً متفوقاً اجتماعياً، وكان يتألف إلى حدّ كبير من التجار وملاك الأراضي الأغنياء... وأيضاً في لواء المتفق كان كل الفلاحين بلا استثناء من الشيعة، في حين أن الكثير من أسيادهم ملاك الأراضي كان من عائلة عشائرية سنّية واحدة، وهي عائلة السعدون، وكذلك الأمر في منطقة الحلة حيث كان هزّاع بن محيّد الشيخ الكبير للمعامرة - وهي من فروع التحالف الزبيدي - سنّياً مع أن مزارعيه العشائريين كانوا شيعة في أكثريتهم العددية. وفي بغداد أيضاً، حيث تمتعت الطائفتان بالمساواة العددية كانت العائلات المسيطرة اجتماعياً سنّية مع بعض الاستثناءات^(١).

ويؤكد الباحثان خوان كول وموجان مومن هيمنة السنة على الأراضي الشاسعة حتى في الجنوب الشيعي بقولهم "وكان معظم المتحكمين المحليين بالعقارات الريفية الكبيرة من العرب السنة، وغالباً ما هيمن الأعيان السنّة حتى في الجنوب الذي امتاز بالأغلبية الشيعية باستثناء المناطق المحيطة بالمدن المقدسة"^(٢).

قمع الحريات الدينية للشيعة

وأما بالنسبة لقمع الحريات الدينية لشيعة العراق فمن الواضح حرص علماء شيعة العراق، بل وشاهات إيران وبخاصة نادر شاه، على جمع كلمة المسلمين شيعة وسنة وإزالة كل أسباب الفرقة بينهما وقد تمثل ذلك بالتحديد خلال مسعى نادر شاه لجمع كلمة المسلمين في مؤتمر النجف (سنة ١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) إلى

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٦٥ - ٦٦.

(٢) العثمانيون وشيعة العراق. سابق: ٦٩.

التقريب بين المذاهب الإسلامية، والاعتراف بالمذهب الجعفري كمذهب إسلامي خامس، إلا أن العثمانيين تبعاً لفتاوى علمائهم التكفيرية المتقدمة كانوا يرفضون ذلك باستمرار.

بل زادوا على ذلك حين سعوا إلى الحيلولة بين العراقيين واتخاذهم التشيع مذهباً لهم ما أمكن، ففي سنة (١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م) سعى السلطان العثماني عبد الحميد إلى إعداد دراسة جادة عن الشيعة واتخاذ تدابير مختلفة لمنعهم من التشيع، كما أرسل السلطان لجان رسمية لدراسة هذا الأمر، وطلب من المسؤولين المحليين كتابة تقارير مفصلة حول هذا الموضوع. وقبل ذلك كان العثمانيون يمنعون الزوار الإيرانيين والشيعة في بغداد عام (١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م) من إقامة الأذان في عهد الوالي محمد نامق باشا، كما تعدى أمر منع الأذان إلى منع الكتب الشيعية من الدخول إلى الممالك العثمانية كافة، ففي وثيقة غير منشورة صادرة من القنصلية التجارية العثمانية في كرمانشاه المؤرخة في (٢٥ شوال ١٣١١هـ / ١ مايس ١٨٩٤م) طالبت الوثيقة بمنع دخول كتاب (الدرة النجفية) لمؤلفه محمد باقر الهمداني في جميع الممالك العثمانية، وليس للعراق فقط، لأنه مخالف لاعتقادات أهل السنة^(١)، كما منعوا إقامة مجالس التعزية، وإخراج المواكب الحسينية، وغيرها لأكثر من قرنين من حكم العثمانيين للعراق.

أما في زمن الوالي داود باشا، فقد "كان أكثر من غيره تضيقاً عليها، حتى قيل أن شيعة بغداد في زمانه كانوا يقيمون مجالس التعزية في السرايب، ويجعلون امرأة تدير الرحي في صحن الدار لكي لا يسمع المارة في الشارع صوت من في

(١) حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر (١٨٣ - ١٩١٨م). د. علاء الدين السيد محمد تقي الحكيم. رسالة دكتوراه غير مطبوعة. المبحث الرابع.

المجلس" ^(١)، وبعد لأيٍ سمح الوالي علي رضا باشا -وكان بكتاشي العقيدة- بإقامتها في بغداد.

ولم يكن أمر التضييق الحادّ على إحياء ذكرى عاشوراء مقتصرًا على بغداد وحدها، ولا في حكم داود باشا وحده، بل شمل أمر التضييق مدن العراق كلها في كثير من الحقب، فمثلاً كان المماليك يمنعون إقامة المراسم الحسينية ^(٢)، كما كانت المجالس الحسينية بعد مجزرة نجيب باشا بكر بلاء "تمارس على نحو سري للغاية" ^(٣) خوفاً من بطش السلطة الحاكمة.

ونتيجة للضغط الطائفي الشديد من قبل العثمانيين على الشيعة بعد استباحة نجيب باشا لكربلاء سنة (١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م) كما سيأتي: "شرع رجال الدين الشيعة... بممارسة التقية، وألغوا من ناحية أخرى إقامة صلوات الجمعة الجماعية. كما توقف الشيعة عن أداء الصلاة التي تؤدي بوضع أيديهم نحو الأسفل، وتظاهروا بأنهم متوافقون مع وجهة النظر السنّة الطقوسية" ^(٤) أي إنهم من شدة خوفهم وقلقهم من العثمانيين بات الشيعة يتكفّفون بوضع اليد فوق الأخرى أثناء أداء الصلوات، خوفاً من إسبال أيديهم وفق فتاوى فقهاءهم، فيعرفون بكونهم شيعة فيضطهدون.

وكيف لا يلغي الشيعة الصلوات الجماعية، وبخاصة في الأماكن العامة كالصحن الشريف، وهم يرون بأم أعينهم كيف "حولت القوات التركية باحة ضريح العباس

(١) لمحات من تاريخ العراق الحديث: ١٠٩/٢. وينظر: العراق. الكتاب الأول. حنا بطاطو: ٦٢.

(٢) ينظر: حركة التجديد في الحوزة العلمية إبان الحكم العثماني المباشر. علاء الدين محمد تقي الحكيم: ١٨٥.

(٣) العثمانيون وشيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣. خوان كول وموجان مومن: ١١٩.

(٤) العثمانيون وشيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣. خوان كول وموجان مومن: دراسة وترجمة د. نهار

إلى حظيرة للشكنة العسكرية، وربطت الحيوانات فيها، فضلاً عن قيام الجنود الفضّين بغناء أغاني منحلّة بهدف ترويع الشيعة^(١) خلال ولاية نجيب باشا.

ويؤكد ستيفت هيمسلي لونكريك شدة التعصب والتعنّت الطائفي للعثمانيين ضد شيعة العراق بقوله: "كان الحكم في المدن سلفياً، إن لم يكن تقهقرياً"^(٢).

ويحلل د. علي الوردي مظاهر انحطاط الدولة العثمانية فيذهب إلى أن "كثرة رجال الدين فيها وشدة سيطرتهم على شؤونها"^(٣) هي من أسباب هذا الانحطاط. وينقل في المبحث نفسه عن ساطع الحصري المعروف بطائفية قوله عن علماء السنة بأن: "عددهم يزداد، وتأثيرهم يشتد على مرور السنين، ولكنهم في الوقت نفسه كان مستواهم العلمي يتردّى بصورة سريعة، فصارت تنتشر بينهم ضروب التعصب، وتنتقل منهم إلى الناس، وتستولي حتى على عقول الحكام والسلاطين".

أما مس بيل فكتبت عن تعامل الأتراك مع الشيعة في الفرات^(٤) تقول إن الشيعة عند الأتراك من "بين الذين يريد الله إهلاكهم"^(٥).

سعي العثمانيين لتسنيّن شيعة العراق، وتغيير تركيبة سكان النجف الديموغرافية

لقد عمد السلطان عبد الحميد إلى مسعى آخر مخالف ومختلف وخطر، بعد أن ازداد قلقه وانزعاجه من كثرة الشيعة في العراق، ما دفع القصر إلى الشروع سنة (١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م) بدراسة جادة للحدّ منه، وانتهى إلى أن استعمال القسوة المفرطة

(١) العثمانيون وشيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣. خوان كول و موجان مومن: ١١٨.

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق. الحديث. سابق: ٦٥.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٩٠ / ١.

(٤) تقصد في محافظات الفرات الأوسط، وفي مقدمتها عادة النجف الأشرف وكربلاء المقدسة.

(٥) فصول من تاريخ العراق القريب. سابق: ٩٨.

مع الشيعة لتغيير مذهبهم لا جدوى منها، وأن الإكراه بالقوة لم يحقق -على الرغم من بشاعة وسائله الدموية- الغرض المطلوب، ولأنه كان من المستحيل تغيير حياة الناس والمعتقدات بالشدة والبطش، كما أن العنف لا يضمن سيطرة السنة في العراق إلا لبعض الوقت، وليس دائماً، لذلك فقد قدّم مستشارو القصر وخبرائه اقتراحاً للسلطان عبد الحميد يتضمن اتخاذ الثقافة والدراسة والتعليم طريقاً إلى تحويل شيعة العراق إلى سنة أحناف، وذلك بإرسال عدد من شباب البلدات والمدن الشيعية من شتّى أرجاء العراق، وفي مقدمتها بغداد والبصرة وكرلاء والنجف إلى الأزهر الشريف، وفتح معهد لهم فيه لتدريسهم وتعليمهم كل ما يؤدّي إلى تغيير مذهبهم الشيعي، وتحويلهم إلى سنة أحناف، مع إغداق الأموال والهبات عليهم خلال مدة دراستهم وإعدادهم، وبعد تخرجهم أيضاً، عندما يكونون مؤهلين لتغيير عقيدة أبناء مدنهم الشيعية بما فيها المدن المقدسة من شيعة جعفرية إلى سنة حنفيّة، وشيئاً فشيئاً من خلال هذه القناة التعليمية سيستطيع طلابها الشيعة المتسنّنين الذين باتوا أساتذة فقهاء -وفق قناعة مقدمي الاقتراح- أن يتغلبوا على المجتهدين الشيعة علمياً، من الذين يدعون الناس إلى "الاعتقاد بالخرافات" كما يقول التقرير، فينقاد شيعة العراق حينئذ إليهم، ويتخلّون عن اتّباع فقهاءهم ومراجعهم ومجتهديهم، ويتحوّلون إلى سنة أحناف. ومن خلال هذه القناة سيتم ازدياد عدد هذا النوع من العلماء المتسنّنين، وشيئاً فشيئاً سيستشر التسنّن في العراق أكثر فأكثر، وينحسر الشيع.

ومن أجل إقناع السلطان عبد الحميد بالمقترح فقد استشهد له بأنموذج مشابه وهو ما اعتمده المبشرون الأمريكيون بتدريسهم بعض الشباب الأرمن العقيدة البروتستانتية، وبعد تخرجهم تبعهم الكنيسة البروتستانتية كمبشرين ومعلمين للمجتمع الأرمني من أجل تغيير عقيدتهم من الأرمنية إلى البروتستانتية.

لقد أقنع مستشارو السلطان عبد الحميد سلطانهم بالمقترح باستثناء نقطة واحدة، فبدلاً من إرسال الطلبة إلى مصر التي تعد كمركز معارضة محتملة للخلافة العثمانية، قرر السلطان إنشاء مدرسة للطلاب العراقيين في اسطنبول يكون التدريس فيها باللغة العربية مع رواتب مجزية للأساتذة والطلبة حتى بعد تخرجهم وعودتهم إلى العراق.

وفعلاً تمّ تبني هذه الوسيلة التبشيرية فاخترت والي بغداد عشرة طلاب من بغداد وكربلاء وأرسلوا إلى اسطنبول، ثم ألحقوا بمزيد من الطلاب من البصرة، غير أنه خلافاً للتوقعات عاد ستة منهم إلى العراق نادمين، وتم تعيين من حصلوا على شهادات تخرجهم من مدرستهم السنية مدرسين وخطباء بأمر من السلطان في بغداد^(١).

وربما جاء تعيين الشيخ محمد أسد أقا السني المذهب مدرّساً في النجف وكربلاء وسامراء والكاظمية كما جاء في وثيقة عثمانية لهذا الغرض، وفي وثيقة أخرى تم منح راتب مجزٍ للشيخ محمد أفندي الخطيب والواعظ المعين في المسجد الحيدري في النجف لقيامه بواجبه بشكل أفضل.

ومن ذلك أيضاً إقامة مدرستين في سامراء سنة (١٣١٥ هـ/ ١٨٩٨ م) لتعليم المسلمين في الجنوب وتحسينهم من شبهات علماء الشيعة وإرسال العلماء إلى البصرة والمنتفق وكربلاء لتنظيم التربية العثمانية ومواجهة الفكر الشيعي^(٢).

(١) ينظر: موضوع (السياسة العثمانية تجاه الشيعة في العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر). موقع ارشيف الدولة العثمانية على الفيس بوك في ١٣ نوفمبر ٢٠١٣ م، وكذلك موضوع: (السلطان عبد الحميد الثاني وموقفه من الشيعة وإيران). عبد العزيز بن صالح المحمود، الرائد. سلسلة إلكترونية شهرية متخصصة بشؤون الفرق من منظور أهل السنة. العدد ١٢٠ جمادى الآخرة ١٤٣٤ هـ. دراسات. www.alrased.net.

(٢) حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر. سابق ١٩٢: نقلاً عن عتبات عاليات عرش درجات (فارسي). علي موجاني ٢٠٢-٢٠٣.

ومن طريف ما ورد في هذا الأمر ما نقله الشيخ علي الشرقي أحد وزراء العهد الملكي عن لقاء جمعه بالمنتفق مع السيد إبراهيم الحيدري شيخ الإسلام السابق في الأستانة أيام حكم العثمانيين. يقول الشيخ الشرقي: "قال لي السيد -يقصد شيخ الإسلام السيد إبراهيم الحيدري- (كنت شيخ الإسلام في الأستانة فوجدت في سجلات المشيخة أن المشيخة كانت ترسل المرشدين إلى الديوانية في العراق لإرشاد أهلها إلى التعاليم الإسلامية لأنهم فرس وديانتهم الوثنية الفارسية). ويسألني السيد إبراهيم شيخ الإسلام وأحد أعضاء مجلس الأعيان العراقي وابنه أحد وزراء الحكومة العراقية، يسألني عن الديوانية وأهلها فأقول له: إن الديوانية إحدى مدن خزاة في الفرات الأوسط، وخرزاة أهم قبيلة عربية ومن صميم العرب وهي من أمهات القبائل الإسلامية وفيهم يقول النبي العربي: لا نصرني الله إن لم أنصر خزاة.. فمتى كانت خزاة من الفرس؟ ولكنها تلفيقات أترك تعربوا أو عرب تتركوا لأنهم نشؤوا مع غير قومهم. إن أولئك الأغراب في النشأة أو المدرسة شوّها الوضع العراقي في عصرنا وقبل عصرنا"^(١).

بل ذهب العثمانيون إلى أبعد من ذلك حين سعوا في محاولة خطيرة منهم إلى تغيير ديموغرافي في تركيبة سكان النجف من خلال إسكان قبائل حجازية سنية فيها، تجلب من السعودية تحت غطاء رعاية وحماية ودعم الدولة العثمانية^(٢).

(١) الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ٢٢٦.

(٢) حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر (١٨٣-١٩١٨م). د. علاء الدين السيد محمد تقي الحكيم. رسالة دكتوراه غير مطبوعة. المبحث الرابع. ٢٠. نقلاً عن تاريخ قراموش شده. علي موجاني باسازي. فارسي: ٢٩٥.

نماذج متنوعة لحروب إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية شنها العثمانيون على شيعة العراق

٩

وإذا كان لي أن أضرب نماذج على لجوء السلاطين والولاة العثمانيين إلى شنّ حروب إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية على مواطني العراق الشيعة رجالاً ونساءً وأطفالاً مدنيين وغير مدنيين، فستبرز أمامي حروب إبادة جماعية عديدة، لا يسع مجال هذا البحث لاستيعابها، لذا سأقتصر على ذكر أربعة نماذج مختلفة من هذه الحروب الدموية وكما يأتي:

أولها: أنموذج لشن حرب إبادة جماعية عثمانية ذات خلفية تكفيرية أو طائفية على مدينة شيعية مقدسة وهي كربلاء، **وثانيها:** أنموذج لشن حرب إبادة جماعية عثمانية بخلفية تكفيرية أو طائفية على مدينة شيعية كبيرة وهي الحلة، **وثالثها:** أنموذج لشن حرب إبادة جماعية عثمانية ذات خلفية تكفيرية أو طائفية ضد شيعة بغداد العاصمة وساكنيها وزوارها، **ورابعها:** أنموذج لشن حرب إبادة جماعية عثمانية بخلفية تكفيرية أو طائفية على عشيرة شيعية كبيرة.

وسأترك ما سوى ذلك من حروب الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية الأخرى التي ارتكبتها بحق شيعة العراق بخلفية تكفيرية أو طائفية إلى أبحاث أخرى، مبتدئاً بذكر أنموذج لحرب إبادة جماعية عثمانية بخلفية تكفيرية أو طائفية على مدينة كربلاء المقدسة واستباحتها لأيام كما يأتي:

(أ) أنموذج لحرب إبادة جماعية عثمانية وجرائم ضد الإنسانية بخلفية تكفيرية أو طائفية بحق مدينة شيعية مقدسة وهي (كربلاء)

لقد دأب العثمانيون على شن حروب إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية ذات خلفية تكفيرية أو طائفية على المدن العراقية المقدسة، لأسباب مختلفة، متخذة من

تلك الأسباب ذريعة لانتقام تكفيري أو طائفي وقد سبق فيما تقدم ذكر فتاوى علمائهم في تكفير الشيعة وتطبيقات سلاطينهم لتلك الفتاوى بما يندى له جبين الإنسانية.

يقول المؤرخ والشاعر والخطيب الكبير الشيخ محمد علي اليعقوبي في ورقة من أوراقه المخطوطة قائلاً: "وجدت في نسخة قديمة مخطوطة أن الحكومة العثمانية كانت قد وجهت جيشاً عظيماً إلى النجف الأشرف في حدود سنة ١٢٠٠ هجرية -١٧٨٦م- أي قبل مائة وخمسين سنة لكي تفتك بالأهلين المجاورين وأوصوهم أن ينالوا من المرقد الشريف، مؤاخذه لهم بما ارتكبه نادر شاه حين فتح بعض الولايات العثمانية فلما وصلوا قرب النجف جعل الله كيدهم في نحورهم... وقد أشار لهذه الحادثة المرحوم الشيخ خضر شلال في مزاره فليراجع، وقد روى هذه القصة تفصيلاً العالم الجليل الشيخ جواد نجف عن والده الشيخ حسين عن السيد سليمان الحلي الذي هو جد السيد سليمان والد السيد حيدر الشاعر الحلي الشهير طاب ثراه"^(١).

وفي سنة (١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م) قاد صالح أغا الأندروني قوة كبيرة لإخماد انتفاضة النجف، وفي سنة (١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م) قاد سليمان ميراخور قوة فحاصر كربلاء حصاراً شديداً وفعل بهم الأفاعيل، وفي سنة (١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م) تحركت قوات تركية لاقتحام النجف وتمكنت" من إنزال العقاب بالبلدة، وكان كالذي أنزل بكربلاء من قبل، ولكنه أقل شراسة، وقد وقع مثل هذا الحادث في (١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م) عندما بعث نامق باشا ضابطاً من قبله فدخل البلدة

(١) من أوراق الشيخ محمد علي اليعقوبي. مركز النجف الأشرف للتأليف والتوثيق والنشر. النجف الأشرف. العراق.

قسراً^(١)، وغير ذلك من الهجمات الأخرى.

وربما تأتي في مقدمة المدن العراقية المقدسة التي شنَّ عليها العثمانيون واحدة من حروب الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية التي استحلَّت فيها دماء المؤمنين الأبرياء وهتكت فيه أعراض المؤمنين البريئات واستبيحت فيه ودنست المراقد المقدسة وخرّبت وهدمت فيها البيوت والممتلكات وأمثال ذلك هي مدينة كربلاء المقدسة، لذلك وأمثاله فسأكتفي بذكر أنموذج واحد من هذه الهجمات الطائفية الوحشية ضد مدينة كربلاء المقدسة، تلك هي مجزرة الوالي نجيب باشا في (ذي الحجة ١٢٥٨ هـ/ كانون الثاني ١٨٤٣ م)، تلك المجزرة التي أرعبت دمويتها وهمجيتها بقدر ما أدمت قلوب ملايين المؤمنين.

لقد انتفضت كربلاء ضد العثمانيين طمعاً بالإدارة الذاتية، فقاد سعد الله باشا ومن خلفه قائده الوالي نجيب باشا هجوماً على مدينة أبي الأحرار كربلاء لإخضاعها، فلم يسفر هجومه عن شيء، فقرر نجيب باشا أن يتولى الأمر بنفسه فتوجه إلى المسيب قرب كربلاء، وبعث جيشاً بقيادة مصطفى باشا ليشنَّ عليها حرب إبادة جماعية وهو ضابط "فظّ غليظ القلب، جريء، فتّاك، ناصبي"^(٢) لاحتلالها، فبدأ أولاً بحصارها خمسة وعشرين يوماً حتى اضطر السكان إلى شرب المياه المالحّة من الآبار، والتقتير في استعمال الأرزاق، ثم أمر بقطع الأشجار والنخيل المحيط بالمدينة حتى لم يبق نخلة واحدة بين الجيش المحيط بكربلاء وسور المدينة، بعدها بدأت المدفعية بإطلاق قنابرها ففتحت ثغرة في سور كربلاء، ثم هداً الجانبان

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣٤٦.

(٢) نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري. الشيخ عباس كاشف الغطاء. منشور ضمن كتاب العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء: ٣٠٧.

بعد غروب الشمس لتوقي ليلة شديدة البرودة مع سوء التغذية، هدد خلالها ثمانية آلاف مقاتل عربي متطوع من أبناء العشائر، وقيل ألفان، بالانسحاب، وكانوا قدموا من خارج كربلاء من قبائل آل فتلة وبني حسن واليسار وآل زغبة وغيرهم ليحرسوا أبواب مدينة كربلاء، فأقنعهم الكربلائيون بالبقاء بين مدنيهم وظهرانيهم، محتفلين معهم حتى الفجر بحلول عيد الأضحى المبارك، مفترضين خطأ بأن العثمانيين سيحتفلون بهذه المناسبة الإسلامية أيضاً، فخاب ظنهم، ذلك أنه قبل بزوغ فجر يوم (١٣) كانون الثاني ١٨٤٣ م، المصادف لليوم الثاني من أيام عيد الأضحى المبارك من عام ١٢٥٨ هـ)، اقتحمت القوات العثمانية مدينة كربلاء المقدسة تحت غطاء كثيف من المدفعية الثقيلة، فاندفع المقاتلون العرب المتطوعون والمواطنون من مختلف الطبقات بمن فيهم الإيرانيون والجماعات الكربلائية المنظمة والحرفيون للدفاع عن المدينة المقدسة ضد الهجوم التركي، فلم يفلحوا لقلّة الذخيرة وكثرة أعداد المهاجمين وبربريتهم، فهرعوا للاحتباء بالعتبتين المقدستين وبالأماكن التي حددها نجيب باشا كملاجئ لهم تحت ستار كثيف من النيران التركية المتعصبة الهائجة، وحين سيطرت القوات العثمانية على المدينة أباحتها للجنود الفاتحين يفعلون بها ما يشاؤون "بلذة عارمة كما هي عادة الجنود الفاتحين في القرون الغابرة"^(١).

يقول الباحثان خوان كول وموجان مومن: "حينما طاردت القوات التركية العرب المتقهقرين إلى ضريح العباس تلقت إطلاقات نارية من المنارات، وحينذاك استسلم العثمانيون الهائجون لخوفهم وبدؤوا بتسديد وابل من النيران على الحشد الساعي لنيل الملاذ الآمن هناك، فضلاً عما سببته حالة الذعر في وفاة المزيد نتيجة السحق بالأقدام، ومارس الأتراك مظهراً عدوانياً حينما أقدموا على سلب حلي

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: تنظر تفاصيل الهجوم في: ١٢٠/٢ - ١٢١.

النساء وفي بعض الأحيان من خلال تقطيع الأطراف... وامتلات الشوارع المتاخمة لضريح العباس بالجثث المتعفنة التي سرعان ما قام الأتراك بإضرام النيران فيها من خلال استخدام النفط وتغطيتها بالبطنيات بهدف تأكيد عملية الإحراق وربما لقي ما يقارب (٢٥٠) فرداً حتفهم خلال هذه الحادثة، وذبح حوالي (٢٠٠) مدني في ضريح الإمام الحسين... وفي أثناء ذلك انتشرت القوات في الخارج لنهب منازل المدينة وعاثت قتلاً واغتصاباً فيها، وغالباً ما مارست هذه القوات ضغوطها في إجبار الملاكين على حمل ونقل البضائع المسروقة إلى المعسكر، وذكر الملا يوسف الاسترابادي أنه على الرغم من إصابته بجرح في رأسه إلا أنه أجبر على حمل المنهوبات إلى المعسكر، وكتب قائلاً: ألقى الموتى أحدهم فوق الآخر إلى الحد الذي لم أتمكن فيه من عبور الشارع إلا عن طريق المشي على الجثث كما لو أسيروا نحو عالم الغيب، حيث لقي الكثيرون الهلاك... وعند مبنى ضريح سيدنا أبي الفضل العباس لمحت كل شيء عند القبر المضيء حيث الأرواح القتيلة تتشبث فيه وتتوسل، تبحث عن مأوى وملجأ في داخله، فقد رأيت معظم الموتى في الأزقة والبازارات، وفي هذا الوقت أخذ فقهاء الشيعة وبقية الأعيان على عاتقهم مسؤولية دفن غالبية الجثث المحروقة بينما أخذت الكلاب تأكل الجثث في المقابر الجماعية، وحدثت في يومي (١٦ و ١٧ من يناير كانون الثاني) أعمال نهب إضافية في أثناء قيام القوات بالبحث عن الأسلحة في المنازل^(١).

وبعد انتهاء استباحة المدينة المقدسة بهذه الطريقة البشعة توجه الملا الاسترابادي إلى ربه داعياً: "أيها الرب العظيم ما هذه المصيبة الكبرى، فقد شهدنا تجسيدا

(١) العثمانيون و شيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣: ١١٨.

ليوم القيامة"^(١)، ملقياً اللوم على السلطان عبد المجيد بسبب إصداره أمر هذا الهجوم الوحشي.

ثم ومن أجل الإحاطة بمدى وحشية الطائفية التكفيرية فسأستشهد بما قاله الشاعر الطائفي عبد الغفار الأخرس، يوم نظم قصيدة طويلة بعد انتهاء المذبحة "يمدح بها نجيب باشا، ويذم بها أهل كربلاء ذمّاً قبيحاً، مشيراً إلى أن نجيب باشا (ضحّى) بالشيعة الكربلائين في العيد كما (تنحر الغنم).

وفيما يأتي أبيات نموذجية (كذا) من تلك القصيدة:
لقد خفقت في (النحر) ألوية النصر + وكان انمحاق الشر في ذلك (النحر) ومنها:

فلاذوا بقبر ابن النبي محمد + وقد سر في تدميرهم صاحب القبر
سيول دم القتل غداة أبادهم + تسيل بهاتيك الأزقة والجدر
ولا برحت أيامه الغر غرة + تضيء ضياء الشمس في طلعة الظهر
ولا زال في عيد جديد مؤرخاً + (فقد جاء يوم العيد بالفتح والنصر)"^(٢)
"ومدح شاعر آخر نجيب باشا لقيامه بالمذبحة قائلاً:

أحسين دنس دار مرقدك الألى + سموا (الروافض) وهو نعم المرقد
كم من وزير لم ينل تطهيرها + منهم فطهرها (النجيب محمد)"^(٣).
ويظهر في القصيدتين أعلاه النفس الطائفي التكفيري واضحاً جلياً.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تنظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٢/ ١٢٣ نقلاً عن موسوعة العتبات المقدسة. قسم كربلاء: ١/ ٢٣١-٢٣٣.

(٣) تنظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٢/ ١٢٣.

لقد لقيت إبادة نجيب باشا الجماعية لمدينة كربلاء المقدسة ترحيب السلطان العثماني وتثمينه لهذه المجزرة الوحشية، بحيث أنه في سنة (١٢٦٣/ ١٨٤٧ م) "أنعم السلطان على الوزير نجيب باشا بسيف مرصع ثمين لما قام به من خدمات، تلطيفاً له. أرسله مع أحد القرناء (الندماء) وهو راغب أغا"^(١).

هذا وقد اختلف المؤرخون في أعداد شهداء الإبادة الجماعية لمجزرة السفاح نجيب باشا لكربلاء الحسين وأخيه العباس عليهما السلام المؤرخة بـ (غدير دم)، فقد أوصلها بعضهم إلى أربعة وعشرين ألف شهيد، وأنزلها بعض آخر إلى أربعة آلاف شهيد، وتفاوتت أرقام الأعداد بينهما بين زيادة ونقصان. لذلك فإني أذهب إلى اعتماد رواية صاحب كتاب (نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري) كونها أكثر الروايات اعتباراً، لأسباب أهمها: أن راويها ينقلها عن شخص من أهالي كربلاء معروف له، بشهادة حيّة مباشرة، والراوي شخص مرتّب بحسب وصفه له، بحيث أنه ركن إليه فدوّن روايته في كتابه، وبخاصة أن الراوي لها مشترك اشتراكاً فعلياً في عملية دفن الشهداء مدة أسبوع أو أكثر، وهو متوجّه لإحصاء أعدادهم، كما قال، حتى أنه لم يكتف بحساب ما دفن وشاهد، بل يسأل حفّاري القبور عن أعداد الشهداء أيضاً. فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن الراوي من أهل المعرفة والوجاهة في كربلاء كما يبدو، كونه يخرج مع المسؤول الأول عن الروضة الحسينية المقدسة للتفتيش عن الشهداء في بيوت كربلاء وأزقتها وسرداب العتبة العباسية من جهة، وأنه ينقل الحادثة إلى نجل المرجع الأعلى مباشرة ليوثقها من جهة ثانية.

يقول الشيخ عباس نجل المرجع الشيخ حسن آل كاشف الغطاء (المتوفى

(١) تاريخ العراق بين احتلالين. عباس العزاوي: ٧٨/٧.

سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م): "حدثني من شهد الواقعة من المعبرين قال: لما أقفل العسكر أحصينا القتلى وسألنا الحفارين وتحققنا عن ذلك فكان ما يزيد على عشرين ألفاً من رجل وامرأة وصبي. وكان يوضع في القبر الأربعة والخمسة إلى العشرة فيمال عليهم التراب بلا غسل ولا كفن، وتفقدنا القتلى فوجدنا منهم كثيراً في الدور والآبار ومنهم في السرايب حتف أنفهم، ورأيت امرأة في البئر ميتة وابنها ملتقم ثديها وهما ميتان، والحاج مهدي^(١) معنا ندخل داراً داراً ونستخرج منها الموتى مقدار عشرين يوماً. وأعجب ما رأيت أن دخلنا في مرفوعة فيها (دالان) أظلم يزيد على عشرين ذراعاً لا يبصر فيه بالنهار مما يلي الجنوب ويحاذ دار النقيب. بعد خمسة أيام من الواقعة وكان فيه عدة رجال ونساء مختفين، ولم يصل العسكر إليهم فلما سمعوا أصواتنا حسبونا من الجند فزهق ثلاثة منهم وماتوا من ساعتهم خوفاً وغشي على الباقين، حتى إذا عرفونا رجع إليهم روعهم، وحمدوا الله على السلامة.

وحدثني أيضاً قال: وجدنا بالسرداب الذي تحت رواق سيدنا العباس من القتلى أكثر من ثلاثمائة^(٢).

(ب) أنموذج لحرب إبادة جماعية عثمانية وجرائم ضد الإنسانية ذات خلفيات تكفيرية أو طائفية بحق مدينة شيعية كبيرة هي (الحلة)

لقد وصل الضابط التركي عاكف بك سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) إلى مدينة الحلة يقود جيشاً في مسعى منه لتنفيذ قانون التجنيد في الحلة، فأرسل على المختارين والوجهاء وطلب منهم أن يسلموا الفارين من العسكرية خلال أربع وعشرين

(١) الحاج مهدي الشهير بكمكمة نائب من بيده مقاليد الحرم الحسيني.

(٢) نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري.. الشيخ عباس الشيخ حسن آل كاشف الغطاء: ٣٠٧ وما بعدها.

ساعة، وإلا فإن الحكومة ستنزّل أشد العقوبات بالهاريين، فعارضته جماهير المتظاهرين منهم، وهم كثر.

يقول مؤلف كتاب (تاريخ الحلة. القسم الأول. في الحياة السياسية) وهو معاصر للحدث وشاهد عليه: "لما جنّ علينا الليل ونام الناس وهدأت الأصوات، فرّق عاكف عسكره في طرقات الحلة وسورها ودوائر الحكومة وجعل بعضاً من الجنود على منارة الجامع الكبير... ولما أصبح الصباح... وأخبرت والذي بالذي رأيت فوضع يده على جبهته وقال: (لقد هلكنا)... وما هي إلا ثوان حتى صار أزيز الرصاص يشق الأذان واشتبك القتال بين أهل الحلة وعسكر عاكف المنتشر في الطرقات" (١).

غير أن بعض أهل الخير والحكمة اقترحوا عليه أن يستعين بجهود عالم الحلة المعروف السيد محمد القزويني فعمل برأيهم وحل سماحته المشكلة بسلام. إثر ذلك انسحب الضابط عاكف بجيشه عن الحلة وعسكر بسدة الهندية.

"وفي أوائل المحرم سنة (١٣٣٥هـ) أغار عاكف بك على الحلة من معسكره بسدة الهندية فخرج أهل الحلة بحريمهم وأطفالهم كي يودعوهم عند بعض العشائر من سكان ريف الحلة ثم يعودوا إلى بلدتهم يدافعون عنها. عسكر عاكف خارج الحلة وأرسل إلى زعمائها يطلب إليهم أن يسمحوا له بالمرور بالحلة والتزود منها ما يتطلبه جيشه من الأقوات، ثم يذهب بجيشه إلى جهة أخرى لمهمة عسكرية" (٢).

وحين صدّق الحليّون قوله وسمحوا له بدخول البلدة، وكان قد خرج منها

(١) تاريخ الحلة. القسم الأول. في الحياة السياسية. الشيخ يوسف كركوش الحلي: ١٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٦٨.

مقاتلوها من الشباب وغيرهم قاصدين عوائلهم خارج الحلة "أحاط الحلة بقواته ومنع الناس من الدخول إليها والخروج منها، ثم أذاع بياناً طلب فيه خروج أهل الحلة إلى خارج السور... ولما اكتملوا أحاطت بهم عساكر عاكف واستعرضوهم، وكان يوماً مشهوداً، وقد جزم كل من حضر الاجتماع أن عاكفاً سيبيدهم عن بكرة أبيهم لأنهم شاهدوا الجنود قد صوّبوا بنادقهم ومدافعهم نحوهم ينتظرون الإشارة لرمي الأهلين"^(١)، كما "أعلموا أنهم أصبحوا رهائن... وخطب فيهم عاكف بك قائد الحامية يذكرهم بالحوادث التي وقعت قبل سنة، ويبلغهم بأنه تلقى أمراً من القائد العام في العراق خليل باشا بمحو مدينة الحلة من الوجود، ولكنه حصر أعمال الشعب والفتنة في أربع محلات هي: محلات الطاق، وجبران، والجامعين، والوردية، ولذلك قرر أن يهدم هذه المحلات بالمدافع ويحرق بيوتها، وحين احتلت القوة المراكز المهمة في المدينة هاجموا أحياءها وهدموا بيوتها ثم نهبوا وأحرقوها وعمدوا إلى أسر النساء والأطفال فأخذوهم سبايا إلى الأناضول"^(٢) ونقل المحامي عباس العزاوي عن بلاغ عسكري أصدره قائد الفيلق السادس (خليل) في (٢٣ محرم ١٣٣٥هـ/ ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٦م) جاء فيه: "إن طائراتنا قصفت العصاة المجتمعين بين النخيل وألقت عليهم القنابل... والتأديبات مستمرة"^(٣)، وفي يوم (٢٠ محرم ١٣٣٥هـ/ ١٦ تشرين الثاني ١٩١٦م) "أرسل عاكف بك سرية من الجنود يحملون المعاول والمجارف والقنابل اليدوية، فشرعوا يفتحون أبواب الدور بالقوة ويحتلونها... واستمر تدمير الدور حتى يوم ١٩ تشرين الثاني... وبلغ

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ترجمة وتعليق د. جعفر الخياط: ٩٨. الهامش.

(٣) موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين. سابق: ٨/ ٣٥٢.

عدد القتلى من أهل الحلة الذين قتلوا أثناء القتال والمطاردة ألفاً وخمسمائة... وأمهل عاكف بك أهل الحلة مدة أربع وعشرين ساعة لتسليم سلاحهم، كما أمر بمصادرة أموال المتهمين الذين أدانتهم المحكمة فكان ما صودر من الحبوب ثلاثة آلاف طن، ولم تنتهِ أعمال التنكيل إلا في ٢٧ تشرين الثاني... أما الذين حكمت عليهم المحكمة بالنفي فقد سيقوا مشياً على الأقدام نحو الأناضول، وكان فيهم عدد من النساء والأطفال^(١).

أما يوسف كركوش الحلّي فيتحدث عن الجريمة المروعة، وما فعله عاكف باشا بالحلة "من الحرق والهدم والنهب والسلب والقتل والشنق، وخرّب فيها أربع محلات: الجامعين والطاق وجبران في الجانب الكبير منها، والوردية في الجانب الصغير... وكان عدد الذين شنقهم عاكف من أهل الحلة مائة وعشرين رجلاً، وكان كل من هؤلاء عندما يقدم إلى المشنقة يبتسم وتكون آخر كلمة يتفوه بها (أريد الحرية لأمتي، وأريد الاستقلال لبلادتي)، ونفى عاكف جماعات كبيرة من أهل الحلة إلى ديار بكر، بين هؤلاء أطفال وشيوخ وعجائز قاصداً بذلك التنكيل والتعذيب... فسيقوا كالأغنام مشياً على الأقدام مع الجوع والعري فمات بعضهم في الطريق من الإعياء والجوع والضرب المبرح"^(٢).

ويختلف محمد مهدي البصير عن يوسف كركوش فينقص في عدد المحلات المخربة في الحلة ويزيد من عدد المشنوقين بقوله: "كرّ عليها عاكف باشا وضربها بالمدافع وخرّب منها ثلاث محلات وشنق من أبنائها (١٢٦) رجلاً، بينهم رجال شديداً للإخلاص للحكومة، وواسعوا الجاه والثروة، وعدد من المساكين الأبرياء،

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٣٠٩ / ٤.

(٢) تاريخ الحلة. القسم الأول. في الحياة السياسية. الشيخ يوسف كركوش الحلّي: ١٧٠.

وهذا غير الذين قتلوا رمياً بالرصاص"^(١).

وعلى كِلا التقديرين فهي مجزرة ومذبحة مروّعة.

لقد وصف هذه المجزرة المروعة مؤرخ آخر معاصر لها بقوله لقد "صار الجيش يقتل كل من رآه امرأة أو رجلاً، شيخاً أو طفلاً، مسلحاً أو أعزلاً، وحتى الحيوانات قتلوها ومثلوا بها أبشع تمثيل، ونهبوا كل ما في الحلة دونما استثناء ومن الأعمال الفظيعة هتك ستر بعض من العائلات الشريفة المخدرة، ولم يكتفِ القائد بذلك بل حمل معه نساء كثيرات إلى مخيمه وأبقاهن مدّة عنده، وبعد ذلك جلبهن إلى بغداد فبقين أشهر عديدة هناك، ومن بغداد أعاد منهن من أعاد وأخذ منهن إلى بلاد الترك من أخذ ممّا لا يعلم أحد عنهن شيئاً حتى الآن"^(٢).

كل ذلك وأمثاله لم يوقف المرجع الأعلى في النجف الأشرف عن فتواه بالجهاد مع العثمانيين ضد الإنكليز بل جدّدها ثانية بدافع ديني هو نصرّة المسلمين ضد الإنكليز الأجانب المحتلين المعتدين على الرغم مما ارتكبه عاكف باشا وجيشه العثماني من مجزرة الحلة البشعة. وقد أشار إلى ذلك سماحة المجاهد الشيخ عبد الحسين مطر وكيل المرجع الأعلى في المنتفك والقائم على تعبئة المقاتلين لجبهات القتال وذلك برسائلته التي بعثها إلى المرجع الأعلى السيد اليزدي جاء فيها بعد السلام والدعاء: "خرجنا من النجف الأشرف بأمركم قاصدين نصرّة الدين والإسلام حتى إذا وصلنا لواء المنتفق، شوّقنا وهيّجنا عشائرنّا وبذلنا أنفسنا ونفيسنا وبقينا مواظبين على هذا العمل حتى وردتنا أخبار واقعة الحلة وحركة النجف التي شوشتنا وكدرتنا، بل أوجبت الشك في الدوام على عملنا وصرنا في

(١) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ١٠ / ١.

(٢) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتنازعها. فريق المزهّر آل فرعون: ٤٣.

ريب ووقفنا عن العمل بانتظار أمركم، وعشائركم تستفتينا فنقف عن الجواب تارة، ونحن وقوف عن العمل، والتبس علينا الأمر بانتظار أمركم وفتواكم^(١)، ويشير إلى هذه الرسالة الباحث د. عباس كاظم أيضاً في كتابه عن ثورة العشرين حين ذكر أن الشيخ عبد الحسين مطر أرسل رسالة من أرض المجزرة إلى سماحة المرجع الأعلى السيد اليزدي "مطالباً إياه بإصدار فتوى بصدد مذبحة الحلة ومبلغاً إياه عن الاضطراب الذي نجم عنها بين العشائر"^(٢).

ونظراً لقسوة ووحشية العثمانيين فقد "جمع الشيخ مبدر الفرعون أحد رؤساء الفتلة الرؤساء والأعيان في النجف الأشرف وألقى عليهم خطبة طويلة ندد فيها بسياسة الأتراك في العراق تقتطف منها ما يأتي: (انظروا إلى ما يفعله الأتراك بقضاء الحلة وهتك الأعراض المصونة... إن هذه الدولة تريد إخماءكم من البسيطة وتستبدل بكم من عنصرها التركي...) فهاج الحاضرون وصاروا كالبركان الثائر فصمموا على إحباط مساعي الأتراك وإعلان الثورة في جميع أنحاء الفرات الأوسط"^(٣).

(ت) أنموذج لحرب إبادة جماعية عثمانية وجرائم ضد الإنسانية بخلفية تكفيرية أو طائفية بحق شيعة بغداد وزوارها

لعل من أسوأ وأشد النماذج على استيلاء التعصب الطائفي الأعمى بل التكفيري ضد شيعة بغداد وزوارها هو ما فعله السلطان مراد بعد احتلاله لبغداد سنة (١٠٤٥ هـ / ١٦٣٨ م) حيث شن حرب إبادة جماعية ف"وضع السيف في الشيعة

(١) وضع الشيعة تحت الحكم العثماني. د. صلاح عبد الرزاق: بيروت نيوز عربية. ١/ ٧/ ٢٠٢٠م.

(٢) ثورة العشرين. د. عباس كاظم: ١٩. والصحيح أن الشيخ عبد الحسين مطر بعث رسالته أعلاه من (المنتفك) لا من (أرض المجزرة).

(٣) تاريخ الحلة. القسم الأول. في الحياة السياسية. الشيخ يوسف كركوش الحلي: ١٧٠-١٧١.

حتى قتل منهم على ما روى المؤرخون أكثر من عشرين ألفاً، وأمر بجمع كتب الشيعة فأحرقت، ثم توجه إلى الكاظمية لزيارة الإمامين عليه السلام وبينما هو في الطريق بلغه أن مخزن البارود في بغداد احترق وهدم دوراً كثيرة، فرجع إلى بغداد وأخذ يفتش عن فاعل الجريمة فاتهم أربعمئة من التجار جاؤوا للإتجار فأمر السلطان بقتلهم فقتلوا صبراً^(١) كما أمر السلطان مراد "بذبح جميع الإيرانيين أينما وجدوا، وكان الكثير منهم قد التجأ إلى المعسكر العثماني، فقتل الجميع، وكان بين المقتولين ثلاثمائة زائر كانوا قد عبروا في تلك الأيام لزيارة الكاظمين، وجيء بألف من الأسرى التاعسين (كذا) بين يدي السلطان فأمر بقطع رؤوسهم، فقطعت في الحال، ولم يترك أي إيراني حياً، لا في المعسكر، ولا في حواليه، ولا في المدينة نفسها".

ويضيف (ستيفن همسلي لونكر) بقوله: "ومن المحتمل أن هذه المذبحة لم يفرق فيها جيداً بين العرب والفرس؛ لأن عدد المقتولين كان عظيماً يقدر بثلاثين ألفاً، حسبما كتبه مؤرخو الباب العالي"^(٢).

وينقل د. علي الوردي عن المؤرخ كريسبي أن الذبح شمل سكان بغداد، وربما قصد الشيعة منهم^(٣).

يقول لونكر "وبهذا روت هذه المذبحة الأخيرة -مع ذبح عدة من رؤساء المدينة المشكوك في أمرهم- عطش السلطان الفاتح للدماء"^(٤) بشكل عام، ولدماء الشيعة بالأخص.

(١) تاريخ الحلة. القسم الأول. في الحياة السياسية. الشيخ يوسف كركوش الحلي: ١١٨ - ١١٩.

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق. الحديث. سابق ٩٨.

(٣) ينظر: (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث): ٨٤ / ١.

(٤) أربعة قرون من تاريخ العراق. الحديث. سابق ٩٨.

كما حدثت مجزرة أخرى للشيعة في بغداد بعد وفاة سليمان باشا الكبير سنة (١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م) نتيجة نزاع أولاده على الحكم فيما بينهم، وحين انتصر أحدهم: "شرع علي باشا يقتل الرافضة ويصادر أغنياءهم"^(١) في بغداد.

(ث) أنموذج لحرب إبادة جماعية عثمانية وجرائم ضد الإنسانية بخلفية تكفيرية أو طائفية بحق عشائر شيعية عراقية

لقد أورد الباحث المستر ستيفن هيمسلي لونكريك وصفاً لحرب إبادة جماعية وقعت في عهد السلطان العثماني مصطفى الثاني ضد عشائر شيعية ما يصلح أن يكون أنموذجاً لبشاعة وهمجية ولا إنسانية حروهم ضد العشائر الشيعية.

فمذ صمّم السلطان مصطفى الثاني على شن معركة طاحنة ضد العشائر الشيعية جنوب الرماحية، اختار لقيادتها أحد العتاة من حكامه وقادة جيوشه الطغاة، فعهد بـ "هذا الواجب الشاق إلى دلتبان مصطفى باشا حاكم بغداد الحديث، العنيف الصارم، فجمعت القوة اللازمة، وانضمت القطعات الكردية إلى قوات التيمار الإقطاعية المرسلّة من نصف أيالات تركية الشرقية. ثم أنشئ أسطول من وسائل النقل النهرية من بيره جك، وعهدت قيادته إلى علي باشا الحاكم المرشح للبصرة، وأرسلت المدفعية الثقيلة على طريق النهر في دجلة إلى الجنوب، ثم سار الجيش ببطء مازاً بالحلة والحسكة إلى الرماحية. ولم يشهد العراق الجنوبي قوة عظيمة مثل هذه منذ جيل... ثم جرى الاشتباك مع جمهرة القبائل التي كانت ولا تزال معادية في جنوب الرماحية في أواخر كانون الأول (١٧٠١م/ ١١١٣هـ) فدحرت تماماً، وقد كونت رؤوس ألف من العصاة

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٢٠٢/١، نقلاً عن كتاب (غرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر) لياسين العمري: ٦٢-٦٣.

المقطوعة هرمًا كاملاً كالح اللون، وبقيت رابية أشلائهم ظاهرة للعيان بعد أربعين سنة^(١).

ومن أجل أن تتضح صورة اعتماد هذه المذبحة وأمثالها أنموذجاً ممثلاً لحروب إبادة جماعية شنتها الدولة العثمانية على العشائر الشيعية في العراق يحسن بي أن أشير إلى أن هذه المذبحة هي واحدة من مذابح عديدة ارتكبت في القرن (الثامن عشر)، وهناك قبلها الكثير، وبعدها أيضاً، وقد أحصى أحد الباحثين تحت عنوان (انتفاضات عشائر جنوب العراق في العهد العثماني) إلى أن العشائر في الوسط والجنوب قامت "بأكثر من خمسين تمرداً وخاضت أكثر من مائة معركة مع الدولة العثمانية"^(٢).

وإذا أخذنا القرن التاسع عشر وحده مثلاً، فقد شهدت مناطق الفرات الأوسط والجنوب سلسلة من المذابح والمعارك ضد العشائر الشيعية من قبيل: معركة المنتفق، ومعركة آل فتلة، ومعركة الغراف، ومعركة الخزاغل وخفاجة، ومعركة البو صالح، ومعركة زبيد، ومعركة عفج، ومعركة مدحت باشا في الدغارة، ومعركة شبلي باشا في الشامية وأبو صخير، ومعركة يوسف باشا في الغراف، ومعركة كعب، ومعارك بني لام العديدة، وغيرها^(٣).

بهذه الوحشية البربرية كان يتم شن حروب الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية ذات الخلفيات الطائفية التكفيرية على العشائر الشيعية المتفوضة في وسط وجنوب العراق.

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق. الحديث. ستيفت هيمسلي لونكريك. ترجمة جعفر الخياط: ١٥٢.

(٢) انتفاضات عشائر جنوب العراق. ميثاق خير الله جلود ١٩.

(٣) ينظر: وضع الشيعة تحت الحكم العثماني. د. صلاح عبد الرزاق. صحيفة بيروت نيوز عربية. ١/٧/٢٠٢٠ م.

موقف شيعة العراق من العثمانيين خلال الاحتلال الإنكليزي للعراق

على الرغم من كل تلك الفتاوى الطائفية التكفيرية لكبار علماء العثمانيين ضد الشيعة، ومذابح الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية لحكامهم بحق أتباع آل البيت في العراق، ومن أواخرها ما تقدم في مجزرة الحلبة الفيحاء، فقد خلف شيعة العراق تلك الفتاوى والمذابح وراء ظهورهم وهبوا للجهاد: مراجع، وعشائر، وأفراد مع العثمانيين ضد الإنكليز عندما احتلوا البصرة سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٤م)، ولم يكن جزاؤهم عن كل تلك المواقف والتضحيات الكبيرة إلا ما قاله قائدهم العسكري التركي أحمد بك أوراق أمام المجاهدين وجها لوجه بعد خسارة العثمانيين المعركة في الشعبية والبصرة لسوء إدارتهم للعمليات العسكرية ما نصه: "إننا لو فتحنا الشعبية والبصرة يبقى علينا واجب ثانٍ وهو فتح العراق، وخاصة الفرات أولاً، وعشائر شط دجلة ثانياً؛ لأنهم خونة. فأجابه الشيخ بدر الرميض رئيس بني مالك: أنتم الخونة للإسلام، وتحزبكم ضد العرب كافٍ لمصدق قولي، وأنتم بعد هذا أولى بالحرب والقتال ممن نحارب، ولولا فتوى علمائنا لما وجدتمونا في هذه الساحات التي نقاتل فيها"^(١).

هذا ويحسن بي أن أشير هنا وأنا أختتم الحديث عن العثمانيين وشيعة العراق إلى أن ما تقدم من مواقف ومذابح لا يعني أن الحكام العثمانيين من سلاطينهم إلى ولايتهم إلى قادة جيوشهم كانوا يعملون بفتاوى كبار علمائهم تجاه شيعة العراق طيلة مدة احتلالهم لبلاد الرافدين ذات الغالبية الشيعية الطاغية، فقد كانوا يغضون الطرف عن العمل بالفتاوى حيناً، ويستحضرونها ويعملون بها أحياناً،

(١) الحقائق الناصعة في الثورة العراقية لسنة ١٩٢٠ ونتائجها: ٤٠ / ١.

بحسب تشدد وتعصب الحاكم العثماني طائفيًا، وبحسب الظروف والمناسبات والأحوال، بل كانت السياسة، سياسة السلاطين والولاة والحكام العثمانيين هي التي تسير شيوخ الإسلام غالباً، حتى قيل: "إن شيوخ الإسلام كأنهم موكولون بتوجيه الفتاوى طبق رغبات السلاطين، مما جعلهم يميلون مع الأهواء تزلفاً للدولة ومماشاتها"^(١).

بيد أن السلاطين والولاة والحكام المتنفذين وإن حالت الأوضاع والمصالح بينهم وبين العمل بتلك الفتاوى التكفيرية المحرصة على القتل والتدمير ضد شيعة العراق، فإنهم يظلون يستبطنونها في خلفياتهم المذهبية والقومية، مما يزيد جورهم على شيعة العراق جوراً، وظلمهم، وبطشهم بهم بطشاً وتدميراً.

هذا ما يتعلق بوضع شيعة العراق أيام العثمانيين وقد خصصت له القسم الأكبر من هذا الفصل لأهمية استجلاء حقيقة ما عاناه شيعة العراق من جور العثمانيين النابع من فتاوى علمائهم التكفيرية للشيعة ثم تطبيقات سلاطينهم وولايتهم وحكامهم لتلك الفتاوى على الساحة العراقية.

ممارسة الطائفية السياسية من حكام العراق ملكيين

وجمهوريين بعد نهاية حكم العثمانيين باحتلال بريطانيا

للعراق وحتى الانتفاضة الشعبانية سنة ١٩٩١م

أما مواقف المحتلين الإنكليز من شيعة العراق ومواقف تابعيهم من حكام العهد الملكي والطائفيين من حكام الجمهوري فلم يختلف كثيراً عن موقف السلاطين والولاة العثمانيين من حيثية استمرار الظلم والعدوان والإقصاء الإبعاد والتهميش للشيعة واضحاً جلياً.

(١) تاريخ العراق بين احتلالين. عباس العزاوي: ٢٥٦/٥.

ولعل سبب تلك المواقف العدائية التي انتهجها المحتلون الإنكليز للعراق ضد شيعته يعود بداية إلى موقف المرجعية الدينية المعادي للاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) وإصدارهم فتاوى الجهاد ضد الغزاة الإنكليز وتجييشهم وقيادتهم لجيوش المجاهدين إلى سوح القتال والمنازلة مع الأتراك منذ أن وطئت أقدام المحتلين الإنكليز الأرض العراقية في البصرة الفيعاء وما جاورها. وإذ لم تستطع جيوش المجاهدين من كسب المعركة في جنوب العراق عاد مراجع الدين الشيعة فأصدروا فتاواهم بالجهاد ثانية لصد تقدم الإنكليز نحو بغداد. ولما لم تنجح جيوش العثمانيين والمجاهدين الشيعة من الانتصار في المعركة واحتل الإنكليز العراق كله عاد مراجع الدين الشيعة لإعلان الجهاد ضد الإنكليز في ثورة العشرين سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م) بفتواهم ضد الاحتلال البريطاني للعراق، كما سيأتي في الكتاب العاشر القادم من كتبي عن (الحوزة العلمية في النجف الأشرف).

ونتيجة لموقف شيعة العراق المناهض للاحتلال البريطاني للعراق بقوة وإعلانهم الجهاد ضده فقد ناصب البريطانيون العداء الشديد لشيعة العراق. فسلموا مقاليد الحكم لتابعيهم من الملوك والحكام شكلياً ليسيروا هم شؤون العراق من خلف الستار منتهجين نهج العثمانيين ضد الشيعة.

يقول د. عبد الخالق حسين: "عند تأسيس الدولة العراقية الحديثة عام (١٩٢١م) اختارت السلطة الجديدة وبدعم من بريطانيا المحتلة، والقابلة المشرفة على ولادتها، مواصلة سياسة الدولة العثمانية الطائفية ضد الشيعة، فاستحوذت السياسة المتمون للمكون السنّي، أي العرب السنة، باعتراف الملك فيصل الأول، على حكم البلاد دون مشاركة بقية مكونات الشعب في الحكم والثروة والنفوذ بصورة عادلة.. وفي هذه الحالة تضطر الفئة الحاكمة فرض سيطرتها على

بقية مكونات الشعب بالاستبداد والاضطهاد واستخدام القبضة الحديدية^(١). ويؤكد رأيه المتقدم ورأي العديد من الباحثين بشكل أكثر وضوحاً بقوله: إن "الخطأ الرئيسي الذي ساهم في عدم استقرار الدولة الحديثة هو استمرار الحكم الجدد الذين كان معظمهم من خريجي المدرسة العثمانية، حيث واصلوا نهج الحكم العثماني في العزل الطائفي، الأمر الذي أدى إلى عدم استقرار النظام الملكي وبالتالي إلى انهياره"^(٢).

وهو ما سار عليه العهد الجمهوري أيضاً، وبخاصة منذ ستينات القرن الماضي حتى قيام الانتفاضة الشعبانية سنة (١٤١١هـ / ١٩٩١م) بل حتى سقوط النظام البائد في سنة (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) وسيأتي تفصيل الطائفية السياسية المتبناة في العصر الجمهوري كلّ في محلّه من الفصول اللاحقة.

أما وقد اتضح جذر الطائفية السياسية ضد شيعة العراق في العصر العثماني فيما تقدم ثم في عصر الاحتلال البريطاني للعراق ثم في عصر تابعيه في العهد الملكي ثم من سار على نهجهم في العهد الجمهوري.

لذا سيتناول البحث في الفصول اللاحقة موقف المرجعية الدينية جميعاً من الحكم الطائفيين عثمانيين أو إنكليز محتلين أو ملكيين أو جمهوريين بحسب الأقدم فالأقدم منهم مبتدئاً بثورة المجتهد السيد شبر الحويزي ضد العثمانيين الطائفيين في القرن الثاني عشر الهجري.



(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين. الخاتمة: ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ٨٥.



الفصل الثاني

القرن الثاني عشر

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة
السياسية العراقية خلال القرن الثاني عشر الهجري

* * *

(الثورة الشيعية المسلّحة ضد المعاملة الطائفية التكفيرية
لشيعّة العراق من قبل المحتلّين العثمانيين)

* * *

"المجتهد السيد شبر الموسوي:

إعلان الثورة المسلحة وقيادتها"



استعرضت في الفصل السابق تعصب المحتلين العثمانيين
ضد شيعة العراق المؤسس على فتاوى تكفيرية أو طائفية.

وتعد من أقدم تلك الثورات ذات الغطاء المرجعي ضد تكفير
أو طائفية جرائم العثمانيين بحق شيعة العراق هي ثورة المجتهد
المجاهد السيد شبر الموسوي في القرن الثاني عشر الهجري،
وفيما يأتي تعريف به وبثورته.

١ أسباب الثورة

لقد قرأ سماحة المجتهد السيد شبر الموسوي الحويزي^(١) تاريخ حروب الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها سلاطين وولاة العثمانيين على شيعة العراق في السنين السابقة على ثورته، وعاصر فجاجع ومآسي ما حل بالمدن المقدسة وبعشائر الوسط والجنوب الشيعية من الإرهاب والقتل والتدمير والظلم واستباحة الحرمات وهتك الأعراض التي اقترفها أياديهم، مثلما ملأت سمعه وبصره ويلات وصرخات وانتهاكات مدنه المقدسة وتدنيس عتباتها الشريفة فشخص الفرصة السانحة والظروف المؤاتية بحسب قراءته للأحداث فأعلن ثورته المسلحة.

٢ المستوى العلمي للثائر السيد شبر واستنهاضه المؤمنين

لقد تلقى السيد شبر علومه الشرعية في النجف الأشرف، وكتب وباحث وألف ودرس ودرّس فيها حتى وصفه بعض المؤرخين بأنه "صاحب التأليف والتصنيف، من حاز صولة الرئاسة إلى شرف العلم والسيادة... صاحب السيف

(١) ولد المجتهد الثائر السيد شبر بن محمد بن ثنوان بن عبد الواحد الموسوي الحويزي في مدينة الحويزة سنة (١١٢٢هـ/ ١٧١٠م) ونشأ بها ثم هاجر إلى النجف الأشرف فتخرج على كبار مراجعها وعلمائها، حتى إذا استجازهم، أجازوه بها يشهد بعلمه وتفقهه وكان إلى جانب علمه أديباً شاعراً، مؤلفاً فقد بلغت تأليفه حسب رواية تلميذه المتقدم ذكره نيفاً وثلاثين مؤلفاً أوردتها بأسمائها، وأوصل آثاره وكتبه السيد مهدي الرجائي إلى أربعين كتاباً ورسالة وحاشية عددها وذكر أسماءها، كما ذكر منها سماحة السيد محسن الأمين تسعة كتب منها: (تعاليق على مجمع البحرين)، و(فهرست وسائل الشيعة وضبط أحاديثه) و(جنة البرية في أحكام التقية) فرغ منه في شعبان سنة ١١٦٥ هجرية وغيرها، و (الذخيرة في العقبي في مودة ذوي القربى) وقد حققه ونشره السيد مهدي الروحاني، وله أيضاً (رسالة في الخمس)، و(رسالة في تحريم التمتع بالعلويات الفاطميات)، وقد قرّضها جملة من العلماء و(فهرس كتاب معاني الأخبار) على نحو كتب اللغة. وغيرها وله حواش على عدد من الكتب منها: (حاشية على كشف المحجة) لابن طاووس و(الهدايا) للحر العاملي .

والقلم، الخبر الذي شهد بعلمه العلماء الأعلام والفقهاء العظام. وأجازوه إجازة اجتهد ورواية بكمال الاحترام والإطراء، وكان متصدياً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١)، ولذلك فقد "ناهض السلطة العثمانية في العراق لما طغى وبغى المسؤولون في الدولة وأظهروا الفساد والعداء الأثيم والأذى إلى رجال الشيعة وعلمائها وأخافوهم فنهض ثائراً عليهم بعد أن كاتب رؤساء القبائل والوجوه في هذا الأمر وأجابوه لذلك وكتبوا إليه الرسائل"^(٢) المجيبة لدعوته والمليية لندائه "منها رسالة جواباً لكتابه إلى الشيخ حمد آل حمود رئيس (خزاعة) في المحالفة مع مشايخ (بني حسن) فأجابه الشيخ حمود بما نصه: بعد إبلاغ جزيل السلام بمزيد التحية والإكرام. العالم الأوحد سيدنا الأجل ومخدومنا الأكمل مولانا السيد شبر سلمه الله -جاءنا كتابكم وسرنا خطابكم وكلما ذكرتم صار معلومنا- وجنابكم العالي ذاكر لنا من جهة اجتماعنا مع شيخ (بني حسن) على منوال الطريق السابق الذي لا ريب فيه ولا شبهة تعتريه، وحياة جدك رسول الله ﷺ هذا من باطننا وظاهرنا.

ومنها رسالة الشيخ خليل آل عباس، إلى السيد السند والساعد والعضد التقى النقي العالم العامل الشخص الرباني عديم المثل المحقق المدقق المقتفي آثار أهل البيت عليه السلام بجميع الأفعال والمتبع أوامرهم بسائر الأعمال مولانا السيد شبر أصلح الله أحواله في الدارين إلخ"^(٣).

كما "كتب إليه شيخ مشايخ الشرق بل والغرب الشيخ عثمان، أبهى سلام يهدي إلى شرف السادة الكرام الأجلاء العظام آل عبد مناف - مؤيد الدين القويم

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ١/ ٣٥١-٣٥٣.

(٢) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ١/ ٣٥٣-٣٥٥. وينظر: تاريخ النجف الأشرف: ٢/ ٣٤٣.

(٣) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ١/ هامش ٣٥٥.

بعد اندراسه ومشيد الشرع المبين بعد انظماسه الخ.
وكتب إليه العالم الكامل السيد عبد العزيز النجفي، جد الأسرة النجفية آل
الصافي، وكتب إليه الأجل الأنبل الشيخ علي بن قسام، والشيخ الجليل العالم
العلم الشيخ حسين بن الشيخ موسى الشهير ابن لؤلؤ^(١) وغيرهم.

دعم مرجعية النجف للثورة وحثها على المشاركة فيها

إن مما يستدعي النظر حقاً الدعم الواضح الذي تلقاه المجتهد السيد شبر لثورته
من قبل أستاذه وأحد كبار المراجع في النجف الأشرف حينها سماحة الشيخ محمد
مهدي الفتوني (ت ١١٨٣ هـ / ١٧٧٠ م) أستاذ المرجع: الشيخ جعفر كاشف الغطاء
الكبير، والسيد محمد مهدي بحر العلوم، والشيخ محمد مهدي النراقي والمحقق
القمي وغيرهم والموصوف من قبل تلميذه المرجع الأعلى في وقته سماحة السيد
محمد مهدي بحر العلوم بكونه "إمام الفقه والحديث والتفسير"، والمنعوت من
قبل سماحة السيد عبد الله الجزائري بكونه "من أجل الأتقياء"، والمترجم من قبل
سماحة السيد حسن الصدر في كتابه (تكملة أمل الآمل) بما نصه: "كان في عاملة
من العلماء الكبار، بل كان الأمر منحصراً به، وبالسيد حيدر نور الدين، والسيد
حسين نور الدين... هاجر الشيخ إلى النجف وسكن بها، فكان فيها شيخ
الشيوخ"^(٢). وكان بحسب ما وصفه المجتهد سماحة الشيخ محمد حرز الدين
بكونه "من العلماء العاملين، والفقهاء المحققين، ثم صار أستاذ العلماء الأساطين،
روى أساتذتنا عن مشايخهم -عطر الله مراقدهم- أن المترجم له حاز الرئاسة
العلمية والأدبية، وأنه الورع الثقة الأمين... فقيه نقاد، متتبع جامع ضابط جليل

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ١/ هامش ٣٥٥.

(٢) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. الشيخ جعفر محبوبة: ٣/ ٥٢ - ٥٥.

القدر، ذكروه بكل تحلة واحترام، وجرت أقلام الكتاب والعلماء فيه بأحسن جري وبأكمل إطرأ^(١)، بل عدّه في مكان آخر من كتابه من طبقة "الأغا باقر البهبهاني في الحائر"^(٢)

أعود فأقول لقد تلقى سماحة المجتهد الثائر السيد شبر الموسوي دعماً كبيراً لثورته من قبل أستاذه المتقدم ذكره، سماحة المرجع الشيخ محمد مهدي الفتوي، وذلك في رسالة تلقاها منه: "حينما ثار على ولاية الظلم والجور من العثمانيين في بغداد، بل والعراق، لتقرأ على جماهير المسلمين المتجمعة لنصرته، بأن يطيعوا أمره، ويتتبعوا عند نهيه، وفيها دعاء للسيد بالفوز والظفر"^(٣).

وإذا كان الشيخ حرز الدين قد اكتفى بذكر المضمون المهم للرسالة، فإن تلميذه الشيخ أحمد ابن الشيخ محمد قد أوردتها بتمامها في مجموعته المخطوط عند ترجمته لأستاذه السيد شبر الموسوي لما فيها من تغطية أوسع وأشمل في محتواها، وهذا نص رسالة المرجع إليه:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنّ جناب السيد الأنجب العلي الحسب الزكي النسب العالم العلم الطاهر السيد شبر^(٤)، ولا يخفى أن السيد هو رجل من أهل العلم والصلاح والرشاد والفلاح، والواجب عليه إنفاذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنها واجبان على العارف المتمكن منهما، فأطيعوا أمره، وانتهوا عند نهيه، فإنه يدلکم على ما

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ٨٠ / ٣.

(٢) ينظر معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ٢٠٣ / ٢.

(٣) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ٨٢ / ٣. وينظر: تاريخ المشعشين وتراجم أعلامهم. السيد

جاسم حسن: ٢٦٠.

(٤) يبدو أن خبر (إنّ) سقط من النص، وربما غيره أيضاً.

يصلح به دنياكم وأخراكم، ولا تخالفوه وأعينوه على إنفاذ أمره ونهيه، لتفوزوا بالفلاح والرشاد، والله لنا ولكم عون وظهير في جميع الأمور، عسى الله أن يكفيكم الشرور، ويمنحكم ما فيه لكم خير وسرور" (١).

٤ إعلان الثورة وتقابل الجيشين وفشل الثورة للخيانة

ولما اجتمع عند المجتهد السيد شبر الموسوي آلاف المقاتلين، وتلقى الدعم لنهضته من أستاذه المرجع الشيخ الفتوني في النجف الأشرف أعلن الثورة ضد العثمانيين فقد "روي متواتراً، ومن رواه من المتأخرين فضيلة العالم السيد جعفر بن السيد محمد باقر آل بحر العلوم النجفي، عن جده السيد علي صاحب (البرهان القاطع) المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ: إن المولى السيد شبر ثار من محله في العراق بجيوش نظمها تقرب من عشرة آلاف محارب من العراقيين لأخذ النصف من العثمانيين، في السنة التي غزا فيها العراق السلطان نادر شاه بتاريخ (٢٢ جمادى الثانية ١١٤٥ هـ/ ١٠ ديسمبر ١٧٣٢ م) ويومئذ كانت اتفاقية بين المولى والنادر في الوقت المعين، واعتقد أن النادر سوف يفتح العراق، وتكون له المنزلة العالية عند السلطان أيضاً، وهو الأمير على العراق كما كان لأبائه في الحوزة، ولما زحف الجيش الإيراني في الحدود دحره الجيش العراقي العربي والتركي في جانب (الشركاط) حتى توسط الجبال، ثم اتجه الترك ظافرين نحو جيش السيد وأسفر عن انكسار جيش السيد المولى وألقاء القبض عليه لما انخزل جيش المولى بالرشا لقواد جيشه من رؤساء القبائل، وقبضوا أميرهم وسيروه إلى والي بغداد، ولما مثل بين يديه لأمه على

(١) معارف الرجال: ٨٢/٣. هامش. نقلاً عن مجموع الشيخ أحمد بن الشيخ محمد - المخطوط في مكتبة كاشف الغطاء العامة.

ذلك. وعفا عنه... ومما خاطب الوالي به المولى، أنك جاهل ولو كنت عالماً كما زعم لعرفت ما صنع أهل العراق بأجدادك وغدرهم بهم من قبل ولكننا عفونا عنك وعن حاشيتك" (١).

ولما رجع بعد الواقعة وإثر إطلاق سراحه "عقد احتفالاً كبيراً فجعل يخاطب الناس فيه:

يا أباة الضيم ما هذا القعود × الموالي اليوم سادتها العبيد (٢)
وهكذا قدر لثورة المجتهد السيد شبر الموسوي أن تنتهي إلى ما انتهت إليه بعد أن خذله شيوخ العشائر من السائرين تحت لوائه بعد تلقيهم الرشوة وأغواهم الطمع.

وتعد ثورة المجتهد السيد شبر الموسوي - بحسب تتبعي - أول ثورة مسلحة ضد الإبادة الجماعية والجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها العشائون بحق شيعة العراق، ثورة قادها مجتهد ودعا الناس وحثهم على الالتحاق بها مرجع من مراجع النجف الأشرف.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين ١/ ٣٥٥-٣٥٧. وينظر: تاريخ المشعشين وتراجم أعلامهم. سابق ٢٦٠-٢٦١.

(٢) تاريخ المشعشين وتراجم أعلامهم: ٢٦٢.



الفصل الثالث

القرن الثالث عشر

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على الساحة
السياسية العراقية خلال القرن الثالث عشر الهجري

* * *

الجهاد الدفاعي ضد الوهابيين التكفيريين الغزاة
وحفظ الأمن الداخلي والخارجي



المرجع الشيخ جعفر كاشف الغطاء: الجهاد الدفاعي والسلم المجتمعي والإصلاح بين الدول



لقد كان لمباني ونظريات المرجع الأعلى الشيخ جعفر كاشف الغطاء في الفقه وأصوله دورها الكبير في قراءة توجهاته السياسية، ويأتي في مقدمتها تبنيّه لولاية الفقيه العامة ومحاولته "تجاوز المفهوم الكلامي للطاعة حين قرر جواز الطاعة لحاكم غير المعصوم بناءً على مبررات عقلانية موضوعية، مقارنة بالإمام الذي يطاع لمبررات دينية خالصة. تركزت مناقشة كاشف الغطاء لمسألة السلطة حول وظائف الدولة في المقام الأول، مبتعدة عن الثنائية الكلامية: الإمامة/ الغصب، وتعامل مع مسألة السلطة كما هي في الواقع، واعترف بالأساس العرفي للدولة. بالنسبة إليه، أفضل الحكام هو الإمام المعصوم أو نوابه، بمن فيهم الفقيه المؤهل، لكن إذا لم يتوفر هذا الحل الأمثل، لا تترك تلك الوظائف" (١).

يقول الشيخ كاشف الغطاء متحدثاً عن الفقهاء: "فإن لم يكونوا أو كانوا، ولا يمكن الأخذ منهم ولا الرجوع إليهم... وجب على كل بصير، صاحب تدبير، عارف بطريقة السياسة، عارف بدقائق الرياسة، صاحب رأي وإدراك، وفهم وثبات، وجزم وحزم، أن يقوم بأحماها ويتكلف بحمل أثقالها وجوباً كفائياً... وتجب على الناس إعانته ومساعدته إن احتاجهم، ومن خالفه فقد خالف سيد الأنام، وخالف الملك العلام" (٢).

وذهب إلى "أن الفقيه الجامع للشرائط قائم حقيقة مقام الإمام، ليس في

(١) حدود الديمقراطية الدينية: د. توفيق السيف. مبحث: الفصل الأول. نظرية السلطة في المذهب الشيعي. مبحث. ظهور ولاية الفقيه.

(٢) كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء. الشيخ جعفر كاشف الغطاء. ٣٩٤.

الشرعيات والأمور الحسبية فقط، بل في سائر الأمور، من إدارة البلاد والعباد إلى الحرب والجهاد إلى الولاية على المال العام، وبالتالي فإنه يتحدث هنا عن الفقيه باعتباره الوالي بالأصل، وأن السلطان تالٍ له، ومستمد شرعيته من إذنه^(١).

لقد أفتى سماحة الشيخ جعفر كاشف الغطاء بالجهاد الدفاعي لصدهجمات الوهابيين المتعددة على النجف الأشرف، أولئك الأعراب الذين وصفهم الشيخ عثمان بن محمد بن أحمد بن سند البصري المعاصر لفتنتهم (توفي سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٥م)، والمتحدث في الأمور العلمية معهم في كتابه (مطالع السعود بأخبار الوالي داود. اختصار أمين الحلواني) بقوله عنهم إنهم "خرجوا عن الحد، وأظهروا للناس بعض زخارف لا تروّج إلّا على العوام، وصاروا يكفّرون ما عداهم من المسلمين... ويزعمون أن لهم قدرة على أخذ الأحكام من الأحاديث النبوية، مع إنني رأيت أعلمهم... لا يعرف اصطلاح علم الحديث، بل ولا الضروريات منه، وما ضرنا إلّا جهلهم المركب، تجد الرجل منهم بدوياً جافي الطبع كان يرعى الغنم فأصبح يفسّر في القرآن بجهله وبرأيه... فهؤلاء الوهابيون لا نشك في أن كل واحد منهم بمنزلة مسيلمة الكذاب، فمن أين له نور؟ ومن أين له معرفة خاصة به؟ فضلاً عن أنها تتعداه لغيره، سبحانه هذا بهتان عظيم"^(٢)، كما وصف دعوة الوهابية بـ "البدعة"، وشبّه مقرهم (الدرعية) بـ "بلدة مسيلمة الكذاب"، حين قال الشيخ عثمان بن محمد بن أحمد بن سند البصري في كتابه (مطالع السعود. اختصار أمين الحلواني) خلال استعراضه لحوادث سنة (١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م) ما نصه: "فسافر إبراهيم باشا قاصداً بلدة مسيلمة الكذاب، ألا وهي الدرعية...

(١) نظرية السلطة في الفقه الشيعي. توفيق السيف: ١٥٠-١٥١.

(٢) مطالع السعود بأخبار الوالي داود. اختصار أمين الحلواني: ٢٩٢-٢٩٣.

وطلب من ابن سعود مواجهة السلطان محمود، وتركه لهذه البدعة التي سفكت دماء المسلمين، وأخربت جزيرة العرب فلم يرض عبد الله بن سعود، بل طلب الحرب والنزال والطعن والقتال، فحاصرها الباشا... حتى أذل البلدة... فبعد فتحها بيومين ربط عبد الله بن سعود وأرسله إلى السلطان محمود وصار فتحها في التاسع من ذي القعدة الحرام، وهذا الفتح الذي أعز الله به الدين^(١).

وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء قد كتب كتاباً عنونه بعنوان: (منهج الرشاد لمن أراد السداد)^(٢) جواباً على رسالة بعثها إليه الأمير عبد العزيز بن سعود.

ويمكننا أن نعد كتاب (منهج الرشاد لمن أراد السداد) "أول دراسة نقدية تناولت الأسس الاعتقادية التي قام عليها المذهب الوهابي، حيث سلك فيه مؤلفه مسلكاً عقلياً يعتمد المناقشة والتأمل والانفتاح الفكري للوصول إلى موارد الاتفاق في الرأي، وخاطب عبد العزيز بقوله: (أقسم عليك بمن جعلك متبوعاً بعد أن كنت تابعاً، ومطاعاً بعد أن كنت لغيرك مطيعاً سامعاً، أن تنظر ما رسمته سطوراً سطوراً، وتمعن في تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً، متوحشاً من الناس وقت النظر، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة، فلعله يظهر أنه ليس بيننا نزاع، فنحمد الله على الاتفاق والاجتماع).. وقد ناقش المؤلف في كتابه هذا المسائل التي يركز عليها الوهابيون لنقد الممارسات المذهبية للطوائف الإسلامية، ولما كان الفكر يعتمد على صحاح الحديث السننية الستة، فقد التزم كاشف الغطاء في ردّه بأن لا

(١) مطالع السعود بأخبار الوالي داود. اختصار أمين الحلواني: ٣١١.

(٢) طبع الكتاب للمرة الأولى في النجف عام (١٣٤٣هـ / ١٩٢٥م) وطبع طبعة ثانية محققة بتحقيق مهدي رجائي سنة ١٩٩٣م ونشر مقتطفات منه في الملحق الأول من كتاب (المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٣٦٩. سنة ٢٠٠٥م).

يأتي إلّا بالأحاديث المروية في كتب الصحاح دون غيرها^(١).

وقد أشار سماحته في رده أيضاً إلى أن هذه التقولات والآراء ليست من العلم في شيء ولا يقول بها أهل الفن من المحققين بل هي من باب الشبهات والخيالات بقوله "ثم إني والله أخشى عليك من جهة أنك كنت خالي البال بعيداً عن هذه المحال، فوردت عليك شبهات لم تستطع ردّها، وخيالات لم تبلغ حدّها، فكان الحال كما قيل (فصادف قلباً خالياً فتمكّنا) وأما اليوم فليس لك عند الله عذر، فقد علمت الأخبار وسمعت بطريقة الخلفاء الأبرار"^(٢)

أقول: لقد أفتى سماحته بالجهاد الدفاعي لحماية النجف الأشرف من شرهم بل تولى قيادة العمليات العسكرية بنفسه لمنع هؤلاء الغزاة التكفيريين من التعدي على العتبة العلوية المقدسة، "فقام وأهل بيته وبخاصة تلامذته بحراستها، وصيانتها، وحفظها من تدنيسهم، كما حفظوا مدينة النجف الأشرف بمواطنيها، وحوزتها العلمية، ومراجعها ومجتهديها، وعلمائها، وفضلائها، وغيرهم من سكنتها رجالاً ونساءً وأطفالاً من همجيتهم التكفيرية الممنهجة، فقد أغار الوهابيون بقيادة زعيمهم سعود بن عبد العزيز ومن بعده ابنه عبد العزيز بن سعود بجيشه على النجف الأشرف مرات ومرات، وكان الله يكفيهم شرّهما، ولكن بعد أن يستولي على النجفيين المسالمين المدنيين الخوف والاضطراب والرعب والقلق؛ لأن الوهابيين كانوا يأتون بجنودهم، فإذا سمع النجفيون بهم غلّقوا الأبواب، فيطوف الإرهابيون حول السور، فإذا وجدوا دابة على الأرض من حيوان أو إنسان، رجلاً أو طفلاً، ذكراً أو أنثى، قتلوه ورموا برأسه داخل البلد، وكان يأتي

(١) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ١٩٧.

(٢) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٣٧٣.

من أتباع السعوديين العشرة والعشرون، فدخلون النجف على حين غفلة من أهلها، فيقتلون وينهبون، ثم ينهزمون بكل ذلك، لقرب منازلهم -وهي نجد والقصيم- إلى العراق، خصوصاً النجف منه^(١).

١. أطماع الوهابيين بالنجف الأشرف وتكرر هجماتهم عليها

لقد شنّ الوهابيون ست هجمات متلاحقة على النجف الأشرف في أزمنة متقاربة، سبقتها معركة جرت سنة (١٢١٤هـ / ١٨٠٠م) حيث قدمت قافلة وهابية من نجد إلى العراق للتجارة، وحين وصلوا النجف الأشرف شاهدوا أمير قبيلة خزاعة يقبل باب حجرة أمير المؤمنين عليه السلام، فحمل فوارس الوهابيين عليه فقتلوه، وتقابل عرب الخزاعل مع فرسان نجد في قتال عنيف استمر لساعات.

وإثر ذلك عقد لقاء تفاوضي بين الحاج عبد العزيز بك الشاوي، ممثل الوزير سليمان باشا والي بغداد، وعبد العزيز بن سعود ورد، تحدّث عنه صاحب كتاب (مطالع السعود. اختصار أمين الحلواني) خلال ذكره لحوادث سنة (١٢١٥هـ / ١٨٠٠م) بما نصّه: "وفيها توجه عبد العزيز بن عبد الله بن شاوي إلى حج بيت الله الحرام، وأمره الوزير سليمان باشا بأن يمرّ في رجوعه إلى الدرعية ويتلاقى مع عبد العزيز بن سعود ويكلّمه في ديات من قتلهم من قبيلة خزاعة، وديات سكّان النجف وأموالهم فلما قفل من الحج اجتاز بآبن سعود، وكلّمه في هذا الأمر، فقال له: هذا كلام محال، لا أدفع الديات المذكورة إلّا أن يكون غربيّ الفرات لي وشرقيّه لسليمان باشا... ولما وصل بغداد وأخبر الباشا بجواب ابن سعود غضب الباشا، وعزم على غزو ابن سعود، وأخذ يجهز في أسباب الحرب"^(٢)، وورد مثله في كتاب

(١) تنظر: العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية (بتصرف). سابق: ١١٢.

(٢) مطالع السعود باخبار الوالي داود. اختصار أمين الحلواني: ٢٨٨.

(غرائب الأثر) المخطوط لياسين بن خير العمري^(١).

إن طلب عبد العزيز بن سعود غربي الفرات، يوضح بما لا يدع مجالاً للشك أطماع ابن سعود في السيطرة على النجف الأشرف، والكوفة العلوية، وهدم الحضرة العلوية الشريفة، وبقية المشاهد المقدسة، في النجف الأشرف والكوفة، وقتل ما فيها من العلماء ونهب ما فيها من الأموال والفرش والأثاث، وضمها لحكمه، ولولا حكمة الوزير سليمان باشا حينها، لكان ما كان، مما وقى الله المؤمنين شره إنه بعباده لطيف خبير.

لقد نقل كتاب (غرائب الأثر): أنه في سنة (١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م) أرسل الوهابي سرية إلى العراق، لنهب مشهد الإمام علي عليه السلام، وهدم قبته، وأخذ ما فيها من الأموال، فالتقى بها أعراب البصرة، وقتلوا، وكسروها أشد كسرة، وقتل من عرب الوهابي جماعة، وأخذ منهم ستمائة جمل، وقيل ألف وستمائة جمل^(٢).

وهكذا استمرت هجمات الوهابيين على النجف الأشرف هجمة بعد هجمة، وكان النجفيون يفشلونها مرة بعد مرة بجهود علمائها ومجاهديها ورجالها الشجعان من "العوائل النجفية المتأثرة بردة الفعل الوهابي والتي أصبحت قوة عسكرية وقفت منصاعة لأوامر الفقهاء وتنفيذ مهماتهم، ولم يكونوا متقاضين أجوراً على ذلك، بل كانوا يعيشون من مهنهم الخاصة"^(٣). وكان الله ولي المؤمنين.

٢. هجمات الوهابيين على المدن المقدسة وإعداد العدة لها

لقد كان للمرجع الأعلى الشيخ جعفر آل كاشف الغطاء دور مشهود

(١) ماضي النجف وحاضرها: ٣٢٦/١.

(٢) المصدر السابق. نقلاً عن: غرائب الأثر: ٥٦.

(٣) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ١٩٩.

في التصدي لهجمات الوهابيين على العراق، والدفاع عن العتبة العلوية المقدسة في النجف الأشرف، ومجاوريتها، وبخاصة بعد استيلاء جيوش الوهابيين على مكة المكرمة، والمدينة المنورة، حيث أقدموا على فعلتهم بهدم قبور البقيع، وقبور أئمة أهل البيت عليهم السلام فيه، حتى جعلوها قاعاً صفصفاً كما تقدم حينها، تبعثها هجمتهم الدموية المفجعة على كربلاء المقدسة فشمر ساحتها عن ساعديه وتولى عليه السلام قيادة حركة الدفاع عن مدينة النجف الأشرف ضد أعدائها الغزاة التكفيريين الطامعين، سنة (١٢١٨ هـ/ ١٨٠٣ م) حيث كان الغزو الوهابي للنجف في هذه السنة أشد من غيرها من السنين^(١) فسعى سماحتها لتسليح أهلها، وتجهيزهم، بما تيسر له من أسلحة وأعتدة، وأمر بتدريب القادرين منهم على حمل السلاح، فكانوا يخرجون إلى الصحراء ما بين النجف والسهلة كل يوم للتدريب، وكان حمل السلاح والتدريب على القادرين من أبناء المدينة المقدسة فرضاً واجباً، حتى ألف السيد الجليل جواد العاملي صاحب (مفتاح الكرامة) رسالة في وجوب الذب عن النجف تلك الآونة، وهو أحد تلامذة المرجع الشيخ كاشف الغطاء المبرزين، وأستاذ المرجع الأعلى صاحب الجواهر لاحقاً. كما أن الشيخ كاشف الغطاء شجع طلاب العلم على الرياضة، وألعاب القوى المعروفة في ذلك العصر، وجعل من داره مقر تدريب عسكري للمجاهدين، فعين بنفسه مواقع القتال والتصدي للأعداء، ورسم خطوط الدفاع عن المدينة، حتى رد كيد المعتدين إلى نحورهم. وكان من جملة ما أمر به سماحتها، وندب إليه، أن اختار عدة من شبان النجف، وعين لهم رواتب مالية، واشترى لهم أسلحة كافية، وجعلهم مرابطين في حدود النجف من بعض الجهات على أميال منها (...)، فكانوا مائة أو أقل، وكانوا إذا جاءهم

(١) ينظر: تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين حرز الدين: ٣٨٦/٢.

الغزو حاربوه، حتى أبعدوه عن البلدة، وانضم إليهم عدة كثيرة من حملة العلم، وكانوا أهل خبرة بنقل السلاح، حتى قتلوا كثيراً من الغزاة.

لقد كان من أخطر هجمات الوهابيين على العراق ومدينتيه المقدستين كربلاء والنجف، إذ اقترب الوهابيون من كربلاء (عشية اليوم الثاني من نيسان ١٨٠١ م، المصادف يوم الغدير من عام ١٢١٦ هـ) حيث كان معظم سكان كربلاء في النجف الأشرف، يقومون بالزيارة، سارع من بقي في المدينة لإغلاق الأبواب، غير أن الوهابيين، وقد قدروا (٦٠٠) ستمائة هجان و(٤٠٠) أربعمائة فارس، نزلوا فنصبوا خيامهم، وقسموا قوتهم على ثلاثة أقسام. ومن ظل أحد الخانات هاجموا أقرب باب من أبواب البلد، فتمكّنوا من فتحه عسفاً، ودخلوا، فدهش السكان، وأصبحوا يفرون على غير هدى، بل كيفما شاء خوفهم.

أما الوهابيون الخشن فقد شقوا طريقهم إلى الأضرحة المقدسة، وأخذوا يخربونها، فاقتلعت القضب المعدنية، والسياج، ثم المرايا الجسيمة، ونهبت النفائس، والحاجات الثمينة، من هدايا الباشوات، والأمراء، وملوك الفرس، وكذلك سلبت زخارف الجدران، وقلع ذهب السقوف، وأخذت الشمعدانات، والسجاد الفاخر، والمعلقات الثمينة، والأبواب المرصعة، وجمع ما وجد من هذا الضرب، وقد سحبت جميعها، ونقلت إلى الخارج، وقتل زيادة على هذه الأفاعيل، قرابة (٥٠) خمسين شخصاً بالقرب من الضريح، و(٥٠٠) خمسمائة أيضاً خارج الصحن.

لقد عاث الغزاة المتوحشون في كربلاء المقدسة فساداً وتخريباً واستباحة وتنكيلاً ووحشية، فقتلوا من دون رحمة جميع من صادفوه، كما سرقوا كل دار، ولم يرحموا الشيخ، ولا الطفل، ولم يحترموا النساء، ولا الرجال، فلم يسلم الكل من وحشيتهم، ولا من أسرهم، ولقد قدر بعضهم عدد القتلى بـ(١٠٠٠) ألف

نسمة، وقدر الآخرون خمسة أضعاف ذلك.

وقد تحدث عن بشاعة هذه الهجمة الدموية صاحب كتاب (مطالع السعود بأخبار الوالي داود اختصار أمين الحلواني) بقوله: "غزا عبد العزيز بن سعود العراق، وأناخ على كربلاء وأذاقهم كأس البلاء فقتل أكثرهم ونهب البلدة، حتى يقال أنه ما غنم ابن سعود في ملكه بعد خزائن المدينة المنورة أكثر من غنائم كربلاء من الجواهر والحلي والنقد، ثم قفل إلى نجد متبجحاً بما فعله من سفك دماء، لا إله إلا الله، وإن كانوا روافض"^(١).

٣. سماحته يفتي بالجهاد الدفاعي لصد الهجمة الأخطر على

النجف الأشرف

وفي النجف الأشرف حيث نشط المرجع جعفر الشيخ آل كاشف الغطاء أياً نشاط لدفع غائلة هؤلاء التكفيريين الذين داهموا النجف الأشرف بعد كربلاء، أكثر من مرة، فأخذ بجمع السلاح وبجلب ما يحتاج إليه في الدفاع، وقد أغلق الأبواب، وجعل خلفها الصخور والأحجار، وكانت الأبواب يومئذ صغيرة، وعيّن لكل باب عدة من المقاتلة، وأحاط باقي المقاتلين بالسور من داخله، وكان السور يومئذ واهي الدعائم، فوضع بين كل (٤٠ - ٥٠) أربعين أو خمسين ذراعاً منه قولة (حصار)، وكان قد وضع في كل قولة ثلة من أهل العلم، شاكين بالسلاح، فكان جميع ما في البلدة من المقاتلة لا يزيدون على (٢٠٠) المائتين (...)، ولم يبق مع الشيخ إلا ثلة من مشاهير العلماء، كالشيخ حسن نجف، والشيخ خضر شلال، والسيد جواد صاحب (مفتاح الكرامة)، والشيخ مهدي ملا كتاب، وغيرهم من المشايخ الأخيار، ثم إن الشيخ وأصحابه ووطنوا أنفسهم على الموت، لقلتهم،

(١) مطالع السعود بأخبار الوالي داود. اختصار أمين الحلواني: ٢٨٩.

وكثرة عدوهم، وكان الشيخ قبل مجيء هذا الخبيث قد حفر في داره الكبيرة سرداباً ينزل في الأرض مقدار (٤٠) أربعين درجاً، وهو من العجائب، لأن الشيخ صنعه بهندسته ليخفي فيه أولاده وعياله، خوفاً من السبي، فجعله بحيث لا يهتدي إليه أحد، إلا من علم بكيفية طريقه، وسلك فيه مراراً.

ثم أن الشيخ أخفى أولاده ونساءه في السرداب، وجعل معهم من الطعام ما يكفيهم مقدار شهر كامل، وودّعهم وداع مفارق، وقال: إن هذا الملعون سيأتي إلى النجف، فإن أظفرنا الله عليه فيها، وإلا فسيقتلنا، ويدخل النجف، فلا يرى شيئاً بها مما يريد من مال أو رجال، فسيتركها ويرتحل، وأما أنتم فاخرجوا بعد الشهر، وكاتبوا الأطراف، ومن خرج فليعد، ولا تقصروا في السعي بتعميرها أبداً، ولا تخرجوا منها، ولو بقيت خالية، إلى غير ذلك من الوصايا والترتيبات لإحياء الملة والدين حياً وميتاً^(١).

يقول المؤرخ النجفي السيد حسين البراقى نقلاً عن شاهد الواقعة ما يلي: "لما جاء سعود إلى النجف وأحاط بها واشتغل الرمي بالرصاص من الطرفين قتل من أهل النجف خمسة أحدهم عمي السيد علي الحسيني الشهير بالبراقى، وكانت شدة عظيمة على أهل النجف لعلمهم بما صنع بأهالي كربلاء من القتل والنهب وما فعل بمكة والمدينة، ولذا برزت المخدرات من خدورها ومعهن العجائز يشجعن المقاتلين ويقفن على كل فرقة فرقة ويقلن: (أما تستحون على نساءكم أن تهتك وأموالكم أن تنهب وتذهب غيرتكم)"^(٢).

وينقل لنا المؤرخ جعفر الخليلي وصفاً أكثر تفصيلاً لما جرى يومها في النجف

(١) تنظر: العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية (بتصرف). سابق: ١١٥.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٢٥/١ - ٣٢٦. نقلاً عن البراقى.

الأشرف سأذكره على طوله لأهميته في وصف الحالة حيث يقول: "لقد ورد على ألسنة الشيوخ، وتداولته الألسن: أنه حينما ضيق الوهابيون الحصار على النجف، وانقطع بذلك طريق تموين البلدة بالطعام، واقتصصر شرب الماء على الآبار المالحة، وضاق بالناس الحال، أفتى العلماء هناك بالجهاد، ودعوا الناس إلى الاجتماع في الصحن الشريف، وهناك تليت عليهم فتوى الجهاد التي توجب على كل مسلم مستطيع أن يقوم بقسطه من الدفاع عن المدينة المقدسة وساكنيها، خصوصاً بعد أن يؤس الناس من وصول الجيوش العثمانية لنجدة المدينة، وقد صنف المجاهدون إلى أصناف، صنف يتقدم الجموع المهاجمة، وهم حملة البنادق، والذين يجيدون رمي الحجارة بالمقاليع، وصنف يتولى محافظة هؤلاء المهاجمين بنفس السلاح، وصنف يناط به حفظ أسوار المدينة وأبوابها، وتسهيل عودة المهاجمين إذا ما اقتضى انهمزامهم، وصنف عليه تموين المحاربين بالحجارة الصالحة"

ويضيف: "ولم تكن البنادق يومذاك معروفة إلا نادراً، والحرب كانت حرب سيوف ورماح في الغالب، وكانت في النجف بندقية هي بين المدفع والبندقية وصفاً، وكانوا قد نصبوها فوق نقطة معينة من السور، وكانوا يحشونها بالبارود، والخرق، وكرات الحديد، والحصى، ثم يولعون الفتيل بطريق قدح الزناد، فتقذف هذه البندقية بمقذوفاتها في مسافة، ربما لا تتجاوز المائتي متر، وتسبب سخرية الوهابيين وضحكهم أكثر مما تسبب خوفهم.

وبعد أن تم تصنيف المجاهدين من قبل الزعماء من أولي الخبرة بالحرب، تقرر أن يفتحوا باب المدينة بعد منتصف الليل من الليلة التالية، وعلى غفلة من الوهابيين الرابضين، فيحملون عليهم حملة رجل واحد في جنح الظلام، وهكذا كان، وكانت الليلة من الليالي الخالكة، وكانت مفاجأة غير منتظرة، أشاعت

الذعر في الإبل الباركة، فهبت من مراوحها، لا تدري أين تولى وجهها، وتساقط الرصاص والحجار كالطر على البدو النائم المطمئنين، فإذا ببعضهم يضرب بعضاً، وإذا بعدد كبير من الوهابيين يسقط قتيلًا وجريحاً".

ويستمر في وصفه التفصيلي فيضيف إلى ذلك قوله: "و حين عاد المهاجمون عادوا ومع الكثير منهم أشياء من الأواني، والأعمدة، والرماح، والسيوف، لقد عادوا وأغلقوا أبواب المدينة من جديد خلفهم، وحين طلع النهار رأى الوهابيون أن الحصار لم يعد نافعا، خصوصاً وقد مرت عليهم أيام طوال عادت عليهم بكثير من خسارة النفوس، سواء في أثناء محاولتهم تسليق السور، أو من هذا الهجوم المفاجئ الذي تجاوز حدود القتلى والجرحى فيه الحد المعقول، على ما روى الرواة، وهذا العدد الكبير من الإصابات الواقعة على الجمال، فارتحلوا عن البلدة في صباح تلك الليلة، ومنذ ذلك اليوم والنجف تعنى عناية خاصة بتدريب أبنائها على رمي الحجارة بالمقاليح، ولم تمح هذه الرياضة إلا مؤخراً"^(١).

أما الغزاة الوهابيون "فقد نحا بهم قائدهم المهزوم صوب كربلاء، فقتل أهلها قتلاً ذريعاً، حتى فاض الدم من الحرم الحسيني كالميازيب، ولم ينبج إلا من لا ذ بالحرم العباسي، حيث قال الملعون عبد الله: خلّوا حرم العباس، فإنه ابن أختنا، ودقّ القهوة على ضريح أبي عبد الله عليه السلام، وأحرق قبر حبيب بن مظاهر، إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة"^(٢).

ولعل آخر غارة شديدة لهم على النجف الأشرف كانت سنة (١٢٢٦هـ/ ١٨١١م) بعد اكتمال سور النجف الأشرف ما أعاق غارتهم فرجعوا خائبين

(١) النجف في المراجع الغربية: هامش ص ٣٩.

(٢) العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية. سابق: ١١٦.

وهي الغارة التي ذكرها الفقيه المجتهد السيد محمد جواد العاملي في أواخر مجلدات موسوعته الفقهية المعروفة الموسومة (مفتاح الكرامة) بقوله عن نفسه: "والعبد لم يترك الاشتغال مع ما نحن عليه من الحال من مرض الجسم، وإني في عمر السبعين"^(١).

وكان السيد العاملي يتناوب مع العلماء في حفظ سور المدينة، وتشجيع المرابطين، ويقال "إن السيد مرّ على المرابطين ليلة من الليالي وهم يشتغلون بضرب الدفّ واللهو، فنهاهم، ثم عاد فرآهم نائمين، فسأل قائدهم، فقال: إنما كان يوقظهم هذا الدفّ، فقال: يا بني دقوا على طبليّكم، دقوا، فإنها عبادة"^(٢).

ولم يكتفِ الوهابيون بما اقترفته أيديهم بل عاد الوهابيون لغزو العراق مرات أخرى عديدة من دون أن يلقوا مقاومة فعالة من الإنكليز بعد احتلالهم للعراق، بل كانوا كثيراً ما يغضون الطرف عن التصدي لتجمعات الوهابيين، وهي تتجحفل في الصحراء، مقدمة لهجومها على العراق، على الرغم من رصدهم لذلك بالطائرات، بل وعلى الرغم من مناشدة الحكومة العراقية للإنكليز بمساندتها في ضرب تجمعات الوهابيين بالطائرات لأغراض سياسية، كما سيأتي لاحقاً^(٣).

أخلص من ذلك إلى أن إعلان الجهاد الدفاعي ضد الغزاة الوهابيين التكفيريين هو موقف مرجعية النجف الأشرف متى ما توافرت شروط الجهاد الدفاعي، حيث أعلن المرجع الأعلى في حينه سماحة الشيخ جعفر كاشف الغطاء الجهاد الدفاعي ضد الوهابيين بدعم وتأييد من المراجع أو من هم في طبقتهم من

(١) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٣٩٨/٢. نقلاً عن أعيان الشيعة. سابق: ١٧/٢٣٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) ينظر: العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٦٥.

كبار العلماء الآخرين المعاصرين له: كأصحاب الساحة: الشيخ حسين نجف، والشيخ خضر شلال، والسيد محمد جواد صاحب (مفتاح الكرامة)، والشيخ مهدي ملا كتاب (قدس الله أسرارهم)، وأمثالهم من المجتهدين وكبار العلماء ضد الغزو الوهابي لنجف علي عليه السلام، والعراق، كما تقدم، حيث تصدى المراجع والمجتهدين وكبار العلماء للغزو بأنفسهم وأموالهم دفاعاً عن الأرض والعرض والمقدسات وحثوا المواطنين على التصدي معهم. هذا وستأتي مواقف مشابهة دعت فيها المرجعية الدينية العليا إلى الجهاد الدفاعي ضد المحتلين الإنكليز في سنوات: (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) و(١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م) و(١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) سابقاً كما دعوا إلى الدفاع الكفائي ضد احتلال داعش الوهابية التكفيرية لمحافظة عراقية سنة (١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م) لاحقاً.

٤. الشيخ جعفر كاشف الغطاء يسعى للسلم المجتمعي في النجف

الأشرف وواد الفتنة فيها حين حوثها

يحسن بي أن أشير إلى أن دور سماحة المرجع الأعلى الشيخ جعفر الكبير السياسي في العراق لم يقتصر على النشاط الجهادي فتوى وقيادة عمليات ميدانية فحسب، بل نشط إضافة لذلك نشاطاً ملحوظاً على صعيد سيادة السلم الأهلي في الداخل، وتمثل ذلك في دوره أثناء فتنة (الزكركت والشمركت) داخل النجف الأشرف، وعلى مستوى العراق من خلال مسعاه، للصالح بين الدولتين الإيرانية والعثمانية التي كان العراق يومذاك تابعاً لها، حين سافر سنة (١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م) إلى إيران بقصد إطلاق سراح أسرى الدولة العثمانية، إثر موقعة دارت في السنة المذكورة بين الدولتين، توغلت فيها الجيوش العثمانية داخل حدود إيران، وفشل الجيش العثماني بعد التوغل في إيران، فأسر الإيرانيون أكثر ضباطه وجنوده ومعهم

أسلحتهم ومعداتهم وآلياتهم العسكرية على اختلاف أنواعها وأحجامها.

٥. سماحته يتوسط بين تركيا وإيران ويدفع بذلك الشر عن العراق

لقد استطاع سماحة المرجع الشيخ جعفر كاشف الغطاء " أن يقنع شاه إيران، فتح علي شاه، وابنه ميرزا محمد علي، قائد الجبهة، بالعمو عن الأسرى الأتراك، بعد أن فشلت كل المساعي والوسائط التي استعملتها الحكومة العثمانية لإطلاق سراحهم"^(١) وهو الدور الذي استطاع به تجنب الدولتين المسلمتين، وشعوبهما الخاضعة لهما، ومنهم الشعب العراقي، الحروب، والدمار، والويلات.

وإذا كان صاحب كتاب (مطالع السعود بأخبار الوالي داود. اختصار أمين الحلواني) أعرض عن ذكر اسم سماحة المرجع الأعلى الشيخ جعفر كاشف الغطاء الساعي إلى الصلح بين الدولتين المسلمتين الجارتين والموفق في مسعاه، أقول إذا كان صاحب كتاب الصلح بين الدولتين تجنب ذكر الشيخ كاشف الغطاء بقوله: "والسفراء ساعون بينهما في أمر الصلح حتى تم الصلح... ثم إن العجم أطلقوا الكتخد سليمان باك ورجع إلى بغداد بموجب الصلح"^(٢)، فإن المحقق الشيخ أغا بزرك الطهراني أورد تفاصيل الصلح ومقدماته بقوله: "ولّى السلطان فتح علي شاه ولده الأكبر محمد علي ميرزا تمام محال كردستان من كرمانشاه إلى خانقين ومن خرم آباد إلى حدود البصرة وذلك حين تصدّى علي باشا والي بغداد وجند ثلاثين ألفاً بقيادة ابن أخيه سليمان باشا كهيا الكرجي الرومي فتجاوز من خانقين إلى شهرزور ومنها إلى بحيرة ميروان فتلاقوا هناك واشتعلت نيران

(١) تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين حرز الدين: ٢/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) مطالع السعود بأخبار الوالي داود. الشيخ عثمان بن محمد بن أحمد بن سند البصري. اختصار أمين الحلواني: ٢٩٤.

الحرب بينهما حتى انكسر عسكر الروم وانهزم إلى حدود الموصل وبغداد عن ثلاثة آلاف قتيل وأكثر منهم من أسرى وفيهم القائد كهيا، فالتجأ علي باشا والي بغداد إلى شيخ الجعفرية الشيخ جعفر النجفي فقبل الشيخ التماسه وذهب إلى محمد علي ميرزا متشفّعاً للأسراء فقبل شفاعته ما عدا الكهيا، فأطلقهم جميعاً، وبعث كهيا مقيّداً إلى السلطان فتح علي شاه، فأمر بحفظه وفك قيوده إلى أن يتهيأ الشيخ للسفر إلى طهران فوصل إلى السلطان مكرّماً مقبول الشفاعة فأخذه معه ورجع إلى بغداد^(١) وهو ما سبق أن تناولت دوره السلم المجتمعي ووساطته بين الدولتين المسلمتين في الكتاب الثامن من كتبي عن (الحوزة العلمية في النجف الأشرف).

لقد منح المرجع الشيخ جعفر كاشف الغطاء شاه إيران فتح علي شاه، المتقدم ذكره، بموجب ولايته العامة كفقيه "الإذن في إدارة الجيش وتديره وتقوية الحكومة من حيث العِدَّة والعُدَّة للدفاع عن أراضي المسلمين، وأعراضهم. حيث أنّه مأذون من قبل الحاكم الشرعي والفقيه الجامع للشرائط" وأوصى السلطان، وعمّال الحكومة، برعاية التقوى، والعدل، والمساواة، والشفقة، وأن يكونوا للرعية كالأب الرؤوف والأخ العطوف، "كما أجاز له خلال احتلال روسيا لأراض إيرانية - من بين أمور أخرى - "أخذ الخراج المقرّر في الإسلام، والزكاة من الموارد التسعة، فإن ضاقت عن الوفاء، ولم يكن عنده ما يدفع به هؤلاء الأشقياء، جاز له التعرّض لأهل الحدود، بالأخذ من أموالهم، إذا توقّف عليه الدفع عن أعراضهم ودمائهم، فإن لم يفِ أخذ من البعيد بقدر ما يدفع به العدو المريد".

(١) طبقات أعلام الشيعة. الكرام البررة. الشيخ آغا بزرك الطهراني: ٢٥٠/١٠. نقلاً عن روضة الصفا.

فارسي. ١/ ١٢٢١، وقد أشار إلى الشفاعة من دون ذكر اسم الشفيع. أي دون ذكر ساحة المرجع الشيخ

جعفر كاشف الغطاء: رسول الكركوكلي: ٢٣٨.

المرجع الشيخ موسى كاشف الغطاء: الصلح بين تركيا وإيران ودفع الشر عن العراق



بعد وفاة المرجع الأعلى الشيخ جعفر كاشف الغطاء سنة (١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م) وقيام المرجع الشيخ موسى كاشف الغطاء^(١) مقامه في تولي شؤون المرجعية العليا في النجف الأشرف، باشر المرجع الخلف من جديد، دور أبيه المجدد الراحل، في تخفيف حدة التوتر بين الدولتين الإيرانية والعثمانية، بعد تجدد النزاع بينهما، مرة أخرى.

لقد وفق المرجع الشيخ موسى كاشف الغطاء، أيّما توفيق، بتحقيق الصلح بين دولتين مسلمتين متحاربتين على الأرض العراقية، ويسجل التاريخ له، ولمرجعية النجف الأشرف، موقفها الوطني بفخر واعتزاز، حين استطاعت بجهودها وقف زحف جيش أجنبي على العراق، وعلى بغداد وحصارها بالأخص -يوم طلب المرجع الأعلى في النجف الأشرف الشيخ موسى كاشف الغطاء من الشاه القاجاري محمد علي ميرزا بن فتح علي شاه، الزاحف بجيشه الجرار من إيران على العراق، سنة (١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م) - ترك محاصرة بغداد، والرجوع بجيشه إلى بلده إيران، وكانت بغداد، يومئذ، تحت حكم الوالي العثماني داود باشا، الذي راعه زحف

(١) ولد في النجف الأشرف وأتقن مرحليتي المقدمات والسطوح على أفاضل علمائها. تخرج على أبيه المرجع الأعلى الشيخ جعفر وعرف بتبحره في فقه الحديث والفقه وقواعده حتى قيل إنه أعلم من أبيه الشيخ الأكبر، تخرج عليه الكثير من العلماء الذين أصبح بعضهم مراجع، وكان من أساطين العلماء والمدرسين بحيث يحضر تحت منبره التدريسي ما يناهز الألف من التلاميذ، وكان طويل القامة مهيباً وقوراً خبيراً بالسياسة مهاباً ومطاعاً من السلاطين لقب بسلطان العلماء لانقياد العلماء إلى طاعته له من الكتب منية الراغب في شرح بغية الطالب وكتاب في الصلاة وغيرها. توفي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م عن حوالي ستين عاماً وشيع ودفن في مقبرة أسرته في النجف الأشرف.

الجيش المتدفقة، تلك التي لم يبقَ بينها وبين كسب المعركة إلا عشية أو ضحاها، فاضطر الوالي داود باشا إلى الاستعانة بالمرجع الأعلى الشيخ موسى كاشف الغطاء، لإصلاح الحال، وحفظ النفوس، وحقن الدماء، سيما وقائد الحملة محمد علي ميرزا، كان مقلداً للشيخ موسى، فلم يجد الشيخ موسى بداً من السفر بنفسه، لملاقاة القائد المزبور، بعد تمهيد مباني الصلح مع الوزير داود باشا، فتوجه إلى بغداد في أواخر العقد الرابع من القرن الثالث عشر، ثم بعد إنهاء المفاوضات مع الوزير، أوصد إلى سامراء، ثم اجتمع بالقائد الخطير محمد علي ميرزا، وألزمه بالصلح، وإرجاع تلك الجموع المتدافعة تدافع السيل، فأجابه على شروط حررت وأرسلت إلى بغداد، فأمضاها داود باشا، وتم الصلح، وحقنت دماء المسلمين، واشتهر من ذلك اليوم الشيخ موسى بالمصلح بين الدولتين^(١).

ويذكر بعض الباحثين أن من بين الأسرى الذين تمكن المرجع الشيخ موسى كاشف الغطاء من إطلاق سراحهم من الأسر "عدد من زعماء القبائل العراقية المتحالفين مع السلطة العثمانية"^(٢).

وللشيخ موسى كاشف الغطاء دور مهم هو قيامه بحفظ خزائن العتبة العلوية المقدسة بنقلها إلى خارج النجف وتسجيل محتوياتها بإشرافه المباشر قبل نقلها إلى بغداد، توقيماً من استيلاء الغزاة الوهابيين التكفيرين عليها، وسرقتهم لموجوداتها الثمينة بعد تكرار هجماتهم على النجف الأشرف، ثم بعد دحر تلك الهجمات

(١) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٤٢٦/٢. وقد وردت هذه الواقعة في كتاب (الطبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية: ١٩٢) مع اختلاف في النقل، من ذلك أن الوالي الذي وقعت في عهده حيث نسبها الكتاب إلى أيام الوالي سعيد باشا. وأن "داود باشا وهو من طائفة الكولات التي منهم باشوات بغداد، وكان يسمى داود باشا" كان من الأسرى، وكان من الشخصيات (حمود السعدون) شيخ المتفق وغيرهما.

(٢) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ١٨٩.

التكفيرية كلها والاطمئنان على النجف الأشرف وعتبته المقدسة "استلم الشيخ موسى آل كاشف الغطاء صناديق الخزانة الحيدرية مختومة بخاتمه، وجاء بها إلى النجف مع مفرزة من الجند، فوضعها في حجرة من الرواق الشرقي مما يلي رجلي الإمام عليه السلام وبني عليها الباب بحيث لا يرى لها أثر، وهي بالمحل لا تزال مودعة إلى اليوم"^(١).

المرجع الشيخ حسن آل كاشف الغطاء: الحيلولة بين العثمانيين واستباحة النجف الأشرف



استمراراً لنهج المرجعين أبيه الشيخ جعفر الكبير، وأخيه الأكبر الشيخ موسى كاشف الغطاء فقد حمى المرجع الشيخ حسن كاشف الغطاء^(٢) مدينة النجف الأشرف بعتبتها العلوية المقدسة وحوزتها العلمية ومواطنيها جميعاً بمراجعهم ومجتهداتهم وفضلائهم وجميع ساكنيها ومجاوري إمامها أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام، مؤمنين ومؤمنات، حيث وقف سماحته بوجه الجزار العثماني نجيب باشا، وحال بينه وبين اقتحام مدينة أمير المؤمنين سنة (١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م).

لقد استطاع المرجع الشيخ حسن كاشف الغطاء من الحيلولة بين الوالي العثماني الجزار نجيب باشا من اقتحام مدينة أمير المؤمنين عليه السلام بجيشه وعساكره وقد توجه

(١) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ٤٢٧/٢.

(٢) ولد الشيخ حسن في النجف سنة (١٢٠١هـ) وأكمل المقدمات والسطوح وأتم دراسته العليا على يد أبيه وأخيه السيد جواد صاحب (مفتاح الكرامة) وغيرهم، تولى الزعامة الدينية والوجاهة الاجتماعية والتبجيل من السياسين والحكام. تخرج عليه جمع غفير من العلماء منهم الشيخ مرتضى الأنصاري والسيد مهدي القزويني والشيخ جواد نجف. له إضافة إلى كتابه الكبير (أنوار الفقاهة) كتاب في الزكاة، ورسالة في الإمامة وغيرها كثير. وكان شاعراً. توفي بمرض الطاعون خارج النجف ونقل وشيع ودفن في مقبرة أسرته في النجف. توفي سنة ١٢٦٢ هـ

إليها بقيادة الآلاف منهم بمعداتهم الخفيفة والثقيلة، فدفع المرجع الشيخ حسن عاديته عن مدينة النجف الأشرف بعد أن كان الوالي مصمماً على ارتكاب مجزرة أخرى مروعة بأهل النجف الأشرف، كما فعل بكر بلاء المقدسة وغيرها من مدن العراق الأخرى.

وفي كيفية ثني المرجع للجزار العثماني عن هجومه على النجف روايتان، أولى الروايتين نقلها الشيخ عباس كاشف الغطاء (ت ١٣٢٣هـ) نجل المرجع الشيخ حسن كاشف الغطاء صاحب القضية، وثاني الروايتين نقلها الشيخ محمد حرز الدين (ت ١٣٦٥هـ)، سأنقلهما معاً، مبتدئاً برواية الشيخ عباس كاشف الغطاء.

يقول الشيخ عباس نجل المرجع الشيخ حسن كاشف الغطاء متحدثاً عن وصول خبر توجه الوالي نجيب باشا نحو النجف وهلع الناس منه بما نصّه: "ووصل الخبر إلى الغري فاضطرب من فيها اضطراباً شديداً وارتاعوا وأقبلوا يهرعون من كل فج عظيم إلى دار المشايخ العامرة حتى اجتمع ملوهم فيها والوالد جالس بينهم والعلماء حوله كصاحب الجواهر وغيره من علماء النجف، وآل بحر العلوم كلهم وأشرف النجف جميعاً وبقية الناس حتى امتلأت الدار والزقاق وهجمت النساء على بقية الدور وهي ستة فيها عيالات المشايخ حتى امتلأت بالنساء والأوعية وضاحت الدور التي حولنا، والعلماء يتجاولون الرأي بينهم. وجاء الخبر أن الوالي بلغ نصف الطريق فقال الوالد ووافقه الجماعة: إنا نفتح الباب ونخرج الناس لاستقباله ونظهر الطاعة والانقياد، وأنا أدعوه بعسكره أن ينزل عندي، فإن أجاب فيا حبذا إذا دفع البلاء بذلك عن أهل النجف، وإذا امتنع خرجنا إليه واستملناه واستعنا بالله تعالى عليه، وتفرق العلماء وبقيت الناس تحمل أسبابها وتبعث نساءها إلى بيت الشيخ وإلى البيوت التي حوله حتى ملئت البيوت والسرديد

كأنها حشر الناس على صعيد واحد" (١).

ويضيف: "وأصبح الصباح فجاء الخبر أن الوالي قصد الجامع الأعظم - (مسجد الكوفة) - ومنه يأتي إلى النجف. فجمع الشيخ لحمته والعلماء الباقين وعرض على كل واحد منهم المسير إلى الوزير بكتاب يدعوه فيه إلى النزول عنده قبل أن يداهمهم العسكر فتقاعدوا وتلملوا وظهرت أمارات الكراهة فيهم إلا السيد جواد شبر... وهو من الأجلاء، جريء، جسور فقال للشيخ الوالد: أنا أحمل رسالتك إليه وأدعوه إلى النزول عندك... وأخذ الكتاب وسار منفرداً إلى مسجد الكوفة... حتى وافى المسجد، فرأى الوزير قد دخله قبله بيسير. فقال: أنا رسول الحسن بن جعفر إليكم لأدعو الوزير إلى النزول عنده ففهموا الاسم ووقفوا على المعنى وأوصلوا الخبر إلى الوالي، فسأل من كان معهم عن الشيخ مثل شيخ زبيد فعرفوه به وبأخويه وأبيه وعظموا أمره عنده... فأذن للسيد بالدخول عليه. فلما دخل حيّاه بالتحية الحسنة، وأمره بالجلوس، وقام إجلالاً له، ثم قدم له الكتاب وقال: أتيتك من قبل ولي من أولياء الله مطيع للدولة العلية داعٍ لها، أدعوك إلى بيته، وأن تكون في ضيافته. فقال له: وهل يحصل في النجف من المفسدين أحد؟ قال السيد: لا، بل كل مفسد ولّى هارباً من سطوتك... فأنعم، وكتب الجواب معلناً بالقبول، وأمر بعض الجند أن يذهبوا إلى دار الوالد وهو على الأثر" (٢).

وهكذا كان، فقد أوعز الشيخ حسن كاشف الغطاء باستقبالهم أحسن استقبال، فخرج العلماء والوجهاء المستقبلون ومعهم العلم الحيدري والمصحف، ففعلوا ما

(١) نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري. مطبوع ضمن كتاب: (العقبات العنبرية في الطبقات الجعفرية).

تحقيق د. جودت القزويني: ٣١١-٣١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٣١٢.

أمرهم به شيخهم فأحسنوا، ولما رأى الوالي العلم والعلماء حافون به ترجل فقبل العلم، وسلم على العلماء، ثم توجه الوالي معهم إلى الروضة المقدسة فأدى مراسيم الزيارة، وحين علم المرجع الشيخ حسن بذلك، قصد الصحن الشريف، ومعه مئات من السادات والعلماء والطلاب، فلما خرج الوزير من الحضرة المقدسة ونظر إلى تلك الهيئة المهمة أسرع إلى الشيخ المرجع فقبل يده، ثم توجه بصحبته إلى البيت، فأحسن الشيخ ضيافته وحاشيته وجنده. وفي الصباح طلب منه الشيخ إطلاق سراح أسراه من كربلاء، ومنح الأمان للمنهزمين منهم ليعودوا إلى أهلهم. فوافق الوزير على الطلب، مستثنياً منهم أربعة أو خمسة قال إنهم لا يدخلون كربلاء.

وبذلك دفع المرجع الوزير الجزار من استباحة مدينة النجف الأشرف. ويبدو لي بعد التأمل في الروايتين أن رواية الشيخ عباس هي الأقرب للقبول، والأدعى للتصديق لأسباب منها: أن الحادثة وقعت مع أبيه المرجع فهو أعرف بتفاصيلها، ومنها: أنه أقرب للحدث، ومنها: أن رواية الشيخ حرز الدين لا تتناسب مع ما عرف عن الجزار نجيب باشا من غلظة وفظاظة طبع وخشونة مزاج. وغير ذلك.

ويحسن بي أن أذكر هنا بأن الشيخ عباس ابن الشيخ حسن كاشف الغطاء قد أورد في مكان آخر من كتابه المذكور خلال بسطه الحديث عن مناظرة جرت بين المرجع الشيخ حسن كاشف الغطاء والسيد أبي الثناء السيد محمود الآلوسي مفتي بغداد حول (البابية) عند والي بغداد نجيب باشا أواخر شهر محرم سنة (١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م) ببغداد، وبحضور الوزير، وكان مما قاله السيد محمود الآلوسي للوزير قبل حضور الشيخ حسن ما مضمونه: "إن الدين اليوم سيستقر

ويتفق على كلمة واحدة وهي كلمة السنة والجماعة، ومن أبى ذلك قتلناه، ولو كان رئيسهم، فقال: إن أفحمتهم كان لك عليّ ذلك، فقال له: سترى بعينك" (١).

غير أن نتيجة المناظرة كانت لصالح الشيخ حسن (٢).

بعدها طلب الشيخ حسن من الوزير نجيب باشا "العفو عن جماعة كثيرة غضب عليهم خارج الزوراء وداخلها، فأنعم، وصار خلاص جملة من الشيعة بذلك عما هم فيه من الحبس والتشريد" (٣).



(١) نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري. مطبوع ضمن كتاب: (العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية: ٣٣٨.

(٢) ينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ١٣٩ / ٢ - ١٤٠.

(٣) نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري. مطبوع ضمن كتاب: (العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية: ٣٣٧.



الفصل الرابع

الربع الأول من القرن الرابع عشر

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على
الساحة السياسية العراقية خلال الربع الأول
من القرن الرابع عشر الهجري

* * *

إيقاظ الأمة وتبني الحركة الدستورية
من قبل كل من المراجع: السيد المجدد الشيرازي
والشيخ الخراساني والشيخ النائيني



المرجع المجدد السيد محمد حسن الشيرازي: إيقاظ الأمة بفتوى التنباك وواد الفتنة الطائفية



لا يخفى على المهتمين بالتاريخ والواقفين عند أحداثه المفصلية الدور العلمي والاجتماعي والسياسي المشهود للمرجع المجدد السيد محمد حسن الشيرازي (ت ١٣١٢ هـ / ١٨٩٥ م)^(١) المرجع الأعلى في وقته، والمجدد في البحث الفقهي / الأصولي، وخاصة في أصول الفقه كما تقدم في الكتاب السابع، وصاحب الدور الاجتماعي المؤثر، وخاصة في سامراء كما تقدم في الكتاب الثامن، والمنظر السياسي والمنفذ لنظريته في تحريم استعمال الدخان، وفي بعض المصادر وتهديده بعدها بإعلان الجهاد العام خلال ثمان وأربعين ساعة إذا لم يبلغ امتياز الشركة وقد سُميت حركته تلك بـ (بانتفاضة التنباك).

١. انتفاضة التنباك

لقد منحت إيران الحقوق الحصرية بالتبغ الإيراني سنة (١٣٠٦ هـ / ١٨٨٩ م) إلى شركة بريطانية يرأسها أحد المقربين من رئيس الوزراء البريطاني آنذاك اللورد ساليزبوري كما يقول الباحث ستيفن بولسون في كتابه (الحركة الاجتماعية في القرن العشرين في إيران: الثقافة والإيدلوجيا وأطر الحشد)، وذلك من خلال

(١) السيد محمد حسن السيد محمود الشيرازي المعروف بالمجدد الشيرازي ولد في شيراز سنة (١٢٣٠ هـ)، وأكمل مقدمات دراسته العلمية فيها ثم انتقل منها إلى أصفهان لاتمام دراسته العليا، ثم هاجر إلى النجف فدرس عند كبار مراجعها غير أنه لازم درس الشيخ الأنصاري وكان من عمدة طلابه، تقلد المرجعية بعد وفاة أستاذه الشيخ الأنصاري ثم سافر إلى سامراء وأسس فيها حوزة علمية دامت لعشرين سنة ضعفت بعد وفاته ثم انتقلت إلى النجف الأشرف تتلمذ على يديه الكثير في مقدمتهم المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي مفجر ثورة العشرين، والمرجع الميرزا النائيني والسيد اسماعيل الشيرازي، والشيخ عبد الكريم الحائري، والأخوند الخراساني وغيرهم. توفي في سامراء وشيع ودفن في النجف الأشرف سنة (١٨١٢ هـ) عن ٨٢ عاماً.

سحب حق بيع وشراء التبغ والمنتجات المرتبطة به من أيدي الإيرانيين ومنحه للشركة البريطانية لمدة خمسين عاماً في الوقت الذي كان فيه ما قدّر بعشرين بالمائة من الإيرانيين يعملون في قطاع التبغ. فحرّم سماحته تعاطي التنباك أو التبغ في عموم إيران، فانتفضت إيران عن بكرة أبيها، وامتنع الإيرانيون بمن فيهم خاصة الشاه في قصره عن التدخين، فكسدت أسواقه، وتداعت تجارته، ما اضطر السلطان أن يستعين بالإنكليز طالباً منهم أن يضعوا حداً لمشكلتهما المشتركة بقوله: "خذوا رضا رئيس الشيعة الإمامية الميرزا الشيرازي في العراق، وقدموا على السيد الشيرازي، وبذلوا له الأموال الطائلة، وكالوا له من الأمنيات الشيء الكثير، وآخر كلام له مع الوفد الانكليزي: (لو تملؤوا الدنيا ذهباً وفضة لم يكن الأمر)"^(١).

ويصف أ.ج براون ما حدث بقوله "في أوائل كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩١ وصلت رسالة من مجتهد سامراء الحاج ميرزا حسن الشيرازي تدعو الناس إلى التخلي التام عن التبغ إلى أن يتم إلغاء الامتياز... وفجأة وبتوافق تام... أغلق تجار التبغ حوانيتهم ووضعت الغلايين جانباً، ولم يعد أحد يدخن لا في المدينة ولا في حاشية الشاه ولا حتى في حجرات النساء. فيا للانضباط، ويا للطاعة"^(٢).

وإذ يؤس الشاه من إقناع المرجع بتغيير موقفه وتصاعدت الاضطرابات الداخلية وكسدت تجارة التبغ أضطر الشاه إلى إلغاء الاتفاق مع الشركة البريطانية المحتكرة، مع دفع غرامة كبيرة نتيجة هذا الإلغاء.

(١) معارف الرجال. الشرخ محمد حرز الدين: ٢/ ٢٣٥.

(٢) ثورة ١٩٢٠. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق د.

وميض جمال عمر نظمي: ١١٦.

٢. أثر فتوى التنباك وسيرة سماحته في إيقاظ الوعي السياسي لحوزة النجف الأشرف فشيعة العراق

لقد كان لهذه الفتوى دورها الفعال في إيقاظ الوعي السياسي لرجال الحوزات العلمية في الدول الإسلامية، وبخاصة حوزة النجف الأشرف، وبالأخص بين تلامذته المقربين، وتلامذة تلامذته، وشكلت عاملاً استنهاضياً للجيل الجديد من طلبة الحوزة ودافعاً إلى مستوى أعلى من الاهتمام السياسي للعلماء^(١)، وليس على مدى عمر السيد المرجع وعصر الفتوى، فحسب، بل على مدى العديد من العقود اللاحقة، بما في ذلك عصرنا الحالي، ويأتي في طليعة تلامذته المقربين، ممن تأثر به تأثراً ملحوظاً، قادة الحركة الدستورية من علماء النجف الأشرف، وتلامذتهم، وتلامذة تلامذتهم، كما سيأتي تفصيله لاحقاً.

وبالرغم من أن ثورة (التنباك)، قد حصلت في إيران، وأن ما أسفر عنها من تفاعلات ونتائج أثرت بشكل أساسي على المجتمع الإيراني، فقد كان لها صدى قوياً في العراق، ولا سيما في المناطق والمدن الشيعية وبالأخص حوزة النجف الأشرف كما تقدم، بسبب تشابك العلاقات بين هذه المناطق والمدن وإيران، وانعكاس الأحداث عليها من جهة، وبسبب التدخل الفعال للمرجع الأعلى الذي مقره في العراق في شأن قضية التنباك، بل وتزعمه لانتفاضتها من جهة ثانية.

لقد تابع العراقيون في المناطق الشيعية تلك الأحداث باهتمام كبير. وبالأخص ما أثارته داخل الحوزات والحلقات والمدارس العلمية من جدل فكري وسياسي عام لم تعهده من قبل.

(١) تنظر: نظريات السلطة في الفكر السياسي الشيعي المعاصر. د. علي فياض. ط ٢. مركز الحضارة لتنمية الفكر

وهكذا مثلت الفتوى التي أصدرها الإمام الشيرازي، وتدخله المباشر في قضية التباك، والانتفاضة المتولدة عنها، إحدى أهم المواقف والنشاطات الفكرية والسياسية للعلماء المسلمين الشيعة في العراق أواخر القرن التاسع عشر، وشكّلت مظهراً رئيساً من مظاهر الاتجاه الثقافي الفكري السياسي الإسلامي الذي مهّد لقيام الحركة الإسلامية في العراق أوائل القرن العشرين^(١)، باعتبارها أول تعبئة عامة للشعب ضد الدولة، جعلت المراجع والعلماء ممثلين طبيعيين لعامة الشعب ومصالح العامة^(٢)، فجاءت هذه الفتوى "تتويجاً لدور المرجعية وقوة نفوذها، وهو النفوذ الذي مكّن فقيهاً قابلاً في سامراء بالعراق من أن يشلّ حركة الشاه في إيران، ويرغمه على التراجع علناً بفتوى صغيرة من سبع كلمات، وقد بقيت هذه الواقعة نقطة سوداء في سجل الشاه ناصر الدين، دفع حياته في نهاية الأمر ثمناً لسياسته عندما اغتيل عام (١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م) قتلاً بالرصاص كان هذا الانتصار أول انتصار تسجّله حركة شعبية.. في تاريخ العالم الإسلامي وكانت هذه هي الخطوة التمهيدية للحركة الدستورية اللاحقة في إيران"^(٣)، وفي حوزة النجف الأشرف التي كان لها دور مشهود في تطبيق مباني هذه الحركة في إيران والنجف الأشرف إثر تحريرها من براثن المحتلين الإنكليز في ثورة العشرين كما سيأتي تفصيل ذلك في الكتاب العاشر من كتبي عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

ونظراً لتأثير هذه الفتوى القوية عدت "أحد أهم المواقف والنشاطات

(١) تنظر: مقدمة تقارير آية الله المجدد الشيرازي. بقلم السيد محمد بحر العلوم ٤٠/ ١.

(٢) تنظر: حدود الديمقراطية الدينية. د. توفيق السيف: بحث على أبواب القرن العشرين.

(٣) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٢٢٥.

الفكرية السياسية لعلماء المسلمين الشيعة في العراق في أواخر القرن التاسع عشر، فكانت مظهراً رئيساً من مظاهر الاتجاه الثقافي السياسي الإسلامي الذي مهد لقيام الحركة الإسلامية في العراق في أوائل القرن العشرين، وإنها عكست تفاعلاتها الثقافية والسياسية على الشعب العراقي فخلقت جوّاً من العداء للاستعمار الغربي وأساليب تغلغله في أوساط المسلمين. وظهر ذلك جلياً في حركة الجهاد ضد الاستعمار البريطاني وثورة العشرين^(١).

وقد ورد أن المجدد الشيرازي هو "أول مرجع يفرض على وكلائه في البلدان المختلفة إرسال الأموال المتجمعة إليه بعدما كان الوكيل يتولى إنفاقها في المصالح الدينية في بلاده، ولم يكن ذلك معروفاً إلا في عهده"^(٢).

لقد كان للسيد الشيرازي دور مشهود أيضاً في رفضه استقبال السلطان ناصر الدين شاه من خارج مدينة خارج النجف الأشرف، ولا في زيارته له في دار إقامته بالنجف الأشرف بعد وصوله إليها، منطلقاً في ذلك من إيمانه بسلطة الفقيه، ومن المقولة التي يستشهد بها الفقهاء كثيراً ويعملون بها^(٣) وهي "إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك فقولوا بئس العلماء وبئس الملوك، وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء فقولوا نعم العلماء ونعم الملوك"، وبقي السيد المرجع معرضاً عن زيارة الشاه مدة حتى افتقده الشاه، فأرسل إليه رسولاً طالباً لقاءه، فوافق على أن يكون اللقاء

(١) حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر. سابق: ٢٥٤ - ٢٥٥ نقلاً عن تقريرات آية الله المجدد الشيرازي لعلي الروزدری: ٤٠.

(٢) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٢٢٣. نقلاً عن كتاب (جبل عامل في التاريخ). للمرجع الشيخ محمد تقي الفقيه: ٥٣.

(٣) كان والدي رحمه الله كثيراً ما يردد ما حين يستدعيه موقف ما إلى زيارة ملك أو رئيس فيرفض محبياً المبعوث أو الوسيط بهذه المقولة.

في الحضرة الشريفة وهو على وشك الرحيل من النجف الأشرف.

وقد دوّن السلطان لقاءه بالمرجع في مذكراته ليوم (١٩ رمضان ١٢٨٧هـ/ ١٣ كانون الأول ١٨٧٠م) آخر يوم من زيارته للنجف الأشرف وللمرقد الشريف بقوله: "أدينا الزيارة بكمال التأسف والحسرة، وهناك التقينا بالميززا حسن الشيرازي، وهو من كبار العلماء حيث لم يأت لاستقبالنا، ولم نره مدة إقامتنا في النجف، وقد جاء معه مشير الدولة إلى الصحن، وهناك التقيت به، وهو عالم صالح تقي، وتوسمت فيه الصلاح، ويقال إنه عالم ذكي جداً، وهو يشبه المرحوم الشيخ سعدي الشاعر الشيرازي، تحدثنا قليلاً، وقرأ لنا دعاء، ثم خرجنا وركبنا وذهبنا إلى خارج المدينة عن طريق وادي السلام"^(١).

ومما يلفت النظر أكثر من غيره في ذكر الشاه للقاءه بالمرجع، ويستدعي التوقف عنده والتأمل فيه، تشبيهه للمجدد الشيرازي بالشاعر سعدي الشيرازي أحد كبار شعراء إيران في القرن الثالث عشر الميلادي بل في كل العصور، ويعد كتاباه (روضة الورد) و(البستان) من أكثر الكتب الفارسية التي تخطت حدود ثقافتها ولغتها إلى العالمية وأثرت في شعراء الشرق والغرب كثيراً، ولا زالت أبياته عن (وحدة البشر) من كتابه (روضة الورد) تزيّن السجادة الفارسية بمركز الأمم المتحدة في نيويورك، وقد استشهد بها الرئيس الأمريكي باراك أوباما في إحدى كلماته سنة (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

ولعل حكمة وواقعية وأخلاقية وقوة تأثير الشاعر الشيرازي التي تخطت حدود الزمان والمكان هي التي أوحى للشاه بفراسته هذا الشبه بين الشخصيتين الكبيرتين.

(١) العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه. ترجمة وتعليق محمد الشيخ هادي الأسدي: ١٨١.

٣. وأد سماحته للفتنة الطائفية في سامراء

وللمرجع المجدد السيد الشيرازي بعد ذلك دور محمود في درء فتنة طائفية وقعت في سامراء سنة (١٣١١هـ/ ١٨٩٣م) "قيل في منشئها أن الوالي حسين باشا العثماني زار الميرزا السيد فلم يعتن به، فحقق على الميرزا، وأغرى بالشيعة في سامراء بعض المتعصبين من الأهالي والوجوه ممن ثقل عليهم توطن الميرزا في بلدهم، وعندئذ وقعت الفتنة في سامراء، واتسعت الطائفية إلى بغداد وغيرها، وتناقل الوالي عن سماع شكوى العلماء وطلاب العلوم في سامراء، بل منع من إعلام السلطان عبد الحميد بالتلغراف، وسافر جماعة إلى إيران لإعلام عبد الحميد من هناك مع أخبار ناصر الدين شاه بما حلّ بطلاب العلوم المهاجرين، وسكان سامراء من الشيعة، ولم يأخذ الشاه بادئ الأمر بأيديهم من النصرة لهم. ولا يسعه السكوت عنهم خوف الرأي العام فأسعفهم بنوع من الإسعاف والنصرة.

ولما بلغ عبد الحميد خان ما حلّ بالعلماء، أقام الدنيا وأقعدها حتى أطفأ النائرة. وقمع الفساد، وعاقب المسؤولين بعقاب صارم، وتظاهر سفير الإنكليز بنصرة السيد الشيرازي وأصحابه، وقدم سامراء، وطلب الإذن بالدخول على الميرزا، فلم يأذن له، ولم ييثر شكواه إليه حفظاً لناموس الإسلام والمسلمين، ورجع السفير مع أصحابه خائبين من مداخلتهم في شؤون المسلمين"^(١).

وينقل صاحب كتاب (تاريخ الحركة الإسلامية في العراق) أن القنصل الإنكليزي في بغداد حاول أن يستغل الموقف لصالح دولته، وليثيرها عجاجة على الحكم العثماني، فسافر إلى سامراء لتسكير الفتنة، ومقابلة السيد لعرض خدماته ونصرته له، فما كان من المجدد الشيرازي أن رفض مقابله، ورد عليه:

(١) معارف الرجال. سابق: ٢/ ٢٣٦-٢٣٧.

أن لا حاجة لدس أنف بريطاني في هذا الأمر الذي لا يعينها، لأنه والحكومة العثمانية على دين واحد، وقبلة واحدة، وقرآن واحد^(١).

المرجع الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني: الدستورية وتنشيط الوعي السياسي في العراق

ثانياً

نهض المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني^(٢) بعدة أدوار تاريخية في آن واحد، فخلال حقبة مرجعيته أخذ على عاتقه مهمة الفتيا بالجهاد دفاعاً عن بيضة الإسلام والمسلمين عندما احتلت إيطاليا بجيشها ليبيا المسلمة، ثم أفتى بالجهاد ضد روسيا عندما احتلت أجزاء من إيران، بل خرج للجهاد بنفسه وعسكر بالمجاهدين خارج النجف، عازماً على التوجه صوب إيران فجر اليوم الذي شاءت الإرادة الربانية أن تنقله إليها حيث توفي وشيع ودفن في النجف الأشرف.

لقد كان المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني قطب الحركة الدستورية في النجف الأشرف وحامل لوائها، ومعه من مراجع النجف الأشرف كل من الشيخ عبد الله المازندراني^(٣)، والشيخ محمد حسين النائيني^(٤)، الساعد الايمن للشيخ

(١) ينظر: الرهيمي: ١٢٨. نقلاً عن علي البازركان. في كتابه الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية: ٤.

(٢) ولد سماحته في طوس سنة (١٢٥٥هـ) ودرس المقدمات فيها ثم هاجر إلى النجف فأتم دراسته على مجتهد عصره وفي مقدمتهم الشيخ الأنصاري، ثم استقل بالتدريس وأبدع في الأصول فكان ثمره ذلك كتابه (الكفاية) وتخرج على يديه جمهرة غفيرة من الأعلام له من الكتب عدا الكفاية حاشية على المكاسب وحاشية على الرسائل توفي في النجف الأشرف وشيع ودفن في الصحن العلوي الشريف سنة ١٣٢٩ هـ.

(٣) ولد سماحة الشيخ عبد الله المازندراني في بارفروش سنة (١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م) فبدأ دراسته الأولية فيها ثم هاجر إلى العراق لإكمال دراسته العليا فقصده كربلاء المقدسة أول، ثم هاجر إلى النجف الأشرف فحضر عند الفقيه الشيخ مهدي ابن الشيخ علي آل كاشف الغطاء والشيخ الجليل حبيب الله الجيلاني (قدس الله سرهما). وإذ توفي شيخه الرشدي الذي لازمه حتى وفاته استقل بالدرس. وكان الشيخ رحمه الله من دعاة =

الخراساني "وأقرب تلامذته ومستشاره الخاص لحظة المشروطة"^(٢)، والملا حسين خليل، المعروف بالخليلي^(٣)، كبير مراجع النجف الأشرف، تلك الآونة،

١. المشروطة أو الحركة الدستورية

ويقصد بالمشروطة "تلك الحركة التي ظهرت في تركيا وإيران تطالب بالدستور وبالنظام النيابي في الحكم في عام ١٩٠٨ و ١٩٠٩ م"^(٤). يقول الشيخ علي الشرقي النجفي المعاصر للحركة متحدثاً عن المشروطة "وكانت زعامتهم معقودة للعلامة الملا كاظم الخراساني، وإخوانه العلامة الخليلي، والشيخ عبد الله، وبقية الأعلام"^(٥).

= الإصلاح المشهود لهم بالتصدي له والدعوة اليه. توفي في النجف الأشرف عن عمر ناهز ٧٥ سنة ودفن بالصحن العلوي الشريف سنة (١٣٣٠ هـ / ١٩١١ م).

(١) تتلمذ الشيخ النائيني على السيد محمد حسن الشيرازي في سامراء ثم حضر على الشيخ الخراساني في النجف فأصبح عمدة تلامذته، تصدى للمرجعية وتولى مهمة تربية العديد من العلماء من أمثال السيد الكلبيكاني والسيد الخوئي والشيخ حسين الحلي وغيرهم. له تعليقات على العروة الوثقى وله كتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملة نظر فيه للحركة الدستورية. له مواقف مشهودة في ثورة العشرين وبعدها ما استدعى قوات الاحتلال لتفسيره إلى إيران. ابتلي بمرض لم يمهل طويلاً فتوفاه الله سنة (١٣٥٥ هـ) ودفن في الصحن العلوي. وقد تقدم ذكره وسيأتي كثيراً لاحقاً.

(٢) مفهوم الدولة في مدرسة النجف. بقلم د. عبد الجبار الرفاعي. منشور كمقدمة لكتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة). للنائيني. ترجمة د. مشتاق الحلو: ٢٥.

(٣) الشيخ حسين الشيخ خليل بن إبراهيم ولد في النجف سنة (١٢٣٠ هـ) درس الأوليات والبحث الخارج في النجف على يد المراجع: الشيخ الأنصاري، والشيخ الجواهري، وغيرهم. وتخرج عليه الشيخ أغا بزرك الطهراني والشيخ ضياء الدين العراقي والشيخ محمد حرز الدين. تمحّص لدرس الفقه فأبدع فيه. من كتبه: كتاب في الغضب وكتاب في الإجارة. توفي في الكوفة ودفن في النجف سنة ١٢٣٦ هـ.

(٤) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. د. علي الوردي: ١٣٨.

(٥) الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ١٢١.

وإن كان تأثر المرجع الشيخ الخليلي بمبادئ الحركة الدستورية بدا بدرجة أخف حينها. بل ورد أنه قد غيّر رأيه بعد ذلك وعدل عنه^(١) خلافاً لما ذهب إليه الحجة السيد محمد كلانتر^(٢) من أن الميرزا الخليلي كان أشد من المحقق الخراساني، والشيخ المازندراني، حماسة في هذا النهضة، وأنه هو: "الغارس بذرتها، والمفتي بوجوبها، لكن المنية عاجلته واختطفته، فاقتطف ثمارها زميله الخراساني بعد أن أينعت ثمارها وحن قطفها"^(٣). لوضوح أن صاحب الرأي المخالف للسيد كلانتر، وهو الشيخ محمد حرز الدين، معاصر للحدث، ومن تلامذة الشيخ الخليلي المباشرين، ويشهد شهادة حيّة عن عدول أستاذه المرجع الخليلي عن رأيه السابق بتبني حركة المشروطة لاحقاً^(٤). وعليه فلا عبرة برأي السيد كلانتر المخالف.

ويعدّ دعاة المشروطة الكبار والسالكين نهجها أيضاً، كل المراجع لاحقاً: الشيخ محمد تقي الشيرازي مفجر ثورة العشرين^(٥)، وشيخ الشريعة الأصهباني

(١) ينظر: معارف الرجال. سابقاً: ٢٧٨-٢٧٩ متحدثاً عن موقفه من المشروطة: "ولما ظهر خطأ الطريق بعد، عدل شيخنا الأستاذ عما أفق به سابقاً".

(٢) ولد السيد محمد بن سلطان بن مصطفى كلانتر في النجف سنة (١٣٣٥هـ) ودرس المقدمات على أيدي علمائها حتى إذا أتم دراسته الحوزوية العالية نشط في التأليف والتحقيق وشرح الكتاب الدراسي في الحوزة، كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري، وحقق الكتاب الدراسي الآخر (اللمعة الدمشقية)، كما حقق جامع السعادات وغيره. أسس مدرسة كبيرة أسماها (الجامعة الدينية). توفي سنة (١٤٢٠هـ) ودفن فيها.

(٣) مقدمة كتاب المكاسب للشيخ الأنصاري. بقلم السيد محمد كلانتر: ١/ ١٧٠.

(٤) ينظر: معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ١/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٥) ولد الشيخ ميرزا محمد تقي بن محب الدين بن محمد علي الشيرازي بشيراز ثم هاجر إلى كربلاء فتلقى دروسه العلمية على يد علمائها، هاجر إلى سامرا ملتحقاً بالمجدد الشيرازي وتلمذ على يديه علماً وسياسة، وإذ بلغ من العلم مبلغاً كبيراً أوكل إليه أستاذه مع علمين آخرين التدريس في سامراء. تولى الزعامة الدينية والسياسية بعد وفاة أستاذه المجدد الشيرازي، ثم انتقل إلى كربلاء فقاد منها ثورة العشرين ضد الإنكليز من مؤلفاته حاشية على المكاسب في الفقه، وكان شاعراً باللغتين العربية والفارسية توفي في كربلاء (١٣/ ١٢/ ١٣٣٨هـ/ ١٣/ ٨/ ١٩٢٠م) ودفن في الصحن الحسيني الشريف. وسيأتي الحديث عن دوره السياسي المشهود لاحقاً.

زعيم ثورة العشرين بعد وفاة مفجرها، والشيخ مهدي الخالصي، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني، من زعمائها ورجالها أيضاً، وغيرهم كثير، كما سيأتي.

ويسعى دعاة (المشروطة) إلى أن يكون الحكم (مشروطاً) ومقيّداً بدستور، ومجلس شوري، وقانون، كما تقدم.

ويسعى دعاة (المستبدة) إلى أن يكون الحكم سلطة مطلقة^(١)، وكانت زعامتهم معقودة للمرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي "وكم من موقف احتك فيه هؤلاء بهؤلاء"^(٢).

لقد توجّج كبار المراجع والمجتهدين والعلماء والشيخوخ من دعاة الحركة الدستورية، أو (المشروطة) في النجف الأشرف نشاطهم بتشكيلهم سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م) لجنة لإدارة الأزمة، والإجابة عن الأسئلة الواردة إليها، برئاسة الشيخ محمد كاظم الخراساني، وعضوية أكثر من ثلاثين عالماً من مريديه وتلامذته وخاصة، منهم إضافة لأكثر من تقدم ذكرهم كل من: السيد هبة الدين الشهرستاني، والشيخ محمد المحلاتي، والسيد مسلم زوين، والشيخ جواد الجواهري، والسيد محمد علي بحر العلوم، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الحسين الجواهري، والسيد عيسى كمال الدين، والسيد صالح كمال الدين وغيرهم كثير. وسيتضح دورهم الكبير في ثورة العشرين لاحقاً.

لقد بدأ هؤلاء المجتهدون والعلماء والفضلاء اجتماعاتهم أول الأمر، بدار

(١) ينظر: تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين حرز الدين: ١٠١/٣، والأحلام للشيخ علي الشرقي:

(٢) الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ١٢١.

المرجع الشيخ الخراساني، ثم نقلت اللجنة اجتماعاتها إلى المدرسة العلوية في السنة اللاحقة.

وكان مما قامت به خلية الأزمة في النجف الأشرف حينها، أن بعثت رسالة جوابية إلى سائليهم في إيران، وقّعها الشيخ الخراساني نيابة عن عشرة مجتهدين، يؤكدون فيها دعمهم للدستور، ولقوانين مجلس الشورى الوطني، ثم أعقبوها برسائل، ومواقف أخرى عديدة، لا يسع المجال لذكرها هنا.

٢. قادة (المشروطة) في النجف الأشرف يسعون لإقامة نظام وفق

نظريتهم الدستورية في كل من إيران والعراق

بعد وفاة شيخ الدستورية الخراساني نهج تلامذته في تبني الحركة الدستورية نهجه، حتى كادوا يحققون مرادهم بتحقيق ما ناضلوا من أجله بقيام نظام دستوري وفق مبادئهم في إيران، بل وفي العراق أيضاً، وهو ما يهمننا في بحثنا هنا، لولا مشيئة الله، ولا راد لمشيئته.

أما سعيهم لقيام نظام دستوري في إيران وأسوقه هنا كتمهيد فقد تبين بإرسالهم الرسائل والفتاوى إليها لتنجيز مشروعهم متمثلاً بما نقله المؤرخ الشيخ محمد حرز الدين بخصوص اجتماع عقد سنة (١٣٤٥ هـ / ١٩٢٤ م) حضره كل من السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ النائيني، والشيخ جواد الجواهري، والسيد محمد علي الطباطبائي آل بحر العلوم النجفي، والشيخ مهدي نجل الأخوند الخراساني، وبعض آخر لم يذكره الراوي لنا، وكان مشاهداً، ومن حاشيتهم، اجتمعوا في حرم أمير المؤمنين في النجف ليلاً، قبل الفجر بساعتين، بوزير الحرية، يومئذٍ، (رضا خان البهلوي) لحكومة السلطان (أحمد شاه) القاجاري، وتداولوا الحديث في شؤون إيران، وكان المنوي أن رضا شاه هو الذي يكون سلطاناً،

وبعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق والأيمان، أن يسير برأي العلماء، وأن يكون مجلس الشورى، بنظر خمسة من المراجع الدينية، وأن المذهب الرسمي هو المذهب الجعفري، إلى غير ذلك، ثم رجع البهلوي إلى إيران، وبعد رجوعه خلعوا أحمد شاه، وكان خارج إيران للاستشفاء، ولما نشبت أظفار البهلوي في الحكم، وصفا له الجوّ، نكل بوعدده، وقلب لهم ظهر المجنّ ولله عاقبة الأمور^(١). وهو خارج نطاق بحثنا الحالي.

وأما سعيهم في العراق، وهو مدار بحثنا، فقد تمثل في تواصل المظاهرات الرافعة لشعاراتهم ومبادئهم تعطل في النجف الأشرف خلالها "الأسواق والحلقات التدريسية، كما تنظم الاجتماعات العامة في جوامع النجف ومدارسها الدينية فتلقى الخطب باللغات العربية والفارسية"^(٢)، وأدت أيضاً إلى تكوّن عدد من الجمعيات والأحزاب السياسية، ونشوء حركة صحفية فعّالة، وتأسيس مطابع لنشر المعرفة إلى جانب توزيع حثيث للصحف والمطبوعات الخارجية بسرية تارة وعلنية من أمثال مجلة (العروة الوثقى) التي أصدرها السيد جمال الدين الأفغاني وصحيفة (حبل المتين) التي كانت تصدر في مدينة كلكتا الهندية، و(العرفان) اللبنانية، و(المؤيد) المصرية، و(الهلال والمقتطف) المصريتين وغيرها، وأفسحت المجال أمام العراقيين للإسهام بدور ما، وإن كان ضئيلاً، في رسم السياسة العثمانية من خلال كونهم نواباً في (مجلس المبعوثان) العثماني من جهة، وكضباط في الجيش العثماني من جهة أخرى، وتسهيل اتصال العراقيين بالخارج والاطلاع على ثقافات الدول الأخرى وخاصة

(١) معارف الرجال. سابق: ٤٩/١.

(٢) مقدمة كتاب ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات لمحمد علي كمال الدين. بقلم علي

الدستورية منها من خلال وسائل النقل من جهة ثالثة. كل هذه وأمثالها ساعدت مجتمعة بشكل كبير على نشر الوعي الثقافي "لأن تأييد العلماء لها جعل الناس يعتقدون بأن فكرة قيام حكومة دستورية حديثة لا تتعارض مع تعاليم الإسلام. يضاف إلى ذلك أن اشتراك عدد من العراقيين... يدل على أن حركة الدستور بدأت بربح مؤيدين من الأوساط الشعبية"^(١) ليس في العتبات المقدسة وحدها بل في بغداد أيضاً.

وما أن تمت التعبئة الجماهيرية، وحانت الفرصة السانحة لتحقيق مطلب المشروطة بإقامة نظام دستوري ثار المراجع والقادة والزعماء والوطنيون في ثورة كبرى أججوها وأشعلوها أوارها ضد الإنكليز المحتلين سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م)، سميت بكتابات المؤرخين بـ(ثورة العشرين) لم يقدر لها النجاح المنتظر.

المرجع الشيخ محمد حسين النائيني: التنظير الشرعي للسلطة الدستورية



لقد كان من أدق وأوضح ما خلفته لنا حركة الدستوريين في حوزة النجف الأشرف على صعيد التأسيس والتنظير كتاب: (تنبيه الأمة وتنزيه الملة)^(٢) للمجتهد المنظر، المرجع لاحقاً، الشيخ محمد حسين النائيني، رداً على تشكيكات مخالفي (الدستورية) من دعاة ما سمي بـ(المستبدة).

(١) الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. سابق: ٩٦.. وينظر في تأثير الحركة الدستورية على العراقيين في: المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٢٢٩.

(٢) طبع نص الكتاب مع قراءة مستوعبة وترجمة بقلم الباحث توفيق السيف بعنوان ضد الاستبداد الفقه السياسي الشيعي في عصر الغيبة تصدرتها مقدمة لساحة السيد محمود الطالقاني وتقريض العالمين الشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني.. ط ١. إصدار المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. وبيروت. ١٩٩٩ م.

ويعدّ كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) الذي انتهى مؤلفه من تأليفه سنة (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م) بأنه -كما وصف- أول محاولة جادة، لتنظير شرعي، لسلطة دولة دستورية مدنية في الفكر السياسي الشيعي، وربما الإسلامي في العصر الحديث، تقوم على أساس انتخابات عامة مباشرة للمواطنين، بمن فيهم غير المسلمين، لاختيار ممثليهم في مجلس تشريعي، يتولى إصدار القوانين والتشريعات، ورقابة أداء السلطة التنفيذية^(١).

بل ذهب بعض الباحثين إلى أنه "النص الوحيد.. الذي اخترق الزمان، وتحول فيما بعد إلى نموذج إرشادي، ومنبع إلهام للكتابات والرؤى والآراء اللاحقة في الفقه السياسي الشيعي، يمكننا ملاحظة تأثيره في دستور جمهورية إيران الإسلامية وبعض الآراء في الفقه السياسي للسيد محمود الطالقاني، والشيخ مرتضى المطهري، والسيد محمد باقر الصدر، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، والشيخ حسين علي المنتظري، وأخيراً السيد علي السيستاني.. وربما يعود ذلك إلى الأسلوب الاستدلالي الذي انتهجه النائيني في بيان آرائه ومناقشة الآراء التي يختلف معها، وابتعاده عن الأحكام المتسرفة والقاسية حيال الآخرين، واستيعابه لثقافة عصره فيما يتصل بأثر الاستبداد والحكومات الشمولية في انحطاط البلدان، ورؤيته للدولة، وقيام نظمها وتدابيرها على ما راكمته الخبرة البشرية، والتفكير خارج المدونة الفقهية في قضايا الدستور، وضرورة وجود برلمان، وانتخابات برلمانية، وبيان مهام البرلمان في صياغة القوانين، والحرية، والمساواة بين المواطنين، والعدل"^(٢).

(١) ينظر: الفقيه والدولة. فؤاد إبراهيم: ٢٣٦.

(٢) مفهوم الدولة في مدرسة النجف بقلم: د. عبد الجبار الرفاعي. مقدمة لكتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملة للنائيني.

لقد سبق تأليف كتاب (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) الذي انتهى مؤلفه من تأليفه سنة (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م) صدور كتاب (طبائع الاستبداد) لعبد الرحمن الكواكبي سنة (١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م) مقترحاً فيه الكواكبي صيغة جديدة لنهضة عربية شاملة، وعلى الرغم من أن الكتّابين بحثا في موضوع الاستبداد إلا أن بحوث المحقق النائيني "قائمة على تقديم نظرية محددة في الحكم، في حين أن الكواكبي اقتصر في بحثه على الملاحظات الوصفية التي تقرب بعض المباحث إلى مستوى المقالة العادية البسيطة البعيدة عن التنظير القابل للتحوّل إلى عمل وممارسة"^(١).



(١) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٢٥٢.



الفصل الخامس

الربع الثاني من القرن الرابع عشر

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على
الساحة السياسية العراقية خلال الربع الثاني
من القرن الرابع عشر الهجري

* * *

إعلان الجهاد الدفاعي
ضد الاحتلال البريطاني للعراق





المجتهد العارف المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي: إنشاء (الحكم) بالجهاد الدفاعي، فالتعبئة، فالزحف

حين خطط الإنكليز لاحتلال مدينة البصرة من أجل السيطرة على منابع النفط، وحماية مناطقه وخزاناته وأنابيبه في المنطقة الاستراتيجية على الخليج، وارتأوا أن احتلال العراق وبقائه "تحت سيطرة بريطانيا ضروري للاحتفاظ بالهند"^(١)، وإذ بدأت الحرب العالمية الأولى قرر الإنكليز أواخر سنة (١٣٣٢هـ / ١٩١٤م) تنفيذ مخططهم باحتلال مدينة البصرة فثارت ثائرة مراجع حوزة النجف الأشرف، حفاظاً على بيضة الإسلام بعد أن "استشرى الشر وحمى الوطيس وأحرق الخطر وزعزع العثمانيون في العراق وزلزلوا زلزالاً شديداً، فاستغاثوا بالنجف الأشرف والنجف قلب العراق والعراق جوّجؤ البلاد الإسلامية وجمرة العرب واستنصروا بزعماء الدين في النجف وزعماء الدين فيها هم حماة الإسلام وقطب الرحي"^(٢).

فما كان منهم إلا أن أجابوا داعي الجهاد وهبوا للتصدي للمعتدي الغاشم فكانت أولى خطوات الاستعداد لخوض المنازلة هي الإعلان والتوعية والتبليغ فدعوا إلى "عقد اجتماع كبير في جامع الهندي حيث ألقى الخطب الحماسية وكان من الخطباء السيد محمد سعيد الحبوبي"^(٣) ومنهم أيضاً "والشيخ عبد الكريم

(١) مذكرات توفيق السويدي: ٥٦ نقلاً عن (بلفور) في حديث جرى بينه وبين توفيق السويدي خلال زيارة السويدي له في مقره ببغداد.

(٢) حجر وطن. الشيخ محمد تقي الفقيه: ١٩٩/٤.

(٣) ولد ساحة المجتهد السيد محمد سعيد ابن السيد محمود ابن السيد كاظم الحبوبي في النجف الأشرف سنة (١٢٦٦هـ / ١٨٤٩م) فحفظ القرآن عن ظهر قلب وهو لما يزل طفلاً ثم درس الأدب على خاله، هاجر بعد ذلك إلى نجد ثم عاد إلى نجفه بعد أربع سنوات فعكف على دراسة المقدمات ثم السطوح وما أن انتهى من دراستها حتى حضر على كبار أساتذة حوزة النجف الأشرف: الشيخ حبيب الله الرشدي والشيخ محمد =

الجزائري^(١) والشيخ محمد جواد الجواهري^(٢)، حيث ذكروا وجوب مشاركة الحكومة المسلمة في دفع الكفار عن بلاد الإسلام^(٣).

= حسين الكاظمي والشيخ محمد طه نجف والشيخ محمد الشرياني في الفقه والأصول ثم على الأغا رضا الهمداني بعد ذلك، في حين حضر في العرفان والأخلاق على العالم العرفاني الكبير ملا حسين قلي الهمداني. نظم الشعر فأجاد وأبدع فيه وانعطف نحو الموشحات فكان فارسها المجلي في حلباتها. يقول ساحة الشيخ محمد حرز الدين في معارف الرجال: ٢/ ٢٩١-٢٩٢) له مجالس أدبية ومحاضرات مفيدة ومناظرات نافعة وكانت لنا جلسة معروفة حافلة بأهل الفضل والعلم تضمننا إلى شطر بعيد من الليل في سطح قبة الياني بمقبرة الصفا في النجف، وهذا المكان مشرف على بحر النجف قبل كمال جفافه في سنة (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)، وله منظر بديع في الليالي البيض إضافة إلى طيب هوائه وهدوء جوه وكانت تحرر فيه المسائل العلمية والمعاني الشعرية ومن يحضر معنا العالم الأديب الشيخ موسى بن محمد أمين شرارة العاملي والأخ المقدس السيد مهدي ابن السيد صالح الحكيم النجفي وجماعة من فضلاء العاملين والنجفيين وكان السيد الحوي من أعيان المجاهدين الذين وقفوا قبالة الإنكليز أعداء الإسلام والإنسانية الذين احتلوا البصرة في سادس محرم سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) بالمرح والخذاع والرشي لبعض قواد الجيش التركي والرؤساء (...) وكانت جمهرة من العلماء أيضاً حاملين السلاح إلى جانب المجاهدين في الشعبية وضواحي البصرة منهم الشيخ محمد رضا نجل الشيخ محمد تقي الشيرازي، وجملة من أهل

(١) ولد الشيخ عبد الكريم بن علي بن كاظم الجزائري في النجف الأشرف سنة (١٢٨٩هـ) وبدأ دراسته في مسقط رأسه وحين استوى عوده العلمي حضر فخرج على المراجع الشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ محمد طه نجف وغيرهما بالغاً مرتبة الاجتهاد مقلداً من مختلف الطبقات. وكان سياسياً كبيراً ومفاوضاً محنكاً وقائداً مصلحاً ومرجعاً في الأمور السياسية حتى نهاية عمره. شارك في الجهاد بعد الاحتلال الإنكليزي للعراق وفي ثورة العشرين. وله فيهما مواقف لا تنسى. عرضت عليه الوزارة في العهد الملكي فرفضها. له (تعليقة على المكاسب) و(شرح العروة الوثقى) و(ديوان شعر). توفي في النجف الأشرف سنة (١٣٨٢هـ) ودفن فيها.

(٢) الشيخ جواد بن علي بن محمد ابن الشيخ صاحب الجواهر. زعيم أسرته في عصره وأحد كبار السياسيين ووجه المجتمع النجفي. كان ديوانه مهبطاً لذوي الحاجات. وفي ثورة العشرين كان هو السفير بين العشائر والحكومة البريطانية المحتلة لبلده. عمر مسجد أبيه سنة (١٣٢٨هـ). توفي سنة (١٣٥٥هـ) ودفن في مقبرة أسرته الكريمة في النجف الأشرف.

(٣) السيد محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٢٢٢.

١. شخصيته العلمية وكماله النفسي ورياضته الشرعية وتواضعه

والسيد محمد سعيد الحبوبى كما يصفه المؤرخون "عالم عامل فقيه ثقة أمين مجاهد"^(١) بل "فقيه جليل وعالم جهيد، فقد حضر في الفقه والأصول على الحجة الشيخ محمد حسين الكاظمي^(٢) وعلى العلامة الشيخ محمد طه نجف^(٣)، وكان في الأواخر يحضر درس الثاني تيمناً وتبركاً، وكان من أساطين حضار بحثه، كما كان يبدو لنا عند حضوره في المجلس أيام حضورنا على الشيخ محمد طه، وكان المرحوم الشيخ يشيد به ويعظمه ويشركه في الحديث والبحث ويتجه إليه أكثر من غيره، كما صدرت منه في حقه كلمات وشهادات دلّت على اجتهاده في الفقه وتضلّعه فيه".

ويضيف زميله وصديقه المجتهد الشيخ أغا بزرك الطهراني^(٤) خلال ترجمته

(١) معارف الرجال. سابق: ٢/ ٢١٩.

(٢) الشيخ محمد حسين الكاظمي أحد كبار مراجع النجف الأشرف ولد سنة (١٢٣٠هـ) في الكاظمية المقدسة بادئاً دراسته الأولية فيها ثم هاجر إلى النجف لإكمال دراسته الحوزوية فتلمذ على أكابر العلماء والمجتهدين كل من الشيخ محمد حسن الجواهري والشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ حسن كاشف الغطاء ثم تدرج وارتقى في مدارج العلم حتى أصبح "فقيه الإمامية ومفتيها ورئيسها الروحي" وكان كما وصفه مؤرخوه "من عباد زمانه وزهادهم خشنا في ذات الله قليل النظر". له (هداية الأنام في شرح شرائع الإسلام) في (٢٧) مجلداً وغيره. توفي سنة (١٣٠٨هـ) ودفن في الصحن العلوي الشريف.

(٣) الشيخ محمد طه نجف. ولد سنة (١٢٤١هـ) في النجف الأشرف وبدأ دراسته في مسقط رأسه حتى بلغ درجة الاجتهاد. تلمذ على الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محسن خنفر والسيد حسين الترك. وصفه المؤرخون بأنه "قطب دائرة الشريعة ومنار علم الإمامية" وأنه "الفقيه المحقق المدقق الزاهد العابد" نظم الشعر فأجاد له (إتقان المقال في أحوال الرجال) في (٤) أجزاء و(الإنصاف في مسائل الخلاف) وغيرهما. توفي سنة (١٣٢٣هـ) ودفن في الصحن العلوي الشريف.

(٤) الشيخ محمد محسن بن علي المنزوي الطهراني المشهور بأغا بزرك الطهراني ولد سنة (١٢٩٣هـ) في طهران وبدأ دراسته الحوزوية في مسقط رأسه ثم هاجر إلى النجف الأشرف لإكمال دراسته وسكنها لأكثر من عقد. ثم قصد سامراء ملتحقاً بحوزة المجدد السيد محمد حسن الشيرازي فمكث فيها حوالي عقدين ونصف ثم هاجر منها ليستوطن النجف الأشرف حتى وفاته. تلمذ على المراجع كل من: الشيخ محمد طه نجف =

له مشيراً إلى جانب قلّ من تحدث عنه وهو أن السيد الحبوبى كان زعيماً دينياً ذا رئاسة وذلك بعد أن ذكر تقواه وأخلاقه ونقاء وطهارة سيرته بقوله: "وكان على جانب عظيم من التقوى والصلاح وكمال النفس ومكارم الأخلاق والبشاشة وحسن الملتقى ورحابة الصدر ولين العريكة وسلامة الباطن وطهارة الضمير وشرفه ونزاهته، والتواضع الذي لازمه حتى الساعة الأخيرة من حياته، حتى بعد أن صار زعيماً دينياً، فإن رئاسته لم تبدل أخلاقه ولم تغير شيئاً من أحواله وكان حصل على ذلك الكمال النفسي والرياضة الشرعية من أستاذه الأعظم فقد أكمل نفسه واستكمل مراتب الأخلاق على الأخلاقي الأكبر المولى حسين قلى الهمداني^(١)... ترك النظم قبل وفاته بثمان وعشرين سنة بالضبط فقد حدثني

= والسيد كاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصفهاني والشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصهباني قال عنه المؤرخون "مجتهد مؤرخ بحائة محقق متضلع مؤلف" وهو "رجل خبير عارف متبع بحائة متضلع في الأدب لا يكل من الكتابة ولا يمل مقباً عن آثار العلماء والمؤلفين من علماء الشيعة الإمامية ومؤلفيهم" "بعد أن تكلف مشقة الأسفار وجاب الأقطار وصرف كثيراً من عمره الشريف في الفحص والتنقيب في المكتبات المشهورة والكتب الدراسية المظمورة". وقد تشرفت بزيارته وأنا في مقتبل العمر لحاجتي إلى كتاب من مكتبته وكان عنده الدكتور المحقق حسين علي محفوظ فعرفني أكثر فأكثر بمنزلة سباحته في مجال تخصصه بقوله هذا الشيخ يعرف العراق به عند المتخصصين الأجانب ولا يعرف هو بالعراق. له "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" في (٢٩ مجلداً) و"طبقات أعلام الشيعة" في (١٧ مجلداً) وله غيرهما. توفي سنة (١٣٨٩هـ) في النجف الأشرف ودفن في مكتبته العامة في النجف الأشرف.

(١) ولد سماحة المولى حسين قلى الهمداني في قرية شوند إحدى قرى همدان الإيرانية سنة (١٢٣٩هـ) وبدأ دراسته العلمية في طهران ثم قصد سبزوار للتلمذة على يد الحكيم الملا هادي السبزواري. وهاجر إلى النجف الأشرف أخيراً فتخرج على الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ عبد الحسين الطهراني وغيرهما من العلماء الأجلاء وحين استكمل أدواته المعرفية تخرج على يديه العديد من الطلاب منهم إضافة للسيد الحبوبى الشيخ جواد آقا الملكي التبريزي والسيد حسن الصدر والشيخ محمد باقر القاموسي والسيد مهدي الحكيم وغيرهم. اشتهر إضافة لفقاهته بالأخلاق وتربية النفس قال عنه مؤرخوه إنه "كان من العلماء بالله وبأحكام الله جالساً على كرسي الاستقامة. تشرق عليه أنوار الملكوت" و"كان عالماً فقيهاً أخلاقياً حكيماً متكلماً عارفاً" =

بنفسه أن آخر ما نظمه قصيدة هنى بها العلامة الشيخ عباس آل كاشف الغطاء في زواج ولده العلامة الشيخ هادي... وكان ذلك عام ١٣٠٥ هـ، ولم ينظم شيئاً بعد هذه القصيدة حتى آخر ساعة من عمره، ولا بيتاً واحداً، وهذا من الغرائب^(١) بل زاد السيد الحبوبى على ذلك في أخريات أيامه بأن نسي "كل شعره فلم يعد يتذكر منه شيئاً"^(٢)، غير أن روحه الشعرية والتفاتاته الفنية بقيت تلازمه طوال عمره.

وإذا كان لي أن أستشهد بما يدل على ذلك فإنني سأستشهد بكلمة قالها في أخريات أيامه وهو في النخيلة بعد أن "علم بوجود (بدر الرميض) بين المجاهدين، وكان معروفاً بكرمه وسخائه ولم يكن قد رآه من قبل، فأحب التعرف إليه. ولما سأل عنه قيل له إنه في رواق السيد (عناية الله جمال الدين) الفقيه المجاهد فقصده، وحين رآه جنب السيد قال يمتدحها معاً: (طلبت بدرأ فوجدت بدرين)^(٣)، وفي هذا القول من الشاعرية واللمسة الفنية والموسيقى الشعرية ما فيه.

لقد تولاه سماحته بحب العلم والبحث والتبحر فيه ف"اتجه بكله إلى علوم الدين حتى أشير إلى مكانته، وأصبح في عداد فقهاء النجف ومجتهديها الأعلام واشتهر أمره بين الخاصة والعامة فالتف حوله جمع من طلبة العلم فشرع بالتدريس في الفقه والأصول... ولما توفي شيخه الشيخ محمد طه نجف كثر الإقبال عليه أكثر

= وأنه "من أعظم العلماء وأكابر فقهاء الشيعة، وخاتمة علماء الأخلاق في عصره"، "مراقباً محاسباً لنفسه بعيداً عن الدنيا وأسبابها والرئاسات، لم يتعرض للفتوى، ولم يتصدّ للزعامة"، وهو "من أساتذة الفقه والأصول ومن المدرسين المرغوب في الحضور عليهم"، له: (تذكرة المتقين في الأخلاق) و(القضاء والشهادات) وغيرهما. توفي في كربلاء سنة (١٣١١ هـ) ودفن في الصحن الحسيني.

(١) طبقات أعلام الشيعة. سابق: ١٤ / ٨١٧.

(٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبى: ٣٨.

(٣) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبى: ٥٢.

من السابق حيث كان شيخه المذكور يشير إليه ويشيد بذكره. وهكذا اشتغل بالوظائف الدينية مستمراً على التدريس والتأليف وغير ذلك^(١)، من أمور البحث والرئاسة "مجتهداً حاكماً بالقول والفصل"^(٢)، حتى إذا دخل الإنكليز البصرة واحتلوها "طرح القلم وتناول السيف، تاركاً حلقة الدرس وندوة الأدب"^(٣)، و"لبى نداء الله والواجب وهتف "بالصفوة البقية والبقية الصالحة فاهتر الندي المحتشد ورنّ صدهاء في الأنديّة الأخرى وتدفقت الموجات الأثيرية من أفواه إلى قلوب ومن قلوب إلى أقلام قلباه نظرائه ومن هم أعلى منه منصباً وتبعهم سائر الطبقات"^(٤).

٢. حكم سماحته بالجهاد

ومن الملفت للنظر حقاً أن المجتهد السيد الحبوبى لم يفتِ بالجهاد فحسب، بل "بإعلان كلمته الفاصلة وبإنشاء (الحكم) الذي لا يرد"^(٥).
ويوضح المرجع الشيخ محمد تقي الفقيه^(٦) بوضوح كافٍ "الفرق بين الحكم

(١) طبقات أعلام الشيعة. سابق: ٨١٦/١٤.

(٢) الطليعة من شعراء الشيعة. الشيخ محمد السماوي: ٢/٢٤٢.

(٣) الأحلام. علي الشرقي: ١٢٩.

(٤) حجر وطن. الشيخ محمد تقي الفقيه: ٤/١٩٩.

(٥) حجر وطن. سابق: ٤/٢٠٠.

(٦) ولد الشيخ محمد تقي بن يوسف بن علي الفقيه في قرية حاريص بجنوب لبنان سنة (١٣٢٨هـ) وبدأ دراسته في مسقط رأسه ثم هاجر إلى النجف الأشرف عام (١٣٤٥هـ) لمواصلة دراسته العلمية فتخرج على كبار العلماء من أمثال السيد محسن الحكيم والسيد حسين الحاملي والسيد أبو الحسن الأصفهاني وغيرهم ودرس عليه العديد من العلماء منهم الشهيد السيد مهدي السيد محسن الحكيم والشيخ علي الكوراني وغيرهما. حتى إذا بلغ مرتبة الاجتهاد وأجازة الإمام الحكيم إجازة اجتهاد مفصلة رجع إلى لبنان وتصدى للمرجعية فيه وكان شاعراً أديباً خلوفاً بليغ الحجّة له (حجر وطن) في ٤ مجلدات و (مباني الشرائع) في عدة مجلدات ودبوان شعر وغيرها. توفي في لبنان سنة (١٤١٩هـ) ونقل إلى النجف الأشرف ودفن فيها.

والفتيا: أن الفتيا هي بيان الحكم الكلي، وأما تشخيص موارد الجزئية فهي لا تختص بالمجتهد، وأما الحكم: فهو إنشاء حكم جزئي في واقعة جزئية، وهو ثابت في مورد الخصومة بالضرورة، وثابت في الهلال، وفي الجهاد، والفتيا حجة في حق المجتهد نفسه وفي حق من يقلده، ولا يجب على الآخر متابعتها... وأما الحكم: فإنه ينفذ على كل أحد مجتهداً كان أو محتاطاً أو مقلداً، مقلداً لمن حكم أو لغيره من المجتهدين، هذا كله إذا كان الحاكم جامعاً للشرائط المعتمدة في الحاكم من الاجتهاد والعدالة وغيرهما^(١).

٣. مسيرة الجهادية وتعبئته للمجاهدين

وكان سماحة السيد الحبوبي قد أعلن عن حكمه بالجهاد ليلة خروجه من النجف الأشرف متوجهاً إلى ساحات الجهاد في يوم مشهود "اجتمع فيه عشرات الألوف من الناس ليستمعوا إلى إعلان السيد الحبوبي عن عزمه على الثورة لمقاومة جيوش الاحتلال وللوقوف أمامها وجهاً. وقد استجاب إلى ندائه هذا كثير من رجالات الأمة البارزين من علماء وزعماء وأحرار مخلصين وانضموا إليه في ثورته المقدسة"^(٢).

فكان خروجه "في يوم السبت الخامس والعشرين من ذي الحجة - ١٣٣٢ هـ/ ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ م، قبل الغروب بثلاث ساعات"^(٣). أو في يوم (السادس عشر من المحرم ١٣٣٣ هـ/ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٤ م) على قولين^(٤)، خلافاً لما

(١) حجر وطن. المصدر السابق نفسه. ٤/ ٢٠٠. هامش رقم ١.

(٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. إعداد عبد الغفار الحبوبي: ٤٤ - ٤٥ نقلاً عن: جريدة كل شيء البغدادية العدد ٨٨ من السنة الثانية.

(٣) تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين حرز الدين. ٣/ ١٤٠. وينظر: محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٢٢٥.

(٤) ينظر مثلاً: العلامة السيد محمد سعيد الحبوبي رمز التقوى والجهاد.. الشيخ محمد كاظم المحمودي. بحث. مجلة آفاق نجفية. العدد ٥٠ لسنة ٢٠١٨ م.

قيل بأن سماعته خرج من النجف الأشرف "عصر يوم الغدير ١٨ ذي الحجة سنة (١٣٣٢هـ) ألف وثلاثمائة واثنين وثلاثين هجرية"^(١) الموافق ليوم ٧ تشرين الثاني ١٩١٤م، لوضوح أن الإنكليز احتلوا الفاو في (١٧ ذي الحجة ١٣٣٢هـ/ ٦ تشرين الثاني ١٩١٤م)، أي قبل يوم من خروجه للجهاد، وهو واضح البطلان.

لقد خرج السيد الحبوبي من النجف الأشرف "بعد التبرك بزيارة ضريح الإمام علي عليه السلام يتقدم موكباً مهيباً من المجاهدين، وهو متقلد سيفه، والطبول تفرع أمامه، والأعلام تحف فوق الرؤوس، وأصوات الناس تتعالى بالتكبير"^(٢) قاصداً الكوفة في طريقة إلى الناصرية ماراً بالسماوة وخلال سفره نحو السماوة كان سماعته "ينزل في أماكن العشائر الفراتية وكلما نزل مكاناً تجول بين عشائره داعياً الناس إلى الجهاد ومحاربة الغزاة... فظفر بمجاهدين كثيرين أقلعت بهم السفن نحو السماوة"^(٣) وكان ممن التحق بركبه "يوم ٢١ محرم ١٣٣٣هـ/ ٩ كانون الأول ١٩١٤م، وهو في الطريق بمنطقة الأبيض السيد هادي مكوثر"^(٤) الذي ذهب هو الآخر في دعوة العشائر للجهاد"^(٥).

(١) حجر وطن. سابق: ٤ / ٢٠٤.

(٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. إعداد عبد الغفار الحبوبي: ٤٥. يقول الشيخ جعفر محبوبة "رأيت مسلحاً يقود جيشاً جراراً إلى جبهة الشعيبة" (ماضي النجف وحاضرها: ١ / ٢٤٦)

(٣) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. إعداد عبد الغفار الحبوبي: ٤٥.

(٤) ولد السيد هادي بن حسن بن عمران مكوثر. في مدينة الشنافية سنة (١٨٦٥م) من أسرة حسينية كريمة يتصل نسبها بالشهيد زيد بن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ولها الزعامة في الشنافية فدرس على يد بعض العلماء. حتى إذا أفتى العلماء بالجهاد شارك ومن معه فيه. كما حارب بعد ذلك في ثورة العشرين وكان محل ثقة المرجع شيخ الشريعة الأصهباني. ألقت القوات البريطانية القبض عليه بعد احتلالها للعراق وفتها إلى جزيرة سمربور وبقى منفياً حتى بعد قيام الحكم المسمى بالوطني حتى عام ١٩٢١م. توفي سنة ١٩٢٤م.

(٥) محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٢٢٥

وفي السماوة لم يطل السيد الحبوبي المقام طويلاً بل "مكث قليلاً... فانظم الكثير من أبناء العشائر إلى المجاهدين الذين هيئوا أنفسهم للمسير نحو الناصرية حيث كانت الجموع في انتظار وصول الحبوبي"^(١) أول العلماء المجاهدين "وأحد علماء النجف المبرزين ليقود الجبهة"^(٢)، والتحق به ساحة السيد محسن الحكيم^(٣)، "فكانت أمور السيد الحبوبي كلها بيده فهو المستشار وهو المنفذ وهو الذي يدوّن الرسائل. إن اعتماد السيد الحبوبي عليه وانتصاره في أفكاره وآرائه ونزاهته الصريحة وحسبه الكريم كلها شواهد على سموه وكفاءته، وكان الحبوبي قد عرفه كذلك من قبل فاستصفاه واعتمد عليه وعرفه الناس كذلك بعد ذلك اليوم فآمنوا به وركنوا إليه وتحذوا به"^(٤).

وما هي إلا مدة قصيرة حتى "أقلعت سفنه نحو الناصرية فوصلتها في منتصف كانون الثاني ١٩١٥م/ السادس من ربيع الأول ١٣٣٣هـ، فضربت له قبة على

(١) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. إعداد عبد الغفار الحبوبي: ٤٥.

(٢) حجر وطن. سابق: ٤/ ٢٠٠.

(٣) ولد سماحة السيد محسن السيد مهدي السيد صالح الحكيم في النجف سنة (١٣٠٦هـ) أكمل دراسة المقدمات والسطوح على أفاضل العلماء ثم حضر دروس البحث الخارج لكبار مراجعها كالأخوند الخراساني والشيخ العراقي والشيخ النائيني حتى نال درجة الاجتهاد ودرس علم الأخلاق عند السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ علي القمي والسيد علي القاضي. لبى نداء الجهاد سنة (١٩١٤م) مع أستاذه الحبوبي وكان معتمده وحامل ختمه، تخرج عليه الكثير من المجتهدين وكبار العلماء. ثم أصبح المرجع الأعلى للشيعه في العالم. له مواقف حاسمة في الوضع السياسي العراقي والعربي والإسلامي كما سيأتي. استشهد العديد من أبنائه دفاعاً عن المبدأ الحق. أسس مكتبة الإمام الحكيم العامة ففتحت فروعها في أغلب المدن العراقية وخارجها. له (مستمك العروة الوثقى) في (١٤) مجلدًا، و(حقائق الأصول) في مجلدين. وغيرهما. توفي سماحته سنة (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ودفن في مقبرة ملحقة بالمسجد الهندي في النجف الأشرف.

(٤) حجر وطن. سابق: ٤/ ٢٠٠.

ضفاف الفرات"^(١)، حيث بدأت قوافل المجاهدين تترى للالتحاق به مقدمة للالتحام بجيش العدو المحتل تحت قيادته من هذه العشائر المبادرة: "عشائر الغراف وعشائر المجرة قاطبة، وأهالي الناصرية، وأهالي سوق الشيوخ"^(٢)، وكذلك الشيخ "عجمي باشا السعدون"^(٣) أحد كبار الشيوخ والمجاهد الشجاع ضد الغزو البريطاني للعراق سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م).

ونظراً لكثرة من التحق بالسيد الحبوبي من المجاهدين من جهة، ولعدم توفر وسائل النقل النهري الكافية لاستيعابهم من جهة ثانية فقد "بقي الحبوبي والمجاهدون في الناصرية إلى أن تهبأ السفن والبواخر لنقلهم إلى الشعيبة وكان في أثنائها على اتصال دائم بجنده: يصلي بهم ويخطبهم ويقصّ عليهم قصص البطولات العربية التي قرأها أو سمعها يوم كان في نجد لإثارة روح القتال فيهم فكان يتحول في حديثه من واقعة مشرفة إلى حادث ممجد يحمي الدم ويصقل النفوس. وكان سيد الموقف: يأمر فيطاع ويقضي فيعمل بقضائه"^(٤).

كما كان سماحته "أثناء مكوثه دائب الحركة حيث يتجول بين العشائر المجاورة ويرسل أعوانه من شبان الطلبة كالشيخ باقر الشيبسي^(٥) وعلي الشرقي^(١) إلى

(١) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. إعداد عبد الغفار الحبوبي: ٤٦ - ٤٧.

(٢) حجر وطن. سابق: ٤/ ٢٠٥.

(٣) محمد كاظم اليزدي. سابق: ٢٢٦.

(٤) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. إعداد عبد الغفار الحبوبي: ٤٦ - ٤٧.

(٥) الشيخ باقر بن جواد بن محمد الشيبسي. ولد في النجف الأشرف سنة (١٣٠٨هـ/ ١٨٨٩م) من أسرة علمية أدبية. فأبوه عالم وشاعر وأديب مرموق وأخوه الشيخ محمد رضا شاعر وعالم وأديب وسياسي محنك وهكذا بقية إخوانه. شارك المترجم له في حركات التحرر من الاحتلال البريطاني للعراق وبرز دوره أكثر فأكثر في ثورة العشرين التحررية الوطنية حيث تولى إصدار صحيفة (الفرات) الصحيفة الناطقة باسم ثورة العشرين. وتحرير موضوعاتها. كما كتب العديد من بيانات الثورة ونشراتها التي كانت تطبع وتوزع على الجبهات وفي المدن. =

العشائر البعيدة لحثهم على الانضمام إلى حركة الجهاد^(٢)

وكان من مهامه كقائد أن يوزع "الأعمال على بعض رجاله. فكان الحكيم أمين سرّه وخازن مال المجاهدين. وبلغ مدى اعتماده عليه أنه أعطاه خاتمه الخاص ليمهر باسمه بحسب ما يراه من المصلحة في شؤون الجهاد. كما كان باقر الشيبلي وعلي الشرقي^(٣) ساعديه في مراسلاته مع العشائر والسلطة، وفي مراسلاته لرؤساء العشائر يضرب على وتر حساس كوتر الحمية الدينية والنخوة العربية"^(٤).

لقد بقي السيد الحبوبي في الناصرية يدعو العشائر إلى الجهاد وينصح ويوجه ويبيث الشجاعة والإقدام فيمن التحق به من المجاهدين حتى إذا حلّ يوم "١٩ شباط ١٩١٥ م/ ٤ ربيع الثاني ١٣٣٣ هـ) غادر الحبوبي سوق الشيوخ متوجهاً نحو الشعيبة وتابعتهم العشائر تحملهم مئات السفن الشراعية وهي تمخر عباب مياه بحيرة الحمار ويقدر عددهم بأكثر من ثلاثين ألف راجل وعشرة آلاف فارس وقد التحق معهم حوالي خمسة عشر ألف جندي (كذا) فتكوّن من

= يتميز شعره بالحماسة فيشحذ همم الوطنيين والثوار للمنازلة والجهاد. اعتقل مع رفاق دربه من قبل القوات البريطانية. انتخب عضواً في المجلس النيابي عن لواء المنتفك. توفي سنة (١٣٧٩ هـ/ ١٩٦٠ م).

(١) الشيخ علي بن جعفر بن محمد حسن الخاقاني المعروف بالشرقي ولد في النجف الأشرف سنة (١٣٠٦ هـ) وتلقى علومه فيها على يد أكابر علمائها. وبرع في نظم الشعر وتميز به. شارك في تعبئة الجماهير ضد المحتلين البريطانيين الغزاة. وبعد انتهاء الثورة تولى عدة مناصب قضائية علياً في العهد الملكي. ثم عين عضواً في مجلس الأعيان العراقي فوزيراً في وزارة علي جودت الأيوبي قبل تقاعده. له ديوان شعر مطبوع (عواطف وعواصف). ومؤلفات مطبوعة هي الأخرى منها (الأحلام). يتمتع بأسلوب جميل شفاف في شعره ونثره. توفي سنة (١٣٨٣ هـ) ودفن في النجف الأشرف.

(٢) محمد كاظم اليزدي. سابق: ٢٢٦.

(٣) تقدمت ترجمتها فيما سبق.

(٤) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. سابق: ٤٩.

الطرفين الجناح الأيمن التركي في هذه الحرب" ^(١)، بل يقول المجتهد المؤرخ الشيخ أغا بزرك الطهراني ^(٢) متحدثاً عن السيد الحبوبي أنه "قاد جيشاً جراراً وعسكر به في الشعبية وقد بلغ عدده تسعين ألف مجاهد على ما سمعته في تلك الأيام" ^(٣). وعسكر معه المرجع المجاهد الشيخ فتح الله الأصهباني المعروف بـ (شيخ الشريعة الأصهباني) "وهما يومئذ من أجل مجتهدي الشيعة في العراق ومن أكبر شيوخ الإسلام على الإطلاق وكان الشيخ قد أربى على الثمانين، والسيد -الحبوبي- قد ذرّف على السبعين فلم يمنعها ضعف الشيخوخة ودقة عظمها ورقة جلدتهما عن قيادة ذلك الجيش اللهم والمحتشد من العلماء الأعلام والفضلاء الكرام والأبرار الأخيار من أهل السوابق في نصره الإسلام وقد أبلوا بلاء حسناً لم يكن له نظير" ^(٤).

٤. جهاد الحبوبي بماله

ومما ينبغي ذكره هنا أن السيد الحبوبي لم يجاهد بنفسه وقيادته للمعركة وقبل ذلك التحشيد والتعبئة لها فحسب، بل جاهد بماله أيضاً "فهياً لها ما تتطلبه من إنفاق كثير معتمداً في ذلك على ماله الخاص. فأوكل إلى أحد أخويه إمداده بالمال كلما احتاج إليه واقتضاه ذلك أن يرهن أملاكه الخاصة للإنفاق على المجاهدين. لقد أجمع كل الذين تناولوا تاريخ حركة الجهاد ضد الإنكليز على أن الحبوبي -بوجه خاص- كان يموّن جنده من ماله الخاص دون أن يقبل أية معونة مادية من الأتراك طول مدة الجهاد" ^(٥).

(١) محمد كاظم اليزدي. سابق: ٢٢٧.

(٢) تقدمت ترجمته سابقاً.

(٣) طبقات أعلام الشيعة. سابق: ٨١٨/١٤. وتنظر: مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني ورحلاته ٥٦.

(٤) أجوبة مسائل جار الله. السيد عبد الحسين شرف الدين: ٦٤.

(٥) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. سابق: ٤.

ويروي السيد عبد الغفار الحبوبي رحمه، وجامع ديوانه بطبعته الأخيرة عن الشيخ علي الشرقي أحد خاصة السيد الحبوبي قوله: "كاشفني أحد خاصة الحبوبي بأن ما لديهم من مال يوشك أن ينفد ففاتحت متصرف الناصرية بذلك فذهبنا إلى القائد التركي وفاتحنه بالأمر فطار سروراً وقال إني مقدّر للموقف ولكن صرامة السيد الحبوبي وصلابته تمنعني من مكاشفته في أمر مالي. هذه ألف ليرة ذهبية يتفضل بقبولها الآن وفي كل أسبوع مثلها لينفقها على من حوله. فعدت إلى الحبوبي وقلت له: إن الحرب طويلة، وإن أخاك لا يستطيع المداومة على إمدادك بالمال... وهذا بيت المال مستعد لتموين الجيش، فهل تأذن أن يضعوا تحت يديك مقداراً من الذهب؟ فامتنع وتشدد في الامتناع قائلاً: (إني مكلف بالتضحية في مالي ونفسي فإذا نفذ المال بقيت نوبة النفس... اعتبروني جندياً من الجند: أكل مما يأكلون وأشرب مما يشربون، وجهاد النفس أفضل. لا، لا أقبل درهماً واحداً. وقائد الجيش أعرف بمواقع الصرف. ولا أسمح لكل أحد أن يفاتحني في هذا الشأن... قل لمحسن - السيد محسن الحكيم - يصرف ما عنده وبعد ذلك فأرزاقتنا في مستودع الذخيرة)"^(١).

ويؤيد رواية الشرقي ما نقله المرجع السيد محمد سعيد الحكيم خلال جوابه عن سؤال وجهته إليه بقوله: "عرضت الحكومة العثمانية على بعضهم - فيما بلغنا - الأموال الطائلة ليستعينوا بها في الحرب، فأبوا قبولها أنفة وعزة، وبعداً عن شائبة تخرج جهادهم عن الإخلاص لله تعالى في أداء الواجب، حتى ذكروا أن السيد الحبوبي كان يكتفي بأكل التمر طعاماً والجلوس على الأرض"^(٢).

خلافاً منهما لما ذهب إليه المصادر الإنكليزية التي أشاعت بأن علماء الدين

(١) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي. سابق: ٥٠.

(٢) المرجعية الدينية وقضايا أخرى. الحلقة الثانية. إعداد وتقديم. عبد الهادي الحكيم: ١٩١.

الذين رفعوا راية الجهاد... لم يقدموا على هذا الفعل إلا تحت تأثير المبالغ الضخمة التي أعطيت لهم من قبل الألمان والأتراك^(١). بل خلافاً لما ذهب إليه كل من د. علي الوردي ود. كامل سلمان الجبوري.

أما الجبوري فقد أورد وهو يتحدث عن السيد الحبوبي قوله: "وقد وضعت الحكومة تحت تصرفه أموالاً طائلة لينفقها في تجهيز العشائر"^(٢).

وأما د. علي الوردي فذهب خلال تعقيبه على ما ذكرته المصادر الإنكليزية المتقدمة إلى القول: "نحن لا ننكر أن الحكومة العثمانية قد وضعت تحت تصرف علماء الدين مبالغ ضخمة أثناء حركة الجهاد، ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى أنهم أنفقوا تلك المبالغ كلها على تجهيز المجاهدين بالأسلحة والأغذية، أو على تشجيعهم وترغيبهم، ولم يأخذوا لأنفسهم شيئاً"^(٣).

وعلى الرغم من أن الوردي أكد على أن هذه المبالغ المستلمة من قبل المجتهدين قد صرفت في شؤون الجهاد وأنهم لم يصرفوا منها لأنفسهم شيئاً. إلا أن ما نقله الشيخ الشرقي بشهادته الحية يخالف حتى هذا المقدار مما ذكره الجبوري والوردي.

٥. التحاق كبار المجتهدين بسماحته وتجمعهم في جبهة القتال

ضد العدو المحتل

لقد كان السيد الحبوبي كما أسلفت أول المجتهدين الخارجين من النجف الأشرف للجهاد ضد العدو المحتل. فقد خرج للجهاد بعده بيومين من النجف

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٣٤/٤. وينظر: السيد محمد كاظم اليزدي. سابق:

٢٢٦. هامش رقم ٢.

(٢) السيد محمد كاظم اليزدي. سابق: ٢٢٦.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٣٤/٤. وينظر: السيد محمد كاظم اليزدي. سابق:

٢٢٦. هامش رقم ٢.

الأشرف أيضاً المجتهد السيد عبد الرزاق الحلو^(١)، ومعه تسعة من العلماء من أتباعه، ثم توالى خروج المجتهدين وكبار المجتهدين والعلماء للجهاد تباعاً ومن أوائهم المرجع الأعلى اللاحق "شيخ الشريعة الأصبهاني"^(٢)، والسيد علي الداماد^(٣)... والمولى محمد حسين القمشمهي الصغير^(١)... والشيخ باقر حيدر^(٢)

(١) ولد السيد عبد الرزاق بن علي بن حسن الحلو في النجف الأشرف بحدود سنة (١٢٧٥هـ) وقرأ المقدمات والسطوح في مقتبل عمره على أفاضل عصره ثم تخرج على المراجع الشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ حسين الخليلي والشيخ محمد طه نجف والشيخ محمد حسن المامقاني وقد أجازته الأخير يقول عنه مترجموه "كان بارعاً في الفقه ألف فيه كتباً قيمة كما كان على جانب عظيم من الصلاح والتقوى يحترمه عارفوه ويجلّونه. شارك في الجهاد بعد احتلال الإنكليز للعراق. له (جامع الأحكام) في الفقه (١٨ مجلداً). توفي سنة (١٣٣٧هـ) ودفن في الصحن العلوي الشريف.

(٢) ولد ساحة المرجع الشيخ فتح الله ابن الشيخ محمد جواد النازي الشيرازي المشهور بـشيخ الشريعة الأصبهاني في مدينة أصفهان بإيران سنة (١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م) فدرس المقدمات والسطوح في أصفهان فخراسان ثم توجه بعدها إلى النجف الأشرف فدرس على المراجع: الشيخ حبيب الله الرشتي، والشيخ محمد حسين الكاظمي وغيرهما، وقد اشتهر رحمته بتبحره في علمي الحديث والرجال حتى وصفه المحقق الشيخ آغا بزرك الطهراني بأنه أطول الباحثين باعاً في علم الحديث والرجال بعد العلامة النوري صاحب المستدرک. وكان له إلمام واسع بالمعارف وثقافة موسوعية في العلوم البعيدة ظاهراً عن مجال تخصصه العلمي، إضافة طبعا لتضلعه في مجال اختصاصه الدقيق في الفقه والأصول والعقائد حيث ألف فيها العديد من الكتب وبخاصة في الفقه والعقائد. عرف رحمته بمواقفه الإصلاحية والجهادية والوطنية فقد تبنى مشروع الجهاد ضد المحتلين الأجانب في ليبيا وإيران وشارك بقلمه في ذلك كما شارك بدمه في الجهاد ضد الإنكليز في جبهة القرنة رغم كبر سنه، وأصيب فيها إصابة جسيمة مؤلمة كما شارك في ثورة العشرين فجاهد المستعمر المتسلط بلسانه وبده قبل قلبه. تولى المرجعية العليا وزعامة ثورة العشرين بعد وفاة المرجع العام الشيخ محمد تقي الشيرازي وأسس أول نظام حكم وطني في العراق بمدينة النجف الأشرف. أصيب بمرض لم يمهل طويلاً فلبى نداء ربه في سنة (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م) ودفن في الصحن الحيدري الشريف.

(٣) السيد علي بن محمد الداماد. ولد في تبريز سنة (١٢٧٥هـ) ودرس أوائل أمره في مدينته ثم هاجر إلى النجف الأشرف سنة (١٢٩٤هـ)، فحضر الأبحاث العالية على أكابر العلماء السيد حسين الترك والشيخ حبيب الله الرشتي وغيرهما حتى أصبح أحد كبار مجتهدي حوزة النجف الأشرف وأحد رجالها المجاهدين الأشداء ضد المحتلين الإنكليز في جبهة القرنة، ومرجعاً مقلداً، له (تقارير الأصول) في ثلاثة مجلدات =

والسيد أبو القاسم الكاشاني^(٣) وغيرهم كثيرون... وهناك فريق من العلماء منعهم عن المشاركة بأنفسهم عجزهم وهرمهم وتوقف أعمال الشيعة عليهم وهؤلاء بعثوا أولادهم نيابة عنهم منهم شيخنا الميرزا محمد تقي الشيرازي^(٤)، فقد بعث

- = و(رسالة عملية) وغيرهما. توفي في النجف الأشرف سنة (١٣٣٦هـ) ودفن في الصحن العلوي الشريف.
- (١) الشيخ محمد حسين بن أبي طالب القمشهبي الصغير: أحد أكابر العلماء، تلمذ في النجف الأشرف على يد المراجع والمجتهدين كل من: الشيخ حسين قلي الهمداني والشيخ محمد حسين القمشهبي الكبير والشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ حسين الخليلي وغيرهم ورد في ترجمته أنه: فاضل جليل وثقة صالح وتقي معروف... وكان من العلماء الفقهاء والأخيار الأبرار المجاهدين... وكان مرموقاً في وسطه معروفاً بالفضل مشاراً إليه بالتقى والورع، توفي في النجف الأشرف سنة (١٣٣٧هـ) ودفن في الصحن الشريف.
- (٢) الشيخ باقر بن علي بن محمد علي المعروف بباقر حيدر ولد في الناصرية سنة (١٢٥٦هـ) من قبيلة علمية معروفة تلقى علومه الأولية في مسقط رأسه ثم هاجر إلى النجف الأشرف فدرس على كبار علمائها من أمثال المراجع السيد محمد حسن الشيرازي والشيخ محمد طه نجف والشيخ محمد كاظم الخراساني وغيرهم حتى حاز درجة الاجتهاد. تخرج عليه السيد عبد الحسين شرف الدين وغيره. قال عنه مؤرخوه "كان من ذوي البسطة في الفقه والإصول إماماً في العلوم العربية على غاية الاعتدال في مفاد الأدلة ومجاري الأصول معدوداً من المبرزين. وكان شاعراً مجيداً. ورغم كبر سنه فقد شارك في الجهاد حاملاً للسلاح حتى تفاقم وضعه الصحي وتوفي وهو يقاتل المحتلين سنة (١٣٣٣هـ). له (حاشية على القوانين) و(ديوان شعر) وغيرهما.
- (٣) ولد السيد أبو القاسم بن مصطفى الكاشاني قبل سنة (١٣٠٠هـ) وأحد كبار المجتهدين المجاهدين سواء في التصدي لدخول القوات البريطانية للعراق عام (١٩١٤م) أم في ثورة العشرين وكان سياحته لا يكل ولا يمل من العمل في ساحات الجهاد ضد المحتل سواء في نشاطاته المتعددة الأوجه سياسة وفاعلية وحركة أو في الخطوط الأمامية للمحتل الغاشم. له (تقاريرات في الفقه وأصوله) توفي سنة (١٣٣٦هـ).
- (٤) ولد الشيخ محمد تقي بن محب علي بن محمد علي الشيرازي في مدينة شيراز سنة (١٢٥٦هـ). وبدأ دراسته الخوزوية في مسقط رأسه ثم هاجر وهو في مقتبل عمره إلى العراق ليتيم دراسته وأقام في كربلاء فتخرج على كل من العلماء زين العابدين المازندراني وفاضل الأردكاني والسيد علي تقي الطباطبائي حتى أصبح أستاذاً مبجلاً يشار إليه بالبنان، ثم التحق بعد ذلك بحلقة المجدد السيد محمد حسن الشيرازي في سامراء مع زميله في البحث محمد الفشاركي.. فشرع في التدريس. وحين توفي أستاذه المرجع الأعلى السيد الشيرازي تولى الشيخ الشيرازي شؤون الحوزة العلمية في سامراء فتخرج عليه جمع من الفضلاء. هاجر إلى الكاظمية ومنها إلى كربلاء بعد احتلال الإنكليز لسامراء. فهاجر إلى كربلاء تنفيذاً لرغبة والده بسكنى كربلاء =

ولده الميرزا محمد رضا^(١)، للتصدي لقوات الاحتلال في البصرة إضافة إلى ذلك كان له دور متميز في الإعداد الحثيث لثورة العشرين في بواكيرها الأولى ولحين اعتقاله ونفيه إلى جزيرة هنجام الهندية، بعد ما تبين لولسن ولقوات الاحتلال "أنه منبع جميع الحركات المناوئة في منطقة الفرات الأوسط"^(٢).

وكذا المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي^(٣) فقد بعث ولده السيد محمد^(٤) حيث كان لموقفه البطولي أثره الكبير في بث الروح القتالية للمجاهدين في المعركة.

أما المجتهد المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبى فقد كان على رأس جبهة الشعبية إحدى الجبهات الثلاث ضد الإنكليز يحف به العلماء الأعلام المجتهدون،

= خلافاً لما شاع. وفي كربلاء أفتى بالجهاد ضد المحتلين الإنكليز وقاد ومول الثورة حتى وافاه الأجل خلالها عن عمر ناهز الثمانين. ليدفن في الصحن الحسيني سنة ١٣٣٨ هـ. له رسالة في الخل.

(١) الشيخ محمد رضا ابن الشيخ محمد تقي الشيرازي النجل الأكبر لوالده مفجر ثورة العشرين وساعده الأيمن فقد قدم خدمات جليلة في التهيئة لثورة العشرين وحشد الجماهير للإعداد والتعبئة لها، وكان من آخر ما قام به دعوته إلى إقامة مهرجان شعبي كبير في صحن العباس عليه السلام حث فيه الناس على الثورة والجهاد ضد المحتلين الإنكليز. كما كتب رسائل إلى أماكن مختلفة في العراق حث الناس على التصدي للمحتل الغاصب. وكان سباحته قد اشترك في جبهات القتال في جبهة القرنه. ألقت سلطات الاحتلال القبض عليه في كربلاء مع ثلثة من المجاهدين قبيل اندلاع شرارة الثورة بأيام ونفي إلى الهند وكان لاعتقاله أثر كبير في تأجيج المشاعر ضد الإنكليز.

(٢) المصدر السابق: ٢٠٩ / ١ / ٥.

(٣) ولد سماحة السيد اليزدي في مدينة يزد حدود سنة (١٢٤٧ هـ) فدرس المقدمات فيها ثم قصد أصفهان فحضر على علمائها ثم هاجر إلى النجف الأشرف فدرس على يد فقيه العراق الشيخ راضي والمجدد الشيرازي وغيرهما ثم نال شهرة واسعة ليصبح بعدها المرجع الأعلى تخرج على يديه العديد من العلماء. له من الكتب رسالته العملية المهمة (العروة الوثقى) وحاشية على المكاسب وغيرها. توفي وشيع ودفن في النجف سنة (١٣٣٧ هـ) عن عمر ناهز خمساً وتسعين سنة.

(٤) طبقات أعلام الشيعة. سابق: ٨١٨ / ١٤.

وفي مقدمتهم كل من السيد محسن الحكيم والشيخ باقر حيدر^(١) وإذ وصل قائد الجبهة العسكرية التركي سليمان عسكري بك -محمولاً على نقالة بعد إصابته- واستعرض قواته قرر أن يبدأ هجومه على القوات الإنكليزية المحتشدة يوم ١٢ نيسان من تلك السنة فبدأها واستعرت حدة القتال يومين برزت فيها للشيخ عجمي السعدون بطولات مشهودة كما سيأتي، ولما حلّ اليوم الثالث - واشتدت ضراوة القتال بحيث "كان النصر فيه معلقاً على شعرة ليناله من يدي قدراً أكبر من الصمود وكاد الجنرال -الإنكليزي- ليس يصدر أمره إلى جنوده بالانسحاب... إلى المؤخرة - تدخل القدر حيث أدى انسحاب الأتراك من المعركة بدل الإنكليز -ظنا منهم أن نجدة كبيرة وصلت للإنكليز من البصرة- فكان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، فانهارت عزيمتهم وخارت قواهم وحلت بهم الهزيمة"^(٢) إثر انتشار إشاعة مفادها أن القائد التركي وضباطه قد قتلوا جميعاً.

يومها "ثبت السيدان الحبوبي والحكيم وثلة من الأبرار المساميح بالنفوس في اليوم العصيب... وكانت القنابل تتطاير في الفضاء... وأخيراً استقر الرأي على أن يذهب السيد الحكيم إلى القائد العثماني ليستوضح الموقف... فامتطى الحكيم صهوة الجواد وتخطى بين الجثث المبعثرة والأشلاء المحطمة الموزعة والمطاعين المتمللملين... حتى إذا انتهى إلى مضرب القائد... فوجده على أتم حال... يكتب ويدون، ويضع الخطط. فقال القائد: ما فعل المجاهدون؟ فقال السيد الحكيم: تفرقوا لأنه شاع بينهم أنه قد قتل القائد، وقتل جميع الضباط حتى لم يبقَ من يقود اثنين، فأخرج له القائد ما عنده من المعلومات، فإذا بالإشاعات لا تقوم على

(١) تقدمت ترجمتها سابقاً.

(٢) السيد محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٢٤٧.

أساس وإنما هي غلطة أو خديعة، أدّت إلى الهزيمة".

ويضيف الشيخ محمد تقي الفقيه^(١) أحد التلامذة الخاصين للسيد محسن الحكيم ناقلاً عن لسان أستاذه قوله: "قال لي السيد-الحكيم- مرة (ما عرفت الخوف إلا مرة) وذكر قصة ذهابه للقائد. بقي الحكيم في صحبة أستاذه حتى آخر ساعة من حياته، فقد حمّ الحبوبي في الناصرية على أثر الانفعال النفسي الذي ألمّ به عندما ظهرت إمارات انتصار الجيوش البريطانية وأودى بحياته، وقد كان خاتمه بيد السيد الحكيم لأنه هو الذي يتولى التوقيعات والأوامر فلما لفظ السيد الحبوبي نفسه الأخير نهض السيد الحكيم إلى السراة والزعماء وعزّاهم بالفقيد الغالي، ثم أخرج خاتمه وأراههم إياه وعرضه عليهم ثم دقّه في هاون من حديد بمطرقة من حديد وكسره ثم رماه في مكان سحيق... فإنه صنع ذلك مخافة استعمال الخاتم بعد وفاة السيد الحبوبي، فإن الورقة المختومة به تشبه مرسوماً من قائد أو حوالة من مصرف"^(٢).

المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي: إعلان الجهاد الدفاعي مرتين ضد الاحتلال البريطاني للعراق

ثانياً

لقد قام المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي^(٣) بدور ملحوظ على صعيد النشاط السياسي في العراق والعالم الإسلامي تمثل في إفتائه مع عدد من المراجع أكثر من مرة بالجهاد دفاعاً عن بيضة الاسلام والمسلمين، فقد أفتى وأفتوا بالجهاد عندما احتلت إيطاليا البلد المسلم ليبيا سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م)، وعندما هاجمت

(١) تقدمت ترجمته سابقاً.

(٢) حجر وطنين. سابق: ٢٠١ - ٢٠٣.

(٣) تقدمت ترجمته سابقاً.

روسيا شمال إيران أيضاً، وحين دخلت الإنكليز جنوب إيران كذلك^(١).
وفي الشأن العراقي فقد أفتى سماحته بالجهاد ضد الاحتلال البريطاني للعراق
مرتين وكما يأتي:

١. سماحته يفتي بالجهاد ضد المحتلين الإنكليز سنة (١٣٣٣هـ/١٩١٤م)

لقد كان ما أجاج نار التعبئة للجهاد أكثر فأكثر خروج المرجع الأعلى السيد
محمد كاظم اليزدي في (٢٨ محرم ١٣٣٣هـ/ ١٦ كانون الأول ١٩١٤م) إلى الصحن
الحيدري الشريف ليعلن الجهاد ضد الإنكليز بنفسه فيوجهه على القادر القوي،
ويوجب على الغني العاجز عنه تجهيز الفقير القوي من ماله، وليرسل ولده المجتهد
السيد محمد اليزدي^(٢) ممثلاً عنه إلى جبهات القتال، ومعه المرجع لاحقاً الشيخ محمد
حسين كاشف الغطاء^(٣)... وبعض طلبة العرب والفرس، ثم تبعهم من كبار العلماء

(١) تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين حرز الدين: ١٢٦/٣. وينظر نص الفتوى في الصفحة نفسها.
(٢) ولد السيد محمد اليزدي في النجف الأشرف سنة ١٢٨٦ هجرية وأكمل دراسته العليا حتى بلوغه درجة
الاجتهاد بإجازة مفصلة من والده المرجع. أسهم في تأليف كتاب العروة الوثقى ذلك أن بدايات كتاب
الحج من العروة الوثقى الخاصة بأداب الحج ومقدماته هي له. شارك في عمليات الجهاد ضد الإنكليز
ممثلاً عن والده، ولساناً ناطقاً باسمه في البصرة سنة ١٩١٤ هجرية ثم بعد فتوى الجهاد الثانية دفاعاً عن
بغداد حين سعى الجيش الإنكليزي لاحتلالها، وقد وجه المرجع الأعلى السيد اليزدي رسالة إلى والي
بغداد والضباط والمجاهدين يحثهم في الدفاع عن بغداد ورد فيها ذكر توجيه السيد محمد إلى بغداد للدفاع
عن العاصمة. ومن هذه الرسالة يمكن معرفة مدى موقع السيد محمد في قلب والده كما ستأتي. اعتل علة
شديدة في الكاظمية أدت إلى وفاته سنة ١٣٣٤ هجرية ونقل جثمانه إلى النجف فصلى عليه والده ودفن في
الصحن العلوي الشريف. له من المؤلفات تقارير في الفقه والأصول وغيره.

(٣) ولد الشيخ محمد الحسين بن علي بن محمد رضا آل كاشف الغطاء في النجف الأشرف سنة (١٢٩٤هـ) من
أسرة علمية كبيرة وتدرج في مدارج العلم على كبار رجال أسرته والمجتهدين وفي مقدمتهم المراجع كل
من الشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ أغا رضا الهمداني وغيرهم =

من النجف كل من الشيخ جعفر عبد الحسن^(١) والشيخ عبد الكريم الجزائري^(٢)، والشيخ حسين الحلي^(٣) وكثير غيرهم حتى إذا تصرمت من شهر صفر أيام اجتماع علماء الشيعة جميعاً من النجفيين والكاظميين والبلغادّة

٢. الجبهات القتالية الثلاث

واكتمل ورود حشود المجاهدين وجيوش العثمانيين إلى جبهات القتال تم تقسيمهم إلى جبهات ثلاث هي: القرنة، والشعبية، والحويزة، ففي القلب حيث جبهة (القرنة) قاد المجاهدين فيها القائد العام سليمان عسكري بك بنفسه، وإلى

= حتى أصبح مرجعاً مقلداً. سافر إلى الأقطار العربية والإسلامية ومنها المؤتمر الإسلامي العام في القدس الشريف سنة (١٣٥٠هـ)، وفي عام (١٣٥٣هـ) صدر برعايته (ميثاق الشعب) موقعاً من كبار شيوخ الفرات الأوسط والجنوب مطالبين بحقوق الشيعة المهمشين. أسس مكتبة مهمة تحتوي على مخطوطات ثمينة. له (تحرير المجلة) في (٧ أجزاء) و(أصل الشيعة وأصولها) وغيرها. توفي في إيران سنة (١٣٧٣هـ) ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف فدفن فيها.

(١) ولد الشيخ جعفر بن عبد الحسن آل راضي في النجف الأشرف سنة (١٢٨١هـ) وتدرّج في علومه الحوزوية متخرجاً على أبيه والشيخ محمد كاظم الخراساني والشيخ محمد طه نجف وغيرهم حتى أصبح مرجعاً وزعيماً لأسرته ومهتماً كثيراً بأمور المجتمع. شارك في جبهة الحويزة ضد الاحتلال البريطاني للعراق. له (المباني الجعفرية في الفقه) بعدة مجلدات. توفي في النجف الأشرف سنة ١٣٤٤هـ.

(٢) تقدمت ترجمته سابقاً.

(٣) ولد الشيخ حسين بن علي بن حسين الحلي بمدينة النجف الأشرف سنة (١٣٠٩هـ) وتلقى تعليمه الأولي عند أساتذة فضلاء ثم تخرج على كبار العلماء والمجتهدين كالشيخ النائيني والشيخ العراقي والسيد أبو الحسن الأصفهاني. حتى إذا بلغ مرتبة الاجتهاد أصبح أستاذاً متميزاً من أساتذة الحوزة النجفية فتخرج عليه الكثير من كبار العلماء من أمثال المراجع السيد السيستاني والسيد محمد سعيد الحكيم والسيد محمد الروحاني ومن هم في طبقتهم كالسيد يوسف الحكيم وسيدي العم السيد محمد حسين الحكيم وسيدي الوالد وغيرهم كثير. عرف بالتواضع الجمل في مسلكه ومأكله وملبسه والزهد بكل معنى الكلمة. لم يتصد للزعامة الدينية، وكان إلى جانب علمه الجمل أديباً يحضر الجلسات الأدبية والشعرية. اشترك في الجهاد عند احتلال الإنكليز للعراق. له (شرح كفاية الأصول) و(تقاريرات بحثي الشيخ النائيني والشيخ العراقي في الفقه والأصول) وغيرها. توفي في النجف الأشرف سنة (١٣٩٤هـ) ودفن في الصحن العلوي الشريف.

جانبه كل من العلماء المجتهدين: المرجع الأعلى لاحقاً الشيخ فتح الله الأصهباني المعروف بشيخ الشريعة الأصهباني^(١)، على الرغم من كبر سنه وضعفه^(٢)، وشارك نجله الشيخ حسن بالجهاد أيضاً، فاعتقلته القوات الإنكليزية المحتلة، وأودعته السجن مع المجاهدين المعتقلين في الحلة.

أما المرجع السيّد مهدي الحيدري^(٣) أكبر مجتهد الكاظمية ومعه عشرة من أفراد أسرته بينهم ثلاثة من أولاده فيهم المجتهد والعالم الكبير والحجة، وهم كل من السيد أسد، والسيد أحمد، والسيد راضي، وثلاثة من أبناء أخيه وأربعة من خاصة أرحامه. وكان في هذه الجبهة أيضاً السيد مصطفى الكاشاني^(٤)، والسيد علي الداماد^(٥)،

(١) تقدمت ترجمته سابقاً.

(٢) تنظر: وثائق الثورة العراقية الكبرى: ١٥١ / ٢.

(٣) ولد السيد مهدي بن أحمد بن حيدر الحيدري في الكاظمية بحدود سنة (١٢٥٠هـ) من أسره حسنية علمية معروفة. بدأ دراسته في مسقط رأسه حتى إذا أتم المقدمات والسطوح هاجر إلى النجف الأشرف فدرس على أكابر أساتذتها من أمثال المراجع كل من الشيخ مرتضى الأنصاري والشيخ محمد حسين الكاظمي والسيد محمد حسن الشيرازي. هاجر إلى سامراء ملتحقاً بأستاذه المجدد حتى إذا بلغ درجة الاجتهاد عاد إلى الكاظمية فرجع إليه المؤمنون بعد وفاة أستاذه المجدد الشيرازي. وحين احتل الإنكليز البصرة أفتى سماحته بالجهاد وحث بخطبه عليه وشد الرحال من الكاظمية ومعه ثلاثة من أبنائه وعدد من كبار العلماء فذهب إلى العمارة وحشد الجيوش هناك ثم توجه بهم نحو القرنة ليشتبك مع المحتل الغازي. بل ليقدّم المجاهدين رغم كبر سنه. له (كتاب في الطهارة) في ٦ مجلدات. و(كتاب في الصلاة) في ٦ مجلدات و (زاد المعاد) وهي رسالته العملية لمقلديه. توفي في الكاظمية سنة (١٣٣٦هـ) ودفن في الكاظمية.

(٤) ولد السيد مصطفى بن حسين الكاشاني في كاشان بغيران سنة (١٢٦٨هـ) بدأ دراسته في مسقط رأسه ثم هاجر إلى أصفهان وبلغ فيها رتبة الاجتهاد، ثم هاجر فقصّد النجف الأشرف وجاور ودرّس وباحث فيها. وكان إلى جانب كونه أحد مشاهير العلماء فقهاً وأصولاً ورجالاً وتفسيراً، رياضياً حديثاً، كان أديباً باللغتين العربية والفارسية. وفي سنة ١٣٣٣هـ. خرج إلى الجهاد في البصرة ثم رجع فمرض. له (منجزات المريض) وعدة رسائل في الاستصحاب وقاعدة لا ضرر ولا حرج وعدم حجية الظن وغيرها. و(ديوان شعر باللغتين). توفي ودفن في الكاظمية سنة ١٣٣٦هـ.

(٥) تقدمت ترجمته سابقاً.

"وجماعة من المجاهدين البغداديين يرأسهم المرحوم المجاهد الحاج داود أبو التمن"^(١) أحد كبار المجاهدين والممولين والسياسيين الوطنيين.

وفي الجناح الأيمن حيث جبهة (الشعبية)، قاد جيوش المجاهدين فيها: المجتهد العرفاني الشاعر السيد محمد سعيد الحبوبى ومعه عضده المرجع الأعلى لاحقاً السيد محسن الحكيم ومعهما السيد محمد الحبوبى نجل السيد محمد سعيد الحبوبى وقد تقدم الحديث عن هذه الجبهة سابقاً.

الجناح الأيسر حيث جبهة (الخويزة) قاد المجاهدين فيها المرجع الشيخ مهدي الخالصى^(٢) ومعه نجله الشيخ محمد الخالصى^(٣) الذي كان له نشاط سياسي

(١) عقود حياتي. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء: ١٠١ - ١٠٢.

(٢) ولد الشيخ مهدي بن حسن بن عزيز الخالصى في الكاظمية سنة ١٢٧٩ هجرية ثم هاجر إلى النجف للدراسة فكان فيها من العلماء المنظورين ثم هاجر إلى سامراء فحضر بحوث أستاذه المجدد السيد محمد حسن الشيرازي ثم رجع إلى الكاظمية للإلقاء محاضراته في الفقه والكلام وأصول الفقه حتى أصبح مرجعاً للفتيا في الكرخ من بغداد وضواحيها. قاد المجاهدين ضد الإنكليز سنة ١٣٣٣ هجرية دفاعاً عن بيضة الإسلام، عاد بعد انتهاء المعرك إلى الكاظمية وبدأ جهاده في بلده حتى خشيت منه السلطات المحتلة، دعا مع بقية مع بقية المراجع الكبار في النجف إلى عقد اجتماع في كربلاء في منتصف شعبان بعد هجوم الوهابين على الحدود العراقية وتولى توجيه الدعوات إلى المدعويين من وجهوه العراقيين وشيوخ عشائهم في أنحاء العراق المختلفين فلبت دعوته الزعماء والشيوخ. سفرته قوات الاحتلال إلى الحجاز سنة ١٣٤٢ هجرية ومنه إلى إيران فاشترك فيها بالدعوة مع العلماء إلى المشروطة، له من الكتب (الشرعية السمحاء) في العبادات والعمالات بثلاثة أجزاء و(العناوين) في الأصول بجزأين وغيرهما. توفي سنة ١٣٤٣ هجرية في خراسان وأقبر في حجرة بالقرب من مرقدها الشريف.

(٣) ولد الشيخ محمد بن محمد مهدي الخالصى. في مدينة الكاظمية سنة (١٣٠٦ هـ) وتلمذ على كبار العلماء. اشترك في جبهة القتال رفقة والده وإخوته ضد الإنكليز بعدما دخلوا العراق سنة (١٩١٤ م). أصيب بجرح في رأسه خلال المعارك الطاحنة. نشط في ثورة العشرين نشاطاً ملحوظاً في خطبة وبياناته المدوية وخاصة خطابه في صحن العباس عليه السلام في شوال من سنة (١٣٣٨ هـ) بتوجيه من المرجعية وحضور قادة الثورة وشيوخ العشائر ليعلن فيه إعلاناً عاماً بانطلاق ثورة العشرين. نفى إلى خارج العراق. وعاد ليتوفي في بغداد سنة ١٣٨٢ هـ.

فعال بعد ذلك ببغداد في ثورة العشرين، ثم في تحريم المشاركة في الانتخابات لتمرير الانتداب البريطاني على العراق، فنفي على إثرها المرجع، ونجله، إلى خارج العراق. لقد كان في طليعة هذه الجبهة القتالية من كبار العلماء كل من: السيد محمد نجل المرجع الأعلى وممثله في الجبهة، والسيد عيسى كمال الدين^(١) كبير علماء الحوزة، ومعهم آلاف من المجاهدين. وقد كان لنجل المرجع الأعلى السيد محمد اليزدي^(٢) دور بارز ومؤثر فيها معتمدين في جهادهم على إيمانهم بقضيتهم وعلى سلاحهم البسيط من دون أن تجهزهم الحكومة التركية "بما فيه الكفاية من السلاح والعتاد لمواجهة الجيش البريطاني المحترف والمجهز بأرقى التجهيزات بما يناسب الموقف يعكس مدى إيمان هؤلاء بعدالة قضيتهم واستعدادهم للشهادة في سبيل الدفاع عن الإسلام. كذلك كان العداء بين الشعب العراقي والدولة التركية مستفحلاً لأربعة قرون بسبب ظلم الدولة لهم. فإذا استجاب أبناء العشائر

(١) ولد السيد عيسى بن حمد بن محمد حسن كمال الدين في قرية السادة جنوب الحلة سنة (١٢٨٧هـ) ونشأ على العالم أبيه ثم هاجر إلى النجف الأشرف فحضر على أساتذتها فأكمل المقدمات والسطوح ثم تخرج على المراجع الشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد طه نجف وغيرهم. سافر إلى الأهواز واستقر بها مرشداً وموجهاً فطار صيته في تلك المناطق. وحين دخل الإنكليز العراق وأعلن المراجع الجهاد شارك مشاركة مشهودة في التوعية والتشديد وجمع الأموال والأسلحة لهم يقول الشيخ أغا بزرك الطهراني عنه (طبقات أعلام الشيعة: ١٦ / ١٦٤٠) "أبلى بلاء حسناً... في جنوب القرنة فقد زحف هو ومن كان معه من علماء النجف بجيوشهم مع الجيش العثماني عن طريق الحوزة والتحموا مع الجيش البريطاني... ولما تفرق الزعماء وتوقف الزحف أخذ معه جمعاً من المجاهدين... حيث ثقبوا بعض أنابيب النفط وأشعلوا فيها النيران وتوقف جريان النفط... أسر فسلم للإنكليز... وظل رهن السجن قرب ست سنين... وبعد إطلاق سراحه عاد إلى النجف فكان من علمائها البارزين وفي طليعة العاملين في الميادين الدينية والاصلاحية... توفي في بغداد... سنة ١٣٧٣هـ"، ونقل إلى النجف الأشرف ليدفن في الصحن العلوي الشريف.

(٢) تقدمت ترجمته سابقاً.

لفتوى الجهاد كان ذلك استجابة لعلمائهم المجتهدين^(١). وهكذا "قامت الشيعة بجميع طبقاتها من علمائها وتجارها للدفاع بأنفسها وأموالها أحسن قيام، ولم يظهر من الفريق الآخر شيء يذكر، وكان الأثر والغليان كله للألوية الجنوبية في العراق دون الشمالية مع أن الدولة كانت منهم ولهم"^(٢).

٣. سوء الإدارة العسكرية التركية للعمليات العسكرية وتوزيع المؤ

أدت المعارك المستعرة بين الأتراك والمجاهدين من جهة، والإنكليز المحتلين من جهة أخرى، وما تبعتهما من هزائم للجيش التركي، نتيجة لضعف وسوء إدارة الضباط الأتراك للعمليات العسكرية وخاصة قواد "الحملات في الجبهات وقبح معاملتهم مع المتطوعين المجاهدين فقد كانت الأطعمة مكدّسة في الأنبارات، وعلى ضفتي دجلة والفرات والفوارس والفرسان لا علوفة لديهم ولا قوت عندهم، فإذا جاء جماعة يطلبون الطعام احتاج إلى معاملات رسمية وأوراق وتحويلات وإلى أن يجيء الترياق من العراق يكون قد هلك المريض... ولما انكسرت في الشعبية وغيرها الجيوش وانسحب الأتراك وأحرقوا ملايين من تلك الأطعمة واستولى العدو على الباقي حتى أن جملة من أعلامنا المجاهدين كالمرحوم السيد محمد سعيد حبوي والشيخ باقر حيدر قضوا نحبتهم وانتقلوا إلى رحمة الله على أثر انكسار الشعبية غصة وأسفاً من سوء الإدارة واختلال الأحوال"^(٣).

٤. انكفاء الإترك لاضطهاد ناصريهم من المجاهدين الشيعة

بيد أن ما يؤسف له أن تنتهي معركة الجهاد أو الدفاع المقدس تلك بخسارة

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين: ٤٠.

(٢) عقود حياتي. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء: ١٠٢.

(٣) عقود حياتي. سابق: ١٠٣.

المجاهدين ومعهم الأتراك، وما يؤسف له أيضاً أن ينكفيّ العثمانيون الخاسرون على ناصريهم المجاهدين وفي مقدمتهم العلماء والرؤساء وأهل الحل والعقد والمؤمنين من أهل النجف الأشرف والحلة، فبعد شهر فقط أو بحدوده جهز العثمانيون جيشاً للقبض على الفارين من الجندية في الحلة، كما عاثوا في النجف الأشرف فساداً، وأذى، وانتهاكاً للحرمان، حتى أنهم كانوا يدخلون البيوت قصد تفتيشها، فيفتشون النساء بحجة احتمال أنهن رجال يتخفون بزي النساء، ويطلقون النار على النجفيين لأتفه الأسباب، كما أنهم أصابوا بقذائفهم إحدى مآذن العتبة العلوية الشريفة^(١)، ما استدعى الفارين من الجندية، ومعهم أبناء النجف الأشرف، إلى شن هجوم قاس، على الحامية التركية في النجف فاحتلوها، بعد قتال مرير استمر ثلاثة أيام، وساقوا الأتراك أسرى، ثم أخرجوهم مع قائمقامهم خارج المدينة المقدسة عصر يوم الاثنين العاشر من شهر رجب (سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م)، لتصفوا المدينة لأبنائها النجفيين، وتبعت النجف الأشرف وإن على مستوى أقل مدن كربلاء والكوفة والحلة وطويريج^(٢) ثم كان إثر إخراج مواطني النجف الأشرف للعثمانيين، بادر العلماء والزعماء ورؤساء المحلات الأربع إلى إنشاء مجلس بلدي يتولى تسيير أمور المدينة المقدسة، فسار المجلس البلدي بها سيراً حسناً.

٥. سماحة السيد اليزدي يجدد دعوته للجهاد لصد زحف الإنكليز

نحو بغداد

ونظراً لكون نتائج المعارك بين العثمانيين والمجاهدين المسلمين من جهة والإنكليز من جهة أخرى، لصالح الإنكليز، جمع الإنكليز قواتهم بعد فراغهم

(١) ينظر: تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين حرز الدين: ٣ / ١٤٥.

(٢) ينظر: ماضي النجف وحاضرها. سابق: ١ / ٣٤٢.

من معركة البصرة وأعادوا تعبّتها واندفعوا بها باتجاه بغداد عن طريق الكوت، وعلى الرغم مما عاناه شيعة العراق من جور العثمانيين وظلمهم وطائفيتهم، قرر المرجع الأعلى السيد اليزدي تأكيد إعلان وجوب الدفاع عن العراق ضد الغزاة الإنكليز في يوم الخميس (١٨ ذي الحجة سنة ١٣٣٣هـ/ ٢٧ تشرين الأول ١٩١٥م) "وذاق ذلك في النجف وفيها يومئذ خلق من الزوار -زوار عيد الغدير الأغر- فتجمهر الناس في الصحن عصر ذلك اليوم، وحضر ألوف من الطلبة والتجار والزوار والأعيان... فعند ذلك تقدم خازن المشهد العلوي بإخراج لواء تاريخي ثمين من الخزانة مكتوب عليه الشهاداتان، ثم حضر السيد اليزدي والسواد متعطش إلى ما يقول، وجلس على المرقاة الأولى من المنبر، فرقى المنبر الشيخ محمد شريف الذاكر المعروف، وبلغ الناس عن السيد الحاضر تأكيد وجوب الدفاع، ولزوم التعاضد، واجتماع الكلمة، وكون المدافعين يداً واحدة، وختم بالدعاء. ثم رقى السيد عبد الرزاق الحلو وتكلم في شبه ذلك واستنهض الناس، ثم نهض السيد يحيى الحلي من الذاكرين فعذل الناس عامة والنجفيين خاصة ووبّخهم بكلام مرّ، واستنهض همهم للدفاع، شارحاً مظالم الإنكليز حتى أبكى السواد"^(١).

٦. نهضة المراجع والمجتهدين الثانية للجهاد

لقد نهض المراجع والمجتهدون وكبار العلماء نهضتهم الثانية للجهاد: "فركبوا إلى الكوفة وهم من العلماء: السيد علي التبريزي وشيخ الشريعة الأصهباني، والسيد مصطفى القاشاني - (الكاشاني) -، والشيخ الباقر القمي، والشيخ محمد حسين القمشي، السيد عبد الرزاق الحلو، ومن الأعلام وأولاد المجتهدين:

(١) مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني وحلّاته. سابق: ١١٣ - ١١٤، وينظر: السيد محمد كاظم اليزدي

الشيخ جواد آل صاحب الجواهر، السيد محمد علي الطباطبائي، الميرزا مهدي نجل الآخوند الخراساني، الشيخ إسحاق نجل الميرزا حبيب الله الجيلاني، الشيخ عبد الحسين آل صاحب الجواهر، الشيخ عبد الرضا الشيخ المهدي، السيد محمد علي الشهرستاني، الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ محمد حسين الجعفري، السيد علي نجل السيد محمد سعيد حبوبي وغير هؤلاء من المعدودين في أفاضل الطلاب الفرس والعرب"^(١)، وقد قدر عدد العلماء الملبين لدعوى الجهاد بمائة وخمسين عالماً. وقد تقدمت تراجم أغلبهم فيما مضى.

وفي عصر يوم (١٢ محرم ١٣٣٤هـ / ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٥م) شخّص العلماء المجاهدون بالعلمين الأول والثاني إلى مسجد الكوفة، واتجهوا بهما نحو محراب مصلى الإمام علي عليه السلام، وتلى دعاء الثغور المروي عن الإمام السجاد عليه السلام، ثم سار المجاهدون باتجاه العدو مرحلة مرحلة، ومدينة مدينة، حتى وصلوا الكاظمية وأخبار اندحار الإنكليز تتوالى عليهم انتصاراً إثر انتصار، وهم يتقدمون باتجاه معسكر الإنكليز في الكوت. وقد أبلى الجيش العثماني والمجاهدون وبينهم المجتهد السيد علي الداماد، والسيد عزيز علي بلاء حسناً في معارك عديدة ضارية أنزلت بالاحتل الغاشم خسائر كبيرة جداً، وتعد معركة سلمان باك في (١٤ محرم ١٣٣٤هـ / ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥م) من أهم تلك المعارك حيث استمرت لأربعة أيام طاحنة بالأسلحة المتوفرة كافة، حتى بالأسلحة الأبيض، "بما لم يسبق لها مثيل وكأن هذه الحرب جهنم متحركة فكان هو لها عظيماً وهلك فيها نفوس كثيرة من الطرفين وتزلزلت الأقدام"، وانتهت بانسحاب الإنكليز إلى الكوت تدريجياً لتتبعهم القوات^(٢)

(١) مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني ورحلاته: ١٢٤-١٢٥.

(٢) موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين. عباس العزاوي: ٣٣٣/٨.

المسلمة إليها، فتحاصر الكوت "وقامت عليه العشائر من كل صوب ودمرته من كل جانب" (١).

"وفي أواخر ربيع الأول سنة (١٣٣٤هـ) كان قائد جبهة الكوت خليل بك أبرق إلى معاون ولاية بغداد بلزوم نفوذ العلماء صحبة (العلم الحيدري) إلى دار الحرب للمذاكرة... وفي يوم الثلاثاء (١١ ربيع الثاني سنة ١٣٣٤هـ) فصل العلماء من بغداد إلى دار الحرب... حاملين (اللواء العلوي) " (٢).

وحين وصل وفد العلماء المجاهدين إلى ساحة المعركة يتقدمهم السيد محمد اليزدي نجل المرجع الأعلى السيد اليزدي ومثله في الجبهات، واستبشر خيراً ببواكير النصر القادم، أبرق إلى والده المرجع الأعلى برقية جاء فيها "وصلنا عصر الخميس في ١٣ ربيع الثاني... فسرنا ما شاهدنا... وقد أبصرنا بعيوننا من قوة الجند وكثرتهم وحسن انتظامهم ما أنعش الآمال وأحيا الرجاء وجعلنا على ثقة بلطفه تعالى في النصر الباهر". كما أرسل سماحة السيد محمد علي الشهرستاني (٣) برقية نشرتها (صدى الإسلام) بعددها المرقم ١٨٣ جاء فيها "في ثالث شباط بالعلم الحيدري الشريف مع الوفد العلمي النجفي زرنا معسكر الإسلام المحيط بالكوت فشكرنا من صميم القلب شجاعة عسكرينا الأبطال، ومفاداتهم في استرجاع أراضينا المغصوبة... وحقاً

(١) موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين. سابق: ٨/ ٣٣٣.

(٢) مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني ورحلاته: ١٨٩.

(٣) ولد السيد محمد علي بن الحسين العابد بن محسن الصراف المعروف بهبة الدين الشهرستاني في سامراء سنة (١٣٠١هـ/ ١٨٨٢م) وبدأ دراسته الأولية في مسقط رأسه واستمر في التحيل فحضر بحوث المراجع الشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد محمد كاظم اليزدي وشيخ الشريعة الأصهباني وغيرهم. جاهد الإنكليز منذ احتلالهم للعراق وله مواقف مشهودة خلال ثورة العشرين. أصدر مجلة العلم وأسس مكتبة عامة عامرة. تولى وزارة المعارف وترأس مجلس التمييز الجعفري. توفي سنة (١٣٨٦/ ١٩٤١م) ودفن في الصحن الكاظمي الشريف.

نقول إن الهياة العسكرية لم تكن حتى اليوم في العراق بهذا الانتظام والترتيب^(١).
وفعلاً تحققت توقعات السيدين اليزدي والشهرستاني بالنصر، فحين طال
حصار الكوت ونفدت الأغذية استسلمت الحامية الإنكليزية بقائدها الضابط
الكفوء (طونزند) وضباطها وجنودها الذين قدرت أعدادهم بأكثر من (١٣ ألفاً)
ثلاثة عشر ألف أسير، وقد اعترف الإنكليز بأن استسلام حامية الكوت كان
أبشع كارثة عسكرية حلت بهم منذ زمن طويل^(٢).

٧. نتائج المعركة

وقد وثّق الشيخ محمد رضا الشيباني^(٣) أسرى الجيش الإنكليزي ضباطاً
ومراتب، وكما يأتي:

أسرى الجيش الإنكليزي في معركة الكوت الشهيرة:

- "- أسرى الضباط من حاملي الجنسية الإنكليزية: ٢٧٧ أسيراً.
- أسرى الضباط من حاملي الجنسية الهندية: ٢٠٤ أسيراً.
- أسرى الجنود من حاملي الجنسية الإنكليزية: ٢٩٨٠ أسيراً.

(١) ينظر نص البرقيتين في: مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني ورحلاته: ١٩١.

(٢) ينظر: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٢٨٤ / ٤.

(٣) الشيخ محمد رضا بن محمد جواد بن شبيب. ولد في النجف الأشرف سنة (١٣٠٦ هـ) ودرس مقدمات العلوم العربية والأدب وعلومه والمنطق والفقه والأصول على أفاضل علماء عصره. نظم الشعر وهو فتي وحمل لواء الدعوة إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي. شارك في الحرب ضد الاحتلال الإنكليزي للعراق سنة ١٩١٤ م. حمل رسائل ووثائق المراجع وقادة ثورة العشرين إلى الحجاز مندوباً عن العراقيين فاستقبله الشريف حسين بمكة وتسلم منه الوثائق. رشح لمناصب عدة فاعتذر حتى سنة ١٩٢٤ حيث تقلد وزارة المعارف ثم استقال اعتراضاً على اتفاقية للنفط بين بريطانيا والعراق. وقد تقلد العديد من المناصب من قبيل وزارة المعارف خمس مرات وعضوية ورئاسة مجلس الأعيان ومجلس النواب ورئاسة وعضوية المجمع العلمي العراقي، انتخب عضواً في المؤسسات والجامع العلمية واللغوية العراقية والعربية له من الكتب الكثير منها (مؤرخ العراق ابن الفوطي) بثلاثة أجزاء و(تراثنا الفلسفي)، توفي ببغداد في (١٣٨٥ هـ) وشيع ودفن في النجف الأشرف.

- أسرى الجنود من حاملي الجنسية الهندية: ٦٨٧٠ أسيراً.
- أسرى من جنسيات وأصول أخرى: ٣٠١٧ أسيراً.
- الأسرى من قواد الحيش الإنكليزي: ٥ قواد
- مجموع الأسرى = ٣٥٣, ١٣.

وقد جيء بهؤلاء إلى بغداد، ثم سيقوا إلى شمال العراق للاشتغال بالخط الحديدي^(١).

وذكر صاحب (موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين) أنه "في ٢٨ رجب سنة ١٣٣٤ هجرية سلّم جيش الإنكليز المحصور في كوت الإمارة بعد أن حاولوا التخلص مراراً، أو إنقاذهم من جيوش إنكليزية عديدة، فاضطروا بعد أن فاضوا في تأدية مبالغ، فلم يوافق القائد العثماني. سلّم طاووزند ومعه خمسة جنرالية، و٢٧٧ ضابطاً إنكليزياً و٢٧٤ ضابطاً هندياً و١٣٣٠٠ جندي"^(٢).

غير أن الإنكليز عاودوا هجماتهم وتقدموا بعد هجمات عنيفة شتوها على المدن نحو العاصمة فاستطاعوا دخول بغداد في (جمادى الأولى ١٣٣٥ هـ/ آذار من عام ١٩١٧ م) بعد انتصارهم على العثمانيين. ووصل خبر سقوط بغداد بيد الإنكليز إلى النجف في (١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ هجرية/ ١٣ آذار ١٩١٧ م).



(١) مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني ورحلاته: ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) عباس العزاوي. موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين: ٨/ ٣٤٣.



الفصل السادس

الربع الثاني من القرن الرابع عشر

دور المرجعية الدينية السياسي في
الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري

* * *

ثورة النجف الأشرف
ضد الاحتلال البريطاني للعراق



يمكنني أن أتناول ثورة النجف الأشرف لسنة (١٣٣٦هـ / ١٩١٨م) ضد الاحتلال البريطاني للعراق من خلال النقاط الآتية:

١ إرهابات الثورة وبواكيرها وشبوبها

حين دخل الإنكليز بغداد تركوا النجف الأشرف على حالها، تحكمها حكومتها المحلية لمدة سنتين، بعدها عين المحتلون الكابتن (مارشال) حاكماً على النجف الأشرف، فأساء معاملة النجفيين إساءة بالغة واستهتر، فقرر النجفيون تحرير وطنهم من الاحتلال البريطاني، فثاروا على الإنكليز في يوم (الثلاثاء ٤ صفر سنة ١٣٣٦هـ / ١٩ تشرين الثاني ١٩١٧م) حاملين أسلحتهم قاصدين السراي الحكومي ليدخلوه ويستولوا على ما فيه، وكانوا قبل ذلك قد "ألفوا جمعية سرية قوامها ثلة من الأعلام كالسيد محمد علي بحر العلوم^(١) والشيخ محمد جواد الجزائري^(٢) وغيرهما (...). وقبل أن تعم فروعها طبقات النجفيين وتصل إلى غيرهم من قبائل العراق دفع الحماس المتزايد فريقاً من أفراد الجمعية إلى إضرام نار الثورة قبل أن يحصلوا آراء الجمعية... فنهضوا نهضتهم فجر يوم الثلاثاء (٦ شهر جمادى الثانية سنة ١٣٣٦ / ١٩ آذار ١٩١٨م)، وهجموا على مقر الحكومة (...) فقتلوا قائدها

(١) السيد محمد علي بن علي النقي بن رضا بحر العلوم ولد في النجف بدأ دراسته على أيدي خيرة علمائها ثم انصرف إلى الزعامة السياسية والاجتماعية ففاضل ضد الإنكليز فسجن أشهراً وسفر إلى خارج العراق، وبعد ثورة العشرين انتدب لعضوية مجلس الأعيان العراقي. توفي ببغداد سنة ١٣٥٥ هجرية.

(٢) الشيخ محمد جواد بن علي بن كاظم الجزائري ولد في النجف الأشرف وأتم قراءة المقدمات والسطوح على أفاضلها ثم حضر الدروس العالية على الشيخ علي رفيع والسيد أبو الحسن الأصفهاني وقرأ الحكمة على الشيخ مهدي الاشتياني والشيخ عبد الحسن الرشتي، عرف ببراعته في علوم العربية والفلسفة، صريح في أقواله وأفعاله لم يعرف التملق ولا المجاملة ثار ضد الإنكليز فعرض نفسه للإعدام والسجن حوالي الستين له شعر كثير في الثورة والاعتقال والمنفى. له من الكتب (حل الطلاس) و(نقد الاقتراحات المصرية) و(الآراء والحكم).

وجرحوا"^(١) آخرين، ما استدعى حكومة الانكليز إلى فرض حصار على مدينة النجف الأشرف المقدسة حصاراً قاسياً لأكثر من أربعين يوماً، حصاراً وصف قساوته وشدته ولا إنسانيته وشراسته وعنفه شاهد عيان، وهو يتحدث عن ما شاهده من حالة النجفيين المحاصرين والزوار بقوله: "ها هم خمسون أو ستون ألف نسمة من الأبرياء من نساء ورجال وصغار وكبار يعيشون العذاب والمجاعة والغلاء ويتضورون جوعاً، ويقاسون العطش، ومشاهدة حالهم تذيب قلب من كان له قلب من الصخر... كان الناس حائرين في تغسيل موتاهم ودفنهم، وقد أوشك الحال على إلقائهم في الشوارع، وفضلاً عن الناس كان الكثير من الماشية ينفق كل يوم بسبب الجوع.. ففي الشوارع والأزقة كان الناس ملقين إلى جانب بعضهم البعض وهم يشرفون على الموت ويتنن كغزال صغير وقع في الفخ... أما كرام القوم فكانوا يغلقون الأبواب ويسلمون الروح جوعاً، وتبقى جثثهم في البيوت يومين أو ثلاثة دون أن يكون هناك من يدفنها... في إحدى الليالي الماضية مات تسعة أشخاص معاً من شدة الجوع"^(٢)، كما تناثرت جثث الحيوانات الميتة كالمقطط والطيور وغيرها في الأزقة والساحات والطرق "وقد ملأت رائحة التفسخ والقذارات المدينة حتى أنه لم يعد يمكن معها المرور في الشارع بل ولا الجلوس في الدار"^(٣).

واستمر القتال بين قوات الاحتلال الغازي المتكونة من آلاف الضباط والجنود وبين الثوار النجفيين المدافعين الصامدين في "ليلة مرعبة وخيفة، ليلة مظلمة باردة ممطرة ذات ريح عاصفة وكان لصوت الريح وارتطامها بالأبواب

(١) ماضي النجف وحاضرها: ١/ ٣٤٤-٣٤٧.

(٢) مذكرات شاهد عيان ثورة النجف. الشيخ محمد أمين الإمامي الخوئي: ١٢١-١٢٢.

(٣) مذكرات شاهد عيان ثورة النجف. الشيخ محمد أمين الإمامي الخوئي: ١٣٢.

والشبابيك بحد ذاته رهبة، وخلال ذلك دوت أصوات المدافع والبنادق بشكل اهتزت معه الأبواب... ودون مبالغة فإن الرصاص الذي كان ينهمر كزخات المطر، لا، لقد أخطأت ينبغي تشبيه المطر بالرصاص وليس العكس وعلى مدى ما يقارب الثلاث ساعات لا أكثر التي استمر فيها القتال انطلق من الجانبين ما يقارب ثلاث مائة ألف طلقة تقريباً... وقد خرج الجميع نساء وأطفالاً، كباراً وصغاراً إلى الشوارع حيث جابتها بعض المجاميع وهي تصفق وتزغرد لإثارة الحماس... كانت البلدة قد هبت بأسرها والقلوب تكاد تبلغ الحناجر "و"في الصباح نشطت المدرعات ومدافع المترليوز بإطلاق النار وكان الرصاص يسقط على المدينة كالمطر واستمر الوضع على هذا المنوال ساعة ارتفع بعدها دوي المدافع وأخذت جميع منازل المدينة تهتز كأوراق شجرة تعصف بها الريح "لقد كانت المدينة بأسرها قطعة من لهب يشتعل أوارها مثل كورة الحداد، ودوي المدافع وأزيز الرصاص يزلزل البيوت ويقتلع القلوب من أماكنها"^(١)، ورغم شدة المواجهة الشرسة بين الغزاة المحتلين من جهة والمدافعين البواسل عن مدينتهم الشريفة من جهة أخرى فقد استطاع المحتلون بمعونة الطائرات اقتحام المدينة المقدسة من جهة محلة الحويش^(٢)، فعاثوا بالمدينة المقدسة فساداً، وانتهكوا الحرمات،

(١) مذكرات شاهد عيان ثورة النجف. الشيخ محمد أمين الإمامي الحوئي: ١١٥ و ١٢٩ و ١٢٦ على التوالي.
(٢) ينقل الأستاذ علي الخاقاني عن شاهد عيان "في صبيحة احتلال الإنكليز للجبل -جبل الحويش- حاول اجتياز العقد الذي عليه باب مدرسة الشيخ ملا كاظم -الخراساني- في محلة الحويش خارجاً من بيته في أجد الأزقة، وإذا بانكليزي شاهر مسدسه وهو يقول (لا تخاف تعرف سيد مهدي السيد سلمان). فقلت: نعم. فقال: رافقني إلى بيته. وفي الطريق وقف على باب المدرسة المتقدم ذكرها فسأل عن أصحاب الحوانيت في جنبها بأسرائهم. فقلت له: كيف عرفتهم؟ قال: أنا في هذه المدرسة مدة سبع سنين أدرس فيها، وعرفني في الطابق السفلي. وعند ساحة الحويش وقف وطلب مني أن أجلب السيد مهدي وحده. فذهبت وأخبرته. وجاء معي فطلب من السيد مهدي إحضار عبد الحميد خان -معاون حاكم النجف السياسي من قبل =

وهدوا البيوت والأواوين الملاصقة للسور، وغالبيتها لسكن الفقراء، وهدموا قسماً من السور بالقنابل، وأطلقوا المدافع على بيوت الأمنين، فقتلوا وجرحوا حوالي ثلاثين رجلاً، واعتقلوا ما يقرب من مائة وخمسين، وقد حكم على أحد عشر رجلاً من النجفيين بالإعدام شنقاً، وعلى مائة وسبعة مناضل منهم بالنفي إلى الهند.

٢ نظام عمل (الجمعية الإسلامية السرية) وأبرز قادتها

للجمعية الإسلامية السرية - التي تأسست في النجف الأشرف سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م) قبيل احتلال الإنكليز لبغداد، والمؤججة لثورة النجف الأشرف ضد الإنكليز عام (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) - نظام عمل داخلي ومنهاج حزبي متقدم بشكل ملفت بالنسبة لعصره، ومكانه، وبلده، وتقنين مواده، وأهدافه، وغيرها، أرجو أن أوفق أدناه لقراءته قراءة تحليله موسعة بالقدر الذي يستحقه.

ويعدّ كل من السيد محمد علي بحر العلوم، والشيخ محمد جواد الجزائري أهم أعمدة هذه الجمعية "ومن أفكارهما تستمد"^(١). ويتكون نظام الجمعية من دياجعة وإحدى وعشرين مادة، نصت (المادة الأولى) منها على "وجوب تحكيم ارتباط أفراد المسلمين بعضهم ببعض... ليكون الإسلام كتلة واحدة على من سواهم"، ونصت (المادة الثانية) من نظام الجمعية على: "السعي لإعلاء كلمة الإسلام... والعمل به... ودرس الأحوال السياسية والعمل بما يتتفع به المسلمون ويعلمو به الإسلام" ونصت (المادة الثالثة) على "تأييد وترويج جميع الحكومات الإسلامية عامة، والحكومات

= الإنكليز تلك الحقبة - فحضر واتجهوا جميعاً إلى الجبل لمقابلة القائد" (مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٢.

السنة السادسة. ١٤٣٢/ ٢٠١١. ص: ٢٦٨-٢٦٩. وهناك قصة أخرى في المصدر نفسه. وهناك غيرها

في مصادر أخرى) فتأمل المخاطر المحتملة ما دام وضعنا هكذا.

(١) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٣٤٥/١.

العربية، ولا سيما الحكومة العراقية خاصة" ونصت (المادة الخامسة) على "صيانة أعراض ومحافظه حقوق جميع الملل غير المسلمة واحترام معابدهم ومراعاة مناسكهم الدينية"، ونصّت (المادة السادسة) على أن "مركز الجامعة الإسلامية العربية أحد الأماكن المقدسة كالنجف وكربلاء حيث يوجد فيها الرئيس الروحاني المطلق، وقد يكون... الكاظمية... أو سر من رأى سامراء"، ونصت (المادة السابعة) على أن "تشكل الجمعية المركزية للجامعة الإسلامية بالرئيس الروحاني ومن يرشح من أهل الفضل والأدب ولا يزيد عدد جميع أعضاء الجمعية ورئيسها على اثني عشر شخصاً ويتخب من بينهم كاتب أسرار الجمعية وأمين صندوقها" وحددت (المادتان الثامنة والتاسعة) فتح فروع لها في البلدان الإسلامية وفي مدن العراق وآلية ترشيح أعضائها وعددهم وارسال مندوبين لفتح فروع لها في المدن التي تخلو من فروعها. وحددت المواد اللاحقة: كلٌ بإداتها: إمكانية استعانة مجالس الجامعة بهيات (استخبارية) و(تلقينية) أي تبليغية، وخصوصيات النظام داخلي لمجالسها من حيث مرات الانعقاد، ونظام الجلسات، ونصابها، وآلية توثيقها، ورئاستها، وحل المشكلة فيما لو تساوت أصوات الأعضاء على القرارات في الجلسة، وتوقيع الأعضاء المؤيدين للقرار، ومنح الحق للمعارض أن يثبت رأيه ويوقع دونه، وتوثيق نسخة القرارات التي ينبغي تبليغها حرفياً أو بالمضمون بالختم، كما قنن النظام أيضاً الوضع المالي للجمعية، وحدد ضوابطه، وآلية تسلمه، وتوثيق التسلم، وطريقة توزيعه^(١).

٣ نماذج من بطولة قادة الثورة

وإذا كان لي أن أختتم بشيء عن هذه الثورة النجفية المهمة ضد الإنكليز سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م)، بحزبها المخطط بعناية لدستوره، ونظامه الداخلي، وشبكته

(١) تنظر ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. السيد محمد علي كمال الدين: ٦٦-٦٩.

التنظيمية المحكمة بشقيها المدني والعسكري، التي تحطت حدود النجف الأشرف إلى غيرها من المحافظات الأخرى بسرية وفاعلية، وبخاصة الفرات الأوسط، بل وراسلت الشيخ خزعل الكعبي في الأهواز، أقول: إذا كان لي أن أختتم بشيء فإني سأختتم بوصف طويل لثلاثة مؤرخين معاصرين، لكل شخصية من شخصيات ثورة النجف الأشرف ضد الاحتلال البريطاني للعراق عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٨م): أولهما وثانيهما لرعيامين مقاتلين جسورين من خطها العسكري هما: الحاج نجم البقال أحد مواطني النجف الأشرف وكسبتها البسطاء، والشيخ كاظم صبي أحد زعماء النجف الأشرف الاجتماعيين، وثالثهما لأحد زعماء خطها المدني هو سماحة الشيخ محمد جواد الجزائري، أحد علماء الحوزة العلمية في النجف الأشرف، وكبير منظري (جمعية النهضة الإسلامية) السرية التي قادت الثورة، مبتدئاً بالمقاتل الجسور الحاج نجم البقال.

أ. الحاج نجم البقال

يوصف المقاتل البطل المجاهد نجم البقال قائد العملية العسكرية بأنه أشجع المجاهدين وأكثرهم حنكة في التخطيط والتنفيذ.

وقد بان دقة وصفه عليه في صباح الثلاثاء (٦ جمادى الثانية ١٣٣٦هـ / ١٩ آذار ١٩١٨م) بأن بدأ الهجوم بقيادته على سراي الحكومة المحتلة في (خان عطية) مقر الحاكم الإنكليزي (الكابتن مارشال) لاحتلاله، وقتل الكابتن مارشال وجميع من معه. وقد نفذ الثوار خطتهم، فقتلوا الحاكم الإنكليزي، وأصابوا ضابطاً آخر بجراح بليغة، وقتلوا غيره، وانسحبوا.

يقول الشاهد يوسف رجب عنه: "إن الحاج نجم قد نيّف على الستين، وقد أسرع إليه الهرم إسرعاً، ضعيف الجسم هزيله... لباسه ساذج، وعيشه جشِب،

ومظهره ومخبره كله ورع وتقوى... حلو الحديث، رقيق اللسان... بقالاً قد اتخذ حانوتاً له في رأس السوق الكبيرة في النجف، وإن أنس شيئاً فلست بناسٍ ما رأيته عياناً من مظاهر هذا البطل، الحاج نجم، وهو ساكن الظل، ثابت الجأش، وهو مقدم على مصارعة الموت في غزوة لا يعرف مغبتها، بقلب أصلب من الصخر... كنت في ذلك المساء ليلة (١٩) (١) واقفاً حيال دكان هذا الكهل الجبار، وهو يغلق حانوته جرياً على عادته في كل أماسي أيامه، ثم أقبل علينا بوجهه الضاحك، آمن السرب، معتداً للأمر الجليل بالعزم الجليل، ويده (صرّة) لا ندرى ما بها، فعرض علينا أن نأخذ مما بها مقدار ما نحب، وكانت كمية (الكمأة) مهداة إليه في فصل ذلك الربيع، ولكننا شكرناه على تفضله، فودعناه وانصرف صوب الحرم الحيدري المقدس... فإنه في كل ليلة يذهب مبادراً إلى أداء فريضة الصلاة مغرباً وعشاءً عند ضريح الإمام علي عليه السلام، ثم يتشرف بالزيارة، ويقفل إلى بيته لاستراحته ونومه. وما عسى أن يعلم الناس عن كهل متهدّم الجسم غير القيام على كسب القوات والعكوف في ليله في مخدعه، يستجمّ به قواه".

ويضيف الشاهد على الحدث قائلاً: "وللقارئ أن يتأمل وأن يتفرّس في قلب ذلك الرجل الحديدي وقلوب أصحابه، فإنهم بعد ذلك الاقتحام، بعد بذلهم مجهودات شاقة مضيئة في ليلتهم تلك حتى صباحها، يعودون إلى منازلهم، فيخلعون لباس الحرب، ويخرجون إلى الأسواق لمزاولة أعمالهم من غير خشية ولا رهبة من حساب. وناهيك ببسالة هذا البطل الحاج نجم عليه السلام، فإنه يسرع إلى دكانه ثابت الجأش، صلب العزم، فيفتحه كعادته وابتسامته هي هي، لم تفارق محيّا، كأن الأهوال صناعته، لا التمور والفاكهة حرفته، وتلك غاية البسالة، ومنتهى الرجولة،

ولله أبوه... فإن في الناس من يرتج عليه وتتخاذل مفاصله إذا وقف يلقي كلاماً على جمع من الأطفال، فكيف برجل يتسلل من هيجاء معضلة، ويفلت من شرك الحمام بعد أن يقع على جبهة الموت، ثم يواصل بيع التمر بعد لحظات معدودات من انسلاله من ذلك الهول العظيم. إن أنس فلست ناسيه في صبيحة ذلك الحادث، فقد رأيته مثله في مساء ليلته، ضاحك السنّ آمن الروع... وكان كأنه أحد الناس الغافلين، جاهلاً بما أهاج الناس وأفزعهم، سائلاً مثل غيره عن أسباب الطلقات النارية، ومن الفاعل؟^(١).

وحين أمسك الخونة به من أتباع الإنكليز (يوم الجمعة سلخ جمادى الثانية سنة ١٣٣٦هـ/ ١٢ نيسان ١٩١٨م) "هرع الناس إلى مشاهدته وأفقلت الأسواق واهتم الجمهور بذلك اهتماماً عظيماً، وكذلك الإنكليز، وقد جيء به... في سواد عظيم يحيط به، والخلق صفوف في الشوارع التي يمرّ عليها به، وهو مطرق يدخن لفافته، لا أثر للجزع عليه"^(٢)، وقد نفذ به المحتلون الإنكليز حكم الإعدام وبعشرة ثوار أبطال آخرين في خان بيت شلاش في الكوفة يوم (الخميس ١٩ شعبان ١٣٣٦هـ/ ٣٠ مايس ١٩١٨م).

ب. الشيخ كاظم صبي

في اليوم الحادي والأربعين من ثورة النجف المصادف ليوم (الأحد ٦ رجب ١٣٣٦هـ/ ٢٨ نيسان ١٩١٨م)، وبعد إصرار المحتلين الإنكليز على عدم رفع حصارهم عن النجف الأشرف إلّا بتسليم أو اعتقال قادة الثوار والثوار المؤثرين كافة، وإن أدى الحصار الظالم إلى موت الناس والحيوانات جوعاً

(١) ثورة النجف. حسن الأسدي: ٢٤٢ وما بعدها.

(٢) مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي. سابق: ٢٨٨.

وعطشاً صمم البطل كاظم صبي على تسليم نفسه للقوات الغازية كي يفك الحصار عن مدينته المقدسة.

يقول المؤرخ الشاعر الشيخ علي الشرقي^(١) "وكان في طليعة أولئك المساعير البطل كاظم صبي رجل الشهامة ومثال الفتوة، ذلك الكهل الوسيم المهيب، جميل المخائل والشمائل، عذب الكلمة، يتفحص نبلاً وبطولة، هبّاب للطيبات، مقدم يطفح في الرعيل الأول، يخور عزم الليث ولا يخور عزمه، وكان كبير ضباط الإنكليز يقدر بسالة (كاظم)، ويحترم شهامته، وحرصاً على حياة ذلك البطل أرسل إليه من يخبره أن الدفاع أصبح لغواً ومن دون جدوى، فهو يطلب منه الاعتزال وتضمن له السلامة والكرامة.

وعندما أسر ذلك الوسيط النبأ إلى (كاظم) انتفض عزة وإباءً وهو يقول: ما أنا فرد، إنما أنا مجموع هؤلاء المنافحين، ولا خير في الحياة بعدهم. أنا النجف وما ضم سورها، فلا سلامة لي إلاً بسلامتها، ولا كرامة إلاً بكرامتها... ولما استيأس الناس ونفذ كل ما في عباهم من صبر وعناد، جاء كاظم صبي ووقف بإزاء الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر الإنكليزي الذي أكثر كاظم صبي فيه القتلى والجرحى قائلاً: أمسكوني: أنا كاظم صبي، وأطلقوا النجف الأسيرة... وهكذا يمشي البطل إلى المشنقة بخطى متزنة، مترفعاً ومرتفعاً على عمود الشرف والاعتزاز".

ويصف المؤرخ حسن الأسدي^(٢) قصة تسليمه لنفسه بما بالآي: "بعد أن تم إلقاء القبض على جميع المطلوبين المهمين تقريباً عدا كاظم صبي الذي علم وأدرك أن الحصار لا يفك عن النجف بما فيها من أبرياء ما لم يسلم نفسه للسلطة، لذلك

(١) موسوعة الشيخ علي الشرقي الثرية. الألواح التاريخية، القسم الأول، جمع وتحقيق موسى الكرباسي: ٥٠-٥١.

(٢) ثورة النجف على الإنكليز. حسن الأسدي: ٣٢٧-٣٢٨.

صمم على التسليم. ففي فجر هذا اليوم خرج من مكمنه وذهب إلى الحمام، ثم إلى الصحن الشريف، وكان الباب موصداً، فسلم على الأمير وصلى صلاة الصبح، ثم ودّعه واتجه نحو باب المدينة مخترباً السوق الكبير، حيث الأسلاك الشائكة في نهايته وعليها الحرس المنود، ولما أعلمهم باسمه وطلب إليهم السماح بمروره لتسليم نفسه، فرفضوا ذلك، أو أنهم لم يفهموه. عند ذلك عاد واتجه إلى (خان البو مرزة في سوق المسابك) الذي كان مقراً للجتين، ليسلم نفسه للجنة التفتيشية، ولكن خبر قدومه قد وصل اللجنة قبل وصوله، ففر أعضاء اللجنة جميعهم، ولما وصل الخان لم يجد أحداً منهم فيه، فاستغرب لهربهم وتساءل ساخراً: ألا يريدون إلقاء القبض علي؟.

ثم توجه الشيخ كاظم صبي إلى (قهوة فيروز) قرب الخان وشرب القهوة هناك، ثم ذهب بعد ذلك إلى دار الحاج محسن شلاش^(١) ليوصله إلى الكابتن بلفور ليسلم نفسه إليه؛ لأن الجيش يعرف الحاج محسن ويسمح له بالمرور. وهكذا "تم تنفيذ حكم الإعدام به وب عشرة ثوار أبطال آخرين من قبل الإنكليز في خان بيت شلاش في الكوفة يوم (الخميس ١٩ شعبان ١٣٣٦هـ / ٣٠ مايس ١٩١٨م).

ت. العلامة المجاهد الشيخ محمد جواد الجزائري

أما ثالث الشخصيات النجفية المجاهدة فهو ساحة المجاهد الشيخ محمد جواد الجزائري، تلميذ المراجع وكبار المجتهدين من أمثال: الشيخ محمد كاظم

(١) الحاج عبد المحسن عبود سعيد حاجم شلاش ولد في النجف سنة (١٨٨٢م) واشتغل في التجارة ودرس وكتب وألف، حاز على الواجهة الاجتماعية والخبرة الاقتصادية والسياسية فكان من كبار سياسي واقتصادي النجف والعراق، اشترك في التخطيط والدعم المالي لثورة العشرين فاختير وزيراً للتجارة والاقتصاد في حكومتها المحلية في النجف الأشرف بعد تحريرها خلال ثورة العشرين. أنشأ خط سكة حديدية تربط الكوفة بالنجف الأشرف. شغل عدة مناصب وزارية كالمعارف والمالية والأشغال والإسكان والاقتصاد في حكومات عراقية متعددة خلال العهد الملكي. توفي سنة (١٩٤٨م).

الخراساني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ أغا ضياء العراقي، وغيرهم، وأحد أكبر زعماء ثورة النجف لسنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) ومفكرها، وصاحب كتاب (حلّ الطلاس) الذي ردّ فيه على طلاس الشاعر إيليا أبو ماضي^(١) والشيخ الجزائري محيط بدقائق علمي العربية والفلسفة بخاصة، سلّم نفسه في اليوم الثالث والأربعين للحصار (١٨ رجب ١٣٣٦هـ/ ٣٠ نيسان ١٩١٨م) للسلطة الإنكليزية المحتلة وسط جمهور من العلماء والمؤمنين المودعين النادين المعولين المتجمهرين حوله، وهو ذاهب إلى مقر الحاكم السياسي، يقول صاحب كتاب (ماضي النجف وحاضرها)^(٢) معاصره عنه إنه "الرجل الصريح في أفعاله وأقوله، لم يعرف المداجاة، ولا التملق، وله شمم عربي وروح إسلامي يدفعه إلى المغامرة في الذود عن الإسلام والعروبة، وقد ساء بعد الحرب العالمية أن يرى العراق العربي المسلم وهو بلده ووطنه العزيز تحت نير الأجنبي فتحفز وعمل لإنشاء دولة عربية تقوم فيه، فعمد إلى تشكيل جمعية سرية عام ١٣٣٦هـ جرية تعمل في الخفاء على إنهاء الأمة وتحريرها (...). فكانت الحرب النجفية الشهيرة التي فشلت وخاب الأمل (...).

عرّض المترجم نفسه للإعدام والسجن والاعتقال إلى أن وقعت الحرب العراقية، وله فيها البلاء الحسن، مكث في السجن سنة وعشرة أشهر "بعد أن حكم

(١) شاعر لبناني من أشهر شعراء المهجر ولد سنة ١٨٩٠م في جبل لبنان ثم تنقل بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية. أسس مجلة السمير. أصدر ثلاثة دواوين هي (الجدول) و(الخائل) و(ديوان إيليا أبو ماضي). له قصيدة أسماها (الطلاس) شكك فيها بالخالق جل وعلا وأثار أسئلة وجودية أخرى فرد عليه العديد من شعراء النجف الأشرف وغيرها. وفندوا مضامين قصيدته. توفي في نيويورك سنة (١٩٥٧م). وقصيدة الشيخ الجزائري إحدى الردود على قصيدة الطلاس بنفس نسج الطلاس.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. سابق: ٩٣/٢.

عليه المحتلون الإنكليز بالإعدام ثم أبدل الحكم بالسجن والنفي إلى عربستان بعد تدخل كل من المرجع الشيخ محمد تقي الشيرازي والشيخ خزعل أمير عربستان.

ويصفه المؤرخ المعاصر له أيضاً حسن الأسدي^(١) بقوله: "إن الشيخ محمد جواد الجزائري من الوطنيين الإسلاميين المخلصين الأفذاذ الذين قلماً يجود الدهر بأمثالهم، فهو لا يفهم من الوطنية غير التضحية، ولا يفكر باستغلال العمل الوطني بأي شكل من الأشكال. بل هو يعتقد أن الوطنية أثناء الجهاد يجب أن يكون الحرمان ملازماً لجميع العاملين في مختلف حقولها، لتبقى شرارتها متقدمة في النفوس، فلا ترقى إليها الشبهات والمساومات، أو الخوف على ما في اليد من ثراء، أو الطمع بما يمكن الحصول عليه من مال، وقد عاش طيّب الله ثراه طيلة حياته مؤمناً بذلك، وعاملاً به كمجاهد".

هذان أنموذجان من نماذج قادة الثورة أولهما فارس ميداني، وثانيهما مجاهد بالسلاح، ومهندس فكر (جمعية النهضة الإسلامية) السرية صاحبة هذه الثورة.

٤ رأي المرجعية الدينية العليا وكبار العلماء في الثورة

أما موقف المرجع الأعلى السيد اليزدي وكبار المجتهدين والعلماء أثناء ثورة النجف فكان متشابهاً، فهو وهم يوجبون الثورة ضد الإنكليز المحتل سواء للعراق كله أم لمدينة من مدنه، وقد أفتى سماحته، وأفتى مراجعها الآخرون بذلك، بل خرجوا للجهاد بأنفسهم أو بممثليهم وبما يملكون، والنجف الأشرف في مقدمة تلك المدن التي لو حان الوقت المناسب للجهاد لما تأخر أحد عن نصرتها وطرده المحتل الغازي من أرضها فكيف بالمرجعية وكبار مجتهديها، فهي المدينة المقدسة

(١) ثورة النجف على الإنكليز: ٣٥١.

التي تشرفت فاحتضنت مرقد الإمام علي عليه السلام، وحوث المرجعية العليا والحوزة العلمية، غير أن المراجع والمجتهدين وأغلب كبار علمائها ارتأوا بأن ظروف الثورة لم تنضج بعد، وأن التبكير بإعلانها قبل نضوج وقتها قد يكون في غير محله، وأن على المرجعية والمجتهدين والعلماء ووجوه النجف الأشرف تلافي تداعياتها ما أمكن، غير أن المرجع الأعلى السيد اليزدي "كان الأكثر نشاطاً من بقية المراجع وعلماء الدين في محاولة المحافظة على حياة الثوار، والحيلولة دون تعرضهم للانتقام الإنكليز، ومحاولة إقناع السلطات البريطانية بإصدار العفو العام عن كل الذين اشتركوا في الثورة، بدءاً ممن اشترك في قتل الكابتن مارشال يوم (١٩ آذار ١٩١٨ م) وانتهاء بأيام الثورة اللاحقة، وقد أدرك الثوار أنفسهم دور السيد اليزدي وكبار المجتهدين من خلال تحركاته وتعاطفه وتعاطفهم معهم، لذلك بادروا إلى تزويد منزله بالمواد الغذائية ليتمكن من مقاومة الحصار الجائر المفروض عليه من قبل الإنكليز المحتلين للنجف الأشرف"^(١).

فمن تحركاته عليه السلام إرساله وفداً للمفاوضة عسى أن تنتهي الأمور إلى خير، ومنها توقيعه وكبار المجتهدين والعلماء والرؤساء برقية إلى القائد العام للجيش البريطانية طالين فيها إصدار العفو العام عن المجاهدين، وإرساله أكثر من رسالة يطلب فيها رفع الحصار عن النجف الأشرف والعفو العام من أمثال هذه البرقية التي جاء فيها: "نحن العلماء في النجف الأشرف نرفع الشكوى عنا وعن عامة الفقراء والمساكين والمجاورين في هذه البلدة المقدسة (...) مسترحمين رفع هذا الحصار عن الأبرياء والضعفاء الذين لا جناية لهم ولا تقصير ولا رضا. وأشد البلاء

(١) ينظر: السيد محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٣٣٥. نقلاً عن دور علماء النجف: ١٥٨ -

١٥٩. مقابلة مع السيد عبد العزيز الطباطبائي في ٤ آذار ١٩٩٤ م.

قطع الماء فإنه من العقوبات التي لا تسوغ في جميع الأديان البشرية، فإن لم تكن رحمة للرجال فنسترحم الرأفة على النساء والأطفال (...) وقد أشرفت النفوس على التلف والهلاك من الجوع والعطش وتعطيل الأسباب، وهذه المعاملة ضربة على جملة العالم الإسلامي، جارحة لعواطف عامة المسلمين (...) فالمأمول إعمال التدابير الحازمة في رفع هذه الغائلة على وجه لا تهلك الضعفاء والأبرياء بإصدار العفو العام وتأمين البلاد"، وقد وقعها المرجع شيخ الشريعة الأصهباني، وعدد كبير من العلماء والفضلاء، كما وقع عليها المرجع الأعلى السيد اليزدي مضيفاً قبل توقيعه العبارة الآتية بخطه: "حسب الظاهر إن إطفاء هذه النائرة عن هذا البلد المقدس موقوف على العفو العمومي، وفيه المصلحة"^(١).

ثم عاد المرجع الأعلى والمجتهدون والعلماء فأعقبوا رسالتهم السابقة برسالة أخرى إلى القائد العام للجيش البريطاني في العراق في اليوم الثاني عشر من مقتل الكابتن مارشال وبدء الحصار، مؤرخة في (١٧ جمادى الثانية ١٣٣٦ هـ/ ٣٠ آذار ١٩١٨ م) وقد وقعها كل من المرجع الأعلى سماحة السيد اليزدي، وسماحة المرجع شيخ الشريعة الأصهباني، وجمع من العلماء والفضلاء، جاء فيها: "إن هذا الحصار الذي أوجب تلف عدة من نفوس الأبرياء من الغرباء والمجاورين كل يوم بالقتل والجوع والعطش... كما أنه موجب لهتك الحرمات الإسلامية... وهو ضد المصلحة المرعية لمثل هذه الدولة... طالبين رفع الحصار والأسر عن الأبرياء والضعفاء بإصدار العفو العام"^(٢).

ومن محاولاته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فكَّ الحصار وإطفاء النائرة دعوته لأكثر من اجتماع مع

(١) السيد محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) المصدر السابق: ٣١٦-٣٦٢.

كبار العلماء ووجهاء النجف الأشرف ورؤساء عشائرها وزعماء الثورة من قبيل دعوته إلى اجتماع العلماء والأعيان والرؤساء والمتغلبين والجمهور في مدرسته بتاريخ (٨ جمادى الثانية ١٣٣٦هـ / ٢١ آذار ١٩١٨م) طالباً تدارس الوضع العام وإيجاد الحل، ولا سيما وأن البلدة مكتظة بالزوار بمناسبة عيد نوروز (عيد الدخول)، ثم دعوته إلى اجتماع آخر للعلماء والوجهاء وقادة الثورة بداره في (٢١ جمادى الثانية ١٣٣٦هـ / ٣ نيسان ١٩١٨م) ثم عاد في اليوم التالي (٢٢ جمادى الثانية ١٣٣٦هـ / ٤ نيسان ١٣٣٦م) بعد علمه بتصلب موقف المحتل فطلب عقد مؤتمر في داره وطلب من الثوار بعض اللين في موقفهم التفاوضي بعد أن أضرّ الجوع والعطش بالفقراء والنساء والأطفال والزوار، غير أنها كلها لم تنته إلى حل.

رفض المرجع الأعلى طلب الإنكليز بخروجه من النجف قبل فك الحصار عن المدينة

ثم كان أن "طلب الإنكليز من السيد اليزدي مغادرة النجف تمهيداً لقصفها قصفاً وحشياً شرساً، وأرسلوا إليه أن يخرج هو وعائلته من النجف لئلا يصيبه ما يصيب أهالي النجف، فرفض ذلك رفضاً قاطعاً بقوله: إن أهالي النجف كلهم عائلتي، فلو رمت الخروج بهم لخرجت بجميع أهالي النجف، لأنه أراد حماية الثوار والمدينة من الانتقام البريطاني. ولم يقف عند هذا الحد بل حاول السيد اليزدي إنهاء الحصار بعد اقتحام الإنكليز المدينة، لكن الإنكليز رفضوا طلبه، كما رفضوا وساطته الأخرى لإتقاذ المحكومين بالإعدام، ولم يستجيبوا له إلا في تخفيف حكم الإعدام عن السيد محمد علي بحر العلوم، والميرزا أحمد الخراساني^(١) نجل المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني.

(١) السيد محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٤٤٧.

وكان ما كان مما تقدم ذكره ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١) ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(٢).

٦ السياسة الاستعمارية المستبدة للإنكليز

يقول الباحث جعفر الخليلي^(٣) "فكان الحاكم حين يخرج من دائرته يتقدمه أحد الجللازة فيصرخ بالناس على طريقة ما تنقله قصص ألف ليلة وليلة عن خروج الملوك (...) يصرخون بالناس بلهجة ملؤها الخشونة صائحين: أحرصوا والزموا جانبي الطريق، أو كانوا يصرخون صائحين: انتبهوا وقفوا على قارعة الطريق، صمًا بكمًا، وغير ذلك مما لا يتعدى هذه المعاني التي سجلتها بدون زيادة أو نقصان، فإذا مرّ الحاكم في السوق، ولم يتبته له أحد، إما لأنه كان مشغولاً بالحديث مع رفيق له، أو مشغولاً بابتياح حاجة، فما أسرع ما تهبط السياط على ظهره أو رأسه فتلهبه".

٧ تداعيات ثورة النجف الأشرف ونتائجها

بعد أن هدأت أوضاع المدينة المقدسة، وفك الحصار عنها، وسمح للماء بالجريان والغذاء بالدخول، وخرج الزوار المحاصرون منها، ودخلها الزوار القادمون إليها، وسافر النجفيون إلى مدن العراق المختلفة، لينقلوا لأهاليها غلظة وشدة وقساوة وظلم وبطش ولا إنسانية الإنكليز، عيّن المحتلون على النجف الأشرف في (١٢ آب ١٣٣٦هـ/ ٢٣ أيار ١٩١٨م) الكابتن غرينهوز المعروف بغلظته وجلفه وصلفه، فكان لتأثير هذا التواصل بين النجفيين وغيرهم من المواطنين في

(١) سورة البقرة. الآية: ١٥٦.

(٢) سورة الشعراء. الآية: ٢٢٧.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ القسم الثاني: ٣١٣.

المدن العراقية الأخرى دور كبير في تعريف الناس بعدوانية ووحشية وجرائم الإنكليز مع العلماء والزوار والمدنيين المسلمين وإيقاظ شعورهم بضرورة التخلص من هذا المستعمر المحتل المجرم.

وإذا كان لي أن أشير إلى ما تمخّضت عنه فتاوى الجهاد ضد الإنكليز وما تبعها من تلبية عشرات الألوف من العراقيين للفتاوى سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) ثم ثورة النجف الأشرف سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) التي أعقبت الجهاد المقدس بعد دخول الإنكليز للأراضي العراقية، فإني سأشير إلى ما ذكره الباحث حنا بطاطو من أن أكثر "ما ساهم في إيقاظ الشعور الجديد (الوطني) كان الغزو الإنكليزي... أو بالأحرى المقاومة التي أثارها هذا الغزو ووصلت الذروة في انتفاضة العام (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) وللمرة الأولى منذ قرون عديدة تتوحد جهود الشيعة والسنة سياسياً، وعشائر الفرات الأوسط مع سكان بغداد. وأقيمت احتفالات شيعية- سنية مشتركة لا سابق لها. وكانت هذه الاحتفالات دينية في ظاهرها وسياسية في الواقع، حيث أقيمت في كل مساجد الشيعة والسنة بالتناوب، فكانت الموالد النبوية في ذكرى مولد الرسول، وهي احتفالات سنّية، تتبع مجالس تعزية لذكرى استشهاد الحسين، وهي احتفالات شيعية. وكانت الطقوس تبلغ ذروتها بخطابات وأشعار سياسية تهدد الإنكليز وتتوعددهم. " ويضيف: " إن الثورة المسلحة... قد أصبحت جزءاً من الميثولوجيا الوطنية، وبالتالي عاملاً هاماً في انتشار الوعي الوطني"^(١).



(١) حنا بطاطو، تاريخ العراق، الكتاب الأول، ص ٤٣، نقلاً عن علي البازركان. الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية: ٩٠ و ٩٤.



الفصل السابع

الربع الثاني من القرن الرابع عشر

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية على
الساحة السياسية العراقية خلال الربع الثاني
من القرن الرابع عشر الهجري

* * *

إعلان الجهاد الدفاعي ضد المحتلين
ونشوب ثورة العشرين الفراتية



يحسن بي بادئ ذي بدء أن أشير إلى أنني سأتناول ثورة العشرين بإيجاز شديد لمن لا يقع بيده الكتاب العاشر من كتبي عن الحوزة العلمية في النجف الأشرف المعنون (قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين. وقائعها، ومبدئية مواقفها من المحتل وتابعيه، وشكل نظام حكمها، مع مقارنته بنظرية سماحة السيد السيستاني ورؤاه العملية) فقد دار البحث في هذه الثورة الكبرى تفصيلاً بأكثر من (٨٠٠) صفحة عن كل ما يتعلق بالثورة من قريب أو بعيد. وفيما يأتي اختصار لبيان أهم نقاط هذه الثورة.

أولاً المرجع الديني الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي

بعد أن توفي المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي في (٢٨ رجب ١٣٣٧هـ/ ٣٠ نيسان ١٩١٩ م) خلفه في تولي زمام المرجعية العليا المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي.

ويعد دور المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي المتوفى في (١٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ/ ١٣ آب ١٩٢٠ م) من أهم الأدوار على الساحة السياسية العراقية، ومن أكثرها ذيوياً وانتشاراً، فهو أحد أشهر تلامذة المرجع الأعلى المجدد السيد محمد حسن الشيرازي صاحب (ثورة التنبك) المتقدم ذكرها سابقاً حيث "درس منهج الزعامة وسيرها في المجتمع الإسلامي من أستاذه المربي الوحيد... ولما توفي السيد الشيرازي سنة (١٣١٢هـ) اتجهت إليه أنظار الناس للزعامة الدينية والسياسية وهاجر إلى كربلاء وأقام فيها عالماً موجهاً مرجعاً يومئذ. كان مفكراً ينظر الأمور العرفية والسياسية من شتى نواحيها، آراؤه سديدة ناجحة. ابتلى في عصره بمكائد الإنكليز ودسائسه للمسلمين في العراق فكان موقفه المشرف موقف المدافع عن الإسلام والذاب عن حقوق المسلمين"^(١).

وتأتي في مقدمة أدواره التاريخية:

١. الفتوى بعدم جواز تولي غير المسلم إدارة شؤون المسلمين

يقول الشيخ محمد حرز الدين "ومن مواقفه المشرفة فتواه الأولى عندما أراد الانكليز أن يحمل العراقيين النبلاء المكروهين على انتخاب المندوب السامي (السبرسي كوكس) مثلهم في العراق أن يكون رئيساً لحكومة العراق الجديدة

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ٢/ ٢١٥.

وعلم الميرزا الشيرازي ما وراء الأكمة المقرر تنفيذه من الهيئات السياسية البريطانية، فأفتى بما نصه: (ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب ويختار غير المسلم للإمارة والسلطنة على المسلمين) بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٣٧ هـ، وبهذه الفتيا تهدم ما بنته السلطة المحتلة وأعوانها.

٢. الفتوى التاريخية بثورة العشرين

يقول المجتهد المعاصر للحدث الشيخ محمد حرز الدين: "حدثني الثقة عن مشاهداته التاريخية في مجلس المرجع الأعلى الشيخ في كربلاء، وكان هذا آخر اجتماع للوجوه ورؤساء القبائل الفراتية بمقابلة الشيخ الشيرازي في كربلاء بداره الخاصة ولا أنسى أنها كانت ليلة النصف من شهر شعبان سنة ١٣٣٨ هـ -ليلة زيارة الامام الحسين عليه السلام في النصف من شعبان وكادت كربلاء أن (كذا) تمتلئ بالزائرين - وفي اجتماعهم هذا تعهدوا للميرزا وأظهروا ولاءهم لدينهم وبلدهم واستعدادهم للمقابلة والدفاع، واستفتوه في إعلان الثورة فتردد الميرزا عن الجواب وقال لهم ما نصه: إن الحمل لثقل وأخشى أن لا تكون للعشائر قابلية المحاربة مع الجيوش المحتلة. فطمنه الزعماء بأن فيهم الكفاءة الكاملة، ثم عاد عليهم بقولهم: أخشى أن يختل النظام ويفقد الأمن. وأن الأمن أهم من الثورة وأوجب منها. فأجابوه: بأن لنا قابلية على حفظ الأمن وأن الثورة لا بد منها فشكرهم وقال: إذا كانت هذه نواياكم وهذه تعهداتكم فالله عونكم. ثم انفض المجلس" (١).

ثم أعقب قوله هذا بفتواه الصريحة التالية: "مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالبتهم رعاية السلم والأمن. ويجوز لهم التوسل

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ٢/٢١٦ وما بعدها.

بالقوة الدفاعية إذا امتنع الانكليز من قبول مطالبهم)^(١).

ولئن جاءت هذه الفتوى التاريخية غير مؤرخة ما أدى إلى اختلاف المؤرخين والباحثين في تاريخ صدورها فإني أذهب إلى أنها صدرت في يوم الخامس عشر من شهر شعبان من سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م) تتماماً لما انتهت إليه مباحثات ليلة الخامس عشر من شعبان ١٣٣٨ هجرية وكانت على مرحلتين الأولى لزعماء الثورة وقادتها والشيوخ والعلماء ليستعدوا بالإعداد للثورة، والثانية، والثانية لعموم المؤمنين، فالمرحلة الأولى أعطت الضوء الأخضر للثورة الحمراء متى ما باتت هي الحل الوحيد لتحقيق المطالب المشروعة للشعب العراقي. وسيأتي الحديث عن المرحلة الثانية العامة الموجهة للشعب العراقي وسيأتي الحديث مفصلاً عن المرحلتين في الكتاب العاشر اللاحق. كما سيأتي الحديث عن الدور الكبير للشيخ محمد رضا الشيرازي النجل الأكبر للمرجع الأعلى في حينه سماحة الشيخ الشيرازي في الإعداد للثورة وتأجيج شواظها فكان لخطورته الكبيرة أول المعتقلين مع خاصته من قبل سلطات الاحتلال البريطاني العسكرية فكان اعتقاله إحدى المقدمات المباشرة لاندلاع ثورة العشرين. يقول كاتب معاصر للحدث لقد "قام العراق وقعد وأخذت الرسائل والكتب من الفرات الأوسط ومن النجف وكربلاء تمطر بغداد... للاحتجاج على الحكومة الاحتلالية وأن ذلك سيوجب الفتنة وقطع العلائق السلمية بين أهل الفرات وبينهم ورسالة أهل الفرات إلى الحاكم السياسي شاهد"^(٢) على ذلك.

وكان من نتائج الفتوى التاريخية المتقدم ذكرها أن شبت ثورة العشرين نتيجة لعدم تحقق المطالبات السلمية الحققة وذلك باشتعال الثورة بمدينة الرميثة الباسلة

(١) معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين: ٢/ ٢١٦ - ٢١٨.

(٢) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. سابق: ١٧١.

سنة (١٣٣٨ م / ١٩٢٠ م) ثم التهب الفرات الأوسط كله بالثورة المسلحة، بيد أن ما أحرز الثوار كثيراً فقدهم للمرجع الأعلى الشيخ الشيرازي حيث وافاه الأجل في (٣ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ / ١٣ آب ١٩٢٠ م) فتقلد المرجعية وقيادة الثورة المرجع الأعلى الخلف سماحة الشيخ فتح الله الأصبهاني المعروف بشيخ الشريعة الأصبهاني.

المرجع الأعلى الخلف شيخ الشريعة الأصبهاني رحمته الله ودوره على الساحة العراقية

عرف المرجع الأعلى الخلف سماحة الشيخ فتح الله الأصبهاني المعروف بشيخ الشريعة الأصبهاني بتبنيه لشؤون الأمة ومتابعتها حثيثاً وله من المواقف المشهودة في هذا المضمار الكثير.

فحين اعتدت روسيا على إيران وقصفت المرقد الشريف للإمام الرضا عليه السلام (سنة ١٣٢٩ هـ / ١٩١٠ م) خرج من النجف الأشرف مع جمع من العلماء الأعلام في (اليوم الثاني عشر من المحرم سنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١١ م) قاصداً الكاظمية ليتوجه منها إلى إيران. إلا أن الأمور عادت إلى مجاريها في إيران فعاد هو وعاد العلماء إلى النجف الأشرف.

ولما غزت إيطاليا مدينة طرابلس الليبية سنة (١٣٣٠ هـ / ١٩١١ م) أفتى المرجع شيخ الشريعة مع أحد عشر مرجعاً ومجتهداً آخر بالجهاد، وقد أرسلت الفتوى الموقعة من جميعهم بيد السيد مسلم زوين عن الهيئة العلمية في النجف الأشرف، وعزيز بك قائم مقام النجف المستقيل، وبعد وصولهم إلى طرابلس توجهوا إلى الأستانة.

وحين دخلت القوات الإنكليزية الغازية البصرة خلال الحرب العالمية الأولى وأصدر المراجع الفتاوى بوجوب الجهاد سافر المرجع شيخ الشريعة إلى جبهة

القتال في شوال سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٤م) "لأجل تحريض المسلمين وترغيبهم بنفسه الشريفة على الدفاع بمقتضى الوظيفة الدينية... ومكث مجاهداً محرّضاً ستة أشهر وأياماً، وكان مقرهم غربي البصرة حيث يلتقي نهر الفرات ودجلة يسمى القرنة... ومن يومئذ أصيب شيخنا الأعظم بأمراض بدنية وصدرية لما لاقاه... وما زال بعد رجوعه مقسّم التفكير ضعيف البدن غير نقي الصدر... ثم سافر إلى بغداد إذ كان العدو قد قرب منها.. وكان سفره هذا مما قوى عزم المجاهدين والمسلمين وجدد فيهم النخوة الدينية والقومية وشدّ أزرهم".

ويضيف تلميذه الأديب الكبير المجتهد الشيخ عبد الحسين الحلي قائلاً: "وبعد وفاة المرحوم المدقق المحقق الشيخ محمد تقي الشيرازي... انحصر الأمر به ورجع إليه السواد الأعظم في الشيعة... بيد أنه عليه السلام قد كان في خلال المدة المذكورة القليلة كثير العلل والأسقام وهي آثار ما اعتراه بعد رجوعه من السفر للدفاع"^(١)، ومع ذلك كله لم تقعه أسقامه عن القيام بواجبه الذي ألقى على عاتقه في ذلك الزمن الصعب فكان أن أصدر بياناً إلى المسلمين المجاهدين بتاريخ (٣ ذي الحجة ١٣٣٨هـ / ١٧ آب ١٩٢٠م) ينعى إليهم فيه مرجعهم الأعلى ويحثهم على الجهاد، بل يدعوهم إلى الزيادة فيه، ذلك أن مفجر الثورة المرجع الميرزا الشيرازي قد "قضى نحبه والتحق بربه بعد أن أدى حق وظيفته وقام بها حسب طاقته، فلا تكن رحلته فتوراً في عزائمكم، وتوانياً في عملكم، فالجد الجدة حماة الدين وأعضاء المسلمين، والنشاط النشاط، وزيدوا على ما كنتم عليه أولاً من الدفاع

(١) ترجمة الإمام شيخ الشريعة. الشيخ عبد الحسين الحلي. في كتاب تحت عنوان: شيخ الشريعة قيادته في الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م ووثائقه السياسية. وضع وتمته وحقق سيرته وجمع وثائقه كامل سلمان الجبوري: ٤٢ - ٥٠.

الذي أوجبناه عليكم من قبل، واصبروا وصابروا يثبت الله أقدامكم" (١).

١. سماحته ﷺ يفتي باستمرار الجهاد الدفاعي وتشكيله للهيئة

العلمية بقيادته

لقد توجه سماحته -رغم مرضه وشيخوخته- من بيته المتواضع إلى الحرم العلوي المطهر ف"عقد اجتماعاً كبيراً في صحن النجف حتى امتلأ الصحن بالناس، وجيء بالأصبهاني محمولاً لكبر سنه، فأصعد على المنبر، ووقف إلى جانبه الشيخ جواد الجواهري، والسيد محمد علي بحر العلوم، والسيد محمد رضا الصافي لينقلوا كلامه إلى الجماهير المحتشدة، فكان الجواهري ينقل كلامه إلى بحر العلوم، وهذا بدوره ينقله إلى الصافي، وكان الصافي يعلن الكلام للناس لأنه كان جمهوري الصوت.. وكان مما قاله الأصبهاني في خطابه: إن الشيرازي انتقل إلى رحمة ربه، ولكن فتواه بقتال المشركين باقية، فجاهدوا، واجتهدوا في حفظ وطنكم العزيز وأخذ استقلالكم.. ثم قال الأصبهاني: إنه لعجزه عن الذهاب إلى ساحة القتال، فقد أناب عنه السيد أبو الحسن الأصفهاني ليقوم مقامه فيها" (٢).

كما أرسل سماحته رسالة إلى المجاهدين في الجبهة العسكرية: السيد نور الياسري، والسيد علوان الياسري، ومن لديهم من المسلمين المجاهدين على خط النار، بعد التعزية بفقد المرجع الشيرازي قوله: "فكونوا ثبتكم الله بنياناً مرصوصاً، وتساندوا جسماً واحداً قبال هذا العدو الذي لا يرقب إلا ولا ذمة، ألا وإنا نوجب عليكم الآن كما أوجبنا عليكم من قبل الدفاع عن حرمان الله

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق. تنظر الرسالة المصورة في: ٢٦٤ / ٣.

(٢) المصدر السابق نقلاً عن كتاب مخطوط بعنوان (السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني) للشهيد عبد الرحيم محمد علي. والثورة العراقية الكبرى. للحسني: ٢٣٤.

ورسوله وعن شرف الإسلام"^(١).

ونظراً لحاجة الثورة في جبهات القتال والمدن المحررة إلى إدارة عليا لشؤونها كافة فقد تم تشكيل هيئة عليا لذلك سميت بـ (الهيئة العلمية) وتولى سماحة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصفهاني رئاستها بنفسه أما أعضاؤها فهم كل من "الشيخ جواد آل صاحب الجواهر، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد محمد علي بحر العلوم، والشيخ مهدي الخراساني، والشيخ إسحاق الرشتي، والشيخ موسى تقي زائر دهام، والشيخ علي الحلي، والشيخ عبد الرضا آل الشيخ راضي، وكانت هناك هيئة خاصة لإدارة شؤون الأسراء البريطانيين الذين هم في النجف إذ إنها عاصمة الثوار وكانوا منها يردون وعنها يصدون، فإن في معركة الرارنجية تلك المعركة الدامية أسر الثوار (١٦٠) أسيراً بين إنكليز وهنود وجاءوا بهم إلى النجف وكانوا في (الشيلاان) حتى تسليم بلدة النجف إلى السلطة المحتلة"^(٢).

ولعل من المهم أن اشير هنا وأجلّيه من خلال متابعتي لأبجديات الثورة ووثائقها وما كتب عنها من مذكرات قادتها أو معاصريها أو الباحثين فيها ودارسيها خلال قرن من اندلاعها باللغة العربية وغيرها هو (فرايتية ثورة العشرين بقيادة المراجع والعلماء والشيوخ ومجاهدي العشائر) وقد أثبت ذلك بتفصيل وإفٍ وتحقيق في كتابي العاشر الخاص بثورة العشرين.

ولست وحدي من ذهب إلى ذلك من الكتاب خلافاً للإعلام المغرض الذي حاول نسبته لغير أهلها وألصقها بشيخ وغيره من أبناء المحافظات الغربية وسعى لتعليم طلاب المدارس ذلك، فقد ذهب غيري إلى (فرايتيتها) أيضاً من قبيل الدكتور

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى: ٣/ ٢٦٧.

(٢) ماضي النجف وحاضرها. الشيخ جعفر محبوبة: ١/ .

علي الوردي والدكتور عبد الله فياض والأستاذ كاظم المظفر وغيرهم. فأما د. علي الوردي فقد كتب في فراتية الثورة ما يأتي: "تعدّ الثورة في منطقة الفرات الأوسط بمثابة العمود الفقري لثورة العشرين كلها. ففي هذه المنطقة حصلت الانتصارات الكبرى للثورة، كما أن هذه المنطقة هي من تحملت العبء الأكبر من التضحيات في الأنفس والأموال، وصمدت للقتال فترة طويلة نسبياً. أما المناطق الأخرى التي انتشرت الثورة فيها بعدئذ، فلم تكن ثورتها سوى صدى لثورة الفرات الأوسط. وقد تمكن الإنكليز من القضاء عليها بسهولة وفي خلال وقت قصير"^(١).

وأما د. عبد الله فياض فيفصّل ما أشار إليه د. علي الوردي حول فراتية الثورة ويثبت دور المراجع والشيوخ وملبي الفتوى من المجاهدين فيها بقوله: "ظهر لي أن إسهام مدن البصرة وبغداد والموصل فيها كان ضئيلاً، ما عدا جهود فردية لبعض الذين هربوا من وجه سلطات الاحتلال، ولبعض الضباط الذين كانوا في الجيش العثماني وقد التحق هؤلاء بمناطق الثورة الرئيسة في الفرات الأوسط أما الجهات الوسطى والجنوبية من العراق، فقد كان إسهامها في الحركات العسكرية خلال ثورة العشرين محدوداً، فلولا جهود الشيخ ضاري المحمود وبعض الوطنيين في لواء الدليم وعلى رأسهم الشيخ حبيب الخيزران، ولولا الحوادث المبعثرة في لواء الناصرية (المنتفك) لكانت الأعمال العسكرية للثورة من نصيب الفرات الأوسط فقط، يضاف إلى ذلك أن جماعات مبعثرة وأفراداً ضحوا بأموالهم ودمائهم في سبيل الوطن أمثال عبد المجيد كنه الذي شنقته السلطات الإنكليزية في بغداد... وقد تزعم الثورة رجال الدين ورؤساء القبائل فكان القطب الذي دارت حوله

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥ / ١ / ٣٤١.

الثورة الإمام محمد تقي الشيرازي أولاً وآية الله شيخ الشريعة ثانياً والإمام مهدي الخالصي ثالثاً^(١).

وأما المظفر "أما المتبوع لمجريات الثورة العراقية يلاحظ دون عناء كبير أن ثقلها يكاد ينحصر في منطقة الفرات الأوسط.. أما في الشمال فإن شرارة الثورة ما أن اندلعت حتى سارع العدو إلى إطفاء هذه الشرارة بغير ما جهد كبير ولا زمن طويل.. حيث واصلت النجندات العسكرية تتابعها إلى العراق وزحفها على مواطن الثورة في الفرات الأوسط.

وحصل مثل هذا في محافظة ذي قار (الناصرية) وواسط (الكوت)، فقد استطاعت أصابع الاستعمار التي امتدت بالرشاوى ومعسول الأمانى أن تحدع الكثير من رؤساء العشائر والمتنفذين.. ولو قدر للثورة أن تشمل محافظات الجنوب.. وأن تواصل زحفها الظافر إلى محافظات الشمال ولا سيما الأنبار وكركوك وديالى وأربيل، وأن تساهم محافظة نينوى.. لكان حتماً على حكومة الاحتلال أن تضطرها الثورة إلى الرحيل عن أرض العراق مكسورة مدحورة"^(٢).

٢. نتائج ثورة العشرين

وهكذا استمرت الثورة المسلحة الملهبة شهوراً وأياماً لقن خلالها الفراتيون بريطانيا العظمى -التي لا تغرب عنها وعن مستعمراتها الشمس - دروساً في التضحية والفداء قلّ نظيرها، ما اضطرت المستعمر نتيجة ما تكبده من خسائر مادية وبشرية كبيرة إلى استبدال خططه في العراق عما كانت عليه قبل غزوه لبلاد الرافدين، ويكفي أن نقل رأيين لسياسيين عراقيين كبيرين من غير الفراتيين الشيعة،

(١) الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ د. عبد الله فياض: ١٣ - ١٤.

(٢) ثورة العراق التحررية ١٩٢٠. كاظم المظفر: ٣٨ / ٢.

يوجزان ما حققته (ثورة العشرين) من نتائج على الرغم من خسارتها عسكرياً.
أ. رأي رئيس وزراء العراق الأسبق ناجي شوكت بقوله: "إن كيان العراق الحاضر بني على دعائم الثورة، كما أن العراق مدين بوحدته الوطنية واستقلاله السياسي لهذه الثورة"^(١).

ب. رأي الوزير جلال بابان أحد وزراء العهد الملكي لأكثر من وزارة بقوله في ٩ شباط ١٩٥٢م "أعتقد جازماً أن للثورة العراقية أشد التأثير على تأسيس كيان العراق السياسي، وبزوغ الدولة العراقية كدولة بين الأمم الحرة التي لها كيانه ولها استقلالها، وهذا حسب ما أعتقد أحسن ثمناً له قيمته البالغة لقاء ثورته الوطنية الخالدة"^(٢).

لقد كان من نتائج هذه الثورة بث الروح الوطنية بين العراقيين والحيولة بين الإنكليز وتهنيد العراق أو ربطه بالتاج البريطاني مباشرة أو تغيير تركيبة العراق السكانية بجلب الملايين من الهنود البنغاليين للسكنى الدائمة فيه أو أمثال ذلك. وكان من نتائجها أيضاً تأسيس دولة العراق بعد أن كانت الأرض العراقية مقسمة على ولايات ثلاث تابعة للدولة العثمانية هي البصرة وبغداد والموصل وغير ذلك مما لا يسعه هذا الفصل.

بيد أن من أهم نتائج هذه الثورة ما كشفته لنا عن متبنيات المرجعية الدينية العليا ونظريتها حينها بتأسيس نظام وطني دستوري بسلطتين سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية من رئيس ووزراء للمالية والأمن ومجلس بلدي وما إلى ذلك مقارنة بنظرية سماحة السيد السيستاني. وقد طبقت المرجعية العليا سنة (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م)

(١) الثورة العراقية الكبرى. السيد عبد الرزاق الحسني: ٣٧١.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. السيد عبد الرزاق الحسني: ٣٧٧.

نظريتها عبر انتخابات حرة نزيهة توزعت فيها صناديق الاقتراع على الشوارع الرئيسية في النجف الأشرف لانتخاب المشرعين شريطة أن لا يتم تشريع أي قانون أو نظام يخالف أحكام الشريعة الإسلامية مع سلطة تنفيذية برئيس وحقائب وزارية بمهام محددة، ومجلس بلدي يسهر على النظافة والصحة وحركة السوق والإنارة وجمع الضرائب وما إلى ذلك، وقد حققته الثورة فعلاً بزعامه المرجعية الدينية العليا في مدينة النجف الأشرف بعد تحريرها من احتلال الإنكليز سنة (١٣٣٨هـ / ١٠٢٠م) لتشكل بذلك أول حكومة عراقية حرة وطنية في العراق خلافاً للمشهور حيث تقدمت حكومة ثورة العشرين على الحكومة العراقية المسماة بالوطنية والمشكلة تحت الانتداب البريطاني للعراق سنة (١٣٤٠هـ / ١٩٢١م) تحت ظل الانتداب البريطاني للعراق. وأين هذه الحكومة الوطنية المشكلة من قبل المرجعية العليا والثوار من تلك الحكومة المشكلة تحت الانتداب البريطاني للعراق.





الفصل الثامن

الربع الثاني من القرن الرابع عشر

صور من موقف شيعة العراق وسنته وكبار علمائهما
من الاحتلال البريطاني للعراق (١٩١٤ - ١٩٢٠م)



أستعرض فيما يأتي صورتين متباينتين من
موقفي شيعة العراق وسنته مما جرى أثناء الاحتلال
البريطاني للعراق.

الصورة الأولى: بعض من نواذر مواقف شيعة العراق وكبار علمائهم بالأخص ضد الاحتلال البريطاني للعراق



لقد تقدم الحديث عن فتاوى الجهاد التي أصدرها مراجع الشيعة ومجتهدوهم ضد الاحتلال البريطاني للعراق سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٤م)، ثم في سنة (١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م)، كما تقدم الحديث عن اشتراك الكثير من المراجع والمجتهدين وكبار العلماء في جبهات القتال ومعهم مواطني مدن الفرات الأوسط وبغداد والجنوب بمحافظاته كلها وفي مقدمتهم كبار عشائر شيعة العراق بزعمائهم وشيوخهم ووجهائهم وأهل الرأي والحل والعقد فيهم ولذا فسوف أتجاوز كل ذلك من أجل عدم التكرار وأحدث عن مواقف أخرى ذات دلالات مهمة لمراجع الشيعة وكبار علمائهم وشيوخهم ومواطنيهم في المدن والنواحي والقصبات ضد الاحتلال البريطاني للعراق كنواذر ونماذج فقط، وإلا فهي كثيرة متعددة الأشكال والأنواع لذا فسأكتفي بذكر ثلاثة منها لضيق المساحة المحددة للنواذر.

١. رسالة المرجع الديني الأعلى السيد اليزدي إلى والي بغداد العثماني

لحته على الجهاد دفاعاً عن بغداد

لقد بعث سماحة المرجع الأعلى السيد محمد كاظم اليزدي برسالة إلى والي بغداد العثماني، والقادة والجنود الأتراك، وعامة المسلمين، توجب عليهم التصدي للمحتل الإنكليزي المعتدي، نادباً سماحته وحاشاً على تعبئة كل الجهود للدفاع عن العراق ومقدساته. لقد جاء في رسالة سماحته وفق ما ورد في وثائق مخطوطة في مكتبة مدرسة السيد اليزدي في النجف الأشرف ما نصه: "فإنه لما دهم الخطب واستفحل البلاء وأعضلت النازلة على ثغور الإسلام والمسلمين، وكان من أهم الواجبات وأعظم شرائع الدين أن ينهض كل مسلم متمكن للدفاع عنه حسب

مقدوره، ولا يسوغ لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يتوانى ويتقاعد عنه أو يتقاعس دونه، ألا وإني رغبة إلى الله جل شأنه، وابتغاء لمرضاته، وحرصاً على الدفاع عن دينه الأقدس وناموسه الأعظم، قد قدّمت إليكم أعزّ ما عندي، وأنفس ما لديّ، وفلذة كبدي السيد محمد سلّمه الله تعالى، أثرتكم به مع ميسر حاجتي له، وشدة عوزي إليه، فإنه أدام الله حراسته، على ما له عندي من علاقة الأبوة، ومكانة البنوة، قد بلغ من مراتب الجد والاجتهاد، وسامق منازل العلم والفضيلة، إلى المقام الذي يستغني ولا يستغنى عنه، ويستقل ولا يستقل دونه (...). ولما استنهضته للقيام بأعباء هذه المهمة، والسعي عني للمساعدة في دفع هذه الملمة، تلقّاها برحابة صدر، وثابت قلب، وركن حلم، فأرسلته إليكم (...). ليلغ عني ما يلزم إعلان، ويهمّ بيانه، حافظاً في الله على دينه، ودافعاً لأعدائه (...). فإن الأمر عظيم، والخطر جسيم، لكن الأجر خطير، والثواب كثير" (١).

٢. أنموذج لفدائية وجهاد أحد المراجع المسنّين ضد المحتلين الإنكليز للعراق سنة ١٩١٤م

وإذا أردت أن استشهد بفدائية أحد المراجع الذين أفتوا بالجهاد، وتوجهه إلى سوح المنازلة برحلة دامت حوالي سنة كاملة -قاد خلالها جبهة من جبهات القتال وجاهد فيها صحبة أولاده وخاصة أسرته- أقول إذا أردت أن استشهد كأنموذج على صلابة موقف المراجع وكبار العلماء في سوح المعركة والجهاد فإني سأستشهد بموقف سماحة المرجع السيد مهدي الحيدري، الذي تجاوز الثمانين من عمره، ومع ذلك كان قد قاد مع القائد التركي وجيشه (جبهة القرنة) وكانت قد احتلتها القوات الإنكليزية الغازية، فانسحب القائد التركي إلى العمارة، وأراد الانسحاب منها إلى

(١) تاريخ النجف الأشرف. سابق: ١٦٧/٣.

الخلف، فأصرّ السيد الحيدري على البقاء في موضعه، وقال قولته المشهورة: "أما أنا فلا أتحرك من هذا المكان، وأحاربهم هنا حتى أقتل أو أنتصر"^(١).

فلما سمع القائد التركي قولته تشجع، وقرر البقاء، وبدأ السيد يكتب للعشائر يستحثهم على المنازلة ويبعث الرسل ويستنهض القوم، حتى إذا أجابته جموعهم قرر التوجه للقتال، واتفق المجاهدون على تقسيم الجبهة على قلب وجناحين، واستقر السيد الحيدري في (القرنة)، وهي جبهة (القلب) في المعركة، وبقي معه من المراجع وكبار العلماء، إضافة لأبنائه: شيخ الشريعة الأصبهاني، والسيد مصطفى الكاشاني، والسيد علي الداماد، والسيد عبد الرزاق الحلو، وجدي السيد سعيد الحكيم، وغيرهم من العلماء والمجاهدين الكثير، وأما الجناح الأيمن جبهة (الشعبية) فكانت بقيادة المجتهدين وكبار العلماء كل من: السيد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ باقر حيدر، والسيد محسن الحكيم، وغيرهم كثير، وكان للمجتهد السيد الحبوبي "تأثير عظيم في تأخير الحملة البريطانية في (الشعبية)... فقد أخرج الحملة أربعة أشهر، كما ذكروا أن لوجود السيد المذكور في الناصرية تأثير كبير (كذا) في عرقلة احتلالها، ولم تقع في أيديهم إلا في (١٤ تموز سنة ١٩١٥ م) أي بعد وفاة الحبوبي في الناصرية يوم (٢ شعبان سنة ١٣٣٣ هـ/ ١٦ حزيران ١٩١٥ م)"^(٢).

وأما الجناح الأيسر فهو جبهة (الحويزة) وكانت بقيادة المجتهدين وكبار العلماء: الشيخ مهدي الخالسي ومعه ابنه الشيخ محمد، والسيد محمد نجل المرجع الأعلى سماحة السيد اليزدي ومثله في الجبهة، والشيخ جعفر الشيخ راضي، والسيد عيسى كمال الدين وغيرهم.

(١) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري: ٤٩.

(٢) مقدمة علي الخاقاني لكتاب ثورة العشرين في ذكرها الخمسين للسيد محمد علي كمال الدين: ٦.

وكانت جبهة القتال في (القرنة) تبعد مسافة عن مقر العلماء، فحين شنّ الإنكليز هجومهم الكبير من البر والنهر على الجيش التركي، كانت جموع المجاهدين بقيادة السيد الحيدري في مكان ليس بالقرب من مكان المعركة، وأن بينه وبينها ما يضطره إلى ركوب النهر.

يقول السيد أحمد الحسيني -الذي سأضطر إلى سرد وصفه للمعركة على طوله لأهميته-: لقد "كان القتال بين المعسكرين في منطقة القرنة يقع على بعد مسافة من مقر العلماء فإذا سمع المجاهدون دوي المدافع وأزيز الرصاص سارعوا إلى نجدة الجيش وإسناده وربما وصلوا بعد فوات الأوان، فرأى سيدنا المهدي العظيم أن بقاء المجاهدين في هذا المكان مخالف للمصلحة، ولم يكن له من النفع والجدوى كما لو تقدموا إلى الميدان، فعزم رضوان الله عليه أن يتقدم بنفسه وأصحابه إلى ساحة الحرب، ليكون أبلغ في نصرة الجيش الإسلامي، وتعزيز مركزه، وتدعيم قواه، فحضر عنده تلك الليلة وجوه العلماء، وأقطاب المجاهدين، وزعماء القبائل، وأحوا على السيد بالعدول عن رأيه، ورجّحوا له البقاء في مكانه، باعتباره القائد الروحي العام، الذي يجب أن يتبعد عن الميدان، ليشرف على التعبئة والتهيئة والتنظيم، ولكن سيدنا المهدي أصر على رأيه وقال لهم: (إن هذه الجموع الغفيرة إنما جاءت للحرب والدفاع، ولا تتقدم بنفسها إلى القتال ما لم نتقدم بأنفسنا أمامهم، ونكون معهم في السراء والضراء)، ثم حسم الأمر باستخارة الله سبحانه وتعالى... فخرجت الآية: ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، فكبر الناس فرحاً... عندئذ سلم الجميع لرأيه، وقرروا الزحف معه إلى الميدان"^(٢).

(١) سورة العنكبوت. آية: ٦.

(٢) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري: ٥٣ - ٥٤.

ويضيف قائلاً: "وفي الصباح ركب السيد وأصحابه في السفينة الكبيرة المعدة لهم، وسارت معه بعض القبائل العربية كربيعة وبني لام بسفنهم، وتخلّفت عنه بعض القبائل الأخرى ريثما تنهياً للسفر، وتتعباً للحرب، ثم تلتحق به في اليوم الثاني. ولما أدرك المجاهدين الليل، أمر السيد ربان السفينة بأن يرسو على الساحل وأمر أصحابه بالنزول (...) فنزلوا فيها، وضربوا خيامهم على حافة النهر من جانب القرنة، وباتوا تلك الليلة وهم لا يعلمون موقعهم من الجيش العثماني، هل إنهم متأخرون عنه أم متقدمون عليه! (...) ولما أسفر الصبح، صلى السيد بأصحابه صلاة الفجر، ثم خرج ولداه الكريمان السيد أسد الله، والسيد أحمد ليستكشفوا حقيقة المكان، فبينما هما كذلك إذ لاحت لهما طلائع العدو، وظهرت لهما بواخره النهرية ومدافعه ومعداته الحربية، وقد بدأ بقوة هائلة بهجوم عنيف مفاجئ على المعسكر الإسلامي في ذلك الصباح الباكر، بشكل رهيب لا قبل للجيش العثماني بصده أو رده؛ لأنهم أقل عدة من العدو"^(١).

ويستمر السيد الحسيني في سرد تفاصيل الواقعة فيقول: "وكانت خيام السيد وأصحابه متقدمة على الجيش العثماني بنصف فرسخ، بحيث كانت قرية من العدو، وبمرأى منه ومشهد، فوجه إليها مدافعه، وجعلها هدفاً لقنابله وقذائفه، فعرض بعض أصحابه عليه ﷺ - أن يأذن بتقويض الخيام؛ لأنها صارت غرضاً للرمي، فلم يأذن لهم بذلك، وقال: (إن معنويات الجيش كله ستتكسر إذا قوضتم خيامنا، وربما ظنوا بأننا قد انسحبنا عن مراكزنا، فتضعف عزيمتهم، وتنهار قواتهم، بل يجب أن تبقى هذه الخيام قوة للجيش، وراية للإسلام، وهيبة للمسلمين، ورهبة للكافرين". ثم قام رضوان الله عليه بنفسه الشريفة، كأنه الليث الهصور، وهو شيخ كبير

(١) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري: ٥٤.

قد تجاوز الثمانين، وتقلد سيفه، وحمل قرآنه، وندب أصحابه وحرصهم على القتال، وأمرهم بالصمود، ودعا لهم بالنصر على الأعداء وقال لهم (لا تخافوا ولا تحزنوا فإله معكم، وهو ينصركم على القوم الكافرين، فذودوا عن حرمة الدين، وذبوا عن مقدسات الإسلام، فإنني أرجو أن تكون هذه القذائف واليران التي يوجهها العدو إليكم برداً وسلاماً عليكم إن شاء الله. وصمد - أعلى الله مقامه - كالطود الأشم، وصار يشجع الرجال، ويثبت الأقدام من جهة، ويصلي لله، ويتضرع إليه، ويطلب منه العون والنصر من جهة أخرى، ونهض أولاد السيد الثلاثة كأنهم الأسود الضواري... فندبوا المجاهدين للقتال، وحرصوهم على النزال، وتقدموا بهم إلى نهر كان يشبه الأخاديد العسكرية، ليكون لهم جنة عن قذائف العدو، فلم تمض على القتال إلا ساعات حتى اندحر الكافرون اندحاراً فظيعاً، بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة في الأرواح والسلاح والمعدات، وتحطمت لهم باخرة حربية، وقيل غرق لهم مركب آخر وقتل من جنودهم ما يناهز الألف أو الألفين على اختيار الروايتين وجرح منهم أكثر من ذلك" (١).

وينقل صاحب كتاب الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري عن ضباط عسكريين قولهم: "بعد هذه المعركة: إننا لما اشتد الضغط علينا من العدو هممنا بالانسحاب، ولكننا كنا كلما ننظر إلى خيام السيد قائمة بمكانها تقوى عزيمتنا ويشتد بأسنا ونستحيي من الانسحاب ونقول لأنفسنا: كيف ينسحب الجيش والسيد وأصحابه المجاهدون في الميدان.

ويضيف: "وتعرف هذه الواقعة بواقعة يوم الأربعاء لأنها صادفت يوم الأربعاء ٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٣ هـ، وقد أصيب في هذه الواقعة قائد الجيش

(١) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري: ٥٦.

العثماني سليمان عسكري بك، ولما ذاع نبأ هذه الواقعة الكبرى بين صفوف المجاهدين في المناطق المتأخرة عن منطقة القتال عمهم الخوف والقلق على السيد... وظنوا أنه قد استشهد في المعركة وبلغ ذلك النبأ الخاطئ إيران والعراق. حتى أن بعض المدن الإيرانية أقامت له مجالس الفاتحة ثم تبين لهم جميعاً سلامته^(١)، فتحول الحزن إلى فرح.

ويختتم السيد الحسيني روايته عن دقائق المعركة الكبيرة بقوله "وقد أصيب في هذه الواقعة قائد الجيش العثماني سليمان عسكري بك وحمل إلى بغداد للمعالجة وبينما هو راقد في المستشفى، إذ دخل عليه أحد الزعماء الروحانيين من موظفي الدولة عائداً له، فلما وقع نظر القائد عليه؛ قال له وهو يهز يديه مستنكراً من قعوده عن الجهاد: (أنت ها هنا ترفل بالراحة والطمأنينة والنعيم مع أنك تتقاضى راتباً ضخماً من الدولة طيلة عمرك، وإن الإمام السيد مهدي السيد حيدر يحارب بنفسه الإنكليز على شيخوخته وعظمته، وهو الآن في الصفوف الأولى، مع أنه لم يقبل من أموال الدولة قليلاً ولا كثيراً طيلة عمره"^(٢)).

وقد كنت سمعت عن هذه المعركة مباشرة من قبل جدي آية الله السيد سعيد الحكيم أحد أبطال تلك المعركة وأحد رواة حديث شدتها وقسوتها وخطورتها. وحسبك من ضراوتها أن تعلم بـ "أن الضباط البريطانيين اعتبروا معركة الشيعية معركة مشاة بالغة القسوة بالنسبة لهم، في إشارة إلى أن نجاحهم في كبح العثمانيين -والمجاهدين- أو صدهم. كان أشبه ما يكون بـ(معجزة الشيعية) حسب تعبيرهم"^(٣).

(١) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري: سابق: ٥٨.

(٢) الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري: سابق: ٥٨-٥٩.

(٣) الوصول إلى السلطة الشيعة في العالم العربي المعاصر. إسحاق نقاش: ٧٦.

وإذا كان لي أن أختتم هذه الصورة الخاصة بموقف المرجعية وشيعة العراق على الساحة السياسية العراقية سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٤م)، مقابل الصورة الثانية التي أوضحتها كلمات القائد العثماني أعلاه للشيخ السني المتخاذل عن الجهاد، فإني سأختتمه بما ذهب إليه الشاعر والسياسي العراقي الشيخ علي الشرقي بقوله: "لقد استقبلنا الإنكليز بالرصاص وودعناهم بالرصاص، وكان الوداع أحرّ من الاستقبال. فبعد أن فرغ العراقيون من الاتحاديين - (العثمانيين) - ذاقوا الإنكليز فلم يستسيغوا طعمهم المرّ، وبدأ التحضير لرصاص الوداع ثلاث سنين عجاف من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٢٠ كانت مريرة ثقيلة، وقد تعددت أسباب ذلك الثقل وتلك المرارة، وأهمها أن العراقيين الذين كانوا يحلمون بالتخلص من سلطة أجنبية عتيقة بالية، وإذا هم ممتحنون بسلطة أجنبية جديدة أدهى وأمرّ من سابقتها، سلطة متغطرة طموح، وربما كانت بين الأولى والعراقيين بعض الوشائج من صلة شرقية، أو رابطة دينية، أو علاقة جوار، ولكن السلطة الجديدة لا يجذب العراقيين لها أي جانب، كل الخيوط مقطعة"^(١).

١. أنموذج لفدائية أحد كبار العلماء الزهاد في معركة الجهاد ضد المحتلين

الإنكليز للعراق سنة ١٩٢٠م

يقول المؤرخ المعاصر للحدث والمشارك فيه فريق المزهر الفرعون: كان "المرحوم السيد عزيز الله من علماء النجف الأشرف المعروفين بالزهد والورع والتقوى، انشغل عن أمور الدنيا بالدرس والعبادة... وبعد أن انتشرت أخبار الثورة، وأصدر آية الله الشيرازي فتوى الجهاد التحق - السيد عزيز الله - بالثوار وكان يحمل بندقية ذات طلقة واحدة من النوع المعروف بالأوساط العشائرية

(١) الأحلام. الشيخ علي الشرقي ١٢٧. و١٣٣.

باسم (معدل) ولديه من العتاد ما يقارب المائتي طلقة وكان شجاعاً لا يخاف الموت ولا يرهب القوة، وعندما هجم الثوار على المسيب كان في مقدمتهم، واختار له مكمناً على ضفة النهر وبقي هناك ما مرّ جندي بريطاني على الجانب الشرقي إلا وصوب إليه رصاصة ترديه قتيلاً أو جريحاً، وبقي في المسيب ولم يغادرها على القاعدة التي قررها المجلس الحربي وعلى قاعدة (المنابذة) لأنه كان يعتقد بعقيدة دينية وهي أن الإدبار أمام جيش الإنكليز أوامره في ساحة الجهاد، وكلما ألح عليه الثوار أن يذهب إلى (الوند) ليستريح أبى وقال: حرام على المسلم أن يدبر أمام الأعداء إلا بأمر قائد الجبهة: فقليل له من الذي تعتقد بقيادته حتى نأتيك بكتاب منه؟ فأجاب: إني لا أبرح مكاني حتى يرديني كتاب من القائد العام عبد الواحد الحاج سكر، ومتى ما جاءني هذا الكتاب أكون معذوراً أمام الله إذا ما رجعت وأعطيت ظهري للإنكليز".

ويضيف الكاتب المشارك في الحدث: "وحينذاك ذهب مؤلف هذا الكتاب -فريق المزهر آل فرعون- إلى مقر القيادة العامة للثوار وأخذ له كتاباً من عبد الواحد الحاج سكر وهذا هو:

(لخضرة حجة الإسلام المجاهد الأعظم السيد عزيز الله المحترم.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد قمت بواجبك الديني والوطني فجاهدت وبذلت نفسك ومهجتك فجزاك الله عن الإسلام وأهل الإسلام والوطن خيراً، وما عليك الآن إلا أن تغادر (المسيب) حالاً وتأتي إلى (الوند) ولا تذهب لساحات القتال حتى نأذن لك والسلام.

١٧ محرم الحرام ١٣٣٩ عبد الواحد الحاج سكر).

وعندما وصل هذا المؤمن الجليل والبطل الباسل إلى (الوند) حيث مقر القيادة استقبله الثوار بأمر من المجلس الحربي احتفالاً يليق بمقامه، وطلبوا إليه البقاء معهم ليشاركهم في آرائهم الحربية حتى انسحب الثوار من ميدان المسيب^(١).

الصورة الثانية: موقف علماء وشيوخ ووجهاء وشعراء وسياسيين ومثقفين سنة بغداد وعامتهم من المحتل البريطاني للعراق وموقف عشائر غرب العاصمة منه

بالنظر لأنني لم أتناول بشيء من التفصيل مواقف سنة العراق وكبار علمائهم وقادتهم ووجهائهم وسياسيهم ومثقفهم وأهل الرأي والحل والعقد فيهم من الاحتلال البريطاني للعراق خلافاً لما استعرضته من مواقف شيعة العراق وكبار علمائهم منه لذا فسأقف وقفات أكثر شمولاً في الصورة الثانية من هذا الفصل مما استعرضته في الصورة الأولى منه وكما يأتي:

١. موقف كبار علماء سنة بغداد من الاحتلال البريطاني للعراق

نقلت مس بيل عن عبد الرحمن النقيب - أول رئيس وزراء اختاره الإنكليز للعراق - موقفه من الاحتلال خلال زيارتها له في (٥ جمادى الأولى ١٣٣٧ هـ/ ٦ شباط ١٩١٩ م) لتتعرف على رأيه قبيل سفرها إلى لندن لاطلاع رؤسائها على وضع العراق بقوله: "إن الإنكليز فتحوا هذه البلاد وبذلوا ثروتهم من أجلها كما أراقوا دماءهم في تربتها (...). ولذلك فلا بد لهم من التمتع بما فازوا به (...). وإنني إذ أقول مثل هذا القول أريد أن يدوم حكم الإنكليز، فإذا امتنع الإنكليز عن حكمنا فكيف أجبرهم على ذلك؟ (...). وعندما أسأل عن رأيي

(١) الحقائق الناصعة. سابق: ٢٩١.

في استمرار الحكم البريطاني أجيب؟ إنني من رعايا المنتصر. إنكم أيها الخاتون تفهمون صناعة الحكم. (...) إنك حين تذهبين إلى لندن يجب أن تذكرين للمسؤولين فيها بوجوب عودة كوكس إلى العراق، وإننا نرغب في أن يحكمنا السر برسي كوكس (...). ثم تطرق إلى الشيعة فأخذ يذمهم ذمّاً قبيحاً إذ قال: إن أبرز صفة تميزهم هي الخفة، فهم أنفسهم قتلوا الحسين الذي يعبدونه الآن كما يعبدون الله. فالتقلب والوثنية تجتمعان فيهم، فإياك أن تعتمد علي عليهم^(١).

كما وثقت المس بيل بكتابتها مرة أخرى موقف كبير علماء سنة بغداد في وقته السيد عبد الرحمن النقيب قائلة: إنه "يؤكد على الحاجة إلى وجود الحاميات البريطانية في البلاد للمحافظة على السلم"^(٢). وأنه "وظّف نفوذه بقوة إلى جانبهم منذ فتحهم للبلاد"^(٣)، و"أنه كان يصرح جازماً في أحاديثه الخاصة مع الحكام السياسيين بأنه ضد تعيين أمير على رأس الحكومة في العراق على أساس أن البلاد لم تكن على درجة من النضج تؤهلها لأي نوع من أنواع الحكم العربي، ولذلك فإنه كان يدعو إلى استمرار الإدارة البريطانية"^(٤). ليس هو فحسب، بل إن "وزارته كانت تعتبر عموماً صنّعة بريطانية"^(٥).

ولكل ما تقدم فقد "كان عبد الرحمن الكيلاني (النقيب) هو الذي فتح

(١) المصدر السابق نفسه نقلاً عن المس بيل. فصول من تاريخ العراق القريب ترجمة جعفر الخياط. بيروت.

١٩٧١: ص ٤٧٩-٤٨١.

(٢) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ٤٦٠.

(٣) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٠٨.

(٤) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ٤٦٠.

(٥) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٠٨.

الطريق أمام الخنوع"^(١) للمستعمر البريطاني في بغداد، كما كان "يمقت الثورة والمجتهدين"^(٢).

أما لو تجاوزنا موقف الشيخ عبد الرحمن الكيلاني النقيب إلى موقف الشيخ إبراهيم أفندي الراوي صاحب التأليف العديدة و"شيخ السجادة الرفاعية بزاوية القطب الأعظم السيد السلطان علي والد الغوث الأكبر الرفاعي"^(٣) لوجدناه مشابهاً لموقف الكيلاني فقد نقل عنه الشيخ محمد مهدي البصير أنه قال للسير برسي كوكس: "إن العراق لا يستغني عن الوصاية البريطانية"^(٤).

أما جميل صدقي الزهاوي تلميذ أبيه مفتي بغداد في مدرسته التي تدرس العلوم الشرعية الإسلامية والمعدود من علماء عصره وأستاذ الفلسفة الإسلامية في المدرسة الملكية بأسطنبول فأستاذ مدرسة الحقوق في بغداد والمسمى بـ(فيلسوف بغداد في القرن العشرين) والشاعر صاحب الدواوين العديدة حتى غلب عليه شعره فقد وقف في حفل توديع من نعته بـ"عميد بريطانيا العظمى، دولة الحاكم الملكي العام الكولونيل السر ولسون الأفخم" بعد أن أنهت دولة الاحتلال دوره في العراق إثر إزهاقه أرواح المئات من مواطني بلد الزهاوي واحتلاله لأرض آبائه وأجداده، أقول لقد وقف الزهاوي في بيت السيد طالب النقيب مساء يوم (٥ محرم ١٥٥٩ هـ/ ١٩ أيلول ١٩٢٠ م) ليقول: "سر أيها الحاكم الجليل على الطائر الميمون، رافقتك السلامة والسرور. إنك أيها الحاكم ما كنت لأهل العراق إلّا حارساً شقيقاً، يدرأ عنها الأذى، وللعرب عامة إلّا

(١) العراق. حنا بطاطو: الكتاب الأول: ٢٠٣.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٢٢/٦.

(٣) الروض البسام. محمد أبو الهدى الصيادي الرفاعي: ١٢٢.

(٤) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ١/ ٢٨٨ إبراهيم

صديقاً، يتمنى لهم السعادة. أيها الحاكم المحترم سرّ راشداً مهذباً، واعلم بأن فراقك يعزّ على الذين غرست في قلوبهم حبّاً لا يمحوه كّر الأيام، ومّر الليالي، فاذهب عن مدينة السلام بسلام. وستسر عند سماعك أن العراقيين قد جنحوا إلى السلم وأخلدوا إلى الوفاق كافة، وعادوا يوالون حكومة بريطانيا العظمى كما كانوا، ويحترمون يد مساعدتها، شاكرين لها شكر الأرض القاحلة للمطر الوابل" (١).

وحين عاد السير برسي كوكس إلى بغداد يوم ١١ تشرين الأول من عام (١٩٢٠م) ليتسلم مهام منصبه في إدارة حكم العراق خطب أمامه أستاذ الفلسفة الشاعر جميل صدقي الزهاوي ف"حمل على الثورة، وعلى القائمين بها حملة شعواء وضمها ذمّاً أنكره عليه الوطنيون" (٢)؛ ولذلك فليس غريباً أن تطلق مس بيل لقب "شاعرنا) إذ هو صار ينشر القصائد والمقطعات الشعرية في مدح الإنكليز فوصفهم بأنهم أهل الحق والعدل وأنهم أنقذوا الشعب العراقي وحرروه كما حرروا غيره من الشعوب والأمم" (٣).

٢. موقف كبار وجهاء سنة بغداد من الاحتلال البريطاني للعراق

لقد أوضح أورده الدكتور وميض جمال عمر نظمي موقفهم الصريح بقوله "وفي الواقع عقد اجتماع مهم جداً لوجهاء بغداد في دار النقيب في (أواخر ١٩١٥)، لبحث الوضع، واتخذ الاجتماع قراراً مهماً، فقد اقترح عبد اللطيف ثنيان إرسال تأييد إلى الإنكليز يعرض تقديم المساعدة لهم ووافق جميع المجتمعين على هذا

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥ / القسم الثاني: ٣٦.

(٢) الثورة العراقية الكبرى. السيد عبد الرزاق الحسني: ٤١٢.

(٣) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٤ / ٣٧٣.

الاقتراح بمن فيهم يوسف السويدي^(١) وقد "تم هذا الاجتماع عندما كانت القوات البريطانية محاصرة من قبل القوات الإسلامية في حصار الكوت"^(٢).
 ويعدد الدكتور وميض جمال عمر نظمي أسماء المجتمعين في كتابه وهم "موسى كاظم الباجه جي، جميل زاده عبد الرحمن، يوسف السويدي، يوسف الباجه جي، عبد الرحمن النقيب، عبد اللطيف ثنيان، ورشيد الهاشمي"^(٣).
 كما وثقت مس بيل في كتابها مضبطين من مضابط وجوه سنة بغداد وتجارهم: "فكانت الأولى تحمل في الدرجة الأولى تواقع التجار السنة، لكنها كانت تحمل أيضاً توقيع رئيس مختاري المدينة وتوقيع أحد أفراد الأسرة السويدية التي يرأسها يوسف السويدي الذي كان الأثرak قد نفوه إلى إستانبول وهذه الأسرة تتحدر من نسل العباسيين. ويوسف السويدي يتمتع باحترام الجميع وتقديرهم، وقد طلب موقعو المضبطة الأولى هذه بقاء الحكم البريطاني لا غير. كما طلبوا أن يصبحوا رعايا بريطانيين مثل ما طلب اليهود، إذا كان بقاء الحكم البريطاني غير ممكن. وطلب في المضبطة الثانية تأسيس حكومة عربية محلية تحكم في البلاد الممتدة من شمال الموصل إلى الخليج العربي بمساعدة البريطانيين وإرشادهم، على أن يكون السر بيرسي كوكس أول مندوب سام لها"^(٤).

وهو الموقف الذي أشار إليه الأستاذ علي البازركان أحد وجوه السنة الوطنيين

(١) ثورة ١٩٢٠. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية "الاستقلالية" في العراق.

د. وميض جمال عمر نظمي: ١١٠-١١١.

(٢) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين: ٤١. وينظر هامش الصفحة.

(٣) ثورة ١٩٢٠. الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية "الاستقلالية" في العراق.

د. وميض جمال عمر نظمي: ١١١. هامش رقم ١٤٣.

(٤) فصول من تاريخ العراق القريب. المس بيل: ٤٦٩.

المعاصرين للحدث بقوله: "إن في بغداد كما في غيرها من المدن العراقية من كان يود أن يبقى الإنكليز في العراق وأن يكون السير بيرسي كوكس ملكاً متوجاً عليه، ولا أزال أذكر ذهابي إلى جانب الكرخ... ومشاهدي السيد قاسم الخضيري في رأس الجسر من جانب الكرخ وهو يصيح بأعلى صوته: من يريد الحرية فليوقع هنا، ويشير إلى ورقة كانت بيده. فقلت له ما هذا يا أبا جميل. وأخذت الورقة من يده وإذا فيها: (نحن أهالي بغداد نريد السير بيرسي كوكس ملكاً على العراق وأن يكون استقلالنا تحت حماية بريطانيا... وكان يستغل جهل العامة للقراءة والكتابة فيأخذ توافيعهم)"^(١).

ولم يكن هذا الموقف جديداً على قاسم الخضيري فقد كان "دافع في وقت مبكر من الحرب العالمية الأولى عن الرأي القائل بأن من غير المفيد للعراقيين أن يقاتلوا ضد البريطانيين قبل أن يتضح ما سيكون عليه مصير النزاع"^(٢).

كما لم يكن الخضيري الوحيد من بين كبار تجار وأثرياء بغداد السنة الذين دعموا الإنكليز المحتلين وأيدوهم وتعاونوا معهم، بل لم يكن الوحيد من بيت أثرياء عائلة الخضيري السنية التي نحت هذا المنحى، فقد سبقه إلى دعم الإنكليز أخوه عبد القادر. يقول الباحث حنا بطاطو "في أيام العثمانيين كان من أبرز ممثلي هذه العائلة هو عبد القادر الذي كانت له منزلة وطيدة عند السلطات إلى درجة أن السلطان عبد الحميد أسبغ عليه في العام (١٩٠٠م) لقب (باشا) عبد القادر... وفي أعقاب ذلك عندما سيطر البريطانيون على البلاد، لم يضيع عبد القادر الوقت، بل إنه عكس خط سيره ليقیم (صداقة حميمة) معهم"^(٣).

(١) فصول من تاريخ العراق القريب. سابق: ٤٦٩ هامش رقم ١ بقلم المترجم: د. جعفر الخياط.

(٢) العراق. حنا بطاطو: الكتاب الأول: ٣٥١.

(٣) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٥١.

٣. موقف كبار سياسيي سنّة بغداد من الاحتلال البريطاني للعراق

لقد والى غالبية سياسيي سنة بغداد ودبلوماسيهم الاحتلال البريطاني للعراق وقد تقدم ما يشير إلى ذلك، وإذا كان لي أن أستشهد بغير من تقدم ذكرهم من قبيل كبير علماء السنة ببغداد وأول رئيس وزراء للعراق تحت ظل الانتداب البريطاني عبد الرحمن النقيب فإنني سأستشهد بأحد كبار سياسيهم ودبلوماسيهم وهو مزاحم الباججي أحد رؤساء وزراء العراق في العهد الملكي الذي وقف ليقول في حفلة بمناسبة توديع نائب الحاكم الملكي العام في العراق السير اي. قي. ولسن المسؤول الإنكليزي الأعلى عما جرى من مواجه وفواجع وقتل وتخريب واستباحة للمقدسات والحرّمات ولحقوق الإنسان ومواثيق الأمم المتحدة. نعم لقد "وقف السيد مزاحم الباججي خطيباً في الحفلة التي أقامها عبد اللطيف باشا المنديل في البصرة وقال: إني لأسف جد الأسف لأن تؤدي الأعمال الجنونية التي ارتكبتها بعض الأفراد العرب إلى خيبة أمل الأمة البريطانية في التزاماتها المشرفة... إن هذه الحركة الحالية ليست حركة خالصة، بل إنها حركة اختلط بها عنصر أجنبي كان مع أسفي الشديد موفقاً في استخدام السمعة العربية، والثورة العربية والدم العربي لمنفعته الخاصة بأمل إضعاف مركز بريطانيا العظمى في أماكن أخرى"

وأضاف مخاطباً ولسون والمحتلين الإنكليز: "فلا تصدقوا المظاهر التي تكون خادعة على الأكثر، وخاصة في الشرق، ولا تعتبروا الثورة الحالية التي قامت بها بعض القبائل الرحالة ثورة وطنية في الواقع تسعى وراء الاستقلال، فإن هذه الحركة لا يمكن أن تعتبر ممثلة لشعور المجتمع برمته. فالعائلات المتنفذة في بغداد لا تعطف على حركة دمرت بلادها. هذا هو شعور الأفراد الذين يحملون آراء لها وزنها فهم حريصون على إيصال ما يفكرون به وما يشعرون به، إلى أولئك الذين يدعون في

إنكلترا إلى انسحاب بريطانيا من هذه البلاد، ذلك لأن أولئك لا يستطيعون أن يدركوا بأن الانسحاب لا يعني إلا الإخلال بالنظام، ودمار شعب يعقبها فوضى تجتاح أنحاء القطر كله، وقد تؤدي إلى حرب آسيوية لا تستطيع بريطانيا أن تقف منها موقف المتفرج"^(١).

أما رئيس وزراء العراق السيد عبد المحسن السعدون الذي اتهم الشيعة بالعجمة فقد كان خدام السلطان العثماني عبد الحميد في شبابه، ثم عين عضواً في البرلمان العثماني عشر سنوات فقد "أيد لفترة من الزمن على الأقل خضوع العراق لسلطة الإنكليز، وفي العام (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) عندما كان وزيراً للعدل تكلم أمام دورة خاصة لمجلس الوزراء (بقوة) لصالح القبول الفوري بالمعاهدة، وفي العام (١٩٢٣هـ/ ١٩٢٣م) عندما كان رئيساً للوزراء أخذ بقبضة حديدية التحرك ضد المشاركة في انتخابات الجمعية التأسيسية، واعتقل ونفى العلماء الشيعة الذين قادوا هذا التحرك"^(٢). وفي العام (١٩٢٦م) وبعد احتجاجات أولية ضد تطبيق مدة الـ(٢٥) سنة على الاتفاقيات المالية والعسكرية المرفقة بالمعاهدة أقنع السعدون أكثريته البرلمانية بالموافقة على الإبرام من غير مناقشة... ولأنه كان لا يعترض على أي شيء يفعله الإنكليز.. فإنه وافق معهم على تأمين انتخاب برلمان موالي للبريطانيين بهدف تسهيل السياسة البريطانية وخصوصاً تمرير الاتفاقيات العسكرية والمالية بموجب المعاهدة الجديدة"^(٣).

(١) الثورة العراقية الكبرى. السيد عبد الرزاق الحسني: ٣٩٧-٣٩٨.

(٢) يقول د. علي الوردي (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٦/ ٣١٢): كان السعدون يرى "أن معالجة المجتهدين لا تتم إلا على طريقة الإسكندر المقدوني، أي بقطع العقدة بدلاً من حلها. إنه صمم على نفي المجتهدين إلى إيران للتخلص من معارضتهم الدائمة وفتاويهم تخلصاً نهائياً".

(٣) العراق. حنا بطاطو.. الكتاب الأول: ٢٢٣-٢٢٤.

يذكر أن عبد المحسن السعدون "قد انفرد قبل ذلك بإصدار مرسوم الجلد الذي ينص على جلد طلبة المدارس غير الراشدين (٢٥ جلد) لكل من خرج في مظاهرة احتجاج وقد شرع مرسوم الجلد لمعاقبة المتظاهرين ضد زيارة الداعية الصهيوني الفرد موند إلى العراق عام ١٩٢٨"^(١).

وأما ياسين الهاشمي الذي "قدّم نفسه للمواطنين على أنه وطني، وللبريطانيين على أنه من الموالي لبريطانيا"^(٢)، والموصوف بـ"الغدار" والمستولي "على أراضي الدولة بطرق مشكوك بها" قدرت بما يزيد عن ستة آلاف دونم^(٣)، وذوي الوجهين "ففي كانون الثاني يناير (شوال ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٥ م) وقبل شهرين من ارتقائه رئاسة الوزراء.. كان له حديث خاص مع السفير البريطاني، وأخبره متألماً أنه قرر التخلي عن معارضته لمعاهدة (١٩٣٠ م) لأنه صار مقتنعاً بأن العراق لا يمكنه العيش من دون تحالف مع بريطانيا العظمى، وإن هذا التحالف كان مقدماً من خلال المعاهدة بشروط حسنة، وعندما تسلّم المنصب في آذار مارس التالي طمأن السفير مجدداً أنه سوف يجد هاشمياً جديداً مختلفاً كثيراً عن ذاك القديم"^(٤)، الذي سبق أن رفض المعاهدة.

٤. سهرات علماء ووجوه من سنة بغداد ومتقفيها وشعرائها أثناء

اشتداد الحرب ضد الغزاة البريطانيين للعراق

في الوقت الذي يندب فيه المرجع الأعلى السيد الزيدي والي بغداد والقواد والعلماء المسلمين وعموم المجاهدين، ويحثهم جميعاً على الخروج إلى جهاد المحتل

(١) دولة المنظمة السرية. حسن العلوي: ٣٤.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٣٠.

(٣) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٣٧.

(٤) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٣٥.

الغازي كي يحولوا بينه وبين غزو بغداد واحتلالها، بل ويرسل ابنه المجتهد السيد محمد اليزدي لقيادة المجاهدين في هذه الجبهة الحساسة بعد أن تولى شارك في قيادة الجناح الأيسر من جبهة (الحويزة) وقد تقدمت رسالته إلى والي بغداد العثماني في ذلك، كان هناك في المقابل صورة مشهد آخر تتجسد أحداثه في منطقة (الصليخ) ببغداد، حيث يحضر أسبوعياً جمع من بعض علماء ووجوه سنة بغداد وشعرائها ومثقفها وأدبائها، وفق ما رواه شاهد عيان كان يحضر مع جلاسها تلك الأماسي، يوم كان الثوار الوطنيون يتساقطون صرعى دفاعاً عن العراق أرضاً وشعباً ومقدسات. وهو ما عرضه رئيس الوزراء ناجي شوكت متحدثاً عن سهرات كانت تعقد ببغداد حضرها هو شخصياً وكتب عنها خلال تصدي العراقيين للمحتل البريطاني الغازي قبل احتلالهم لبغداد.

يقول ناجي شوكت: "كنت خلال هذه الفترة أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي. وكانت الدار المذكورة تضم من المداومين الدائمين السادة: جميل صدقي الزهاوي، وأحمد القيقاقي، وعزّت الفارسي، وعبد الرزاق الشيخ قاسم، والدكتور سامي سليمان. وكان الزهاوي يسمعون من شعره كل طريف ولذيد، كما كان يسمعون عن آرائه في الكون والعلم كل غريب، أما القيقاقي فكان يبتكر لنا الحكايات المضحكة التي تدخل السرور على قلوبنا. وعنت لنا فكرة يومذاك، أن نقيم مأدبة عشاء، تعقبها سهرات في ليالي الجمع، وذلك في دار مراد بك الواقعة في الصليخ... فكان على كل منا أن يرتب مستلزمات الحفلة ويهيئ الطعام، والشراب، والمطربين (چالغي بغداد)، وله أن يدعو بعض الأصدقاء، كل ذلك على نفقته الخاصة، وكانت هذه النفقات لا تتجاوز الخمس ليرات ذهبية، على الرغم من امتلائها بالقوزي المحشي، والسّمك المسقوف،

والأكلات النادرة، والنقل والشراب، وكان الزهاوي ينقلب في مثل هذه الليالي التي تمتد حتى الصباح، إلى شخصية أخرى، لا تمت إلى العلم والشعر بصلة، وعند الفجر كنّا نشكّل دائرة (حلقة) حول الزهاوي - رحمته الله - ونردّد الأغنية المعروفة (يا مسعد الصبحية) حتى إذا أخذ التعب من كل منّا مأخذه، ذهب إلى سريره، ليأخذ قسطاً من النوم والراحة، ومن ثم نعود إلى بغداد. تلك هي الحياة التي كنّا نحياها، على الرغم من أنّ نار الحرب كانت مستعرة، وحالة الطوارئ معلنّة في جميع الأرجاء، فكانت هذه السهرات الملاح تنسينا بعض تلك الويلات، وقد مرّت تلك الذكريات والأيام بسرعة خاطفة لتنتقل إلى عالم المتاعب والمصاعب والويلات^(١).

٥. موقف سنّة بغداد من حصار الجيش البريطاني للنجف الأشرف

والأنكى مما تقدم ذلك الموقف المشين لمن أساهم السير أرنولد ويلسون بـ "العنصر السني في بغداد" خلال فرض القوات الإنكليزية المحتلة الحصار القاسي الممض على مدينة النجف الأشرف سنة (١٩١٨ م) لأكثر من أربعين يوماً منعوا خلاله حتى الماء والغذاء عنها، فماتت الناس والحيوانات جوعاً وعطشاً بعد ثورتها على الإنكليز وقتلها للكابتن (مارشال) الحاكم الإنكليزي للنجف سنة ١٩١٨ م، ثم فرض المحتلين شروطاً مذلة على المدينة المقدسة.

يقول ويلسون: "وقد عقد العنصر السني في بغداد مشاكلنا باستبشارهم العلني في أننا قد مسكنا (بالحشرة السامة)، بينما رجال الدين الشيعة في جميع أنحاء العراق اتصلوا بالمراجع الدينية عربيين عن قلقهم واستياء الجماهير"^(٢). مما تعرضت وتعرض له مدينة النجف الأشرف من حصار خانق أودى بحياة

(١) مذكرات ناجي شوكت: ٣٨-٣٩. وينظر: السيد محمد كاظم اليزدي. سابق: ٢٦٨ وما بعدها.

(٢) السيد محمد كاظم اليزدي. كامل سلمان الجبوري: ٣٥٤. نقلاً عن كتاب ويلسون.

بعضهم وقسم من زوار مدينة النجف الاشرف جوعاً وعطشاً، كما أودى بحياة العديد من الحيوانات فيها من شدة الجوع الممض.

٦. عشائر دجلة تسهل الحركة العسكرية للقوات الغازية

لم تكتفِ عشائر دجلة وغيرها من عدم الاشتراك مع ثوار الفرات الأوسط في الجهاد ضد المحتل الغازي في ثورة العشرين (٣٠/ حزيران/ ١٩٢٠م) بل كانت "هادثة ومؤيدة للحكومة"^(١)، مما فتّ في عضد الثوار، بل زادوا على ذلك فساعدوا المحتلين الإنكليز، وسهلوا لهم أمر كبح جماح الثورة الوطنية والحيولة دون امتدادها إلى مناطقهم بل وسهلوا لقواتهم أمر حرية الحركة العسكرية بأمان واستمرار تموين الإنكليز لقواتهم المحتلة بالتجهيزات العسكرية والمقاتلين والمؤن. "ومرد ذلك إلى أن كثيراً من سكانها من البدو الرحل الذين كان تقيدهم بالواجب الوطني والديني ضعيفاً وكان معظم شيوخ العشائر في هذه المنطقة مخلصين للحكومة"^(٢) فمكّنوا الإنكليز من سلوك (طريق دجلة النهري) ذلك أن الإنكليز كانوا "يعتمدون على خطين رئيسين من المواصلات توصلهما بالبحر عن طريق البصرة. أحدهما سكة الحديد الرئيسة وفروعها الممتدة من البصرة إلى بغداد ومنها إلى سامراء شمالاً، أما الثاني فهو طريق دجلة النهري. وقد اعتمد الإنكليز أثناء الثورة على هذا الطريق كثيراً... وكان السبب الرئيس لاعتماد الإنكليز على المواصلات المائية هو أن سكة الحديد التي توصل بغداد بالبصرة كانت تمر بمنطقة الفرات الأوسط وهي أهم المناطق الثائرة وأكثرها خطراً، لذا كانت هذه السكة

(١) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. سابق: ١٦١.

(٢) الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. د. عبد الله فياض: ٢٩٨. وينظر عن بداوتهم كتاب: دراسة في طبيعة

المجتمع العراقي. د. علي الوردي: ١٦١.

عرضة لهجمات الثوار وتخريبهم^(١).

٧. مقاتلة بعض قبائل المنطقة الغربية وشيوخها مع الإنكليز ضد الثوار العراقيين

أنقل فيما يأتي عن كتاب (الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ م) قول إن "من القبائل التي اشتهرت لا بتأييدها للإنكليز حسب، بل كانت تقاتل الثائرين ضدهم، هي قبيلة (عنزة) ورئيسها فهد بن هذال، وتروي المس بيل أن قبيلة (عنزة) الموالية للإنكليز هجمت على الحاج عطية أبو كلل قرب السماوة فاضطر لتسليم نفسه للسلطات البريطانية في (رجب ١٣٣٦ هـ/ نيسان ١٩١٨ م)، وكانت قبيلة (آبو عيسى) برئاسة الشيخ علي الحسين الكريم من أكثر القبائل تأييداً للإنكليز في منطقة سامراء. وقد أهدت السلطات البريطانية للشيخ علي هذا ساعة ذهبية في (٢٥ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ/ ٢٩ كانون الأول ١٩١٨) تقديراً لخدماته.

أما تأييد (قبائل الدليم) للحكومة الإنكليزية فإنه مشهور، تقول مس بيل بعد مقتل (لجمن): لكن (عشائر الدليم) برئاسة علي السليمان و(عنزة) برئاسة فهد بك وابنه محروث الذي تمكن الكولونيل (لجمن) بواسطتهم من السيطرة على منطقة الفرات من الفلوجة إلى عانة، ظلوا موالين للحكومة^(٢).

وأوضح كتاب (ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات) تفاصيل ذلك بقوله: إن "من رؤساء العشائر الذين وقفوا من الثورة موقف العداء والكراهية منذ البداية فهد الهذال رئيس (العمارات) من عشيرة (عنزة) فإنه أعطى عهد الولاء للكولونيل لجمن حاكم لواء الدليم منذ بداية الثورة في الفرات، وفي

(١) الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. د. عبد الله فياض: ٢٥٣-٢٥٤.

(٢) ينظر: الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. د. عبد الله فياض: ٢٢٨.

تلك المنطقة أيضاً. ولما ثارت قبيلة (زوبع) على الاحتلال الإنكليزي فيمن ثار من جموع الشعب، وقذفتهم الطائرات الإنكليزية بالقنابل، وأسقطوا إحدى هذه الطائرات وأسروا الضابطين اللذين كانا في الطائرة جاء فهد الهذال بإيعاز من الإنكليز إلى قبيلة (زوبع) يطلب تسليم الضابطين وإعادةتهما إلى بغداد. وبعد مفاوضات طويلة تمكّن فهد الهذال من جلب الضابطين، وهما في تمام العز والإكرام.

ودخل فهد مع الجيش الإنكليزي مدينة الفلوجة، واشترك هو ومن حفّ به من أفراد عشيرته مع هذا الجيش في إحراق بيوت الثوار، ونهب أموالهم، وقتل نسائهم، وتخريب أراضيهم وزروعهم. وفعل مثل ذلك في منطقة الهندية بعد انكسار الثوار حيث أباح الإنكليز له ولأفراد عشيرته نهب كل ما كان موجوداً في بيوت رؤساء العشائر وأفرادها، ثم عمدوا بعد ذلك إلى حرق تلك البيوت وتخريبها جميعاً.

واعترف الجنرال هولدن بالمساعدات القيمة التي قدمها فهد الهذال للحكومة البريطانية في العراق، وكيف جازف بحياته من أجلها، وأنه ما انفك هو وابنه محروث عن موالة السلطة المحتلة طوال أيام الثورة ونال على ولائه هذا الجزاء الأوفى^(١).

ويضيف السيد محمد علي كمال الدين في كتابه قائلاً: "وفي مقدمة من يأتي ذكرهم من المواليين للإنكليز علي السليمان رئيس عشائر (الدليم) المرابطة في منطقة عانة والفلوجة. ويذكر الجنرال هولدن أنه تم الاتفاق بين الإنكليز وهذا الرجل، وبموجب هذا الاتفاق تعهد علي السليمان بحراسة مدينة هيت لقاء بعض المال

(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين معلومات ومشاهدات. محمد علي كمال الدين: ٢٧٤.

الذي أجزل له، حتى يعاد احتلال المدينة من قبل الإنكليز، وتعهّد للإنكليز أيضاً بالمحافظة على تلك المنطقة من القائم إلى الفلوجة... يقول الجنرال هولدن معقّباً على ذلك: إذ بمثل العون الذي أسداه لنا (علي السليمان وفهد الهذال) استطاعت قواتنا أن تبقى في الرمادي والفلوجة وأن تموّن لأسابيع عدة، وحتى في حالة انقطاع الاتصال بها كلياً. ثم يقول هولدن ممتنّاً: إن الخدمة الجلّي التي أسداها علي السليمان في تأليف قلوب عشائره وجعلها في صف الإنكليز دفعت عنا خطراً عظيماً، وإن هذه الخدمة لا تثمّن بشيء، وإنها لا تنسى ولا تجازى" (١).

كما نقل الباحث الدكتور عبد الله فياض عن السياسي البريطاني المؤرخ آيرلند قوله: "عندما ضغطت الحكومة على أمير ربيعة بدفع ما كان مستحقاً عليه من الضرائب سنة (١٩٢٢م) أفاد بأنه قد وعد من قبل البريطانيين في سنة (١٩٢٠م) بأن يعفى من الضرائب لقاء مساعدتهم في إيقاف انتشار الثورة في وادي دجلة، وهو وحده الذي حال دون نشوبها هناك" (٢).



(١) ثورة العشرين في ذكراها الخمسين. معلومات ومشاهدات. السيد محمد علي كمال الدين: ٢٧٥.

(٢) الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠. د. عبد الله فياض: ٢٩١.. هامش رقم ١. نقلاً عن كتاب (العراق) لآيرلند:



الفصل التاسع

الربع الثاني من القرن الرابع عشر

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في

الربع الثاني من القرن الرابع عشر الهجري

* * *

تصدي المرجعية للانتداب البريطاني على العراق

وللمعاهدة العراقية - البريطانية الظالمة على العراق



تندرج تحت هذا العنوان أسماء مراجع كبار
لهم مواقف بالغة التأثير في التصدي للانتداب
البريطاني على العراق وللمعاهدة العراقية البريطانية
المذلة ولتنصيب الإنكليز لفیصل الأول ملكاً كما
هو مبين في النقاط الآتية:



يقول المؤرخ والخطيب الكبير الشيخ محمد علي اليعقوبي أحداث ما بعد ثورة العشرين ما يأتي: "ومما فتّ في عضد المسلمين الخطب الفادح الجليل ألا وهو فقد الزعيم العظيم شيخ الشريعة ليلة الأحد الثامن من ربيع الثاني أي بعد الحصار بعشرة أيام، وكان هو المدير الأكبر للثورة بعد وفاة قرينه الميرزا الشيرازي"^(١)، فتوجهت جموع المؤمنين بعد وفاة المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصهباني الزعيم والقائد الخلف لثورة العشرين إلى تقليد مجموعة من أشهر مجتهدي ذلك العصر، ومنهم كل من المراجع: السيد أبو الحسن الأصهباني، والشيخ محمد حسين النائيني والشيخ محمد مهدي الخالصي.

أما دور المرجع الشيخ الخالصي فقد اتضح بعضه فيما تقدم، وما سيأتي.

وأما الحديث عن دور المرجعين السيد الأصهباني والشيخ النائيني فسأتناولهما بإيجاز ماراً مروراً سريعاً من خلال المقدمة على شخصية المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصهباني التي أهلتها لتسبم زمام المرجعية العليا بعد ذلك.

وسأشهد لذلك بإلقاء ضوء على الاهتمامات السياسية للمرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصهباني الذي خلف المرجع الأعلى السلف شيخ الشريعة الأصهباني.

(١) حصار النجف في الثورة العراقية. ورقة مخطوطة. مركز النجف الأشرف للتوثيق والنشر. النجف الأشرف.

تمهيد: دور المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني في الاهتمام بالشؤون السياسية للعراق والأمة



لم يختلف المؤرخون بشأن زعامة المرجع الخراساني لحركة (المشروطة)، كما لم يختلفوا كذلك بأنه عليه السلام تولى وخاصة مستشاريه متابعة شؤونها في العراق وإيران حتى وفاته، ويأتي في مقدمة مستشاريه في هذه القضية الحساسة كل من المرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ محمد حسين النائيني.

وتتضح لنا المنزلة الكبيرة للمرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني عند أستاذه المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني بما دوّنه حفيد المرجع السيد الأصفهاني متحدثاً عن فتوى المرجع الخراساني بالجهاد ضد احتلال روسيا للأراضي الإيرانية وقصفها للقبة الرضوية الشريفة في خراسان بقوله: "في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة، عسكر المجاهدون في جامع السهلة على بعد ست كيلومترات من النجف ينتظرون الزعيم الثائر -الآخوند الخراساني- حتى يقودهم إلى ساحة الجهاد من صباح غد. جمع الآخوند -الخراساني- كبار صحابته في مساء (الثامن عشر من شهر ذي الحجة - سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩ كانون الثاني ١٩١١م) -، فاختار لكل شأن من شؤون المجاهدين رجلاً قديراً، أما السيد - (أبو الحسن الأصفهاني) - فقد اختاره الآخوند... نائباً له ما دام هو في قيد الحياة، وأما إذا قدر له الشهادة فحينها يكون هو الخليفة الذي يحل محله ليقود المسيرة إلى ساحة النصر... وقبل أن يتم السيد -الأصفهاني- صلاة الصبح سمع صارخاً يصرخ بين صفوف المصلين ويقول... مات زعيمنا وقائدنا، وهكذا أعلن نبأ وفاة الآخوند -الخراساني- الذي التحق إلى جوار ربه... قبل أن يطلع الفجر بقليل، ورجع المجاهدون من معسكرهم إلى النجف ليودعوا زعيمهم العظيم".

ويضيف حفيد المرجع السيد الأصفهاني مؤرخاً مرحلة ما بعد وفاة المرجع الشيخ محمد كاظم الخراساني بقوله: "بعد أن مضت سبعة أيام على وفاة الآخوند اجتمع كبار صحابته... فأجمعوا على المضي إلى ساحة الجهاد، لأن الواجبات الإلهية لا تتوقف بموت أحد، فغادر المجاهدون النجف الأشرف يرأسهم السيد... ومن الكاظميين بعث المجاهدون ببرقيات إلى الحكومة الإيرانية... إلا أن الحكومة الإيرانية أجابت المجاهدين بأنها بدأت بمفاوضات مع الحكومة الروسية... ولذلك تطلب منهم التريث... وبقي المجاهدون في الكاظمية وعيّنوا لجنة خماسية لتمثلهم... وكانت اللجنة تضم السيد -الأصفهاني- والنائيني وميرزا مهدي وميرزا أحمد ابني الآخوند... وبعد أربعين يوماً وصلت برقية من رئيس الوزراء السيد مستوفي الممالك.. وفيها بشائر النصر وجلاء القوات الغازية المعتدية"^(١).

ثم بعد الاحتلال البريطاني للعراق كان للمرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني دور مهم في قيادتها فقد شارك فيها مشاركة فعالة وقاوم الغزو البريطاني للعراق (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) ليدخل بذلك العراق في صلب المعركة فانطلقت شرارة المقاومة لهذا الغزو من النجف الأشرف تلبية لحالة الجهاد التي أعلنتها المرجعية، وقد توجت تلك الحركة انتفاضة النجف ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م.

ثم حين نظمت مضبطة توكيل النجف والشامية الثانية المؤرخة في (١٨ رمضان ١٣٣٨هـ/ ٥ حزيران ١٩٢٠م) المطالبة باستقلال العراق من أقصاه إلى أقصاه استقلالاً تاماً عارياً عن أي تدخل خارجي، يرأسه ملك عربي مسلم مقيد بمجلس وطني منتخب، كان المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني أحد الموقعين

(١) الزعيم الموهوب آية الله الأعظم والإمام الأكبر السيد أبو الحسن الأصفهاني. د. موسى الموسوي. ضمن كتاب السيد أبو الحسن الأصفهاني. كامل سلمان الجبوري: ٤٨٣/٣.

عليها بعد المرجع شيخ الشريعة الأصهباني.

وإذ تأججت ثورة العشرين توجّه المرجع السيد أبو الحسن الأصهباني إلى كربلاء حيث يقيم قائد الثورة المرجع الأعلى الشيرازي، ومنها توجّه إلى جبهات القتال، ثم ترأس وفداً دينياً وطاف على العشائر في القسم الأوسط من نهر الفرات بتكليف من المرجع الأعلى الشيرازي حاثاً إياها على تلبية دعوة الجهاد، وحين كان يقوم بمهمته التبليغية في (طويريج) بلغه خبر وفاة المرجع الأعلى الشيرازي فقفّل عائداً إلى كربلاء ليشترك في تأبينه.

ثم بعد أن تقلد المرجع الأعلى شيخ الشريعة الأصهباني زمام المرجعية العليا وتوجّه محمولاً على نقالة بسبب مرضه وشيخوخته إلى الصحن العلوي الشريف لإعلان استمرار الثورة وضرورة تصاعد وتأثرها بعد وفاة موقدها، عهد سماحتها من على منبر الصحن العلوي إلى السيد أبو الحسن الأصهباني بتمثيله شخصياً في جبهات القتال والمنازلة، فتوجه السيد أبو الحسن بالراية العلوية الشريفة من الصحن العلوي ودخل بها إلى الحضرة المطهرة للزيارة والسلام والتوديع، ثم شدّ رحاله عصر يوم تكليفه بالمهمة الكبيرة حاملاً سلاحه إلى جبهة الوند مباشرة حيث تدور رحى المعارك الضارية هناك.

وما أن انتهت ثورة العشرين إلى غير ما أرادته لها المرجعية وقادة الثورة وشيوخها، وحاصرت القوات الغازية النجف الأشرف حصاراً قاسياً ممضاً "اشرطت الحكومة المدنية البريطانية من جملة شروطها لقبول استسلام المدينة تسليم السيد أبي الحسن بالإضافة إلى أربعة آخرين"^(١).

(١) المرجعية العاملة دراسة تحليلية لحياة المرجع السيد أبو الحسن الأصهباني. السيد ضياء الحسن: ٤٤، نقلاً

عن ثورة الخامس عشر من شعبان (ثورة العشرين). عباس محمد كاظم: ٣٣٨.

دور كل من المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني، والمرجع الشيخ محمد حسين النائيني، والمرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي في الاهتمام بشؤون العراق السياسية خلال العهد الملكي.



١. المراجع يعارضون تولي فيصل الأول عرش العراق

حين تم تنصيب الملك فيصل الأول ملكاً على العراق خلافاً لرأي المرجعين السيد أبو الحسن الأصفهاني والميرزا النائيني وبعض زعماء الثورة ومفكرها وعلى رأسهم المجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري والعالم الشيخ علي كاشف الغطاء "عارض المرجعان السيد أبو الحسن والميرزا النائيني بيعه الملك فيصل^(١)، بل "قاد السيد -الأصفهاني- بالاشتراك مع الميرزا النائيني حملة المعارضة ضد هذا الترشيح، انطلاقاً من قناعة ثابتة تقدّم تحقيق الاستقلال التام وتشكيل حكومة مقيّدة - (بدستور ومجلس نواب منتخب) - ومستقلة عن الأجنبي على أي هدف آخر، لذلك كانا يعارضان أي مرشح في ظل الانتداب"^(٢).

ولذلك فقد نأى مراجع الشيعة الكبار بأنفسهم عن لقاء فيصل عندما وصل للفرات الأوسط وزار مدنه وأقصيته وهو في طريقه إلى بغداد وبخاصة في النجف الأشرف التي "لم يقتصر العلماء فيها على مجرد التحفظ، بل تعداه إلى إظهار شيء من الجفاء والعداء الظاهرين، فقد تناقل الناس إشاعات عن أن المجتهد الأكبر كان قد أعلن عدم موافقته ورضاه لتنصيب الملك فيصل، وفي كلام موجز لقد أدرك زعماء الشيعة وقادتها إدراكاً تاماً أن الملك فيصل إنما يمثل استمرار الوجود البريطاني

(١) السيد أبو الحسن الأصفهاني. كامل سلمان الجبوري: ١/ ١١.

(٢) المرجعية العاملة دراسة تحليلية لحياة المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني. السيد ضياء الحسن: ٥٠.

في العراق^(١)، ولذلك "فقد رفض العلماء لقاء فيصل وامتنعت غالبية السكان من استقباله عند وصوله البصرة ومروره بمناطق الفرات"^(٢) بحيث وصف استقباله عندما وصل إلى مدن الفرات الأوسط "ولا سيما كربلاء والنجف كان استقبالاً فاتراً"^(٣).

بل زاد النجفيون على عدم إظهار الحفاوة باستقبال فيصل إلى التعريض به في وجهه "فأثناء مائدة عشاء في بيت هادي النقيب القيم على ضريح الإمام علي كان فيصل أعد كلمة قارن فيها بين ثورة العشرين (١٩٢٠م) وثورة العرب عام (١٩١٦م) التي قادها والده الشريف حسين، وفي معرض جواب لمحمد باقر الشبيبي ذكر الشبيبي فيصل (كذا) بأنه (ضيف العراق) -وليس ملكاً معداً له- كان الشبيبي يتحدث بحماس عن التضحيات التي قدمها العراقيون في الثورة ضد بريطانيا، وشدد على أنهم سوف يحافظون على ثمار ثورتهم ولا يقدمونها أو يؤمنونها إلا بيد رجل وفي يلتزم بالقتال (أي النضال) من أجل استقلال العراق ويحرص على صيانة مصالحه الوطنية"^(٤).

وقد بادل الملك فيصل وحكومته المراجع والمجتهدين بل شيعة العراق نظرة التوجس نفسها حتى بلغ "ظنّ دعاة العرش الهاشمي بأن الغرض الوحيد الذي يكتنه رجال الدين هو نقض سلطانه ورفض ملويته"^(٥).

(١) دور الشيعة في تطور العراق السياسي. د. عبد الله النفيسي: ٢٣١ وينظر المرجعية العاملة: سابق:

(٢) المرجعية العاملة. سابق: ١٥١.

(٣) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. ستيفن همسلي لونكريك: ٢١٦/١. وينظر: الوصول إلى السلطة: ١٦٤.

(٤) الوصول إلى السلطة. الشيعة في العالم العربي المعاصر. إسحاق نقاش: ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م.

ثم حين بدأ نطاق مرجعية السيد أبو الحسن الأصفهاني يتسع "أعلن الخطة التي رسمها لمستقبل الأمور، وقبل كل شيء ألزم نفسه بإكمال رسالة الثورة التي بدأ بها ميرزا محمد تقي - الشيرازي - ومن بعده شيخ الشريعة - الأصبهاني - على أحسن وجه، وأكد بفهم راسخ أنه لا يدّخر جهداً في هذا السبيل مهما كلفه الثمن، وفي سنة (١٣٤٠هـ / ١٩٢٢م) ... كانت الثورة العراقية قد اجتازت مراحل شاقة وعسيرة، وجاء عهد الانتداب البريطاني، وكان الملك الرسمي للبلاد فيصل، وأول عمل قام به السيد - الأصفهاني - في هذا التاريخ مطالبة الملك بإنهاء هذا العهد الذي ينافي كرامة المسلمين وكرامة العراق" ^(١) مما حدا ببريطانيا إلى اتباع أساليب مأكرة للضغط على رؤساء العشائر ووجهاء المدن والوطنيين بقبول الانتداب البريطاني على العراق.

٢. هجمات الوهابيين على العراق بإيعاز من المحتلين البريطانيين لتمرير المعاهدة العراقية - البريطانية

لعل وقفة تحليلية لما تقدم تنتهي بنا إلى أن تعثر مفاوضات المعاهدة العراقية - البريطانية حول موضوع الانتداب البريطاني على العراق دعت بريطانيا إلى أن توعد للملك عبد العزيز آل سعود بشن الغارة السعودية الوهابية على العراق، وأكدته كل من الباحث حنا بطاطو، والعلامة الشيخ موسى العصامي المعاصر للحدث والشاهد عليه، والسيد موسى الموسوي حفيد المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني.

أما حنا بطاطو فبقوله: "لا يستطيع دارس التاريخ العراقي إلا أن يلاحظ

(١) الزعيم الموهوب آية الله الأعظم والإمام الأكبر السيد أبو الحسن الأصفهاني. د. موسى الموسوي. ضمن كتاب السيد أبو الحسن الأصفهاني. كامل سلمان الجبوري: ٥٠٦ / ٣.

أن الدويش كان يقوم بغاراته هذه تحديداً في المناسبات التي كان فيها العراقيون، أو حكومتهم، يرفضون الانصياع للطلبات البريطانية، (...) ويبدو من غير المرجح أنه ما كان للدويش أن يهاجم لو لم يكن يعرف مسبقاً أن القوات الجوية البريطانية التي كانت لا تزال ملزمة بمعاهدة للدفاع عن الحدود العراقية ستعطيه حرية التصرف، ومن المثير للاهتمام أن سكرتير الدولة لشؤون المستعمرات أعطى تعليماته إلى المندوب السامي لتحكيم الرأي، رأيه، في استخدام الوضع القائم على حدود العراق - نجد للتشديد على ضرورة استمرار الدعم البريطاني، وضرورة اعتماد العراق على مثل هذا الدعم^(١). وهي سياسة بريطانية دائمة.

وأما الشيخ العصامي فبقوله: "كل أحد يعلم أن الإخوان ما أثارهم على الغارة والغزو على العراق إلاً بريطانية، وقد مدتهم بالسلاح والكرع"^(٢).

وأما السيد موسى حفيد المرجع الأصفهاني فيقول "أوعز الإنكليز إلى ابن سعود والقبائل الوهابية المتحالفة معهم أن يهجموا على الأراضي العراقية... وكان الدافع الحقيقي للإنكليز من هذه المؤامرة هو حمل العراق على قبول قيمومتهم"^(٣).

بل أكثر من ذلك، فقد ورد عن الملك فيصل الأول نفسه أنه يرى بأن الإنكليز هم من تسبب بهجمة الوهابيين الوحشية على العراق، ففي حديث خاص له مع محمد أمين الجرججي رئيس حزب النهضة في (١٠ رمضان ١٣٤٦هـ / ٢ آذار ١٩٢٨م) قال الملك لأمين: "إن البريطانيين يدعمون (الإخوان) وفي الواقع فإنهم

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٦٥.

(٢) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ /

٢٠١١م. ص: ١٢٠.

(٣) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٠٧.

هم الذين تسببوا في الهجوم الأخير على العراق، ولو لم يكن الأمر كذلك لسمحوا للعراق بأن يسيطر على جيشه، أو كانت قواتهم الجوية... تعاملت معهم بشكل كامل" (١).

وإذا كان الملك فيصل الأول قد حمل البريطانيين وحثهم مسؤولية الهجوم الدموي على العراق فإن تقرير اللجنة التي شكلتها الحكومة لتحري أسباب هذه الحادثة حمل الحكومة المسؤولية أيضاً في تقرير مفصل قدمته اللجنة إلى رئيس مجلس الوزراء في (٢٩ جمادى الثانية ١٣٤٠ هـ/ ٢٧ شباط ١٩٢٢ م) جاء فيه: "راجعت العشائر وقائد قوة الهجانة الحكومة المحلية في المتفك طالين السعي في استعدادات كافية والإتيان بطائرات لتشتيت شمل المجتمعين قبل أن يبدؤوا التعرض، ويستدل من الوثائق المربوطة بهذا التقرير أن حكومة المتفك راجعت الحكومة المركزية بهذا الخصوص قبل وقوع الحادثة ببضعة أيام ولكننا لم نعثر بين الوثائق على جواب الحكومة المركزية على هذه المراجعات... وكان الخطر يزداد يوماً فيوماً من غير أن تتخذ الحكومة شيئاً من التدابير".

وتابع التقرير تحت عنوان (المسؤولون عن الحادث) فقسمه على قسمين: "مسؤولية الاعتداء: تقع هذه المسؤولية على ابن السعود (كذا) الذي اعتدى رجاله على منطقة هي منذ أعصر تابعة للعراق... ومسؤولية الخسائر: تقع هذه المسؤولية على الحكومة العراقية، وهي على قسمين أصلية وفرعية. أما المسؤولية الأصلية فهي عدم اتخاذ الحكومة العراقية التدابير اللازمة لحماية العشائر العراقية، وعدم اجابتها ولو بعض طلبات متصرف المتفك الذي أنبأها بتوقعه حدوث ما حدث. ومع ذلك فإن الحكومة لم تقم حتى ولو باتخاذ تدابير سياسية لدفع هذا الطارئ...

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٦٦.

وأما المسؤولية الفرعية فهي عدم اهتمام الحكومة بحياة مأموري شرطة هجانة المنتفك^(١).

٣. المراجع الثلاثة يدعون إلى عقد مؤتمر كبير في كربلاء بعد هجمات

الوهابيين على العراق

لعل حدوث جريمة وهابية كبرى ضد شيعة العراق - في (١٢ رجب ١٣٤٠ هـ/ ١١ مارس ١٩٢٢ م) اتخذت من مناطق عشائر المنتفق في الجنوب مسرحاً لها، أعقبها الوهابيون بهجمات أخرى على عشائر السماوة ثم على كربلاء المقدسة - حوّلت وميض النار في قلوب المراجع وزعماء الثورة إلى ضرام، ذلك أن الهجمات الطائفية التكفيرية بقيادة فيصل الدويش أدت إلى سقوط ما يقرب من سبعمائة قتيل، بينهم أطفال صغار، ونساء بقرت بطونهن، كما سرقت عشرات الآلاف من الحيوانات، ونهب حوالي ثمانمائة بيت من بيوت المواطنين المسالمين المؤمنين بكل ما فيها من أموال ومتاع، كل ذلك وما صاحبه من توقع وقوع هجمات وهابية أخرى دعا مراجع النجف الأشرف وكبار المجتهدين إلى عقد اجتماعات عدة انتهوا من خلالها إلى ضرورة عقد مؤتمر موسع في كربلاء يحضره المراجع ورؤساء العشائر ووجهاء المدن لوضع خطة متفق عليها للتصدي للهجمات الوهابية، فكتب المرجعان السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني رسالة مشتركة إلى المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي مرجع بغداد والكاظمية جاء فيها "جناب حجة الإسلام محمد مهدي الخالصي دامت بركاته. إنه لا ينبغي الاتكال على وعد السلطة البريطانية في دفع شرّ الخوارج الإخوان عن المسلمين فبناء عليه نأمل حضوركم في كربلاء قبل الزيارة بأيام وتأمرون رؤساء العشائر كالسيد نور

(١) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ٢/.

وأمر ربيعة وسائر الرؤساء بعد إبلاغهم سلامنا بالحضور كما أننا نحضر مع من في طرفنا من الرؤساء لأجل المذاكرة في شأنهم إن شاء الله" (١).

٤. أسباب دعوة المراجع: الأصفهاني والنائيني والخالصي لمؤتمر كربلاء

بعد أن نأى الإنكليز والملك والحكومة بأنفسهم عن صد هجمات الوهابيين الإرهابية عن العراق وأهله وأراضيه وهو ما بدا واضحاً من مطلع رسالة المرجعين النجفيين المتقدم ذكرها التي افتتحها المرجعان الأصفهاني والنائيني بقولهما: "إنه لا ينبغي الاتكال على وعد السلطنة البريطانية في دفع شر الخوارج الإخوان عن المسلمين،" ملمّحين إلى تدارس تشكيل قوة مسلحة أخرى من غير الإنكليز وتابعيهم لهذا الغرض، ولما كانت القبائل الشيعية العراقية المكتنزة بمبدئيتها ومعنوياتها العالية مؤهلة أكثر من غيرها لذلك كما تبين ذلك في ثورة العشرين، فقد طرحت هذه الفكرة لتكون القوة الشعبية ظهيراً للجيش العراقي بأن تتولى مسؤولية الدفاع عن أرواح العراقيين وأملاكهم متى ما تعرضت مدن العراق ونواحيه ومزارعه وأراضيه إلى غارات الوهابيين السعوديين، وربما تستعين بها المرجعية لتحقيق مطالبها من الدولة عند الحاجة والضرورة، وهو ما كان يخشاه البريطانيون (٢) بقوة خشية أن تتكرر ثورة أخرى كثورة العشرين.

في حين يعزى الاهتمام الكبير الذي أولاه المرجع الشيخ محمد مهدي الخالصي للمؤتمر ودعوته الحثيثة لجمع كبير من الزعماء والوجهاء لحضوره، هو ما كان يريجه

(١) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ٢/٢٠٢ من الطبعة الثانية، وينظر: الزعيم الموهوب.

سابق: ٥٠٧ مع اختلاف غير مؤثر في النص.

(٢) ينظر: شيعة العراق. إسحاق نقاش: ١٥٠.

من الملك فيصل بأن يعلن أمام هذه الجموع الغفيره، من خلال دعمه ودعمها العلني الصريح له، استقلال العراق استقلالاً تاماً ناجزاً، وإجبار الإنكليز على قبول ذلك، فوراً، دون ماطلة أو تأخير. وإلا فستكون هناك فرصة "لعمل شيء ضد الإنكليز على غرار ثورة العشرين"^(١).

ولم لا يرجو الشيخ من الملك ذلك؟ وقد كان عقد له البيعة في (٧ ذي القعدة ١٣٣٩هـ/ ١٣ تموز ١٩٢١) "على أن يكون ملكاً على العراق مقيداً بمجلس نيابي منقطعاً عن سلطة الغير مستقلاً معه بالأمر والنهي"^(٢)، وقد تم عقد البيعة للملك بعد أن بين في إحدى زيارته للشيخ محمد مهدي الخالصي بصرحة ووضوح، كما وثقه نجله الشيخ محمد الخالصي في مذكراته بأنه -أي الملك- قال لوالدي "إنما جاء العراق لينقذه من الإنكليز وأن عمله لا يتم إلا بموافقة أبي وبيعته له، فإن بايع وإلا اضطر فيصل إلى الرجوع من حيث أتى. فقال له أبي: يمكن أن نبايعك على أن تكون ملكاً على العراق مستقلاً منقطعاً عن أي سلطة أجنبية بأي اسم كان بحيث لا يشوب استقلال العراق أي شائبة مهما كانت، فإن تم ذلك بقيت في العراق ملكاً، وإلا انصرفت، وتركت العراقيين والإنكليز حتى يأخذوا حقهم ويبلغوا غايتهم. فقال فيصل لأبي: إني أبايعك على هذا الشرط، فأحضر القرآن الكريم بينهما تيمناً وتبركاً، وبايع فيصل أبي على أن يطيع أمره في إنقاذ العراقيين من الإنكليز، وتحصيل الاستقلال التام الناجز الذي لا تشوبه أي شائبة مهما كان اسمها ورسمها، فإذا لم يستطع ذلك فارق العراق لأول إشارة تصدر من أبي، وترك العراقيين وشأنهم. بايع فيصل هذه البيعة، وأشهد الله تعالى على ذلك، وبايعه أبي على هذا الشرط.

(١) المرجعية العاملة. السيد ضياء الحسن: ٥٥.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١١٠/٦.

هذا ما كان بينهما سرّاً"^(١). وقد أشار كوكس في رسالته السرية إلى ذلك بقوله: "إن في النية ترغيب الملك لحضور الاجتماع في كربلاء لكي يجبروه على طلب الاستقلال التام فوراً من الحكومة البريطانية"^(٢) كما سيأتي.

وإذ نقض الملك فيصل الشرط الملزم له أمام المرجع الخالصي ووافق على المعاهدة العراقية البريطانية المذلة خلافاً لالتزامه معه أنكر المرجع الشيخ الخالصي وبقية المراجع الكبار منه تبدل موقفه الصريح المتقدم.

وينقل مصدر آخر مطلع على مطلع الأحداث عن مرجع عاش تفاصيل تعهد الملك أمام العلماء بأن لا يخالف قناعاتهم في أي بند من بنود المعاهدة سيئة الصيت ذلك هو العلامة الشيخ موسى العصامي بقوله: "حدثني العلامة الشيخ أحمد كاشف الغطاء... بأن الشريف الأمير فيصل قد كان أعطى العلماء عهداً وإقراراً أن لا يمضي مادة من مواد المعاهدة مع بريطانيا إلا بعد العرض على العلماء، فما وافق صالح البلاد والأمة العراقية أمضوه، وما خالف ذلك منها رفضوه، وقد بت في إمضاء المعاهدة، ولم يكن راجع العلماء فيما عاهد عليه... وفي المعاهدة مواد تضر بمصالح البلاد عامة والمسلمين خاصة، وقد نقض الشريف ما عاهد عليه العلماء وأهل العراق، والشيخ الخالصي أنكر ذلك بذاته ونيابة عن زملائه من العلماء الذين كانوا قد توغلوا معه في الوضع السياسي فأدى ذلك إلى وقوع البغضاء بينه وبين الملك"^(٣).

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٠٨/٦ نقلاً عن مذكرات الشيخ محمد الخالصي المخطوطة.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٥٢/٦. نقلاً عن وثائق دائرة الوثائق العامة بلندن- رقم (ف. او. ٣٧١_٧٧٧٠).

(٣) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١ م. ص: ١١٦.

٥. قلق المندوب السامي البريطاني من مؤتمر كربلاء

لقد ساورت المندوب السامي البريطاني شكوك وهواجس وقلق دونه في رسالة سرية بعثها في (٧ شعبان ١٣٤٠ هـ / ٤ نيسان ١٩٢٢ م) إلى مدير مكتب الملك فيصل قبل انعقاد المؤتمر بأيام جاء فيها وفق تقارير وردته مفادها "أن الدفاع ضد هجمات الإخوان ليس سوى حجة ظاهرية، وأنه ليس السبب الحقيقي للاجتماع الذي سيحضره الشيوخ والعلماء في كربلاء والمظنون أن هذه الحركة هي في الواقع نتيجة ما دار في الأوساط المطلعة عن وجود تعثر في مفاوضات المعاهدة حول موضوع الانتداب، وأن في النية ترغيب الملك لحضور الاجتماع في كربلاء لكي يجبروه على طلب الاستقلال التام فوراً من الحكومة البريطانية. وفي حالة عدم إجابة الطلب فإن المتطرفين في بغداد يؤيدهم شيوخ الفرات الذين شاركوا في ثورة العشرين سوف يقومون بتجمع وطني لإرغام الحكومة البريطانية على ما يريدون. ومن أجل الوصول إلى أهدافهم فإنهم سيحاولون في البداية الحصول على الأسلحة من السلطات البريطانية بحجة الدفاع ضد الإخوان"^(١).

٦. فشل مؤتمر كربلاء في تحقيق مبتغى المراجع من عقده

بعد مداورات عدة تم عقد مؤتمر موسع في كربلاء المقدسة للمدة من (١٠-١٥ شعبان ١٣٤٠ هـ / ١٣-١٨ نيسان ١٩٢٢ م)، مستثمرين تجمع زيارة النصف من شعبان، لتدارس الوضع المأساوي الذي خلفته غارات الوهابيين على العشائر والمدن الشيعية واحتمال تكرارها، فنشط الشيخ الخالسي نشاطاً فعّالاً وبذل جهداً كبيراً لعقد المؤتمر فقد كتب إلى "رؤساء القبائل من الموصل إلى البصرة أن يجتمعوا في

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦ / ١٥٢. نقلاً عن وثائق دائرة الوثائق العامة بلندن-

كربلاء يوم العاشر من شعبان كما أرسل رسلاً إلى جميع أنحاء العراق مع صورة برقية الزعماء الدينيين وطلب من الملك فيصل أن يحضر الاجتماع بنفسه وأخبر الإمام الخالصي السيد في برقية جوابية بالخطوات التي قام بها لإنجاح المؤتمر: سنأتي إلى كربلاء يوم العاشر من شعبان مع جميع رؤساء قبائل العراق بالحضور ذلك اليوم وسيحضر الملك فيصل^(١)، فكان أن حضر ما قدر به (٢٠٠) مائتي ألف زائر، في مقدمتهم المراجع، وزعماء العشائر، والوطنيون، وعامة المؤمنين سنة وشيعة، وعلى الرغم من أن الملك فيصل الأول أخلف وعده بحضور المؤتمر يوم ١٤ نيسان نتيجة ضغط بريطاني قوي مارسه السير بيرسي كوكس عليه، مما قد يكون أدى إلى عدم خروج المؤتمر بنتائج مرضية كان أرادها المراجع الداعون إلى عقده نتيجة لسعة الدعوة للمؤتمر واختلاف وجهة نظر بعض حضّاره عن وجهة نظر المراجع، لذلك وغيره فقد خرج المؤتمر بقرار هزيل مخيب للآمال، بل "كان قراراً تافهاً"^(٢).

موقف المراجع والثوار والمواطنين من المصادقة على المعاهدة العراقية - البريطانية



١. الشيخ الخالصي يلغي مبايعته للملك فيصل لإخلال فيصل بالشروط
لقد صادق مجلس الوزراء العراقي على المعاهدة العراقية-البريطانية المرفوضة مرجعياً ووطنياً (نهاية شهر شوال ١٣٤٠هـ / ٢٥ حزيران ١٩٢٢م) فقرر الشيخ الخالصي إلغاء بيعته للملك في اليوم اللاحق لإقرار المعاهدة، وصرّح بذلك خلال اجتماع كبير ضم رؤساء القبائل وزعماء المعارضة "عند الشيخ مهدي الخالصي في الكاظمية، وقد أعلن الخالصي في أثناء الاجتماع -حسبما روته المس بيل في إحدى

(١) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٠٧-٥٠٨.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. ستيفن همسلي لونكر: ٢٣٠.

رسائلها- قائلاً: إن بيعتهم للملك فيصل أصبحت لاغية لأنه أخل بالشروط التي تعهد بها أثناء البيعة والتي تنص على استقلال البلاد^(١).

وكتيجة للتسوية المقصود في تشكيل المجلس التأسيسي فقد نشط بعض قادة ثورة العشرين في عقد اجتماعات استمرت ثلاثة أشهر يأتي في مقدمتهم السيد كاطع العوادي والسيد علوان والسيد محسن أبو طيبخ والشيخ عبد الواحد والشيخ شعلان أبو الجون كانوا يتداولون مع علماء الكاظمية والنجف بأمر المعاهدة والانتداب وبشأن الوزارة النقيية الثانية التي كانت تصريحات رئيسها المتناقضة مدعاة للتشويش. تقرر إثرها عقد اجتماع في عيد الأضحى المبارك (١٠ ذي الحجة ١٣٤٠ / ٤ آب ١٩٢٢م) تقرر فيه إرسال برقيتين إلى الملك فيصل والمندوب السامي البريطاني. وقد جاءت في البرقية المرسلة للملك مطالب محددة واضحة هي:

١. رفض الانتداب واعتراف بريطانيا العظمى بإلغائه رسمياً.
٢. إسقاط أية وزارة تصدق معاهدة غير مرضية بنظر الأمة، وتعيين وزارة وطنية تطمئن الأمة لأعمالها.
٣. إزالة أية سلطة أجنبية على الحكومة العراقية.
٤. إطلاق حرية الصحافة.

هذه هي رغائب الأمة، وبما أن الأحوال الحاضرة مخالفة لرغائبها بادرنا بعرضها على جلالتم لتكون الأمة معذورة بنظر جلالتم^(٢).

وقد تضمنت البرقية الثانية المرسلة إلى المندوب السامي البريطاني البند الأول من برقيتهم المرسلة للملك فيصل أعلاه مع مطلبين آخرين يؤكدان على عدم التدخل

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٧٦/٦.

(٢) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ٢١٩/٢.

في الشأن العراقي من أي كان.

وما أن "شاع خبر تلك المعاهدة في العاصمة إلّا وسار به الركب إلى أطراف البلاد ونواحيها وترامت به الأفواه في الحواضر والأرياف فأيقن أهل العراق عامة والفرات الأوسط خاصة بأن أتعابهم في طلب الاستقلال التام ذهبت كأمس الدابر، وأن الدماء التي أريقت في تلك الحرب الضروس التي دارت بينهم وبين بريطانية أيام الطلب والخسائر التي تكبدوها أصبحت هدرًا، ولا بدل لها من تلك الغاية في عين ولا أثر، فأخذ الناس يتقارضون حديث الملك ومنوياته في العراق، فأجمع الأعم الأغلب على المعارضة والاحتجاج بصورة سلمية"^(١).

حينها بادر المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني بعدها إلى عقد جلسة كبيرة بمنزله في النجف الأشرف ليلة عيد الغدير (١٨ ذي الحجة ١٣٤٠/١١ آب ١٩٢٢م) حضرها قواد ثورة العشرين وشيوخها كالشيخ عبد الواحد سكر والسيد محسن أبو طبيخ والشيخ عبادي الحسن والسيد علوان الياسري والشيخ شعلان أبو الجون والسيد قاطع العوادي "فأيدت بها المطالب الواردة في البرقتين المذكورتين كل التأييد فدعا السيد أبو الحسن الأصفهاني عبد العزيز القصاب متصرف لواء كربلاء وأفهمه ضرورة عرضها على حكومة المركز"^(٢) و"تكلم أبو طبيخ فقال ما يأتي: (كنت في بغداد وقد قابلت مستشار الداخلية كورنواليس وذكرت له أعمال المستشارين الإنكليز وضغطهم على الناس وتجبرهم وتعسفهم وطلبت منه رفعهم من الأولوية وبعد الكلام الطويل معه وعدني بأنه سيزيح هؤلاء

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. القسم الثاني. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/

٢٠١١م. ص: ١٢٥.

(٢) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ٢/ ٢٢٠.

المستشارين عن مراكزهم، وقد مضت مدة فلم ينفذ وعده.. وإذا لم يتحقق ذلك فنحن في حل مما يحدث في البلاد).. فأجاب المتصرف: إني لا أعلم بهذا الوعد.. فطلب الحاضرون أن يكون الجواب غداً.. وأبرق المتصرف إلى الوزارة.. فعاد إليه الجواب من الوزارة ومن كورنواليس وكلاهما ينفيان.. وطلبت الوزارة من المتصرف تكذيب الخبر حالاً^(١).

عندها ظهرت "بوادر دلت على أن متصرف لواء كربلاء يريد إلقاء القبض على جماعة من زعماء القبائل فخرج السيد علوان والسيد كاطع والشيخ عبد الواحد وبقية رفقائهم من النجف ونزلوا بلدة أبو صخير ومن هناك أبرقوا إلى وزارة الداخلية بأنهم عازمون عزماً أكيداً على أن يقاطعوا الحكومة إذا كانت لا تشرع بتنفيذ مطالبهم حالاً، وقالوا في برقيتهم كذلك تلك انهم يعتبرون متصرف لواء كربلاء مسؤولاً عن وقوع كل ما ينتظر وقوعه بناء على اتباعهم السياسة الخرقاء حيال أشخاصهم"^(٢) فدعتهم الحكومة إلى الهدوء وطلبت مقابلتهم.

٢. المحتلون البريطانيون يقمعون بالطائرات ثورة شيعية شبيهة

بثورة العشرين

لقد أصدر المعتمد السامي البريطاني أوامره بالتصدي للثورة الجديدة بالحديد والنار على الرغم من عدم رضا الملك فيصل أول الأمر، ثم موافقته اللاحقة وشكره للمعتمد السامي على إجراءاته الدموية والمقيدة للحريات والعنفية، تلك الإجراءات القاضية بـ "حظر الحزبين: الحزب الوطني العراقي برئاسة جعفر أبو التمن-بغداد، وحزب النهضة العراقية برئاسة أمين الجرجفجي-الكاظمية،

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ١٨١/٦.

(٢) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير: ٢٢٠/٢.

وكانا قد قاما بمظاهرات في اليوم (الأول من محرم ١٣٤١هـ/ ٢٣ آب ١٩٢٢م)، وأمر بإبعاد رؤسائهما إلى جزيرة (هنگهام) في الخليج العربي، وتعطيل جريدتي (المفيد) و (الرافدان) ونفي صاحبيهما أيضاً. وأمر محمد الصدر، ومحمد الخالصي بمغادرة العراق إلى إيران.

وأمر سرباً من الطائرات بقصف القبائل بالفرات الأوسط، ومن هذه القبائل (آل قتلة) و (الأكرع)، و (خفاجة)، و (العزة) وقام بفصل كبار الموظفين عن مناصبهم مثل .. متصرف لواء الحلة .. وقائم مقام الشامية .. وقائم مقام متصرف أبو صخير^(١).

كما نزلت الحكومة أراضي (الظلمية) من تحت يد السيد كاطع العوادي وسلمتها للشيخ الموالي للإنكليز عداي الجريان، وألقت القبض على عبادي الحسين وشقيقه عبد السادة فأوقفتها وقصفت قبائلهما و (قبيلة الشيخ شعلان آل عطية) في الدغارة بالقنابل، كما عمدت إلى الضغط بشتى الطرق على زعماء قبائل آخرين من قادة ثورة العشرين أيضاً.

ويبدو أن تلك الإجراءات القمعية الشديدة التي أقدم عليها المندوب السامي البريطاني ضد زعماء وعشائر الفرات الأوسط قد أفشل ما قد يعد شبيها بثورة العشرين، وإن بدرجة أخف.

فكلتا الحركتين الثورتين مدعومتان من المرجعية العليا في النجف الأشرف، وكلتاهما تفجرتا ضد عدم منح القوات الغازية العراق استقلاله التام الناجز الخالي من أي تدخل أجنبي مهما كان شكله ونوعه ولونه ومسماه، وكلتاهما قادهما زعماء عشائر الفرات الأوسط أنفسهم، وكلتاهما تأججتا على أرض الفرات الأوسط،

(١) تاريخ الإسلام. محمود شاكر: ١١/٦٢ - ٦٣.

وكلتاها نكث فيهما الأجنبي الغازي عهوده وأخلف بوعوده، وكلتاها أخدما العدو المتسلط الغازي بالطائرات والقنابل والنار، وكلتاها نفى قادتهما إلى جزيرة هنجام الهندية وغيرها.

ويكفي للتدليل على شدة وخطورة ثورة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) ما رواه مؤرخان أولهما عراقي، وثانيهما بريطاني:

أما أولهما: فهو ما دوّنه الباحث د. علي الوردي بقوله "في شهر آب عندما بلغ الصراع أشده أخذ رؤساء الفرات الأوسط الذين شاركوا في ثورة العشرين يتحفزون للقيام بثورة أخرى". ويستشهد على صحة قوله المتقدم بما نقله عن السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني بما يأتي: يقول كوكس "إن منطقة الفرات على وشك القيام بثورة كانت معاملها تدل على أنها لن تكون أقل خطورة من تلك التي كانت هذه العناصر المتطرفة نفسها قد أثارها سنة ١٩٢٠" (١).

وأما ثانيهما: فهو ما أثبتته أحد ضباط الحملة العسكرية البريطانية على العراق ستيفن همسلي لونكريك المتولي لعدة مناصب استشارية في الحكومة العراقية بعد الاحتلال، والمؤلف في شؤون العراق بقوله: "بعد أن نجحت العملية التي أجريت للملك فيصل.. قدّم فيصل في العاشر من أيلول الشكر علانية إلى المندوب السامي على الإجراءات التي أقدم عليها. والواقع أن تلك الإجراءات قد أنقذت الدولة من الفوضى، كما أنها ربما أنقذت الملك فيصل نفسه من أن يعيش مرة ثانية في المنفى ومن دون عرش" (٢).

يذكر أنه: "عندما انغمس فخذ فرعي من ألبو سلطان في العام (١٩١٨م) في

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي: ٦/ ١٧٩، وينظر: هامش الصفحة.

(٢) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠: ١/ ٢٣٤.

نزاع دموي نتيجة لتحديه للشيخ الأعلى (المختار من قبل الإنكليز) عداي الجريان خرج الضابط السياسي البريطاني المختص على رأس قوة من المجندين فدّمّر قرية فخذ العشيرة الفرعي وحرّمه جزاء له من ماشية قيمتها ٦٠٠٠ روبية أو أكثر^(١).

٣. المرجعية تحرّم المشاركة بالانتخابات تحت الانتداب البريطاني

لقد بلغ الرفض المرجعي والوطني للملك والحكومة الطائفية المعيّنة من المحتل الإنكليزي مداه يوم أوعز وزير الداخلية عبد المحسن السعدون إلى متصرفي الألوية في (٢٨ صفر ١٣٤١هـ / ٢٠ تشرين الأول ١٩٢٢م) بالتحضير لانتخاب الجمعية الدستورية التي ستصوت على الاتفاقية العراقية - البريطانية، والدستور وغيرهما مما تريده منها الدولة البريطانية الراعية لتلك الاتفاقية التي "لم تمّوّه إلا قليلاً وضع العراق شبه المستعمر"^(٢)، ذلك "أن مواد العمارة تجعل البناء داخله إنكليزي، وظاهره عراقي، بدستور مستورد، وملفق"^(٣)، تحت يافطة استقلال (زائف)^(٤)، عندها أعلن الزعماء الدينيون رأيهم في وجوب تأخير الانتخابات حتى يخرج الإنكليز من البلاد وينتهي عهد الانتداب، وعندما رأوا تصميم الحكام على إجراء الانتخابات دون تأخير "أفتوا بحرمة الانتخابات معللين فتواهم بأن الشعب لا يستطيع أن يقرّر مصيره بحرية وينتخب ممثلين له في ظل الاحتلال الأجنبي"^(٥).

لقد حرّم المراجع وكبار المجتهدين الاشتراك في انتخابات المجلس التأسيسي الذي أناط به المتسلط الأجنبي كتابة الدستور العراقي، والمصادقة على المعاهدة

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ١٢١.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٦٢.

(٣) الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ١٧٨.

(٤) ينظر: العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٦٠.

(٥) ينظر: الزعيم الموهوب. سابق: ٥١٠-٥١١.

البريطانية العراقية، ووضع نظام الانتخاب للمجلس النيابي لأنه سيؤدي لا محالة إلى تدخل المحتلين الإنكليز سواء في اختيار أعضاء المجلس التأسيسي أم في الضغط عليهم لتمرير ما يشاؤون أم المصادقة على دستور "لم يكن دستوراً عراقياً، وكان كمرقعة الدرويش، مؤلف من مزق ونتف لدساتير عديدة، وضعت لاثحتة في دار الاعتماد البريطاني من قبل فقهاء بريطانيين، وبكل براعة أفرغوا ما اشتمل عليه صك الانتداب في تلك اللائحة، فلم يكن جديداً إلا بالسبك. وبعد موافقة لندن على صوغه أرسل مخفوراً إلى الحكومة العراقية"^(١).

فكان نتيجة التحريم أن استقالت الحكومة في (ربيع الثاني ١٣٤١هـ/ تشرين الثاني ١٩٢٢م)، نتيجة تحريم المراجع المشاركة في انتخابات مزيفة تحت ظل الانتداب، بعد أن قاطعها المواطنون، ثم أكد المراجع ثانية الفتاوى السابقة المحرمة للاشتراك في الانتخابات سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م) أيضاً بعد أن قررت الحكومة برئاسة رئيس الوزراء السني السعدون في (أواخر سنة ١٣٤١هـ/ أواسط ١٩٢٣م) إجراءها بعد أن بثوا إشاعة مفادها عدول المرجعية عن فتواها السابقة بمقاطعة الانتخابات فكررت المرجعية فتواها السابقة بالتحريم.

حينها بدأت أوائل خطوات الملك المستورد وحكومته تحت الانتداب البريطاني ومندوبها السامي تنفيذ مخططاتهم ضد المراجع عملياً، أخبر السيد محسن أبو طيخ: "بأنه عازم على إجراء الانتخابات على كل حال، وإرغام كل من يعارض أيّاً كان"^(٢)، بل "أصبح فيصل الآن عازماً على تحطيم سلطة المجتهدين الكبار بإجبارهم على مغادرة البلاد، وكان الملك على الأقل قد فكّر بهذه الخطوة منذ نيسان/ إبريل

(١) الأحلام. علي الشرقي: ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) تنظر مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٤٣.

١٩٢٣م. كما دعا إليها رئيس الوزراء السني الجديد عبد المحسن السعدون الذي حل محل النقيب الذي تقدم به العمر في (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٢م)، ونظر إلى المجتهدين الفرس على أنهم أجنب في العراق. وبحلول (حزيران/ يونيو) كان واضحاً أن المسؤولين البريطانيين في البلاد أيضاً فكروا بهذه الخطوة، أكثر من أي إجراء آخر بوصفها الخطوة التي من المحتمل أن توفر فرصة لإجراء انتخابات الجمعية التأسيسية^(١).

حينها اتخذت الحكومة قرارها ذاهبة إلى "أن الوقت قد حان للقضاء على السلطة الدينية بنفي بنفي الشيخ مهدي الخالصي والتنكيل بأتباعه تنكيلاً كاملاً فصارت تتحين الفرص للقيام بعملها ذاك"^(٢) حتى حانت لها ما ظنته الفرصة المناسبة فنفت الشيخ الخالصي ثم: السيد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمد حسين النائيني، ومعهم تسعة من كبار العلماء ومرافقيهم إلى خارج العراق في (حزيران ١٩٢٣م)، كي تتمكن من إجراء الانتخابات وفق مخططها المرفوض من قبل المراجع والمواطنين المؤمنين والوطنيين.

٤. سبب تحريم المرجعية الاشتراك بالانتخابات المزورة وصوابيته

يعود سبب تحريم المراجع للمواطنين الاشتراك في الانتخابات المزورة تحت سقف الانتداب فيوضحه أدناه الشيخ هادي كمونة أحد زعماء ثورة العشرين في كربلاء وأحد الذين اعتقلتهم قوات الاحتلال البريطاني مع الشيخ محمد رضا نجل المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي الشيرازي ونفتها معاً، وغيرهم إلى جزيرة (هنجام) الهندية.

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ١٥٤.

(٢) تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي الخالصي: ٢٥٧/٢.

يقول الشيخ كمونة جواباً عن سؤال وجه إليه عن سبب التحريم ما يأتي:
 "أما تحريم الدخول في انتخابات المجلس التأسيسي، فسببه هو أنهم كانوا يخشون
 أن يصبح هذا المجلس آلة بيد الإنجليز المستعمرين، ينفذون بواسطته أغراضهم،
 وينالون بتأثيره ما يطمعون في هذه البلاد، كما حصل حقيقة، فلهذا أمرت الحكومة
 بنفيهم" ^(١) وتسفيرهم إلى خارج العراق.

وطبعي أن يكون موقف المرجعية تلك الآونة ما كان، نتيجة الخبرة المتراكمة
 والوعي السياسي المتقدم المستشرف للمستقبل، وقد برهنت الأحداث اللاحقة على
 بعد نظرها في موقفها من عدم إضفاء الشرعية الشعبية على مجلس تأسيسي مزيف
 مصطنع مهمته أن يقر ما يريده الأجنبي الغازي الذي "أفرغ صك الانتداب في
 لائحة المعاهدة" ^(٢).

ومن أجل أن نتعرف على بعض بنود المعاهدة (العراقية-البريطانية وملاحقها)
 التي رفضها المراجع من خلال فتاوى تحريم المشاركة في الانتخابات فتم تسفيرهم
 إلى خارج العراق، فسأنتقل بعض بنودها المذلة لنقف على مدى صوابية موقف
 المرجعية من جهة، ومدى تبعية الملك فيصل ورئيس وزرائه وحكومته والمجلس
 التأسيسي للمستعمر المحتل.

فقد ورد في هامش رقم (١٢٦) من الصفحة (١١٦) من كتاب (العراق. لحننا
 بطاطو. الكتاب الأول) نقلاً عن (الجزء الأول ص ٩٤ - ٩٨، وص ٢٢٣ - ٢٥٨)
 و(الجزء الثاني ص ٣٧ - ٣٩) من كتاب (تاريخ الوزارات للسيد عبد الرزاق
 الحسني) ما يأتي:

(١) وثائق الثورة العراقية الكبرى. سابق: ٥: ٢٤٨.

(٢) الأحلام. علي الشرقي: ٢٤٣.

"**المادة (٤)** من معاهدة ١٩٢٢ (تلزم) ملك العراق بقبول (مشورة) المندوب السامي البريطاني في كل الشؤون الهامة التي تؤثر على المصالح البريطانية الدولية والمالية".

"**المادة (١)** من اتفاقية الموظفين البريطانيين "أجبرت" العراق على تعيين موظفين بريطانيين في مناصب أساسية في جهاز الدولة. وبناء عليه فإن مناصب (المدير العام، أو المفتش العام) للري، والأشغال، والزراعة، والطابو، والمساحة، والبريد والبرق، والشرطة، والصحة، والتعليم، والكمارك كانت مخصصة (لمسؤولين بريطانيين)".

"**المادة (٢)** من الاتفاقية العسكرية نصت على (استمرار وجود القوات البريطانية)، وسمحت لها بتجنيد قوات محلية".

"**المادة (٧)** من الاتفاقية نفسها اشترطت منح اعتبار كامل لرغبات المندوب السامي في الشؤون المتعلقة بعمليات وتوزيع الجيش العراقي، ومنحت القائد العام البريطاني في العراق حقّ تفتيش هذا الجيش متى رأى ذلك ضرورياً"^(١).

"**المادة (١٢)**: لا تتخذ وسيلة ما في العراق لمنع أعمال (التنصير) أو للمداخلة فيها..^(٢)".

وتضمنت المعاهدة وملاحقها أيضاً أن رعايا الدول الكبرى "يجب أن يحاكموا أمام محاكم تضم واحداً أو أكثر من الحكام البريطانيين، وألا يجري تفتيش دورهم إلا بحماية، وأن يستخدم أخصائيون قانونيون بريطانيون فيما بعد من قبل الحكومة البريطانية، وأن تتم مصادقة المندوب السامي البريطاني على كل الأحكام القانونية

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول. ص ١١٦. هامش رقم ١٢٦.

(٢) التاريخ الإسلامي. محمود شاكر: ٦٦/١١.

التي تمس الأجانب قبل أن يجري عرضها على البرلمان وطبقا للاتفاق المالي وافقت مملكة العراق بأن لا تتعاقد حول أية ديون خارجية من دون موافقة بريطانيا.. وكذلك ينبغي إعفاء المواد التي تخص القوات البريطانية من رسوم الكمارك والضرائب الأخرى^(١).

وكانت من نتائج إقرار المعاهدة وملاحقتها أن "جعلت الموظفين من الإنكليز يعتقدون أنهم الكل في الكل وصاروا لا يكفون بمعارضتهم للوزراء في سلطاتهم القانونية، بل يريدون منهم أن يكونوا تابعين في كل شيء... وقد يبلغ فيه الصلف أن يقتحم مجلس الوزراء ويفرض رأيه. وقد يتجاوزون بتلك السلطة حدودها فترقى إلى صاحب العرش وتفرض ما تريد"^(٢).

يقول باحث عراقي درس التجربة البرلمانية تحت الانتداب البريطاني وانتهى منها إلى ما يأتي: "أوجدت التجربة الانتخابية الأولى في العراق خلال العهد العثماني انطباعاً لدى الناس أن الدستور وقانون الانتخابات هما وسيلة تستخدم من قبل السلطة التنفيذية لضمان انتخاب مرشحي الحكومة. وقد شكلت هذه الظاهرة سابقة سارت عليها الانتخابات التي أعقبتها بعد تأسيس دولة العراق الحديثة.. ومن هذه الممارسات:

"١. التدخل في الانتخابات والإصرار على أن تكون نتائجها لصالح قائمة مرشحي الحكومة.

٢. استخدام الوسائل غير الشرعية لإجبار المجلس التأسيسي على تصديق المعاهدة العراقية- البريطانية لدرجة تهديده بالحلّ.

(١) العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. لونكريك: ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ٢١٨.

٣. فرض الشروط على المجلس التأسيسي، والضغط عليه، وإجباره على التراجع عن قراراته في حالة تناقض بنود المعاهدة مع بنود القانون الأساسي^(١).

كما خلص باحثان عراقيان -من خلال استعراضهما لنصوص المعاهدة- إلى أمور، منها:

"١. إن المعاهدة بنصوصها وملاحقها صورة لصك الانتداب الذي عدّه الشعب العراقي مرادفاً للاستعمار والسيطرة.

٢. قيّدت المعاهدة سلطات الملك فيصل بحيث لا يستطيع تعيين أي عربي أو أجنبي بإرادة ملكية دون موافقة بريطانيا، كما لا يستطيع ملك العراق إقامة علاقات دبلوماسية مع أية دولة دون موافقة بريطانيا.

٣. أصبحت إمكانيات العراق العسكرية والاقتصادية في خدمة المصالح البريطانية، فقد بقيت القوات المحتلة في العراق، وأعطى لبريطانيا الحق في تفتيش الجيش العراقي والقوات المحلية الأخرى، وأخذ رغبة المعتمد السامي فيما يتعلق بتوزيع الجيش العراقي وتحركاته، وخولّت بريطانيا حتى ملكية ما تحتاجه من الأراضي الأميرية مجاناً للأغراض العسكرية"^(٢).

لقد كانت رؤية المراجع حينها دقيقة جداً في تشخيصها ف"في اليوم الذي نشرت فيه الإرادة الملكية بإجراء الانتخابات أصدر وزير الداخلية تعليمات إلى موظفي الدولة يأمرهم فيها بالتزام الحياد التام خلال الانتخابات، ولكن في الوقت

(١) العراق تأسيس النظام الملكي وتجربته البرلمانية تحت الانتداب البريطاني. د. محمد مظفر الأدهمي: ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢) تاريخ العراق المعاصر. د. إبراهيم خليل أحمد و د. جعفر عباس حميدي: ٣٥.

نفسه صدرت تعليمات سرية إلى متصرف في الأولوية مناقضة لما أعلنه وزير الداخلية حول حياد الحكومة، فقد أمرهم الوزير بأن من واجبه أن يوضحوا تماماً إلى الناس ضرورة اختيار المرشحين الذين سيصوتون للمعاهدة العراقية - البريطانية. كذلك صدرت أوامر إلى المفتشين البريطانيين في الأولوية بضرورة الضغط على المتصرفين لضمان فوز هؤلاء المرشحين في الانتخابات^(١).

٥. موقف الملك فيصل المؤيد للتصديق على المعاهدة العراقية -

البريطانية المذلة

أظهرت رسالة بعثها الملك فيصل الأول إلى كورنواليس المندوب السامي البريطاني في العراق، جواباً عن رسالة تلقاها منه في (٣١ آب) تأييده الكامل للمعاهدة العراقية - البريطانية، خلافاً لرأي بعض المؤرخين، ضمّنها الملك فيصل الأول رأيه فيها بوضوح بقوله: "...كنت ولا أزال معتقداً بأن التصديق على المعاهدة قوام لهذه المملكة، وإن أعمالي إنما ترمي إلى تحقيق واجب مقدس يهون دونه كل عسير، ومن هذا الواجب أبعدنا العلماء (...)، ولا بد أنك تذكر قولي لك قبل مدة إنه يجب أن نستوثق بكل عضو من أعضاء المجلس قبل أن يتتخب، وذلك لكي نكون في مأمن تام عند تصديق المعاهدة، وإن كل من يشرح شخصاً منا يجب أن يكون أميناً منه، ومسؤولاً عن رأيه في المجلس"^(٢). وهو ما استطاع الملك ورئيس وزرائه ومن ورائهما الإنكليز تحقيقه بعد أن اختاروا للمجلس من يوافق رغباتهم فيشرعوا ما يريدون تشريعه ويصادقوا على ما يبتغون وفي مقدمة ذلك المعاهدة البريطانية - العراقية المذلة.

(١) العراق. تأسيس النظام الملكي وتجربته البرلمانية تحت الانتداب البريطاني. د. محمد مظفر الأدهمي: ٩٥.

(٢) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٥/ ٢٦٩، ومذكرات رؤوف البحراني: ٢/ ٦٦ هامش.

٦. تفسير كبار المراجع المعارضين إلى خارج العراق

ونظراً لقلق الملك فيصل والحكومة من فشل الانتخابات نتيجة رفض المواطنين الاشتراك فيها بسبب تحريم المراجع لذلك، فقد قرر الملك المستورد والحكومة تفسير المراجع ليضمنوا ما زعموا أنه نجاح للانتخابات رغم المقاطعة. ويشير الشيخ موسى العصامي المعاصر للحدث إلى أن الناس في النجف الأشرف كانوا يقولون يوم التفسير بأن الشيخ الخالصي "نفي من العراق إلى ناحية البحر أيام الوزارة السعدونية بأمر من الملك فيصل، وأن العلماء لا يرون أرض العراق وبلاده ذات أمن وأمان... وإذ تطرق العدوان على علماء الدين وامتدت الأيدي بالظلم عليهم وأمكن للوقت أن تسمع وترى فيه نفي عالم عامل فالأمة في خطر عظيم، فالواجب الديني يقضي بمغادرة تلك البلاد إلى من (كذا) من بلاد الله"^(١).

وعلى الرغم من وجود من يزعم بأن المراجع قد قرروا باختيارهم سفرهم دون تفسير حكومي أو ضغوط للتفسير، إلا أن وثائق رسمية أوضحت بأن وزير الداخلية حينها طلب من متصرف كربلاء حميد خان في (٥/١/١٩٢٢م) مضايقة العلماء بحجة تدخلهم في السياسة، وأكد الملك فيصل على المتصرف تنفيذ الطلب، وفي (٧/١/١٩٢٢م) أكد السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني على حميد خان أن يقوم بهذه المهمة فرفض وقدم استقالته، وقد تم ما أراد المندوب السامي على يد مولود مخلص^(٢).

ولم تكتفِ الحكومة بذلك بل أصدرت "بياناً رسمياً دّمت فيه المجتهدين

(١) مذكرات الشيخ موسى العصامي. مجلة آفاق نجفية. القسم الثاني. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١. ص: ١١٦.

(٢) ينظر: النجف والمجلس التأسيسي. الشهيد عبد الرحيم محمد علي. مجلة آفاق نجفية. العدد ١ من السنة الأولى.

ذمّاً قبيحاً... وأنهم يختلقون أقوالاً يزعمون أنها مستنبطة من الشرائع الدينية غير أنهم لا يقصدون منها سوى الإخلال بسير الانتخابات وتضليل الرأي العام وعرقلة وصول الشعب إلى السلطة... إن ما أظهرته الحكومة من الحلم والأناة شجع هؤلاء الغرباء المتهورين على التماادي في التضليل^(١).

ومما يؤيد تخطيط الملك وحكومة السعدون لتفسير المراجع، ما أمر به الملك من تفسير السيد محسن أبو طيخ إثر استدعائه وجهاً لوجه طالباً منه تأييد إجراء انتخابات المجلس التأسيسي، خلافاً لفتوى المراجع، فرفض، كما أمر الملك بتهجير الشيخ عبد الكريم الجزائري من النجف إلى سامراء كما سيأتي.

يقول السيد محسن أبو طيخ في مذكراته^(٢) ناقلاً قول الملك فيصل له بعد أن سمع الملك منه رفضه لمخالفة فتوى المراجع ما نصّه: "إذا لم توافق فلا مناص لك من مبارحة العراق"، ويضيف أبو طيخ: "فقلت إني أفضل الموت ضرباً بالسيوف على الخيانة، وإني مستعد للسفر إلى أي بلد تأمر، فقط أمهلني يومين كي أجهز لرحيلي، حيثئذ أمر بنفبي إلى سوريا".

لقد خلّف إبعاد الدولة لمراجع الشيعة الكبار استياء عاماً ونقمة شعبية عارمة ف"بإذعانه للإنكليز أبعده فيصل عنه الرأي العام الشعبي، ولم يحسن من موقعه نفيه في العام ١٩٢٣ للعلماء الشيعة المعادين للمعاهدة - أو التبريرات التي أعطيت لهذا الإجراء البالغ الخطورة... وكان العلماء قد نجحوا في وقف عملية انتخاب جمعية تأسيسية" كانت قد دعت للاجتماع أساساً للتصديق على المعاهدة

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٢٢٣/٦ نقلاً عن تاريخ الوزارات العراقية. عبد

الرزاق الحسني: ١٣٠-١٣١.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طيخ: ٢٤٩.

يقول الشيخ موسى العصامي أحد العلماء المعاصرين للحدث متحدثاً عن وضع النجف يوم التسفير بقوله: "أما الناس وسواد النجفيين فقد كانوا في هرج ومرج من تلك الحادثة، وقد خرج من سواد النجف زهاء ثلاثة آلاف بل أربعة، وفي الجميع تترس حملة السلاح ما ينيف على الألف، وقد تجنبت الشرطة حضور الموقف وكان قلقاً في الغاية، سيما وقد خرج حملة العلم كلهم إلا القليل، وفي الناس من ييكي، والكل واجمون من تلك.. وأن الحاج ميرزا حسين النائيني، والسيد أبو الحسن الأصفهاني لم يكونا مختارين بتلك الحركة"^(١) بل أجبرهم الملك وحكومته على ذلك بأساليبهم الخاصة وضغوطهم الملزمة.

ويصف الشيخ العصامي إجراءات الحكومة المشددة بقوله: "وأعلنت الحكومة في يوم الخميس بمنع السفر لمطلق النواحي والأقطار، والمقصود منع أهل العلم عن السفر إلى كربلاء لمشايعة العلماء، حذراً من التجمهر المخل بالنظام والإدارة أولاً، وكتمان خبر سفرهم ثانياً على سواد العراق خوفاً من الهيجان ووقوع الفتنة واختلال الأمن ومنعت الحكومة من الخروج مع العلماء في كربلاء كل مشايخ إلا الشيخ جعفر الشيخ راضي والشيخ عبد الكريم الجزائري.. وهيات لهم وسائل النقل إلى بغداد وسارت بهم مخفوريين إلى جسر الخر فعبرتهم الدجلة وأركبهم القطار، ولم يدر البغداديون بهم.. وخرجوا من جانب المدائن إلى الحدود العراقية من خانقين وهناك صاروا في.. الدولة الإيرانية".

ويضيف عن انتشار خبر تسفيرهم فيقول "وانتشر الخبر في بلاد إيران والجزيرة العربية، فأيقن الملك وبريطانيا أنهم أخطؤوا، والخطأ الفاحش في سياستهم تلك السياسة الرعناء التي أثاروا بها عاطفة الإمامية في أقطار العالم، وقد ازدادوا في

(١) مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. مجلة آفاق نجفية. القسم الثاني. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م.

الطين بلّة أن أخذوا في جمع أرباب العيائم من أهل علم وعوام في الخارج حذراً من أن يحملوا إلى العشائر ما به يحذرون من الهياج والثورة خلف العلماء ضد الحكومة.. فأخذت تجمع من تفرّق منهم في الأقضية والنواحي وترسله مخفّوراً إلى مركز اللواء فكانت هي السبب الوحيد في انتشار الخبر في حواضر العراق وأريافه.. وأصبح الوضع الاجتماعي في العراق هباء منثوراً^(١).

وإذ تم نفي المراجع وكبار العلماء بموجب مرسوم أصدرته الحكومة لتستند عليه ينص على إبعاد الغرباء الذين يرتكبون جرائم سياسية، على الرغم من أن أوائل المسفرّين بالقوة كانوا عرباً. ردّت المعارضة في احتجاج موجّه إلى القناصل الأجانب في بغداد قائلة: "إذا كان الملك يزعم أن العلماء (أغراب)، فإنّ هذا الوصف ينطبق أيضاً عليه، لأنه حجازي أصلاً، ولأنّ رئيس وزرائه عبد المحسن السعدون حجازي هو الآخر، على الرغم من كونه من المنتفق.. وإضافة إلى هذا فإنّ كل حاشية الملك مؤلفة من الأغراب"^(٢).

ولا يفوتني أن أذكر بأنّ تسفير المراجع المعارضين للانتخابات، اقتصر على مراجع الشيعة وحدهم، فلم يشمل معارضي الانتخابات من أعيان علماء السنة، بل ولم يشمل رجال المسيحيين أيضاً، سواء في بغداد، أم الموصل^(٣).

ولم تهدأ الحوزة العلمية وكبار مجتهداتها وعلمائها في النجف الأشرف ولم تكل عن السعي لمقاطعة الانتخابات "فبعد جهود شاقة بذلها متصرف لواء كربلاء الذي تتبع له النجف أمكن انتخاب الهيئة التفتيشية فيها يوم (٢٢ تموز ١٩٢٣) وأنجزت

(١) المصدر السابق: ١٢٥-١٢٦.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٦٢.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٢٧٣، هامش رقم ١، نقلاً عن كتاب عبد المحسن السعدون ودوره في تاريخ العراق السياسي المعاصر: ٨٦ وما بعدها.

عملها هي والهيئة التفتيشية في قضاء كربلاء، وعندما كانت الهيئة التفتيشية في النجف على وشك تصديق قوائم الناخبين الأولين لإعلانها على الناس ظهرت حركة سياسية مناهضة للانتخابات فيها حينما عقد مجلس سياسي حضره كافة الذين شاركوا في انتخاب الهيئة التفتيشية ووجهاء النجف ورجال الدين مثل عبد الكريم الجزائري والجواهري وبحر العلوم والنقيب وغيرهم ووقعوا على تحالف فيما بينهم للاستمرار بمقاطعة الانتخابات لكن المتصرف مولود مخلص بذل جهوداً استثنائية لتحجيم هذا التحرك مدعوماً من قبل وزارة الداخلية ورسالة الملك فيصل إلى الشيخ عبد الكريم الجزائري التي طلب فيها منه مغادرة النجف إلى سامراء^(١).

يقول صاحب كتاب (ثورة النجف على الإنكليز) المعاصر لحقبة تحریم الانتخابات المزورة مشيراً إلى تأثير التحريم في يقظة الوعي السياسي بأن أصبح شعار الوطنيين المخلصين تحقيق حرية الانتخابات قبل كل شيء، فلا دولة ولا حكومة قبل هذا الشعار الذي التزم به علماء النجف والتابعون لهم في كل مكان، وبقيت الانتخابات محرمة عليهم بفعل تلك الفتوى إلا إذا توفرت لهم الحرية في انتخابات مباشرة حرة لا شائبة فيها ولا نفوذ ولا تسلط غير مشروع، وكل حكومة تأتي على غير هذا الأساس تعتبر حكومة متسلطة بالقوة مهما كانت الأسباب والذرائع. هذه هي خلاصة فتاوى العلماء بتحريم انتخابات المجلس التأسيسي في الفترة التي عشنا أحداثها ووعينا أفكار العلماء الأحرار فيها^(٢).

(١) العراق تأسيس النظام الملكي وتجربته البرلمانية تحت الانتداب البريطاني. د. محمد مظفر الأدهمي: ١١٤ - ١١٥. وينظر هامش الصفحة.

(٢) ثورة النجف على الإنكليز. حسن الأسدي: ١٢٧.

٧. عودة المراجع إلى العراق بعد نهاية الانتخابات

ثم بعد سنتين من نهاية الانتخابات المزورة وافتتاح المجلس التأسيسي في (٢٠ شعبان ١٣٤٢ / ٢٧ آذار ١٩٢٤ م)، وما أثاره تفسير المراجع في الوسط الإيراني من تهديد للسياسة البريطانية واستثماراتها في إيران، وبخاصة بعد تكوينهم "تياراً مضاداً للسياسة البريطانية، مما دفع البريطانيين لترتيب عودتهم إلى العراق مرة أخرى" (١).

لقد "عرف الإنكليز أن وجود الزعماء الدينيين في قم أصبح خطراً على مصالحهم.. وإذا استطاعوا الخلاص من الزعماء في العراق بسهولة ويسر، إلا أن الخلاص منهم في إيران ليس بالأمر الهين، فالزعماء الدينيون في إيران كانوا يتمتعون بسلطة هائلة حسب المادة السادسة من الدستور الإيراني، ثم التفاف الشعب حول زعمائه كان التفافاً شاملاً بحيث لم تستطع أية قوة آنذاك أن تجاهبها وتخرج عن إرادتها، من ناحية أخرى جابهت بريطانيا ردود فعل عنيفة في الأوساط الإسلامية بعد تفسير المراجع من العراق، فقد حدثت اضطرابات دامية في الهند احتجاجاً على ما قامت به بريطانيا بالنسبة بالمراجع في العراق، ووصلت احتجاجات شديدة من آفاق العالم الإسلامي إلى مجلس العموم البريطاني وعكسته الصحف البريطانية آنذاك بكتابات عن انتهاك الحكومة حرية الزعماء الدينيين" (٢).

ويروي السيد موسى حفيد المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني مساعي الملك فيصل ذي الوجهين، ومن خلفه بريطانيا لإعادة المراجع إلى النجف: "وصل مندوب الملك فيصل الشخصي ليقدم إلى السيد - (أبو الحسن) - رسالة

(١) المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني: ٢٦٥.

(٢) الزعيم الموهوب. موسى الموسوي: ٥٢٦-٥٢٧.

شخصية من ملكه فيها الاعتذار عمّا حدث للسيد ولزملائه، وقد ختم الملك رسالته بقوله: يرجو آية الله أن يعود إلى مدينة جده أمير المؤمنين عليه السلام، وألا يحرم العراق شعب العراق من بركات وجوده" ^(١).

وإذ فشلت مساعي الملك فيصل ورجع رسوله خائباً من قم أعاد طلبه من السيد أبو الحسن مرة أخرى، كما سعى (بهلوي) لذلك أيضاً، ولكن من دون علم المراجع بذلك "وهكذا استمر الحوار بين قم وطهران وبغداد لمدة ثلاثة أشهر وعززت الحوار بالرسائل والبرقيات الكثيرة التي كانت تصل إلى السيد من النجف وكربلاء تطلب منه الرجوع إلى النجف الأشرف.. وأخيراً اقتنعت الزعامة المبعدة بالرجوع إلى العراق، وحضر (رضا خان) بنفسه إلى قم ليوّسع السيد، وليقدم المواثيق الأكيدة أن يكون عند حسن ظنه" ^(٢).

حينها سمح للمراجع بالعودة إلى نجفهم مقيدين الملك ومحمّليه المسؤولية الشرعية، بتحقيق مطالب الأمة، بعد أن كتبوا تعهداً يذكرون فيه عدم تدخلهم في السياسة.

وفي التعهد هذا روايتان أولاهما ما تناقلها أكثر من مؤرخ، وثانيتهما ما نقله حفيد المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني في كتابه عن جده الموسوم بـ(الزعيم الموهوب).

أمّا أولى الروايتين فأنقلها عن الجزء السادس من كتاب (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) وجاء فيه: "عُثرت في وثائق البلاط الملكي على أربع رسائل موجهة إلى الملك وهي بتوقيع كل من السيد أبو الحسن الأصفهاني والميرزا

(١) الزعيم الموهوب. السيد موسى الموسوي: ٥٢٧.

(٢) الزعيم الموهوب. السيد موسى الموسوي: ٥٢٧ - ٥٢٨.

حسين النائيني والسيد عبد الحسين الطباطبائي والسيد حسن الطباطبائي وكلها بنص واحد تقريباً.. جاء فيها: (.. قد أخذنا على عاتقنا عدم المداخلة في الأمور السياسية والاعتزال عن كلما يطلبه العراقيون ولسنا بمسؤولين عن ذلك..) موقعة في ٢١ شعبان ١٣٤٢ من قبل السيد أبو الحسن الأصفهاني^(١).

وأما ثانيتهما فينقل السيد موسى حفيد المرجع السيد أبو الحسن الأصفهاني ما جرى عند وصول السيد جده ومعه المراجع إلى الحدود العراقية الإيرانية بقوله: "غادر السيد وزملاؤه قم إلى العراق وكانت الحفاوة العظيمة التي يلاقونها من الشعب الإيراني في طريق العودة لا تقل عن تلك التي لاقوها عند دخولهم إليها. وما أن وصلوا الحدود العراقية حتى وجدوا ممثل الملك فيصل على رأس المستقبلين ثم الآلاف من الناس اجتمعوا فيها ليحيوهم وكانت آلاف أخرى في طريقها إلى الحدود.

وبعد أن حيّ ممثل الملك الزعماء الدينيين باسم الملك والحكومة اقترب من السيد يهمس في أذنه يود أن يلتقي به وبزميله النائيني في مهمة خطيرة، وعلى الفور. ثم أخبرهما أن الشرط الأول والأخير لدخول الزعماء إلى الأراضي العراقية هو أن يوقعوا عهداً بعدم تدخلهم في السياسة، وفي غير هذه الحالة فلهم أن يختاروا العودة إلى قم أو البقاء على الحدود"^(٢).

وكان الموقف حرجاً للغاية فكلا الأمرين شرّاً، فوقّعوا، لأن التوقيع أخفهما: "وسمع الذين أحاطوا بالسيد في تلك اللحظة ينشد هذا البيت:

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي: ٦/ ٢٦٢ نقلاً عن وثائق البلاط الملكي. رقم

التسلسل ٣ وثيقة رقم ٥٩.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٠٨-٥٢٩.

إذا لم يكن غير الأسنة مركبً ×××× فما حيلة المضطرّ إلا ركوبها وأوضح السيد فيما بعد لرفاقه أنه كان أمام شرّين فاختار أهونهما: إما أن يتقبل التحدي بهدوء ورفق وفي نطاق ضيق.. أو يتقبله في نطاق واسع كبير يتجاوز العراق وإيران^(١) فاختار أهون الشرين.

ويبدو في مجال الجمع بين الروايتين أن المراجع اعتبروا ما أثبتوه من وعد في رسائلهم كاف للملك فيصل بعد أن أخذوا هم على عاتقهم عدم التدخل في الأمور السياسية. أما الملك فلم يكتفِ بذلك، بل أراد تعهداً خطياً ملزماً منهم بذلك، ولم يخبرهم به أثناء المفاوضات، ربما لأن الملك أضافه كقيد ملزم لاحقاً، ولذلك تفاجؤوا به، وعدوّه "خديعة" كما يقول حفيده، ويضيف "عرف السيد أبعاد المؤامرة الدنيئة التي قامت بها حكومة فيصل حيث أرسلت الوفود واحدة تلو الأخرى لتحقيق عودة الزعماء، وإذا بها تطلب التوقيع على ميثاق بهذا المضمون وهم على الحدود"^(٢).

وعلى أي حال فقد قرر المراجع العمل بأخف الضررين، فوقعوا ودخلوا الأراضي العراقية.

وهناك رأي آخر أورده ومال إليه المرجع الكبير السيد محمد سعيد الحكيم مفاده أن بعض المجتهدين في النجف "وجدوا الفراغ هائلاً بسفر العلماء وأدركوا خطورة الأمر وعواقبه الوخيمة ورأوا ضرورة رجوع العلماء إلى مراكزهم ليجددوا للحوزة نشاطها ويشيدوا كيانها ويحافظوا على البقية الباقية من الدين بعد أن عجزوا من إصلاح الحكم فجّدوا في العمل لرجوعهم ومن تبنى ذلك واندفع

(١) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٢٩.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٢٩.

في العمل له المرحول الحجة مثال الورع والتقوى آية الله الشيخ باقر القاموسي كما حدثني بذلك مفصلاً ولده الحجة المقدس الشيخ صادق القاموسي... وقد خالف بعض ذوي الشأن فكان يرى أن في رجوعهم من دون استجابة لمطالبهم وهنا عليهم، غير أنه أصر على رجوعهم بعد أن استوضح ضرورة التثبيت بالميسور من الوظيفة والتغاضي عن سلبياته فعمل لذلك جاداً بما له من العلاقة مع الوسائط من ذوي النفوذ وحتى تم له ولمن معه ما أرادوا ورجع العلماء الأعلام ومن معهم إلى العراق وأشغلوا مراكزهم وانصرفوا إلى الاهتمام الحوزوي بعيداً عن الاحتكاك المسؤولين. ولعلمهم كانوا مسددين في ذلك حيث صارت حوزات العراق بعد ذلك مفزعا لمن فرّ من قسوة الحكم البهلوي الذي صبّ نقمته على العلماء وأهل العلم في مواقف مأساوية فجيرة^(١).

وعلى الرغم من سعي المندوب السامي البريطاني وفيصل والحكومة الطائفية لـ "الحد من السلطة السياسية للمجتهدين"^(٢)، ومن ذلك التخفيف ما أمكن من مظاهر علاقتهم بمواطنيهم المحبين المواليين وشيوخ العشائر، فقد تزينت مدينة خانقين الحدودية ومواطنوها بالأعلام العربية وسعف النخيل يوم وصول المراجع المسافرين إليها صباح يوم ٢١ نيسان ١٩٢٤م، كما "اجتمع عند محطة القطار في باب المعظم ببغداد جمهور كبير من أهالي بغداد والكاظمية ووفود من الألوية. وقد نصبت الخيام هنالك استعداداً لاستقبال المجتهدين عند وصولهم بالقطار. وحين اقترب القطار من الجمهور ارتفعت أصواتهم بالتهليل والتكبير وأخذوا

(١) المرجعية الدينية وقضايا أخرى. حوار مع المرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الحكيم. الحلقة الثانية.

إعداد وتقديم. عبد الهادي الحكيم: ١٩٨ - ٢٠٠.

(٢) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ١٦٢.

يتطلعون إلى القطار توقفاً لوقوفه ولكنهم فوجئوا بأن القطار لم يتوقف - (بقصد تنفيذ هذه السياسة) - بل ظل مستمراً في سيره، ولم يتوقف القطار إلا عند شاطئ النهر على مقربة من بيت رئيس الوزراء وكان هناك الوزراء في استقباله كما كان مندوب الملك صفوت العوّا وغيرهم^(١) من المسؤولين فقط دون المواطنين.

ومذ حلّ المرجعان السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ النائيني في نجفهم الأشرف، تباشر العراقيون بعودة مراجعهم واحتفالاً مهيباً بقدومهم. و"سارع فيصل بنفسه إلى النجف الأشرف حتى يهنئ السيد وزملاءه بالعودة"^(٢)، وكعاداته في سلوكه (ذي الوجهين) الذي بات يعرفه العراقيون^(٣) والانكليز أيضاً بل وحتى هو يعرف ذلك في نفسه فقد قال مرة للمستشارة البريطانية مس بيل "إننا كنا عبيداً لمدة ستئاة سنة، وعلى العبد أن يحمي نفسه بالمرء.. إنه مجبر أن يضع قدماً في المعسكرين معاً، وحتى أنا أفعل هذا فلم نكن نحن نتمتع بقرون عدة من الحرية التي نتدرب في ظلها على أن نكون أحراراً"^(٤).

نعم لقد اقترب الملك فيصل من السيد المرجع الأصفهاني ل"يهمس في أذنه من جديد: إن ما حدث في الحدود لم يكن بعلمه، وإنما السياسة الاستعمارية البريطانية هي التي دبّرتها ونفذتها"^(٥).

(١) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٣٠.

(٣) ينظر: العراق حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٩٥. حيث عبر عنه بـ"إزدواجية في المواقف" وينظر أيضاً تقلّب الملك فيصل في لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث: ٦/ ١٧٧.

(٤) العراق في رسائل المس بيل: ٥٠٩ وينظر في كتاب: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. سابق: ٦/ ١٧٧ فقد ورد فيه "تقول المس بيل في رسائلها التي كتبتها في تلك الآونة: إن دمها صار يغلي من جرّاء هذا السلوك المزدوج الذي يسير عليه الملك فيصل، وإن كوكس كان ممتعضاً كذلك".

(٥) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٣٠.

لقد بدأ السيد تركيزه على تثقيف وإعداد وتوعية المؤمنين حوزة، وشباباً، تهيئة للمستقبل، كما انصرف المرجعان إلى بذل جهودهما الحثيثة لحل الإشكالات القائمة بين الحكومتين المسلمتين الجارتين العراقية والإيرانية سواء بإرسالهما الرسائل لقيادتي الدولتين أو بواسطة الرسل حتى استطاعا بعد لأي من حل الخلافات بينهما وسفر الملك فيصل إلى إيران واحتفاء بهلوي به خير احتفاء ثم إعادة العلاقات إلى مجاريها الطبيعية بين البلدين الجارين المسلمين. وفي وثائق تلك الحقبة العديد من هذه الرسائل التي توثق هذا المسعى الكريم^(١).

٨. المرجعية وثورة مايس الوطنية

و حين اندلعت ثورة مايس (١٩٤١م) وأجبر قادتها طه الهاشمي رئيس الوزراء على تقديم استقالته تحت ضغط عسكري وشعبي كبير وهرب الوصي عبد الإله إلى البصرة ونوري السعيد ومن لفّ لفّه إلى الأردن، شكّل رشيد عالي الكيلاني حكومة مؤقتة باسم حكومة الإنقاذ فطلبت إقالة الوصي عبد الإله وتنصيب شريف شرف أحد أقارب الملك بدلاً عنه فنال طلبها موافقة مجلس النواب بالإجماع، حينها سمح لرشيد عالي الكيلاني بتشكيل حكومة جديدة أغلبها من الوطنيين. وقد وصف أحد وزراء الحكومة الجديدة ما جرى يومها بقوله "لما وصلت ديوان رئيس الوزراء وجدت الساحة في السراي تغصّ بالمتظاهرين من شبان المدارس وكان الهمّات عاليّاً لرشيد عالي وزملائه.. وكان الحماس شديداً في كل محل وعند جميع الناس.. خطب رشيد عالي خطبة حماسية أثناء مراسم الاستيوار، وهتفت الجماهير

(١) ينظر: السيد أبو الحسن الأصفهاني سيرته وأضواء على مرجعيته ووثائقه العلمية والسياسية. د. كامل سلمان الجبوري. ٣/ الفصل الخامس. الوثائق السياسية. وينظر أيضاً: الزعيم الموهوب. سابق: ٥٣١-٥٣٥.

في ساحة السراي هتافاً صارخاً وأخذت تعلن تأييدها بهتاف مستمر متصاعد^(١). بعدها بادرت بريطانيا إلى إرسال قوات عسكرية من دون موافقة الحكومة العراقية وأنزلتها في قاعدة الحبانية فطوقت القوات العسكرية العراقية قاعدة الحبانية فأعلنت بريطانيا رسمياً على إثر ذلك الحرب على العراق في ٢ مايس ١٩٤١ م. وفي يوم (٣ مايس ١٩٤١ م/ ٦ ربيع الثاني ١٣٦٠ هـ) استدعى المرجع الأعلى السيد أبو الحسن الأصفهاني "رؤساء عشائر الفرات الأوسط وبضمنهم الحاج عبد الواحد السكر بالله في النجف الأشرف وذكرهم بأن التاريخ يعيد نفسه وأنهم مدعوون إلى الوقوف في وجه السلطة الأجنبية ومحاربتها كما وقفوا بالأمس في ثورة العشرين وأصدر السيد في ذلك اليوم المشهود فتواه"^(٢) التي نصت على ما يأتي:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام على كافة إخواننا المسلمين وأخص العراقيين منهم. إن الواجب الديني يقضي على كل مسلم بحفظ بيضة الإسلام وبلاد الإسلام بقدر استطاعته، وهذه البلاد العراقية المشتملة على مشاهد الأئمة ومعاهد الدين، يجب علينا جميعاً محافظتها من تسلط الكافر، والمدافعة عن نوااميسها الدينية. فإلى هذا أحثكم وأدعوكم، وفقنا الله وإياكم لخدمة الإسلام والمسلمين إن شاء الله تعالى.

٦ ربيع الثاني ١٣٦٠ هـ

أبو الحسن الموسوي الأصفهاني^(٣).

(١) ذكريات بغدادية العراق بين الاحتلال والاستقلال. موسى الشاندر: ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٢) الزعيم الموهوب. سابق: ٥٦٣.

(٣) السيد أبو الحسن الأصفهاني. كامل سلمان الجبوري. الوثائق: ٩٣.

لقد شنت قوات الاحتلال البريطاني هجوماً كبيراً على البصرة وبغداد، وفي حزيران عقدت هدنة بين العراق ومحتليه ولجأ رشيد عالي الكيلاني إلى إيطاليا فألمانيا، وبعد فشل حركة مائيس عاد عبد الإله ونوري السعيد ومن معها إلى قاعدة الحبانية من الأردن، وتم إعدام مجموعة المربع الذهبي.

يقول حفيد المرجع الأعلى: "كان ينبغي على رشيد عالي أن يستغل فتوى السيد ويعلنها حرباً مقدسة ويجتهد لها كل من يستطيع حمل السلاح من أبناء الشعب.. على غرار حرب العصابات يدعمها الجيش النظامي لكانت كفة الميزان تتأرجح بالتأكيد لصالح العراق.. لكنه غلب على أمره في آخر الأمر ورجع الوصي إلى البلاد واحتل الإنكليز أماكنهم من جديد"^(١) بقساوة وشدة فائقة ضد المواطنين بحيث "صار النظام الذي أوجده (الاحتلال البريطاني الثاني) في العام (١٩٤١م) يتخذ لنفسه أكثر فأكثر سمات الحكم القسري وغير المسؤول الذي تكمن سلطته المرئية في الشراكة بين نوري والوصي، اللذين كانا يستمدان قوتها من خضوعهما للقوة البريطانية ولمصالح محلية متوطدة.. ويكفي هنا أن نشير إلى أن بغداد لم توضع خلال العقد الأولين من العهد الملكي أي من ١٩٢١ وحتى ١٩٤١ في ظل الأحكام العرفية ليوم واحد في حين أن هذه الأحكام العرفية أعلنت أربع مرات في الفترة (كذا) بين ١٩٤١ و ١٩٥٨، وطبقت في المدينة على مدى مجموعه ٢٨٤٣ يوماً أي على مدى حوالي ثماني سنوات من السنوات السبع عشرة الأخيرة من حياة العهد الملكي"^(٢).



(١) الزعيم الموهوب: ٥٧٠ - ٥٧١.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٨١.



الفصل العاشر

بعض من تمظهرات الطائفية السياسية
في العهد الملكي (١٩٢١ - ١٩٥٨ م)
القرن الرابع عشر الهجري



مقدمة:



تصدي الشيعة لإقصائهم وتهميشهم من قبل النظام الحاكم

لقد تمظهرت سياسة المحتل الإنكليزي، ومن ورائه ملكه المستورد، وحكوماته الطائفية المتعاقبة، بمظهر عقابي طائفي مقيت، بإقصاء، وتهميش، وحرمان، وإبعاد، وظلم، وتعدّ، وقتل، بل وسوق الجيوش أحياناً ضد الغالبية الشيعية الوطنية المطالبة بحقوقها المهضومة، وعقوبة لها، ولرجعيتها، ومجاهديها، وزعمائها، ووطنيتها، وسياسيها، وشيوخ عشائرها، وأفراد عشائرها، ومواطنيها عامة، على جهادها ضد المحتلين الإنكليز بفتوى مراجعهم بالجهاد سنة (١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م) وما بعدها، ثم في ثورة النجف ضدهم سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م) وما بعدها، ثم في ثورة العشرين (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) بعد تحرير البلاد والسعي لإقامة دولة دستورية مستقلة حرة عادلة لا تشرّع ما يخالف الشريعة الإسلامية الحقة، ثم في مواقفها الوطنية اللاحقة لها سواء في تحريم الاشتراك في انتخابات مزيفة تحت ظل بنادق الاحتلال، أم التصدي الحازم للفعال للانتداب البريطاني أو المعاهدة العراقية-البريطانية الجائرة، أم مثل ذلك من غيره كثير.

إن هذا السلوك الرسمي الطائفي ضد الشيعة المعاقبين بالحرمان هو ما دعا بعض مراجع وكبار علماء وبعض رجالات الشيعة إلى وضع حل لهذا الوضع الشاذ الذي بات لا يحتمل ولا يطاق.

فبعد تربع الملك فيصل الأول على العرش، وتكليفه السيد عبد الرحمن النقيب بتشكيل الحكومة لأكثر من مرة، وما تبعها من تشكيلات حكومية في عقد العشرينات لم يسند إلى الغالبية الشيعية الكبرى من الشعب إلاّ حقيبة وزارية رمزية

واحدة فقط، حالهم حال الأقليتين اليهودية والمسيحية، بل إن التمثيل الشيعي في المناصب الحكومية في بعض الأحيان قد وصل إلى ما دون ما نالته الأقليتان المسيحية واليهودية^(١). ثم "وحتى عام ١٩٤٧ أي لأكثر من ربع قرن من قيام الحكم الملكي لم يشغل رئاسة الوزراء أي شيعي، ثم جيء بصالح جبر كأول شيعي يتقلد رئاسة الوزراء، ويبدو أن ذلك كان بتوجيه بريطاني بقصد كسب سكوت الشيعة على الاتفاقية العراقية-البريطانية المزمع عقدها لتحل محل اتفاقية (١٩٣٠)، لكن الشعب العراقي برمته انتفض وأسقط المعاهدة والوزارة معا^(٢).

لقد كتبت مس بيل في رسالة مؤرخة بتاريخ (٧/٢/١٩٢١م)، واصفة الحكومة العراقية حينها بأنها: "سنية أساساً، وثمة تصميم على أن تبقى سنية"^(٣).

١ التشكيك بأصالة وعروبة شيعة العراق ووطنيتهم

والأنكى من ذلك كله والأشد إيلاماً أن قسماً من السنة "وضعوا إخلاص الشيعة وأصلهم الاثني موضع تساؤل بصورة متكررة"^(٤). وقد تقدم في الفصل الأول ذكر حديث دار بين الشيخ علي الشرقي وإبراهيم الحيدري أحد أعضاء مجلس الأعيان العراقي وابنه أحد وزراء الحكومة العراقية، وصف فيه إبراهيم الحيدري أهل الديوانية بأنهم فرس، على الرغم من أنهم من قبيلة خزاعة العربية الأصيلة^(٥).

(١) مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٧٣.

(٢) ثورة في العراق. جعفر الحسيني: ٥٨. وينظر هامش الصفحة.

(٣) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. د. عباس كاظم: ٢٥٢: ٢٣٨.

(٤) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢١٠.

(٥) ينظر: الأحلام. الشيخ علي الشرقي: ٢٢٦.

وقد استمر هذا الجهل بالواقع أو قصد تشويهه إلى عصرنا المعاش، ومن أمثلته الصريحة ما ورد على لسان الدكتور عيسى سلمان التكريتي سفير العراق في الصين أيام حكم الدكتاتور البائد، حين سأله عبد الرحيم أحمد مندوب منظمة التحرير الفلسطينية عن: "من هم الأكثر في العراق.. السنة أم الشيعة؟ فرد الدكتور: العجم هم الأكثر. فسأله: هل أن الشيعة عجم؟ أجاب: نعم"^(١).

وكيف لا يقول عيسى التكريتي ما قال وقد تربى ونشأ وتغذى على مثل ما قرأه في سلسلة افتتاحيات جريدة الثورة العراقية الناطقة بلسان حزب البعث ومجلس قيادة الثورة والرئيس والحكومة للمدة من (٣-١٤ نيسان ١٩٩١م) تحت عنوان (ماذا حصل في أواخر عام ١٩٩٠ - وهذه الأشهر من عام ١٩٩١ - ولماذا حصل ما حصل) المنسوبة كتابتها إلى رئيس الجمهورية الدكتاتور المستبد صدام حسين، تلك المقالات التي وصف فيها شيعة العراق بأبشع الألفاظ، من قبيل ما ذكره تحت عنوان: (التعصب الشيعي - فساد أخلاق أهل الأهوار) زاعماً فيه بأن أصولهم من الهند. وإنهم يقدمون الولاء المذهبي على الوطنية، وأمثال ذلك مما يعف المرء عن ذكره. وكان الشيخ محمد رضا الشيبسي قد وثق في مذكرته المتقدم ذكرها المارة الشديدة التي تشعر بها الغالبية العظمى من المواطنين نتيجة التعريض بعروبيتها وأصالتها القومية والوطنية.

٢ الطائفية السياسية في السلطة التشريعية للدولة

لا تقل الطائفية السياسية ضد الشيعة في السلطة التشريعية عنها في السلطة التنفيذية التي ستأتي فالمعاناة في السلطة التشريعية وغمط الحقوق لا تقل مرارة وظلماً وحيفاً وعتناً عن السلطة التنفيذية والجيش والشرطة وغيرهما من مؤسسات

(١) الطائفية في العراق. سعيد السامرائي: ٥٨. نقلاً عن: الشيعة والدولة القومية. حسن العلوي: ٤١.

الحكم في العهد الملكي حتى وصل الأمر بالطائفية السياسية إلى تزوير الانتخابات لأجل تقليل نسبة المشرعين الشيعة في السلطة التشريعية.

يقول باحث عراقي: "يبدو أن الهدف من تزوير الانتخابات هو الحيلولة دون أن يكون للشيعة تمثيل فيه يتناسب مع نسبتهم من الشعب العراقي. فكانت مناطقهم يمثلها نواب نصفهم من الشيعة والنصف الآخر من رجال النظام الملكي السنة، والذين لم يسبق للكثيرين منهم أن زاروا تلك المناطق (التي عينوا كممثلين عنها) أو ربما كانوا لا يعرفونها ولا يعرفون أين تقع.

وفي كل الأحوال فإن الأمر سيبدو أقل فجاجة لو أن القائمين على تزوير الانتخابات في العهد الملكي عينوا -ولو لمرة واحدة- نائباً شيعياً ليمثل منطقة سنية، كما كانوا يعينون النواب السنة عن المناطق الشيعية"^(١).

وهو أمر في غاية الغرابة في الدول ذات النظام البرلماني حيث ينتخب الناس من يمثلهم من أبناء مدينتهم بخلاف العراق الملكي الذي يسأل النائب المختار من قبل النظام عن المدينة التي يفضل هو أن يكون نائباً عنها.

وللسبب نفسه انتهى الباحث حسن العلوي وهو يتحدث عن تمذهب البرلمان سنياً في العهد الملكي إلى القول بـ "استحالة قيام نظام برلماني سليم ونزيه -لأنه- قد ينتهي بانتقال السلطة إلى الأغلبية السكانية، ولما كانت الأغلبية العراقية شيعية فإن الانتخابات الحرة ستأتي بهذه الأغلبية إلى البرلمان. ولما كانت المادة السادسة والستون قد نصت على صلاحية مجلس النواب في منح أو سحب الثقة بالوزارة أصبح ممكناً إحداث تغيير أساس في السلطة لصالح الشيعة... ولهذا

(١) ثورة في العراق. جعفر الحسيني: ٥٩. وتنظر هوامش الصفحة، والطائفية في العراق. سعيد السامرائي:

حالت السلطة دون إجراء انتخابات حرة في العراق طيلة الدورات الست عشرة ما بين عامي ١٩٢٥-١٩٨٥م^(١).

وكمثل على ذلك ففي (أيلول ١٩٣٤م) "أعطت الحكومة نسبة كبيرة من المقاعد (الخمس عشرة) المخصصة للواء الديوانية ولواء المنتفق المأهولين بعشائر شيعية إلى أبناء مدن سنّة من بغداد وغيرها... وكان استبعاد عبد الواحد سكر شيخ عشيرة آل فتلة القوي في لواء الديوانية من البرلمان عملاً أحق من جانب الحكومة"^(٢)، وأمثاله أيضاً.

ولو نظرنا إلى "انتخابات لواء البصرة الذي يؤلف الشيعة تسعين بالمائة من سكانه والذي كان يمثل في المجلس النيابي بنائب واحد أو بنائين شيعيين من أصل سبعة أو ثمانية نواب مسلمين للواء المذكور ثم بثلاثة أو أربعة نواب شيعة من أصل عشرة نواب مسلمين للواء المذكور"^(٣).

أما انتخابات لواء بغداد الذي كان الشيعة في بادئ الأمر يؤلفون قرابة نصف سكانه ثم أصبحوا يؤلفون أكثر من سبعين بالمائة من سكانه وحيث كان يمثله في الدورات النيابية الستة عشر نائباً واحد إلى ثلاثة نواب شيعة من أصل عشرة نواب مسلمين ثم نائبان إلى ثلاثة نواب شيعة من أصل ثمانية عشر نائباً مسلماً ثم أخيراً ثمانية نواب شيعة من أصل ثلاثة وعشرين نائباً مسلماً. والمثل الصارخ الذي يصور مبلغ الإجحاف بحق الشيعة هو الدورة الانتخابية الثالثة التي انتخب فيها عن لواء بغداد تسعة نواب من السنة... ومن الشيعة نائب واحد فقط... ومن اليهود نائبان"^(٤).

(١) الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. حسن العلوي: ١٩٤.

(٢) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢٢٠.

(٣) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ١٠٨.

(٤) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ١٠٨ - ١٠٩. وتنظر الدورات =

وفي لواء الكوت مثلاً "قد تصل درجة الاستحواذ الطائفي حدودها القصوى فلا يرشح نائب شيعي عن لواء شيعي كلواء الكوت. ولم يرشح نائب شيعي طيلة الدورات الست عشرة عن لواء دىالى الذي يشكّل الشيعة فيه ثلثي السكان عدا دورات رشح فيها أحد الشيوخ الشيعة الساكنين في دىالى. ويفرض على ألوية العمارة والديوانية والحلة وهي مناطق شيعية عدد من النواب السنة يبلغ ثلثي نواب الألوية المذكورة"^(١).

وسأتحدث بإيجاز مدعوم بالأرقام عن الطائفية السياسية ضد الغالبية الشيعة العظمى في أجهزة الدولة: التنفيذية، والبنى التحتية والإعمار، في العهد الملكي (١٩٢١ - ١٩٥٨ م) مبتدئاً بالسلطة التنفيذية.

الطائفية السياسية ضد الأغلبية الشيعية في السلطة التنفيذية في النظام الملكي

لا يسعني استعراض موارد الطائفية السياسية ضد الشيعة في السلطة التنفيذية، فهي متشعبة النماذج والمواقع وعلى الإجمال فإن "التشكيلة البريطانية للملكية العراقية تحت إدارة الملك فيصل كانت ضربة للشيعة ففي الدولة الجديدة استقرّت السلطة بأيدي الأقلية السنية بقيادة الأشراف والضباط العثمانيين السابقين، بينما الأغلبية الشيعية تم إقصاؤها بالجملة بشكل أو بآخر"^(٢)؛ ولذلك فسأقتصر على المهم المهم منها فيما يأتي:

= الانتخابية الستة عشر التي تمت في العهد الملكي وعدد النواب الشيعة في كل دورة منها في محافظتي البصرة

وبغداد في صفحات المصدر نفسه ١١٠ - ١١٤. وينظر: الطائفية في العراق. سعيد السامرائي: ٦٩.

(١) الشيعة والدولة القومية. حسن العلوي: ١٩٥.

(٢) الوصول إلى السلطة. الشيعة في العالم العربي المعاصر. إسحاق نقاش: ١٥٧.

أ. ندرة وجود الأغلبية الشيعية في منصب رئاسة الوزراء وقتها في الوزارات والمناصب العليا

لقد تم تشكيل الحكومات العراقية المتعاقبة في الحقبة الملكية كلها وفقاً لما يأتي:
أولاً- فكانت نسبة الشيعة بمنصب رئيس الوزراء في العهد الملكي ابتداء من سنة (١٩٢١ - ١٩٥٨م)، على الرغم أنهم يشكلون الأغلبية العددية من السكان: (٥) خمسة رؤساء وزراء فقط، من أصل (٥٧) سبعة وخمسين رئيساً للوزراء في العراق، أي بنسبة قدرها (٤, ١١) (١).

ثانياً- بينما كانت نسبة الشيعة في المناصب الوزارية، خلال العهد الملكي (١٩٢١ - ١٩٥٨م) باستثناء منصب رئيس الوزراء المتقدم ذكره، على الرغم من أنهم يشكلون الأغلبية العددية من السكان، كالآتي:

١. المناصب الشيعية من (١٩٢١ - ١٩٣٢م)، (٢٠) منصباً فقط، من أصل (١١٣) منصباً، بنسبة (٧, ١٧٪).
٢. المناصب الشيعية من (١٩٣٢ - ١٩٣٦م)، (٩) مناصب فقط، من أصل (٥٧) منصباً، بنسبة (٨, ١٥٪).
٣. المناصب الشيعية من (١٩٣٦ - ١٩٤١م)، (١٨) منصباً فقط، من أصل (٦٥) منصباً، بنسبة (٧, ٢٧٪).
٤. المناصب الشيعية من (١٩٤١ - ١٩٤٦م)، (٢٥) منصباً فقط، من أصل (٨٩) منصباً، بنسبة (١, ٢٨٪).
٥. المناصب الشيعية من (١٩٤٧ - ١٩٥٨م)، (٨٧) منصباً فقط، من أصل (٢٥١) منصباً، بنسبة (٧, ٣٤٪).

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: تنظر أسماء رؤساء الوزراء، وعدد مرات تسلم كل منهم للمنصب، ومدة بقائه فيه، وتاريخ ولادته ومكانها، ومستوى تعليمه، ومهنته أو عمله قبلاً، وأصله الطبقي: ٢١٢ - ٢١٧.

٦. مجموع المناصب الشيعية من (١٩٢١ - ١٩٥٨ م)، (١٥٩) منصباً فقط، من أصل (٥٧٥) منصباً، بنسبة (٢٧,٧٪)^(١)، وخير دليل على ذلك هو أسلوب توزيع المناصب الوزارية، وتعيين كبار موظفي الدولة^(٢).

ومن أجل إيضاح مستوى الطائفية السياسية ضد الغالبية الشيعية في العهد الملكي أستعرض للتدليل على ذلك نسبتهم قياساً بنسبة الأكراد ف"في عام ١٩٣٠ قدر أنه في الوقت الذي كان الأكراد الذين يشكلون (١٧٪) من السكان يشغلون (٢٢٪) من المناصب الحكومية العليا فإن الشيعة الذين يشكلون أكثرية السكان كانوا يحتلون (١٥٪) فقط من هذه المناصب"^(٣).

ولم يقتصر الأمر على قلة نسبة الوزراء الشيعة في التشكيلات الوزارية المتعاقبة في العهد الملكي بل وصل الأمر إلى الحد الذي استقرت عليه نوعية الوزارات غير المهمة التي تعهد إلى الشيعة على الرغم من قتلها فقد "ظل الكثير من السلطة بأيدي الوزراء السنة الذين يشكلون غالبية المناصب الحساسة"^(٤).

يقول العلوي: "لقد تحدد شكل الوزارة العراقية. فرييس الوزراء ووزراء الداخلية، والدفاع، ومعظم الوزراء الأساسيين من السنة العرب... وخصص للشيعة المقعد الأخير في كعب قائمة التشكيل الوزاري. والغريب أن السلطة وجدت الكثير من الشيعة الذين يرضون الجلوس في كعب القائمة الوزارية. فكانت الإرادة الملكية تصدر بالتشكيل الوزاري فيكون اسم الوزير الشيعي آخر الأسماء"^(٥)، ويذهب

(١) العراق. الكتاب الأول. حنا بطاطو: ٦٩.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٧٣ - ٢٧٤.

(٣) شيعة العراق. سابق: ٢٠٦.

(٤) شيعة العراق. سابق: ٢٢٩.

(٥) الشيعة والدولة القومية. حسن العلوي: ١٩٨.

الباحث إسحاق نقاش إلى أن "منصب وزير التربية كان محفوظاً للسياسيين الشيعة وحدهم تقريباً من أجل نشر التعليم الخاضع لسيطرة الدولة في المناطق الشيعية ودحض ادعاءات المجتهدين بأن الدولة تمارس التمييز ضد الشيعة في مجالات التعليم"^(١).

وفي قلة نسبة الوزراء الشيعة ونوعية ما يمنحونه من حقائب وزارية على الرغم ندرتها بالتشكيلات الوزارية قياساً بأغليبتهم السكانية تعطي صورة واضحة على طائفية النظام الملكي.

ب. ندرة الضباط الشيعة في الجيش والشرطة وكثرتهم في المراتب العسكرية الدنيا

لم يختلف وضع الجيش عن وضع توزيع كبار المسؤولين في الدولة العراقية، بل زادت الطائفية فيه أكثر فأكثر بسبب خطورة دورهم، فقد كان الضباط سنة، أما الأفراد الذين يقودهم هؤلاء الضباط فكانوا يؤخذون في أكثريتهم من العشائر الزراعية الشيعية في الجنوب^(٢).

يقول الوزير السابق في العهد الملكي عبد الكريم الأزري مؤكداً هذه الحقيقة: "لقد تدفق خلال الثلاثينات عدد كبير من التلاميذ على الكلية العسكرية حتى بلغ عدد الضباط الذين تخرجوا منها بين دورة ١٩٣٢ ودورة ١٩٤١ ألف (كذا) وعشرة ضباط. ولكن السلطات المسؤولة ليس فقط لم تسع إلى توفير تسهيلات خاصة لإدخال عدد من الشباب الشيعي العربي في الكلية العسكرية أو على الأقل معاملتهم كسائر المتقدمين للانتساب إلى الكلية المذكورة معاملة متساوية بعيدة

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٤٥٢.

(٢) ينظر: العراق الكتاب الأول. سابق: ٦٥.

عن التمييز أو التحيز، فإنها وضعت العراقيين للحيلولة دون انضمامهم إلى الكلية العسكرية، وكانت نتيجة هذه السياسة المتحيزة أن أصبحت الأكثرية الساحقة لهيأة ضباط الجيش العراقي من فئة واحدة تقريباً هي الفئة العربية السنية أدى إلى اختلال في التوازن السياسي في الدولة العراقية، وكانت النتيجة وأد التجربة الديمقراطية التي سعى إليها القانون الأساسي (الدستور) العراقي لسنة ١٩٢٥ م، وهدر حقوق الأكثرية الشيعية العربية... وهكذا أصبحت الأكثرية الساحقة من هيأة ضباط الجيش العراقي وهيئات ضباط القوات المسلحة الأخرى مؤلفة من فئة واحدة^(١).

وهو الأمر الذي انتهى إلى ما قاله الدكتور عبد الأمير علاوي وزير الصحة وطبيب العائلة المالكة في مذكراته بأنه "كان جميع الضباط من فئة واحدة أو طائفة واحدة - (السنّة) - من العرب أو التركمان أو الأقليات الأخرى. ولم يكن بينهم ضابط واحد من الأكثرية العربية - (الشيعية) - وقد سبق وأشرت إلى أن الدخول للكلّيات (عسكرية ومدنية كذلك) محرّم على أبناء هذه الطائفة مدة أربعة قرون من تاريخ الحكم العثماني"^(٢).

وبعبارة أخرى فإن "أحد الأشياء التي وقعت تحت سيطرة السنة حصراً كان الجيش العراقي الذي احتكر أسوأ احتكار خدمة لمصالحهم (...)، وكانت هذه أول مفارقة لهذه المؤسسة التي كانت تدار من السنة باسم السنة"^(٣).

(١) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ١٣ - ١٤. وتنظر: ٣٠ من المصدر نفسه.

(٢) ضد الطائفية العراقية جدل ما بعد نيسان ٢٠٠٣. رشيد الخيون. نقلاً عن: تجارب وذكريات. د. عبد الأمير علاوي: ٢٧٩.

(٣) ثورة ١٩٢٠ قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخية. سابق: ٢٥٦.

ويعود سبب ذلك إلى أن "الفئة الحاكمة تؤلف أقلية صغيرة من الشعب العراقي فإمها مضطرة لفرض هيمنتها على الحكم بالقوة وذلك بالسيطرة على الجيش وعلى بقية القوات المسلحة بواسطة ضباط من فئتها. وهكذا اعتمدت سياسة تقضي بحصر الدخول في الكلية العسكرية وفي غيرها من كليات القوات المسلحة الأخرى بشباب من فئتها باستثناء عدد رمزي ضئيل جداً من شباب الفئات الأخرى. وكانت نتيجة هذه السياسة أن أصبحت بمرور السنين الأكثرية الساحقة من هيئات ضباط الجيش العراقي وسائر القوات المسلحة الأخرى من فئة واحدة هي الفئة العربية السنية الحاكمة"^(١).

وهو ما ذهب إليه الباحث حنا بطاطو بقوله: "يجب أن نتذكر أن سلك الضباط كان عربياً سنياً في أكثريته... وإن العرب الشيعة الذين يشكلون أكثرية سكان العراق كان لهم تمثيل ضعيف جداً في مراتب الضباط من رتبة رائد ركن وما فوق"^(٢).

ونتيجة لذلك لم يعد غريباً أن تقرأ مثلاً ما نقله حسن العلوي عما حدث به سياسي عراقي كبير عما سمعه من ضابطين عراقيين يقول السياسي الكبير: "كنت في تلك الفترة قد تخرجت من كلية الطب وقد غمرني الحماس القومي لا سيما أثناء انتفاضة الشعب الفلسطيني عام ١٩٣٦. وكان الدكتور أمين رويحة الذي انتدب للعمل في العراق من الشخصيات القومية التي انشدت إليها، فكنت أحضر مجلسه في بيته. وقد حدث في إحدى المرات أن دخل إلى بيت الدكتور رويحة -وكنت إلى جانبه- ضابطان هما عبد الرزاق حسين وسعيد التكريتي. وكان الدكتور رويحة مسترسلاً في الحديث عن خطر الاستيطان اليهودي في فلسطين. فتصدى له عبد

(١) مشكلة الحكم في العراق. من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزرى: ٤٥ - ٤٦.

(٢) العراق الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار. حنا بطاطو. الكتاب الثالث: ٧٤.

الرزاق حسين قائلاً: إننا نقدر جهودك أيها الأستاذ لكننا نختلف معك في قضية مهمة ربما فاتت عليك، فأنت تعتقد أن الاستيطان اليهودي سيشكل خطراً على فلسطين وعروبته في المستقبل. ونحن لسنا معك في هذا الرأي، لأن الفلسطينيين أكثرية مطلقة في فلسطين والدول العربية تحيط بفلسطين من كل جانب، لكن الخطر يأتي هنا في العراق من الأغلبية الشيعية، وعلينا أن نركز الاهتمام بهذه القضية كما يفعل الأستاذ الحصري^(١).

وليس غريباً كذلك أن نرى مثلاً كأنموذج أنه كان في تشكيل لجنة (الضباط الأحرار) التي أسقطت النظام الملكي وأسست لأول جمهورية في العراق سنة ١٩٥٨ م "من بين الخمسة عشر عضواً من أعضاء اللجنة اثنان من الشيعة فقط"^(٢).

ولا يختلف وضع تهميش الشيعة في جهاز الشرطة عن وضعه في الجيش حيث لا ترتفع نسبة الطلاب الشيعة في كلية الشرطة (١٠٪) خلال سبعة عقود أي منذ أن أنشئت كلية الشرطة في العراق^(٣)، كما كان كل مدراء الشرطة في الفرات الأوسط الشيعي من السنة.

ت. دواعي رفض الشيعة لقانون الخدمة الوطنية أو التجنيد الإلزامي
لقد تحدثت عن التمييز المذهبي ضد الشيعة في وزارة الدفاع وبين الضباط الذين اقتصر على السنة دون الشيعة ولذلك فقد كان يقلق الشيعة أكثر فأكثر ذلك

(١) الشيعة والدولة الوطنية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠: ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٢) الطائفية السياسية في العالم العربي نموذج الشيعة في العراق: ٢٣٤ - ٢٣٥. وينظر: التمكين لدولة المركب الطائفي - القومي. د. عبد الله سلمان. بحث ضمن كتاب: صدمة التاريخ العراق: من حكم السلطة إلى حكم المعارضة. إعداد علي المؤمن.

(٣) ينظر: الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. حسن العلوي: ٣٢٦.

الوقت من مشروع (قانون الخدمة الوطنية) أو قانون التجنيد الإلزامي -الذي كان الملك فيصل وسنة العراق يناضلون من أجل تشريعه في أكثر من دورة برلمانية- هو ما صرح به الملك فيصل الأول نفسه بقوله في مذكرته السرية المشهورة المؤرخة في ١٩٣٢م: "إنني لا أطلب من الجيش أن يقوم بحفظ الأمن الخارجي في الوقت الحاضر الذي سوف نتطلبه منه بعد إعلان الخدمة العامة، أما ما سأطلبه منه الآن، هو أن يكون مستعداً لإخماد ثورتين تقعان (لا سمح الله) في آن واحد، في منطقتين بعيدتين عن بعضهما"^(١)، مشيراً بذلك إلى الشيعة والکرد.

وربما كان سبب تسمية الفوج الأول من الجيش العراقي باسم فوج موسى الكاظم يكشف "بعض ما يمكن أن يكون مقصوداً ومخصصاً له من المهمات، فقد كان فيصل الأول قد زاره بعد تنويجه واقترح تسمية إحدى الكتائب باسم مس بيل... لكن تسمية جعفر العسكري أكثر تعبيراً عن الضد النوعي، فهذا الفوج لمواجهة أبناء الفرات الأوسط... فلا أفضل -وأهل الفرات الأوسط من الشيعة- من أن يسمّى باسم إمامهم موسى الكاظم. فكأن موسى الكاظم -وهي مسألة نفسية على جانب كبير من الأهمية- قد وضع في القتال إلى جانب الإنكليز ضد مواطنيه- أو كأن من يقاتل الإنكليز كان سيقا تل موسى الكاظم، وقد كتب اسم موسى الكاظم على راية الفوج وهو فوج التأسيس الأول لكي تظلل الراية الضباط الإنكليز الخمسة والعشرين الذين يشكلون هيئة أركان الجيش"^(٢).

كما يعود سبب معارضة الشيعة ذلك الوقت إلى قانون الخدمة الوطنية الإلزامي إلى "ربط الجيش وفقاً للاتفاقية العسكرية الملحقة بمعاهدة ١٩٢٢ بالمعتمد السامي

(١) ذكريات علي جودت الأيوبي ١٩٠٠-١٩٦٨ مقدمة الذكريات.

(٢) الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. حسن العلوي: ١٧٦ - ١٧٧.

البريطاني الذي له وحده حق إصدار الأوامر للجيش العراقي بالتحرك استناداً إلى نص المادة السابعة من الاتفاقية. كما نصّت المادة (١٢) على إشراك القوات البريطانية والعراقية في (قمع الهياج الأهلي) على أن تكون القوات المشتركة بقيادة ضابط بريطاني^(١).

يقول الباحث إسحاق نقاش: "لم تكن معارضة الشيعة للقانون نابعة من انعدام الروح الوطنية أو عدم الولاء للدولة العراقية بل كانت تنطلق من نظرهم إلى التجنيد كرمز لهيمنة السنّة ووسيلة لتعزيز سلطة بغداد المركزية - السنّة الطائفية- فإن ذكريات الشيعة عن التجنيد في العهد العثماني لم تكن ذكريات سارة لأن المجندين كانوا يدفعون إلى الخدمة العسكرية فترة طويلة"^(٢).

إضافة إلى ذلك وجود قناعة لدى وجوه الشيعة ونوابهم حينها بأن التوجه لصرف الموازنة العراقية في الإعمار والبناء وتطوير الاقتصاد أولى من صرفها على الجيش والمؤسسة العسكرية وهي قناعة أثبتت صوابها ودقة نظرتها الاستراتيجية حتى بعد قرن من زمان تبنيها "فقد ذكر سعد صالح نائب الديوانية ضرورة صرف الأموال في تطوير الاقتصاد وبناء المشاريع لعدم ضرورة الجيش في ظل الانتداب.

وقد هاجمت جريدة النهضة المعارضة فكرة التجنيد الإجباري... إلا أن أجمل ما يمكن أن يصدر من مثقف وطني في تحليل تلك الدعوة إلى عسكرة المجتمع إنما صدرت عن الشيخ محمد باقر الشبيبي الذي كتب في جريدة (العالم العربي) مقالاً جاء فيه: (إن الوزارة تهدف إلى إلقاء الصبغة العسكرية على البلاد كما فعل الاتحاديون في تركيا، فليس هناك إلا التجنيد الإجباري، وإلا صلصلة السيوف

(١) الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. حسن العلوي: ١٧٧.

(٢) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢١٤.

وبريق الأوسمة على صدور الضباط، وفي كل يوم دعوة إلى حمل السلاح، ومن المؤلف مشاهدة جماعات الفلاحين يسرون كما تسير القطعان يتركون ضياعهم ومزارعهم النضرة إلى تلك الثكنات الجوفاء. إن هذه السياسة ستجلب الدمار على البلاد وإن من الأفضل أن تتوجه اتهامات الحكومة إلى المشاريع العمرانية بدلاً من الاهتمام بالجيش^(١).

ث. قلة نسبة الشيعة بين متصرفي الألوية والقائمقامين ومدراء النواحي وموظفي الدوائر وأمثالهم

هذا ولم يقتصر أمر التهميش على ذلك، بل كان متصرفو الألوية (المحافظون)، والقائمقامون، ومدراء النواحي، وموظفو الدوائر، وفي كل التقسيمات الإدارية، من الطائفة السنية، ولم يحظ الشيعة إلا بالوظائف الكتابية والخدمية البسيطة، ليس في ألوية (محافظات) الفرات الأوسط وحدها فقط، بل في دوائر ودواوين العاصمة أيضاً^(٢) بحجج واهية مختلفة، منها زعمهم بأن المتعلمين من الشيعة أقلية، فكيف تسند إليهم المناصب الحكومية الموازية لأكثرتهم العددية "وقد نسوا أن الموجود منهم، وعلى درجات عالية من المعرفة في النجف لوحدها، قد يفوق مجموع (الأفندية) الموجودين في كافة دوائر الدولة"^(٣).

ويؤكد هذا الحظر على الشيعة إسحاق نقاش أيضاً بقوله متحدثاً عن كبار المسؤولين السنة إنهم: "كانوا يحجمون عن تعيين الشيعة في الجهاز الإداري والخدمة المدنية. وهكذا في عام ١٩٢١ على سبيل المثال لم يكن هناك شيعي واحد على قائمة

(١) جريدة العالم العربي. العدد ١٠٩٠ في ٢/١٠/١٩٢٧ نقلاً عن: الشيعة والدولة القومية في العراق

١٩١٤ - ١٩٩٠. سابق: ١٧٨.

(٢) تنظر: مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٧٣ و ١٨٧ - ٢٨٨.

(٣) ينظر: مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٨٨.

المرشحين لخمس مناصب متصرف في الألوية، وكان هناك شيعي واحد فقط بين تسعة مرشحين لمدرء الأقضية.. ومن الواضح أن الشيعة واجهوا صعوبات في اختراق شبكة المحسوية السنية في جهاز الدولة"^(١). ذلك أن بعض رؤساء الوزراء والوزراء في العهد الملكي كانوا يحظرون توظيف الشيعة في دوائر الدولة ومؤسساتها من قبيل "امتناع عبد الرحمن النقيب وبعض الوزراء من قبول الشيعة في الوظائف"^(٢).

ج. الطائفية السياسية في التعليم والبعثات والصحة والعمران

يؤكد الباحث إسحاق نقاش عمق وتأثير الطائفية السياسية والمناطقية ضد شيعة العراق فيما يخص قطاع التعليم بقوله: "امتعض الشيعة من نقص الموارد المخصصة للتعليم في الألوية الشيعية وضآلة عدد الشيعة في بعثات الطلبة العراقيين الذين يرسلون للدراسة في الخارج واحتجوا على معارضة الحصري لفتح مدرسة ثانوية في النجف ودار معلمين في الحلة وعلى قراره بإلغاء مديرية التربية في الفرات الأوسط في عام ١٩٢٥"^(٣).

ويوثق الوزير السابق عبد الكريم الأزري الطائفية الشديدة ضد إرسال بعثات علمية من الطلاب الشيعة للخارج بقوله: "لا أذكر تماماً عدد طلاب البعثة العلمية الموفدة إلى خارج العراق في السنة الدراسية ١٩٣١ ولكنني أتذكر أن عدد الطلاب في البعثة من الشيعة كان أقل بكثير من عدد اليهود"^(٤).

ويذهب أحد الباحثين إلى أن كلمة الحصري مدير المعارف ومستشار الملك

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢٠٦.

(٢) السياسية ومشكلة الحكم في العراق. سابق: ٧٦. وتظر هوامش الصفحة.

(٣) شيعة العراق. إسحاق النقاش: ٢٠٩.

(٤) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. سابق: ٦٢. نقلاً عن: تاريخ في ذكريات العراق. عبد

الكريم الأزري: ٣٠ / ١ - ٣١.

كانت "فوق كلمة الوزير بل وحتى فوق كلمة الملك في بعض الأحيان لأنه كان مدعوماً من قبل الإنكليز حيث أنيطت به وبإيعاز من الإنكليز مهمة نشر الطائفية ومعاداة الشيعة والطعن في عروبتهم ووصفهم بالعجمة والشعبوية. وكان للحصري تأثير بالغ في وضع المناهج التدريسية وتوجيه طلاب المدارس وجهة تفضي إلى اغتراب العراقيين عن تراثهم الأدبي ففي كتب الأدب العربي وتاريخه لم يذكر أي أديب أو شاعر عراقي من أصول شيعية، قديم أو معاصر رغم كثرتهم ودورهم الكبير في خدمة الأدب العربي"^(١).

وقد ذكر الحصري في مذكراته مفتخراً ومتباهياً بأنه حث الملك فيصل الأول على عدم فتح كلية للمعلمين في الحلة لأن المتنفعين الأساسيين بحسب قوله سيكونون طلبة من المجتمع الشيعي^(٢).

وكانت محاربة الحصري لفتح دور للمعلمين قوية وبدوافع سياسية طائفية لا تربوية ولقد استطاع إقناع الملك فيصل بذلك بذريعة أنها "مضرة بمصلحة الدولة الحديثة"^(٣).

وقد أدت هذه السياسة التمييزية في التعليم بين مناطق ومناطق إلى أن يتبنى (مجلس المعارف) الذي عقد اجتماعاته في (صفر ١٣٥٢ هـ/ حزيران ١٩٣٣ م) برئاسة الوزير السيد عبد المهدي المنتفجي قراراً بتطبيق العدالة والمساواة بين العراقيين في مناطقهم المختلفة من خلال "جعل نسبة (٣١ بالألف) النسبة العليا التي ينبغي السعي لإيصال جميع أنحاء القطر إليها بعد أن تبين أن أعلى نسبة بين عدد الطلاب

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. سعيد السامرائي: ٦١.

(٢) ينظر: الهوية والأمة في العراق. شيركو كرمانيج. ترجمة عبد الرحمن عبد الله: ٨١.

(٣) تطور التعليم الوطني في العراق. إبراهيم خليل: ١٦٣.

والسكان في الأولوية (المحافظات) هي نسبة لواء الموصل البالغة (٣٠ بالألف) ما ترتب عليه البدء بتوسيع المؤسسات التعليمية في المناطق الجنوبية في السنة نفسها^(١).

ح. الطائفية السياسية ضد الشيعة في السلك الدبلوماسي العراقي

لقد شملت الطائفية السياسية ضد الشيعة السلك الدبلوماسي العراقي أسوة ببقية الوزارات وغيرها مما تقدم وما سيأتي ومن طريف ما يثبت هذه الحقيقة ما رواه الوزير العراقي السابق عبد الكريم الأزري بقوله: "كنت أذهب بين آن وآخر لزيارة الملك فيصل الثاني وولي عهده الأمير عبد الإله في البلاط الملكي، وأتحدث إليهما في الشؤون والشجون العامة... وفي إحدى زيارتي وكانت في أوائل سنة (١٩٥٦م) جرى الحديث معها حول وزارة الخارجية العراقية، وتطرقنا إلى موضوع السفراء العراقيين. فقلت للملك وولي عهده إنه لأمر مثير للانتباه والتساؤلات أنه لا يوجد في السلك الخارجي العراقي وقتئذ ولا سفير شيعي واحد وكان قد مضى يومئذ على تأسيس الدولة العراقية خمس وثلاثون سنة. ألا يوجد بين رجال الشيعة ومثقفهم أشخاص من مستوى السفراء الموجودين وقتئذ علماً وخبرة وكفاءة"^(٢).

خ. الطائفية السياسية ضد الشيعة في مؤسسات الدولة الصحية

أما الطائفية السياسية في مؤسسات الدولة الصحية فقد أشارت إليها (المادة العاشرة) من (ميثاق النجف) الذي أصدره المرجع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) ووقع عليه الكثير من الشيوخ والقادة فنصت

(١) ينظر: الهوية والأمة في العراق. شيركو كرمانج: ١٠٨. وأحوال العراق الاجتماعية والاقتصادية. مؤيد شاكر: ١٩٩.

(٢) مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: ٣١٤.

على "أن معظم مؤسسات الدولة: الصحية، والعمرانية، والتهدئية، لم تراعى في توزيعها النسبة العادلة بين أبناء الشعب، وخاصة في المنطقة الجنوبية من العراق.. إلخ" ^(١).

د. الطائفية السياسية ضد الشيعة في الإعمار ومشاريع البنى التحتية

أمّا الطائفية السياسية ضد الغالبية الشيعية في مشاريع البنية التحتية والإعمار، فقد كانت هي الأخرى كسابقاتها في السلطين التنفيذية والتشريعية، فمشاريع الإعمار توضع على أساس طائفي غالباً، "وتكفي هنا الإشارة إلى أن كانت أطول الطرقات المعبدة أو المسفلتة ازداد من حوالي (٥٠٠ ميل) ربما في العام (١٩٤٤م) إلى حوالي (١٦٠٠ ميل) في العام (١٩٥٥م)، وكان معظم هذه الطرقات يوجد في الأجزاء الوسطى والشمالية من البلاد، وكانت تنطلق من بغداد ومراكز أخرى مثل الموصل وكركوك. أما الجنوب فاستمر يرتبط إلى حد كبير بواسطة طرق ترابية كانت معرضة لأن تغرق في الوحل وتحفر فيها الأخاديد بعد الفيضان أو هطول المطر، وكذلك فقد بقيت مناطق الإنتاج الزراعي أيضاً، وبشكل عام، غير مربوطة بخطوط مواصلات فرعية تصل إلى شبكة الطرق الرئيسية" ^(٢)، وباختصار فإن مشاريع التنمية لم توزع بعدالة وإنصاف حيث "بقيت مناطق الجنوب ذي الغالبية الشيعية... شبه مهملة وتعاني نقصاً في كثير من المرافق" ^(٣)، وعلى هذه فقس ما سواها.

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. سعيد السامرائي: ٣٩٧.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٥٠ - ٥١.

(٣) الشيعة والدولة العراقية الحديثة الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي (١٩١٤ - ١٩٥٨): ٣٩٠.

د. معارضة الشيعة للطائفية السياسية والتمييز المذهبي ضدهم

لقد أدت هذه السياسات التمييزية ضد الغالبية الشيعية، لأن تنبثق معارضة فعالة لها في أوساط المعاقبين بالحرمان، من قبيل إشهار المعارضة ضد وزارة عبد الرحمن النقيب سنة ١٩٢٢م، واجتماع المشخاب وما تبعه من تطورات، وقد أخذ ذلك مظهراً أكثر وضوحاً حين تسنم سدة الوزارة طائفي متشدّد، يكتب بالتركية، وليس بالعربية لجهله الكتابة بها، على الرغم من أنه تقلد رئاسة وزراء الحكومة العراقية لأربعة تشكيلات وزارية ختمها بالانتحار، وهو من شغل سابقاً منصب معاون الميداني للسلطان عبد الحميد، ثم عضواً في البرلمان العثماني لعشر سنوات، وهو وفق رأى الملك فيصل الأول سنة ١٩٢٨م أن ابن سعود والإنكليز كانوا يعملون بتنسيق تام، وأن: "عبد المحسن وكل آل السعدون إنما يؤيدون سرّاً ابن سعود، وأنهم يؤمنون سرّاً بالمذهب الوهابي"^(١).

وطبيعي بعد ذلك أن نقرأ لصاحب كتاب: (عبد المحسن السعدون ودوره في تاريخ العراق السياسي) رأياً ذهب فيه إلى القول بأنه: "لم يقلق راحة السعدون سوى محاولة نائب المتفق: السيد عبد المهدي المتفجّي"^(٢) والشيخ باقر الشبيبي^(٣)

(١) ينظر حنا بطاطو. العراق. سابق: ٢٢٤. وما بين القوسين حديث جرى بين الملك فيصل وأمين الجرجفجي زعيم حزب النهضة الشيعي.

(٢) ولد السيد عبد المهدي المتفجّي سنة (١٨٨٩م) في لواء المتفق. هاجر إلى النجف فدرس مقدمات علوم الشريعة فيها ثم عاد إلى مدينته فأنشأ مكتبة كبيرة فيها، انتسب إلى جمعية الإصلاح. شارك في ثورة العشرين، شغل وزارة المعارف مرتين والأشغال والمواصلات مرتين، والاقتصاد والمواصلات مرتين، والاقتصاد مرتين، وانتخب نائباً عن لواء المتفق ست مرات، ونائباً لرئيس المجلس مرة، ت ١٩٧٢ عن ٨٣ سنة.

(٣) الشيخ محمد باقر جواد الشبيبي (١٨٨٩-١٩٦٠م) ولد في النجف وتلقى علومه الدينية فيها. شاعر وأديب نظم الشعر السياسي الوطني كثيراً. يعد من أبرز خطباء المعارضة العراقية حقبة الاستعمار الانكليزي للعراق. انضم إلى قادة ثورة العشرين، وأصدر جريدة الفرات الناطقة باسم الثورة. أُنْتُخِبَ نائباً عن لواء =

لتأسيس حزب سياسي في أوائل آب ١٩٢٥م، فقد اعتبر السعدون النائبين المذكورين (مفسدين)، غرضهما بث الشقاق والتفرقة بين السنة والشيعة بتأسيسهم حزباً سياسياً قائماً على الأساسيات المذهبية والمطامع الذاتية^(١).

وإذا كان السعدون قد عمى عن غرض النائبين الشيعيين المتقدم ذكرهما فقد أفصح عن مرادهما الباحث حسن العلوي بقوله إنها كانا "يرميان إلى تأسيس حزب سياسي يستهدف توسيع اشتراك الشيعة في إدارة الدولة، فبذل السعدون ما في وسعه للحيلولة دون قيام ذلك الحزب، وكتب إلى الملك فيصل في ٢٠ آب ١٩٢٥ وكان الملك آنذاك في بريطانيا مبتهجاً بإحباط مساعي الشيعة لقيام حزب سياسي لتوسيع اشتراكهم في الدولة قائلاً: (كنت عرضت لجلالتكم في السابق أن بعض النواب الجعفرية ساعون إلى تأسيس حزب سياسي وتوسيع اشتراكهم في إدارة الحكومة، والآن قد حصلت لي القناعة أن ليس في هذه التثبثات ما يوجب القلق)"^(٢).

واستمرت المحاولات والمساعي لتوسيع مشاركة الشيعة في الحكومة، ومن ذلك ما تحدث به السيد محسن أبو طيخ في مذكراته قائلاً: في سنة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م)، زاره "الشيخ باقر الشيبسي، ومعه عدد من المشايخ، وتحدث عن تكوين جمعية إسلامية لتكون نواة لحزب في المستقبل تتحمل مسؤولية النطق باسم الطبقة الشيعية جهاً، طالما أن الحكومة في الوقت الحاضر لا تعير أهمية لهم، لعلمها بتفرقهم، وتشتت

= المتفق في أربع دورات نيابية. حسه الوطني والشيوعي متقدم ضد المستعمرين والطائفين. والشيخ محمد

باقر، وأخوه الشيخ محمد رضا وأبوه من رواد الحركة الأدبية في النجف بل والعراق.

(١) لطفي جعفر فرج: ١٧٧ وما بعدها، في بحثه عن (الوزارة السعدونية الثانية).

(٢) السيد عبد المهدي المنتفكي في ساحات المقاومة وموقع المسؤولية. طاهر آل عكلة: ١٤٩. نقلاً عن العراق

والدولة القومية لحسن العلوي ٢٣٢-٢٣٣.

آراء قادة الرأي فيهم^(١)، غير أن مساعيهم تلك لم تثمر عن نتيجة واضحة.

وفي عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م) دعا النائب الحاج محسن شلاش إلى عقد اجتماع في داره بالنجف حضره من النواب كل من: السيد علوان الياسري، والسيد قاطع العوادي، والسيد محسن أبو طيخ، وسلمان الظاهر، وعبادي الحسين، وعمران الحاج سعدون، ومظهر الصكب، ومن غير النواب كل من الحاج عبد الواحد آل سكر، والشيخ مرزوق العواد، والشيخ عزارة المعجون، وغيرهم، وتمّ في الاجتماع الاتفاق بعد نقاش متشعب واختلافات بيّنة على تأسيس حزب يهدف إلى الدفاع عن مظلومية الشيعة، من خلال الدعوة إلى اجتماع أوسع يدعى إليه العلماء الأعلام، ووجوه الطائفة الشيعية في بغداد، والمحافظات الأخرى، ليعم جميع الشيعة في العراق كله. يقول السيد محسن أبو طيخ "وبعد انفضاض اجتماعنا أخذت بالاتصال برؤساء العشائر في السماوة والرميثة والحلة ومراجعة العلماء حاثاً إياهم على جمع الصف ووحدة الكلمة تمهيداً للاجتماع المزمع عقده وتحقيق أهم وأخطر مشروع للقضية الشيعية منذ ثورة العشرين"^(٢).

وقد أشار الباحث حنا بطاطو بسوء ظن واضح إلى مسعى السيد أبو طيخ هذا بقوله: "كان محسن مشغولاً بإرسال الرسل إلى مختلف السادة والمشايع على الفرات لكسب تأييدهم لتركيبية عشائرية تضمن حماية حقوق الزعماء العشائريين، ومقاومة الاضطهاد الشامل الذي يمثله قياس الرز، ومن أجل دولة دينية (ثيوقراطية) للعشائر الشيعية على الفرات لا تدين إلا بولاء اسمي لحكومة العراق"^(٣).

(١) مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طيخ. سابق: ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٣) العراق. الكتاب الأول: ٢٢٢.

ويستمر السيد أبو طيخ في عرضه لمسعاها بعد الاجتماع المتقدم ذكره فيقول: "وبعد مضي أيام قليلة على اجتماعنا في النجف بدار الحاج محسن شلاش، تم استدعائي إلى بغداد، ومقابلتي مع الملك فيصل الذي أشار عليّ بوجوب السفر إلى خارج العراق لتفادي أي أزمة قد يفتعلها الإنكليز بعد أن رصدوا تحركاتي وتحركات أصحابي، لا سيما وأن البلاد تجتاز مرحلة صعبة في التفاوض معهم حول المعاهدة ومشكلة الموصل".

ويكمل السيد محسن أبو طيخ توثيقه للمسعى الشيعي بالمطالبة بحقوق الأغلبية الشيعية بقوله: "وفي مطلع الثلاثينات انتقل نشاطنا إلى بغداد، واشترك معنا في جهودنا هذه الشيخ محمد رضا الشيبسي^(١) لما له من أفكار نيّرة، وقررنا بعد تدارس الاحتمالات كافة أن يتم تشكيل حزب سياسي ينتمي إليه من يشاء من أبناء العراق، ولكن طبيعة توجهاته وجوهر مبدئه هو حماية حقوق أبناء الشيعة"^(٢).

(١) الشيخ محمد رضا جواد الشيبسي (١٨٨٩-١٩٦٥م) ولد في النجف الأشرف وتلقى دراسته الدينية على يد كبار مراجعها، ورعاه رعاية أدبية أبوه الأديب الشاعر. في ناديه العامر بالأدب والعلم والثقافة. فنظم الشعر وأبدع فيه وكتب في التاريخ والحضارة فأجاد. نشط في القضية الوطنية نشاطاً لافتاً. وكان من دعاة الحركة الدستورية في النجف. اشترك في الجهاد ضد الإنكليز مع المجتهد السيد الحبوب سنة ١٩١٤م. وكان له دور مشهود في ثورة العشرين. عين وزيراً للتربية لعدة دورات. وانتخب عضواً في مجلس النواب العراقي لأكثر من دورة وترأس مجلس النواب أكثر من دورة نيابية، وتولى عضوية مجلس الأعيان لأكثر من دورة. أسس المجمع العلمي العراقي وترأسه سنوات، كما انتخب عضواً في مجعبي اللغة العربية بالقاهرة ودمشق. عارض سلطة الاحتلال والسلطات التي عينت تحت رعاية الاحتلال. كما عارض تهميش شيعة العراق في العهدين الملكي والجمهوري، وكتب مذكرة بذلك للحكومة العارفية. له مؤلفات عدة عديدة منها: مؤرخ العراق ابن الفوطي، وأصول ألفاظ اللهجة العراقية ولهجات الجنوب وفن التربية في الإسلام. ورحلة في بادية السواة. له ديوان شعر وطني وحكمي.

(٢) مذكرات السيد محسن أبو طيخ: ٢٩٠.

ر. البحث عن حلول واقعية لاستنقاذ حقوق الشيعة المسلموبة

بعد أن تجذر التهميش الطائفي للأغلبية الشيعية في مؤسسات الدولة فقد نشط - إلى جانب المساعي المتقدمة لرفع الظلم والتهميش والإقصاء عن الأغلبية الشيعية المقموعة - مسعى آخر للمطالبة بحقوق الشيعة المهضومة، بعد اعتداء خطير ارتكبته قوات الشرطة والجيش في (١٠ محرم ١٣٤٦هـ/ ١٠ تموز ١٩٢٧م) بدفع من رئيس الوزراء الطائفي جعفر العسكري تعرض له المشاركون في ذكرى حلول يوم العاشر من محرم الحرام في الصحن الكاظمي الشريف أدى إلى سقوط العديد من القتلى والجرحى، ثم تطور الأمر بعد ذلك بين الشيعة المدنيين والقوات المسلحة ما أدى إلى إصابة ما قدر بمائة منهم بجروح.

لقد أدى هذا الحادث الدموي الطائفي إلى أن يتنادى في بغداد مجموعة ضمت من الشيعة السيد محمد الصدر وأمين الجرجفجي، ومجموعة مثلها في النجف ضمت بعض كبار المجتهدين والعلماء والفضلاء من رجالات وقادة ثورة العشرين، وشخصيات دينية وثقافية محترمة وغيرها إلى البحث عن حلول لاستنقاذ حقوق الشيعة من بين أيدي الحكام الظلمة. بل من أيدي من "وضعوا إخلاص الشيعة وأصلهم الإثني موضع تساؤل بصورة متكررة... فصوروا المذهب الشيعي على أنه هرطقة هدامة مدفوعة أساساً بحقد الفرس على العرب، وشدّدوا على التهديد الفارسي لفكرة القومية العربية... وكان الكثير من إحباط الشيعة حول هذه القضية نابعاً من حقيقة أن حكام العراق السنة تمكنوا من ربط قضية الشعوبية بالاحتجاجات الشيعية على تمييز الشيعة بحقهم وتصوير تظلمات الشيعة وكأنها أفعال تروج للطائفية في الدولة وتمكن الساسة السنة

بذلك من وضع الشيعة في موقف دفاعي"^(١).

لقد "ظهرت مشاعر الإحباط لدى الشيعة إزاء محاولة السنة الطعن في عروبتهم وإخلاصهم للدولة العراقية... وشكلت محاولات الملك فيصل وساسة العراق السنة لتأسيس جيش نظامي تحدياً آخر في مواجهة الشيعة... ففي (أيار/ مايو) قدم مشروع قانون التجنيد إلى البرلمان للموافقة عليه، وقد اعترض الساسة الشيعة وشيوخ العشائر والمجتهدون على القانون وحاولوا تشكيل جبهة ضده واستقال وزير التربية السيد عبد المهدي -المنتفجي- احتجاجاً... وبعثوا برسائل إلى مجتهد النجف يحثونهم فيها على معارضة القانون... ولم تكن معارضة الشيعة للقانون نابعة من انعدام الروح الوطنية أو عدم الولاء للدولة، بل كانت تنطلق من نظرهم إلى التجنيد كرمز لهيمنة السنة ووسيلة لتعزيز سلطة بغداد المركزية.. يضاف إلى ذلك أن الشيعة رفضوا بشدة حقيقة أنه في الوقت الذي كانت فيه مراتب الصف بوحدة الجيش التي كانت موجودة في العشرينات تتألف بالدرجة الرئيسية من العناصر العشائرية، لم يكن هناك أي شيعي تقريباً بين الضباط الذين كانوا في الغالب من العثمانيين والشريفيين السابقين"^(٢).

ومن أجل أن نعرف المقصود بالضباط الشريفيين إنهم العراقيون الذين: كانوا ضباطاً في الجيش العثماني، وكانوا كلهم من سنة بغداد أو من النصف الشمالي من البلاد. منهم جعفر العسكري ونوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي، وكلهم أصبحوا فيما بعد رؤساء وزراء، كما أصبح

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢١٠.

(٢) شيعة العراق. إسحاق النقاش: ٢١٢ - ٢١٣.

الشريفيون العمود الفقري للجيش العراقي الجديد^(١). مشكلين بوجودهم "تلك
التركة الثقيلة من الرواسب.. فمن وزارة النقيب الثالثة اختص بالحكم تقريباً
تلامذة مدرسة الأستاذة، ودامت لهم الهيمنة على العراق إلى آخر ساعة من
الحكم الملكي"^(٢).



(١) ينظر: العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٥٥ و٣٦٢.

(٢) الأحلام. الشيخ علي الشرفي: ٢١١.



الفصل الحادي عشر

الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري وتوالي فجائعه العابرة لقرنه

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في
الربع الثالث من القرن الرابع عشر الهجري
متمثلاً بالتصدي للطائفية السياسية من خلال
مذكرة الهيئة العامة للشيعة وميثاق النجف الأشرف
والثورات الشيعية المحتجة



لقد تعددت مكاتب المجتهدين وكبار العلماء من أجل إنصاف المظلومين الشيعة المهمشين ويأتي في مقدمتهم: المرجع الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء وذلك نتيجة لشدة معاناة الشيعة من تهмиشهم وإقصائهم برزت فكرة مفادها الطلب إلى المندوب السامي البريطاني هنري دوبس بتغيير الحكومة وإلا "فتقسيم البلاد وتشكيل حكومة شيعية في المناطق الشيعية"^(١)، ويعد من بين مراجع النجف ومجتهديها وعلمائها ورجالاتها البارزين الداعمين لهذا التوجه كل من المرجع الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والمجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد جواد الجزائري والشيخ هادي كاشف الغطاء والشيخ جواد الجواهري والسيد محمد علي بحر العلوم والشيخ علي الشرقي. وقد عقدت الحركة اجتماعين في النجف بتاريخ (١٥-١٧ ربيع الأول ١٣٤٦هـ/ ١٢ و ١٤ أيلول ١٩٢٧م) وما بعده ضمت من تقدمت أسماؤهم من مجتهدين وعلماء وسياسيين فاعترض عليها بعض المجتهدين على الرغم من أنهم وافقوا على تنشيط المساعي من أجل "تخصيص نصف المناصب الوزارية في كل حكومة للشيعة والنصف الثاني للسنّة العرب والمسيحيين واليهود، والمساواة في تعيين الموظفين الرسميين وإجراء انتخابات برلمانية جديدة بعيداً عن تدخل الحكومة"^(٢). غير أن هذه المساعي انتهت إلى غير ما نتيجة تذكر.

وربما كان من أسبابها رفض بعض كبار السياسيين الشيعة المرموقين مشاركتهم سعيهم في هذا المنحى "ففي العام ١٩٢٧.. اتصل مجتهد شيعي أكبر هو الشيخ

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢١٦-٢١٧.

(٢) شيعة العراق. سابق: ٢١٧.

محمد حسين كاشف الغطاء بأبي التمن وحثه على الانضمام إلى أبناء طائفته، ولكن أبا التمن رفض رفضاً قاطعاً^(١) إجابة المرجع إلى طلبه.

وإذا كان الباحث حنا بطاطو قد أرجع سبب رفض جعفر أبو التمن ذلك يعود إلى قناعاته الراسخة بأهمية "الجمع بين الشيعة والسنة.. إذ لم يكن هنالك في رأيه من سبيل آخر إلى كسر شوكة الإنكليز"^(٢) غيره، فإني لم أستوضح ذلك، لا لأنني اختلف معه في قناعة جعفر أبو التمن بذلك التوجه، بل لأن الغرض من الاتصال به كان هو تحقيق العدل بدفع ظلامة الشيعة وتهميشهم وهم الغالبية، وليس عدم التعاضد بين العراقيين بمختلف أطرافهم للوقوف ضد الإنكليز.

١ مذكرة الهيئة العامة للشيعة في العراق سنة ١٩٣٢ م.

ثم كان أن قدم قادة الشيعة مطالبهم في مذكرة موقعة باسم (الهيئة العامة للشيعة في العراق)^(٣) أوائل عام (١٩٣٢ م) أرسلت نسخ منها إلى عصبة الأمم في جنيف ووزارات خارجية كل من: بريطانيا وتركيا وإيران والمندوب السامي البريطاني في العراق ورئيس مجلس النواب البريطاني ومجلة بريطانية ومجلة العرفان اللبنانية التي نشرتها بعددها الصادر في آيار (١٩٣٢ م)^(٤) بعد معاناة في طبعها ونشرها داخل العراق "بسبب الإنذارات التي وجهتها الشرطة إلى الصحافة.. وطالب أصحابها بتقاسم السلطة تقاسماً نسبياً بين الشيعة والطوائف الأخرى في العراق وزيادة عدد الشيعة في بعثات الطلبة الذين يرسلون إلى الخارج واستثمار

(١) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٣٣١ - ٣٣٢.

(٢) خلافاً لما أسأها الباحث إسحاق نقاش باسم (اللجنة التنفيذية لشيعة العراق) في كتابه شيعة العراق: ٢١٨.

(٣) تنظر: مجلة العرفان اللبنانية دراسة تاريخية ١٩٠٩ - ١٩٣٦ (رسالة ماجستير. كلية الآداب قسم التاريخ

جامعة الكوفة). مجيد حميد عباس الحدرواي ٢٠٠٧ م.

موارد حكومية في المناطق الشيعية وتخصيص أراضي من ممتلكات الدولة للزراعة الشيعية وتوزيع عوائد الوقف توزيعاً نسبياً على المؤسسات الدينية الشيعية والسنية، وحرية التعبير^(١) و"تحسين الخدمات"^(٢) كما طالب أصحاب المذكرة بإجراء استفتاء تحت إشراف (عصبة الأمم) للتوثق من تظلمات الشيعة، ورغم أن المذكرة أثارت ضجة بين ساسة العراق السنة فإن مطالب الشيعة عموماً لم تلقَ استجابة^(٣) علماً بأن "المسؤولين البريطانيين والأمريكان على السواء اعتبروا المذكرة بأنها تعكس المزاج العام للمجتمع الشيعي العراقي"^(٤)، ومع ذلك فقد منعت المجلة بعد ذلك من دخول العراق^(٥).

وحين استمرت وطأة الإقصاء والتهميش والطائفية المقيتة ضد الشيعة وتراكمت مفاعيلها، عادت المرجعية تطالب بحقوق المظلومين مرة أخرى، حين عارض المرجع الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء حكومة الأيوبي، فعقد اجتماعاً في بيته للزعماء والشيخوخ، قدموا على إثره مضابط للملك غازي، مطالبين بحقوقهم المشروعة وصيانة الدستور.

غير أن سياسة الإقصاء والتهميش والتسلط والبطش والطائفية ضد الشيعة ازدادت سوءاً بعد أن تولى رئاسة الوزراء الطائفي القومي العسكري المتلون ياسين الهاشمي ذو الميول القومية المدعاة من جهة والقائل لمس بيل إنه: "قرأ صيغة

(١) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢١٨.

(٢) مجلة العرفان اللبنانية دراسة تاريخية ١٩٠٩ - ١٩٣٦ (رسالة ماجستير. كلية الآداب قسم التاريخ جامعة الكوفة). مجيد حميد عباس الحدرائي ٢٠٠٧ م.

(٣) شيعة العراق. إسحاق نقاش: ٢١٨ - ٢١٩.

(٤) مجلة العرفان اللبنانية دراسة تاريخية ١٩٠٩ - ١٩٣٦ (رسالة ماجستير. كلية الآداب قسم التاريخ جامعة الكوفة). مجيد حميد عباس الحدرائي ٢٠٠٧ م.

المعاهدة وكان رأيه أن العراق لا يستطيع أن يتوقع شروطاً أكثر تسامحاً منها^(١) من جهة أخرى، والحاصل "على قطع من أراضي الدولة بلا مقابل بعد وصوله إلى السلطة"^(٢) و"بطرق مشكوك بها.. حصل بواسطتها على ما يزيد عن ٦٠٠٠٠ دونم"^(٣).

وكان ياسين الهاشمي "قد نصب العداء للشيعية في العراق وعلمائهم وأئمتهم ومنعهم من عاداتهم ومراسيمهم الدينية وشرع في تخريب آثارهم وسلب تراثهم التاريخي"^(٤) ومنها سعيه إلى منع الشعائر الحسينية، بل تفاخر بذلك كما بدا من رسالة نسبت إليه بعثها إلى رئيس الوزراء العراقي السابق ناجي شوكت جاء فيها قوله: "لا يوجد موكب عزاء واحد في هذه السنة، بل عملت القرايات في مسجد الخلافي والكاظمية في الصحن نفسه، ومرت أيام محرم على بغداد، وكأن محرماً لم يمر مدرء عليها".

ومن طائفيته المقيتة رفضه تبرعاً خيراً محضاً لإرواء مدينة النجف الأشرف سكاناً ومزارع بالماء الصالح للشرب والسقي تقدم به الوجيه الحاج محمد علي رئيس تجار عربستان/ إيران بعد أن اطلع على عطش المدينة المقدسة وظمئها فبادر إلى التبرع بكلف مشروع إيصال الماء الصالح للشرب إلى مدينة النجف الأشرف وإن بلغت ما بلغت وقدم عرضاً بذلك إلى الملك فيصل الأول فوافق عليه ورفع مع طلب المتبرع إلى الحكومة العراقية وكانت حينها برئاسة جعفر العسكري فوافقت عليها بالإجماع بعد تبني وزير المالية يومها الحاج عبد المحسن شلاش له بتاريخ

(١) لمحات من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي: ٦ / ١٩٥. وينظر هامش الصفحة.

(٢) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٢٩.

(٣) العراق. حنا بطاطو. الكتاب الأول: ٢٣٧ وينظر هامش الصفحة.

(٤) معارف الرجال. سابق: ٦٩ / ٢.

(٣ آذار ١٩٢٣ م) نظراً لحاجة المدينة الماسة إليه ولأنه لا يكلف الخزينة العراقية فلساً واحداً ولنفعه العام في مجالات أخرى مهمة وهي:

١. فسح المجال بدخول رؤوس الأموال من الخارج بطريقة التبرع.
٢. تعمير الأراضي الميتة تمهيداً للأمن والعمران.
٣. دفع العشر من (كذا) الخزينة من ناتج الزرع والضرع.
٤. عدم تكليف الخزينة أي خسارة للقيام بإنشاء المشاريع أولاً، وصيانتها الدائمة ثانياً.
٥. تخفيف النفقات عن خزينة الدولة من وجهتي المعارف والصحة في النجف وكربلاء في النجف.
٦. وجوب تأمين أسباب الراحة والعمران للأماكن التي يؤمها سنوياً عدد كبير من الزوار والسواح ممن يتركون مالية كبيرة بطرق مختلفة يعود نفعها للعراق بوجع عام.

وعند ذاك صدرت الإرادة الملكية بالتصديق والتنفيذ^(١) في (١ رمضان ١٣٤٢ هـ / ٦ نيسان ١٩٢٤ م) وجاء فيها "لما استدعى الحاج محمد علي رئيس تجار عربستان ورفع لنا بكتاباته المؤرخة (١١ تشرين الثاني ١٩٢٣ م) بأنه مستعد لأن يتبرع بإعطاء ثلاثمائة ألف رويية على أن يكون مصرفها في حفر جدول من محل يعرف بالمزيديات المتصلة في جدول بني حسن وينتهي مصبه إلى بحيرة النجف، وهذا التبرع غايته إرواء بلدة النجف والانتفاع بالماء أينما

جرى للخيرات... وجدنا أن معروضة المذكور ينطوي على أكبر مشروع

(١) فيصل والعتبات المقدسة. عبد المحسن شلاش. بحث. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٠ لسنة ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م.

خيري، سقاية ماء، وتربية أبناء، واستعداداً لشفاء فأمرت^(١) بالتنفيذ.

غير أن حكومة جعفر العسكري الأولى استقالت، وحلت محلها حكومة شكلها الطائفي ياسين الهاشمي في (٢ محرم ١٣٤٣هـ/ ٢ آب ١٩٢٤م) فقررت أمراً غريباً جداً مفاده إرجاع أموال المتبرعين لأصحابها.

يقول الوزير عبد المحسن شلاش مستغرباً ومعتزلاً: "رأينا انحرافاً بيننا في فكرة الحكومة اتجاه المشروع وسمعنا الدعايات ضده بمختلف الأساليب حتى قررت الرجوع عن العمل وإرجاع أموال المتبرعين لأصحابها.. نعم ردت الـ(٣٠٠) ألف ربية بتمامها.. والمُتَبَرِّع لا يعاد بحكم الشرع والقانون، نعم كان يجب أن لا تعاد، وكان يجب استثمارها بتوابعها الموعد بها لعين الأغراض الخيرية في العتبات المقدسة التي كانت ولا تزال متعطشة لمثل هذه المشاريع الخيرية في العراق أو خارجه.. بقصد الخير المحض"^(٢).

وهكذا أصرت حكومة ياسين الهاشمي الطائفية أن تُبقي مواطنيها عطاشى وأراضيها بوراً يباباً بلا زرع ولا ضرع، فتردّ عرضاً خيراً مجانياً لا يكلفها فلساً واحداً من محسن متبرع حريص على مصلحة وراحة مواطنيها وزوارها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ميثاق النجف المطالب بحقوق الشيعة، وأهميته، وبعض مواد

ما كاد يحل عيد الغدير من عام (١٣٥٣هـ، الموافق ليوم ٢٣ آذار من سنة ١٩٣٥م) حتى صدر (ميثاق النجف) من دار المرجع الشيخ محمد حسين آل

(١) فيصل والعتبات المقدسة. عبد المحسن شلاش. بحث. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٠ لسنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

ص: ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٤٧. وما بعدها.

كاشف الغطاء موقعاً من قبل زعماء قبائل الفرات الأوسط، الذين رفعوا مطالبهم لمرجعهم الديني، ليقدمها بدوره للملك، ويطلبه بإنجازها باسمه واسمهم، ومن طريف ما نصّ عليه الميثاق صراحة، مطالبته بحقوق الشيعة المهمشين المغتصبة حقوقهم من قبل أقلية مستأثرة بالسلطة، والجاه، والمال، على الرغم من أنهم يشكلون الأغلبية العظمى من الشعب العراقي.

ونظراً لأهمية الميثاق التاريخية فإني سأقتبس بعضاً من مواده وبعضاً من ديباجته خشية الإطالة فيما يأتي:

"نحن الموقعين بذيله أدناه من زعماء القبائل في الفرات الأوسط، قد رفعنا مطالبنا المشروعة التي كان جلّ الغرض منها إصلاح وضع المملكة العراقية (...). قد رفعنا مطالبنا إلى سماحة زعيمنا الروحي المصلح الأكبر حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء دام ظله كي يتقدم بها مليكنا المعظم صاحب الجلالة الملك غازي الأول وحكومته الموقرة ويطلب إنجازها، وسماحته هو الممثل لنا جميعاً والمفوض فيها والنافذ أمره علينا فيما يعود إلى مصالحنا، وقد أعطيناه هذا الميثاق شاهداً وحجة علينا، مع الالتزام والتعهد منا جميعاً على محافظة مصالح الأجانب في البلاد وتتمام الرعاية للمعاهدات الدولية، مع المثابرة على المطالبة بإنجاز تلك المواد الإصلاحية وتحقيق رغباتنا القانونية، مهما كلفنا الأمر وللبيان حرر:

المادة الأولى: لقد تمشّت الحكومة العراقية منذ تأسيسها حتى اليوم على سياسة خرقاء، لا تتفق ومصالح الشعب، واتخذت سياسة التفرقة الطائفية أساساً للحكم، فمثلت أكثرية الشعب بوزير واحد أو وزيرين، ممن يسايرون السلطة في سياستها (على الأكثر)، وعلى مثل هذا الأساس، تمشّت في سياسة التوظيف، فظهر

التحيز صريحاً في انتقاء الموظفين، وأعضاء مجلس الأمة، بينما القانون الأساسي لم يفرق بين أبناء البلاد، كما نصت المادة السادسة من القانون الأساسي.

فلايجاد الاستقرار والطمأنينة في نفوس الشعب، ورفع التفرقة بين أبناء الأمة، يجب أن يساهم الجميع في مجلس الوزراء، وفي مجلس الأمة، وسائر وظائف الدولة، كما يساهم في الجندية والضرائب.

أما (المادة الثانية)، فقد أوجبت تعديل قانون الانتخاب على أساس ضمان الحرية المطلقة بوضع القيود بدرجة واحدة، واعتبار كل لواء منطقة انتخابية مستقلة.

وطالبت (المادة الثالثة): العمل بالمادة (٧٧) من القانون الأساسي، التي تنص على وجوب تعيين القضاة من مذهب أكثرية السكان (...) مع لزوم تدريس أحكام الفقه الجعفري في كلية الحقوق العراقية.

وطالبت (المادة الرابعة) بأن يكون في كل فرع من فروع محكمة التمييز عضو شيعي، أسوة بما سبق أن مثلت الطائفتان غير المسلمتين، والعناصر الأخرى فيها.

وجاء في (المادة الخامسة): لما كانت الصحافة لسان الشعب الناطق، فيجب إطلاق الحريات الكاملة للصحافة، ورفع القيود الإدارية. وحصر المسؤوليات بالمراجع القضائية.

وجاء في (المادة السادسة) الخاصة بالأوقاف العامة، وجوب صرف مواردها على المؤسسات الإسلامية بصورة عامة.

أما (المادة العاشرة) فقد نصت على أن معظم مؤسسات الدولة: الصحية، والعمرانية، والتهذيبية، لم تراعى في توزيعها النسبة العادلة بين أبناء الشعب،

وخاصة في المنطقة الجنوبية من العراق. كما يجب وضع الأنظمة والقوانين لمنع تفشي الأمراض الاجتماعية والأخلاقية وتهذيب مناهج المعارف. في حين نصت (المادة الثانية عشرة) الأخيرة، على توقيف أحكام القوانين التي تعارض هذه الطلبات، واستبدالها بما يضمن تنفيذ الطلبات المتقدمة^(١).

٣ ثورات الشيعة ضد الطائفية والإقصاء وقمعها بالحديد والنار

ولما لم تستجب الحكومة لمطالب الميثاق، اندلعت ثورة الرميثة الأولى في (١٣٥٤هـ / ٧ أيار ١٩٣٥م)، فحركت الحكومة قواتها إليها، معلنة الأحكام العرفية في الرميثة، وما جاورها، لتقمع الثورة، ولتشكل مجلساً عرفياً لمحكمة الثائرين، مما اضطرت معه مرجعية النجف الأشرف، إلى التدخل، حيث احتج المرجع الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والمجتهد الشيخ عبد الكريم الجزائري (قدس الله سريهما) وغيرهما، مطالبين الملك غازي بوقف العمليات العسكرية القامعة، والتوقف عن تعقب الثائرين، ولما لم يجد الاحتجاج نفعاً، اندلعت ثورة سوق الشيوخ، وما جاورها، في (١٣٥٤هـ / ٩ أيار ١٩٣٥م)، وكادت تسقط المنتفق كلها بيد الثائرين، فانتقل وزير الدفاع جعفر العسكري في ١٦ أيار ١٩٣٥م إلى الناصرية، وتفاوض مع الثائرين، سائلاً عن أهدافهم في الثورة، فأجابوه صراحة (إن لنا ميثاقاً يجب أن ينفذ، فأجابهم أن الحكومة مستعدة لمفاوضة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في الميثاق) (...) كما التقى الشيخ عبد الحسين مطر وكيل المرجع آل كاشف الغطاء، طالباً منه التوسط لدى العشائر وإصلاح الأمر. ثم وجّه الثائرون كتاباً إلى المرجع الشيخ محمد حسين آل

(١) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ٦٢ - ٦٥، نقلاً عن تاريخ الوزارات العراقية. عبد الرزاق الحسني: ١٠١/٤.

كاشف الغطاء، يخبرونه بالاجتماع (...)، ثم قالوا له إذا لم تعطنا الحكومة رغائبنا على يدكم، فإننا ناثرون، ومطالبون بالحقوق الميثاقية، مهما كلف الأمر، وقد رجوا منه أن يبعث اليهم برأيه وتعليماته (...)، فوجه الشيخ إلى وكيله في الناصرية، وإلى الثوار، يطلب فيها منهم الإخلاء إلى السكينة، ريثما تتم المفاوضات بينه وبين الحكومة، حسب وعد وزير الدفاع، وقد وزعت الحكومة نسخاً كثيرة من كتاب الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء على العشائر، لتكون على بينة منه، كما وجه ياسين الهاشمي كتاب شكر إلى الشيخ محمد حسين على بيانه، وهذا ولكن بعد أن وصلت قطعات الجيش إلى الناصرية، وبعد أن هيأت الحكومة القوة الكافية، قمعت الثورة بشدة، واستمرت في إجراءاتها التأديبية ضد القائمين بها، بعد أن أعلنت الأحكام العرفية^(١).

على الرغم أن مطالب الثوار كانت عادلة فقد ورد "في جوابهم عن أسباب الثورة في سوق الشيوخ في الثلاثينات، أجاب رؤساء العشائر بلسان أحدهم وهو الشيخ فرهود الفندي: إنهم كانوا يطالبون بالمساواة في الحقوق ورفع الحيف والظلم عن أكثرتنا الساحقة في البلاد العراقية"^(٢).

ومع ذلك، تم قمع وتصفية الثورة، بل المدنيين المسالمين، بمن فيهم رجال العشائر، أو رجال المدن، أو المدرسين، أو التلاميذ الجعفرين، ممن لم يكن لهم ضلع في الثورة^(٣) بأبشع صورته، عنفاً، ووحشية، وهي إن دلت على شيء، فإنها تدل على العقلية التي كانت تدار بها شؤون الدولة العراقية، ولا سيما في معالجة

(١) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام.. عبد الكريم الأزرعي: ٧٢-٧٤.

(٢) الطائفية في العراق. سعيد السامرائي: ٧٤. وتنظر: هوامش الصفحة.

(٣) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام.. عبد الكريم الأزرعي.

موضوع خطير كموضوع الغبن السياسي، التي كانت تتحسس به الأكثرية الشيعية العربية في العراق، وقد جاء في الكتاب السري (عدد ٢٥٧ والمؤرخ في ٩/ مارس/ ١٩٣٥ م- ١٣٥٤ هـ) الموجّه من متصرف لواء المنتفق، إلى وزير الداخلية السيد رشيد عالي الكيلاني ما يأتي: كما أخبرت فخامتكم شفهيّاً، إن الجعفرين بصورة عامة، والفراتيين بصورة خاصة، متشبعون بأفكار غير حسنة تجاه الحكومة (...)، فعليه نرى أن الموقف يتطلب قيام الحكومة بحركات تأديبية شاملة، من شأنها إعادة سيطرة الحكومة بالمعنى الصحيح، وتطهير الأدمغة من هذه الأفكار السيئة، ولا يمكن ذلك إلا بجمع السلاح، والقبض على عدد من رؤساء العشائر، والقضاء على نفوذ العلماء، بأية صورة كانت^(١).

وما كادت تنتهي معارك، ومضاعفات ثورتي الرميثة، وسوق الشيوخ، عام (١٣٥٤ هـ/ ١٩٣٥ م)، حتى شبت (ثورة بني ركاب)، وتبعتها (ثورة الرميثة الثانية) التي اشتعلت في ٢١/ ٤/ ١٩٣٦ م، و(ثورة عشائر الأكرع عام: ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٦ م)، فأخذت ثورة الرميثة الثانية ببطش كبير، من قبل الجيش بأوامر صريحة صادرة من بكر صدقي بأن تقمع الثورة بمنتهى القسوة، وإن استدعت تقتيل الشيوخ، والعجّز، والنساء، والأطفال، وحتى الجريحين والمستسلمين من الأسرى كما ثبت في الواقع بعد التحقيق (...). ثم قامت ثورة عشيرة الأقرع التي كان السبب المباشر لاندلاعها القسوة التي اقترفت في قمع ثورة الرميثة الثانية. كما قمعت ثورة عشيرة الأقرع هي الأخرى بقسوة متناهية^(٢).

(١) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ٧٥ وما بعدها نقلاً عن عبد الرزاق الحسيني. تاريخ الوزارات العراقية: ٤/ ١٤٠.

(٢) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ٧٨-٧٩..

ولم تكتفِ الحكومة بقتل الشيوخ والنساء والأسرى والأطفال في إخماد الثورات المطالبة بالمساواة في الحقوق والواجبات وعدم التهميش بل ورد في تقرير طه الهاشمي رئيس أركان الجيش عن أسباب الثورات والذي قدم مع كتاب وزير الدفاع جعفر العسكري إلى رئيس الوزراء في (٣٠/٦/١٩٣٦م) قال الهاشمي "يجب معاقبة المسببين لهذه الحركة والذين رتبوا التمرد وقادوا الرجال للقتال عقاباً شديداً.. ومن جهة أخرى يجب حرمانهم من الحقوق التي يتمتعون بها، ولعل أنجح سياسة في هذا الباب إجلاء العشيرة من أراضيها وإسكانها في محل آخر مجتمعة أو متفرقة. ويجب تطبيق هذه السياسة على بني عارض" (١).

وقد كتب علي محمود الشيخ علي وزير سابق رسالة إلى ناجي شوكت رئيس وزراء سابق في (٩ ربيع الثاني ١٣٥٥هـ/ ٢٩ حزيران ١٩٣٦م) حول ما جرى وما كان يجري في جنوب العراق من ثورات ضد الطائفية والتهميش للشيعية فيصفها بـ "دسائس الداخل" و "المناطق المشبوهة" وأنه يعتقد بأن "هذا الحزم الذي أبدته السلطة ضروري لقمع دابر المفسدين.. إن منطقة الثورة كادت أن (كذا) تطهر وعمّا قريب ستترك الجيوش أماكنها عائدة إلى محلاتها الأصلية وستنتهي الأحكام العرفية وأعمال المجلس الحربي" (٢).

ويحلل باحث عراقي العنف القمعي فينتهي إلى أنه "من نتائج السلطة لا

(١) مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: ٧٨. وقد اعتمدت على المصد السابق لأهمية كاتبه الأستاذ عبد الكريم الأزري السياسية، فقد شغل عدة مناصب حكومية مهمة منها منصب: معاون لرئيس الديوان الملكي، ورئيساً للديوان الملكي بالوكالة، ورئيساً للتشريعات الملكية ونائباً في البرلمان ووزيراً للمالية لعدة تشكيلات وزارية ووزيراً للإعمار. كما كان وثيق الصلة بالأحداث لقربه منها يتقن الإنكليزية والفرنسية جيداً والألمانية بدرجة أقل.

(٢) ناجي شوكت: ٦٩٨ - ٦٩٩.

المجتمع.. شارك فيها معظم رجال السلطة كياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد واستخدم الجيش في مهمات الجندرية، واعتبر العمل السياسي المعارض فعلاً جنائياً يحال مقترفوه إلى إدارة التحقيقات الجنائية في الشرطة العامة والمسؤولة عن ملاحقة النشاط الإجرامي، وكانت مخافر الشرطة وما تزال تستقبل في وقت واحد وقاعة واحدة طالباً محتجاً على سياسات الحكومة وزعيماً سياسياً معارضاً ومجرماً من ذوي السوابق في اغتصاب الأطفال.. وما بين عامي ١٩٣٣-١٩٥٨ أصدرت السلطة ٣٧ مرسوماً وقانوناً لمعاقبة العاملين في خطوط المعارضة^(١).

لقد وصف الباحث الدكتور علي الوردي وغيره الثورات التي اشعلتها القبائل العربية ضد الحكومة في جنوب العراق عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ في سعي منها لأن تكون "مثل الثورة التي قامت بها عام ١٩٢٠ وقد أيدها في ذلك بعض رجال الدين في النجف وبعض رجال السياسة في بغداد، فأرسلت الحكومة إليها جيشاً قوياً بقيادة رجل سفاك شديد المراس هو بكر صدقي، فاستطاع هذا الرجل أن يضرب تلك القبائل واحدة بعد الأخرى ضربات ساحقة"^(٢).

غير أن ما يؤسف له تبني بعض كبار شيوخ ثورة العشرين في الفرات الأوسط لميثاق النجف من قبيل: الشيخ عبد الواحد آل سكر، والسيد محسن أبو طيخ، والسيد علوان الياسري، والشيخ فريق المزهري الفرعون، ثم عدولهما عن تأييده، وصولاً إلى رفض التوقيع على الميثاق، نتيجة لصراع شيعي - شيعي بين الشيوخ السياسيين ومصالح شخصية^(٣)، وأمثال ذلك.

(١) دولة المنظمة السرية. حسن العلوي: ٣٣.

(٢) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي. سابق: ١٧٥.

(٣) تنظر: موقف وزارة الهاشمي الثانية من مطالب الشيعة. د. عبد الأمير هادي العكام: ١٧٦.



الفصل الثاني عشر

أولاً

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في
الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري

* * *

مقاومة الطائفية السياسية والتهميش والظلم
ضد الشيعة في العهد الجمهوري

* * *

"مرجعية الإمام الحكيم"



يعدّ هذا العهد من أسوأ العهود التي مرت على الشيعة في العراق، طائفية ومناطقية وظلماً وتسفيراً واضطهاداً وقهراً وقتلاً وإبادة بالجملة حيث أدرك حكامه أن الضمان الوحيد لبقاء حكمهم واستمراره هو تطبيق الطائفية السياسية ضد الأغلبية الشيعية بأشد صورها وأبشعها، وتحكيم الأقلية في إدارة شؤون الأمة والوطن ذلك أن "حكم الأقلية يعني استحالة إقامة نظام برلماني حقيقي، لأن الأقلية ستخسر سيطرتها، وبما أن الأقلية لا يمكن أن تمسك بالدكتاتورية بدون قوة، فلا بد من الأساس العسكري للنظام، وسيطرة الأقلية من خلال أبنائها على قيادات الجيش ومفاصله الرئيسية، سيما الاستخبارات العسكرية، وبما أنه لا بدّ من سيطرة قوية على الشارع الذي لا بدّ وأن يثور بين الحين والآخر.. فلا بدّ إذاً من القوة العسكرية للجيش كي يسحق الثورة ويحفظ النظام من السقوط"^(١).

يقول الباحث المصري د. حسنين توفيق متحدثاً عن طائفية الحكم بقوله: "أما في العراق فالتكريتيون البعثيون العرب السنة هم المسيطرون على السلطة، ويمثل العرب السنة حوالي (٢٠ ٪) من إجمالي عدد السكان بينما يشكّل الشيعة أكثر من نصف عدد السكان... في ظل هذه الأوضاع فإن الأغلبية العددية تعدّ في حكم الأقلية من حيث التمييز الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ضدها، إذ تحرص الأقليات الحاكمة في هذه البلدان على ضمان استمرارها في السلطة، وذلك من خلال تدعيم سيطرتها وقبضتها على مختلف عناصر القوة في المجتمع وبخاصة في الجيش وأجهزة الأمن والحكومة والاقتصاد... في استخدام القوة المسلحة لإخماد أي حركات أو تمردات من قبل الأقليات، وممارسة الحبس والاعتقال وتدمير بعض

(١) الطائفية في العراق. سعيد السامرائي: ٦٦.

عمليات الاغتيال ضد العناصر النشطة والمناوئة لها"^(١) وهو ما كان.

فخلال هذا العهد كانت الأقلية السكانية السنية "تسيطر على الحكم وتستأثر به وبسلطاته وأجهزته وقواته وتسخرها جميعاً لتحسين وجودها وتثبيت هيمنتها وتأمين مصالحها ومغانمها بينما الأكثرية الشيعية... محرومة من الاشتراك في الحكم وفي سلطاته وأجهزته وقواته وتعاني من مرارة الغبن والإجحاف وهضم الحقوق والتحيز والتمييز ضدها. ومنذ الانقلاب البعثي في سنة ١٩٦٨ أصبحت تقاسي مرارة الاضطهاد والقتل والتعذيب والسبي والتهجير والتشريد إلى خارج العراق ومصادرة الأموال والأموال، إلى غير ذلك"^(٢).

وقد تصدى للظلمات القاسية التي مورست في هذا العهد ضد المراجع والحوزيين والخطباء والمبلغين والشباب الناهض وعموم الشيعة وخاصة المتدينين منهم وجاهد بكل ما يستطيعه كل منهم بحسب ظروفه ومبانيه ثلاثة من مراجع الشيعة في النجف الأشرف وهم كل من: المرجع الأعلى في عصره سماحة السيد محسن الحكيم (ت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) والمرجع الأعلى الخلف سماحة السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي الذي امتدت مرجعيته من وفاة المرجع الأعلى السلف السيد الحكيم إلى نهاية القرن الرابع عشر ثم إلى أكثر من عقد من القرن الذي يليه (ت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م). وقد عاصر زمن مرجعيته العليا شهادة سماحة المرجع السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م).

وسأقف وقفات قدر ما يسمح به الحيز المخصص لذلك على أهم المحطات

(١) ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية. د. حسنين توفيق إبراهيم: ٢٣٠.

(٢) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. عبد الكريم الأزري: ٤٧.

السياسية المهمة في سيرة ومسيرة كل من المراجع الثلاثة مبتدئاً بالمرجع الأعلى السيد محسن الحكيم.

لقد بدأ حضور سماحة المرجع السيد محسن الحكيم على الساحة السياسية العراقية أول ما بدأ خلال اشتراكه الفعال في الجهاد ضد المحتلين الإنكليز عندما غزو العراق من البصرة الفيحاء سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م.

إن هذا الموقف المشهود له فيه بوضوح التكليف وحسن أدائه له ببسالة وشجاعة وحنكة وقدرة على القيادة وحكمة التدبير سيقودنا لا محالة إلى الوقوف على بعض مواقفه وتجلياتها العلمية والعملية على الساحة السياسية العراقية ولا سيما بعد توليه زمام المرجعية، فالمرجعية العليا في النجف الأشرف وذلك في الفقرات الآتية:

سماحته رحمته الله يرى وجوب تدخل العلماء والمراجع في السياسة متى كانت لاستصلاح شؤون العباد



لعل من أدق وأوضح ما يمثل رأي سماحة الإمام الحكيم في السياسة والعمل السياسي ما أورده عنه سماحة السيد أحمد الحسيني مؤلف كتاب الإمام الحكيم، خاصة وأن كاتبه نشره في حياته رحمته الله.

يقول السيد أحمد الحسيني: "سألت الإمام الحكيم عن رأيه في السياسة، وهل أن من واجب رجال الدين التدخل في الشؤون السياسية أم لا؟ فكان ملخص جوابه رحمته الله:

"إذا كان معنى السياسة إصلاح شؤون العباد، والعمل على ترفيه أحوالهم، واستصلاح أمورهم - كما هو المفهوم من معنى السياسة والمطلوب من الساسة - فلم يأت الدين الإسلامي المقدس إلّا للقيام بهذه الأمور. ومن الطبيعي أن من

واجب رجال الدين القيام بكل ما أوتوا من قوة وقدرة كما أن اللازم عليهم السعي في تطبيق هذه الواجبات على الكل على حدّ سواء^(١).
وقد أوضح نجله شهيد المحراب الموقف العملي لسماحته عليه السلام من السياسة بقوله: لقد "أعاد -الإمام الحكيم- للمرجعية خطها الحقيقي الذي يعني بأن الدين والسياسة لا يمكن أن ينفصلا بأي حال من الأحوال. فالسياسة جزء من الدين وأن المرجع لا بدّ له أن يمارس العمل السياسي"^(٢).

سماحته عليه السلام لا يتبنى ثبوت الولاية العامة للفقهاء

وعلى الرغم مما تقدم من تدخل سماحته تدخلاً يصل إلى حد مسعاه تثوير الشعب لإسقاط النظام فإن الإمام الحكيم لم يذهب في مبناه الفقهي إلى الولاية العامة للفقهاء.

ولو تأملنا في المبحث الطويل والدقيق لسماحته بالولاية في كتابه (نهج الفقاهة) لوجدناه لا يذهب إلى القول بثبوت الولاية العامة للفقهاء، وإن بدا من بحثه أيضاً أنه لا ينفي ثبوت الولاية العامة للفقهاء نفيّاً قاطعاً، ربما لعدم قيام حجة بيّنة عنده على نفيه لها^(٣) أو لغير ذلك.

بل يبدو من كتابه (نهج الفقاهة) أن سماحته يميل إلى القول بالولاية الحسبية... يقول نجله الشهيد سماحة السيد محمد باقر الحكيم: "كان الإمام الحكيم يرى الولاية للفقهاء بمستوى معين مستنداً إلى دليل الحسبة وبعض النصوص الأخرى في بعض الموارد وضرورة إقامة الحكم الإسلامي حفاظاً على كرامة الدين وعزته

(١) الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي: السيد أحمد الحسيني: ٧٠.

(٢) مرجعية الإمام الحكيم نظرة تحليلية شاملة. السيد محمد باقر الحكيم: ٣٧٣.

(٣) ينظر: نهج الفقاهة. السيد محسن الحكيم: ٢٩٩.

وعقيدة المسلمين، وأن الفقيه يمثل القدر المتيقن الذي يتولى ذلك". ويعبر بعض العلماء عن مذهب سماحته ﷺ بولاية الفقيه بأنه كان "يقول بهذه النظرية بشكل جزئي... لا كما يذهب إليه الإمام الخميني من الولاية المطلقة"^(١).

ويضيف: "لم يذكر لنا التاريخ من اعتقد بهذا الاعتقاد وقام بالعمل به، فلم يقم أي مرع في الإسلام بهذا، ولا نعرف مثل هذا الشيء في التاريخ"^(٢).

أما ما قد يبدو من كونه يذهب إلى ولاية الفقيه العامة بدليل تدخله الكبير في الشأن السياسي العام فهو غير دقيق، وأنه قد يكون أقرب إلى إعماله باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ذلك.

يذكر أن الأبحاث في ولاية الفقيه حينها كانت تركز على إثبات أن الأصل هو عدم ثبوت الولاية العامة للفقيه، ثم استعراض الأدلة على الولاية قبولاً أو رفضاً.

أما الآن فبعد المستجدات اللاحقة لعصر سماحته ﷺ فإن الأبحاث الجديدة لكبار العلماء بدأت تبحث في استعراض الأدلة على نفي ولاية الفقيه العامة أو إثباتها.

سماحته ﷺ يطلب من المسؤولين -منذ تصديّه للمرجعية- تنفيذ مطالب المؤمنين لأن المرجعية هي المعبرة عن قضايا الأمة

بعد سفر المرجع الشيعي الأعلى ذلك الوقت سماحة السيد أبو الحسن الأصفهاني إلى بعلبك في لبنان للعلاج سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م) زار مدينة النجف الأشرف الملك فيصل الثاني ملك العراق، وبصحبه الوصي على العرش عبد الإله، ورئيس

(١) نظرية العمل السياسي عند الشهيد السيد محمد باقر الصدر. الشهيد السيد محمد باقر الحكيم

(٢) مذكرات الشيخ الآصفي: ٣١١.

الوزراء نوري السعيد، والتقوا في ضريح الإمام علي عليه السلام -وفق الطريقة المتبعة حينها -بالمرجع الخلف السيد محسن الحكيم ومعه كل من سماحتي الشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد علي بحر العلوم، فعرض سماحة السيد الحكيم على الملك ووفده جملة من مطالب المؤمنين، فوعدوا جميعاً بتنفيذها، ولكنهم أخلفوا، ثم كان أن عاد الملك فيصل الثاني فزار النجف الأشرف ثانية عام (١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م)، فرفض المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم استقبال الملك على الرغم من زيارات وإلحاح المسؤولين عليه لثلاث مرات، فرفض سماحته استقباله لعدم تنفيذه ما وعد به في اللقاء السابق قائلاً أعلاهم منزلة حكومية "نحن لسنا جزء من زخرف الحضرة حتى يأتي الملك ويطلعونه على الزخارف، لقد اجتمعت معهم أول مرة لوجود احتياجات للناس ذكرناها، ولكن يبدو أن القضية ليست جدية حيث لم يتم لحد الآن تنفيذ هذه الحاجات وإنما هي للدعاية، وأنا لست مستعداً أن أكون جزءاً من زخرف الحضرة... ومن خلال هذا التحرك بدأ السيد... يطرح نفسه كوجود في الأمة وأنه المدافع عن مصالح الأمة وكان ذلك تطوراً في تحرك المرجعية"^(١).

ويعقب سماحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم^(٢) نجل المرجع الأعلى

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٤٨ - ٤٩.

(٢) ولد الشهيد سماحة السيد محمد مهدي الحكيم في مدينة النجف الأشرف سنة (١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م) في ظل أسرة علمية عريقة، وما كاد أن يبلغ الشهيد العاشرة من عمره حتى انتظم في سلك الحوزة العلمية ليطوي مرحلتها المبدئية والسطوح ويحضر البحث الخارج على يد أكابر أساتذتها، من أمثال أصحاب السماحة: السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي والسيد محمد باقر الصدر والشيخ حسين الحلي والشيخ محمد تقى الفقيه والسيد محمد علي الحكيم (قدس الله أسرارهم) ومذ أن نهل الشهيد السيد مهدي الحكيم من المعارف ما نهل حتى تفتحت آفاقه بعد العدوان الثلاثي على مصر سنة (١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م) على وعي سياسي متقدم دفعه لسؤال أستاذه الشيخ الحلي مرة عن الحكومة الإسلامية ثم ألحت عليه فكرة تأسيس حزب إسلامي فاتصل ببعض أصحابه ومنهم سماحة السيد طالب الرفاعي فأيدها وعرض عليه الذهاب إلى الشهيد =

= السيد محمد باقر الصدر لطرحتها عليه فتشجع وذهب إلى بيته فطرحها عليه فوافق دون ممانعة أو تردد، وبعد موافقة الشهيد الصدر انتقلت الاجتماعات إلى داره وشيئاً فشيئاً بدأت الرؤى تنضج فكان حزب الدعوة الإسلامية (محمد باقر الصدر. السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. أحمد عبد الله أبو زيد العاملي: ٢٤٠-٢٤١. دار العارف للمطبوعات. بيروت. (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

ثم إلى جانب الوعي والنشاط السياسي المتقدم كان النشاط التبليغي للشهيد المترجم له يأخذ دوره في تثقيف الشباب وتوعيتهم فكانت له حلقة نشطة في المسجد الهندي ابتدأها في (شهر رمضان من عام ١٣٧٨هـ/ آذار ١٩٥٩م) يحضرها إضافة إلى بعض رجال الحوزة جمع غفير من الشباب الواعي المثقف عرض فيها أفكاراً حول أسس الدولة الإسلامية، وقد حضر الشهيد السيد محمد باقر الصدر بعض جلساتها من أجل دعم الجلسة وتشجيع حضورها (المصدر السابق: ١/ ٣٣٢). ثم اختاره والده المرجع الأعلى ليمثله في العاصمة بغداد، فنشط فيها نشاطاً مشهوداً حيث أنشأ المساجد والحسينيات ما أدى إلى التفاف جماهير المؤمنين النشطين الواعين وغيرهم حوله وبدأ دوره يزداد حضوراً وظهوراً على الساحات الدينية والاجتماعية والسياسية في العاصمة بغداد بشكل لافت، فأقلق بذلك الحكام المتسلطين خشية وتوجسا من تأثيره الكبير على استمرار حكمهم لذا قاموا بتلفيق تهمة باطلة له وتعقبوه في كل مكان ورسدوا جائزة لمن يساعد فيلقاء القبض عليه، وقد أمرت الحكومة بمصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة فاضطر حفاظاً على النفس ونقلًا لساحة العمل إلى مغادرة العراق قاصداً الباكستان أولاً، فدبي في الإمارات العربية المتحدة، وقد أثمرت جهوده تلك في دولة الإمارات ثمراً طيباً بتأسيسه لدائرة الأوقاف الشرعية والمجلس الشرعي الجعفري فيها، ثم هاجر ليحط رحاله في لندن بطلب من الشهيد سماحة السيد محمد باقر الصدر ليمكن من مواصلة نشاطه التبليغي والسياسي بصورة أفضل وأخطر على النظام البائد، فشكل حركة عراقية إسلامية في لندن سعت لتقريب وجهات نظر المعارضين للنظام جميعهم بمختلف اتجاهاتهم السياسية والفكرية، هدفها الأساس هو الهدف المشترك للجميع ألا وهو إسقاط النظام حيث الكل متفقون عليه، وأسس مركزاً إسلامياً لأتباع أهل البيت (عليه السلام) باسم (رابطة أهل البيت (عليه السلام) العالمية)، وبادر إلى تأسيس (منظمة لحقوق الإنسان في العراق) لرصد تجاوزات حقوق الإنسان العراقي والشيوعي منه بالأخص في العراق خلال الحكم الصدامي البائد، وتعريف العالم بها إضافة لتأسيسه لجنة ل(رعاية المهجرين العراقيين المقيمين في مخيمات اللجوء في إيران) وإرسال بعثات إغاثة لتلبية ما يمكن تلبيته من احتياجاتهم وغيرها، ناهيك عن دوره السياسي المشهود في طرح القضية العراقية على قادة ورؤساء وسفراء وممثلي الدول والمنظمات الإنسانية العالمية، هذه كلها وغيرها عجلت باستهداف أجهزة النظام الصدامي البائد له، فارتكب رجال المخابرات العراقية جريمتهم الشنعاء باستهدافه خلال حضوره المؤتمر الثاني للجهة الوطنية الإسلامية في الخرطوم عاصمة السودان سنة (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، فأردوه شهيداً في باحة فندق هيلتون، في العاصمة السودانية.

الإمام الحكيم على هذا الموقف المتقدم في حينه بقوله "إن السيد الحكيم عندما يرفض الحضور لاستقبال الملك بعد وفاة السيد أبو الحسن -المرجع الأعلى السلف السيد أبو الحسن الأصفهاني- يعني شيئاً جديداً، وهو حدث سياسي مهم، وقد حاول المتصرف في وقتها أن يقنع السيد الحكيم بالعدول عن موقفه بحجج مختلفة منها: أن المتصرف شيعي، وهذا الموقف ليس في صالح الشيعة فكان السيد يحببه بأن هذا الموقف هو خدمة لكل شيعي في العراق ويخدمكم أنتم بالذات أهل الوظائف الحكومية لأنكم تستطيعون القول إن مرجعنا يرفض استقبال الملك" (١).

ثم كان أن حدث العدوان الثلاثي على مصر سنة (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م)، فوقفت النجف الأشرف، موقفاً حازماً قوياً، مناصرة لمصر، وعمت المظاهرات أرجاءه، فتصدت لهم الشرطة، فصرعت، وجرحت بعض الطلاب، فأعلن المرجع الأعلى السيد محسن الحكيم الإضراب عن الصلاة جماعة في الصحن الحيدري الشريف، فتعطلت الأسواق، وجلس سماحته في داره، مجلساً عاماً، استقبل فيه المعزين والمتضامنين مع موقفه الوطني من شتى أنحاء العراق، ولم يكتفِ المرجع الأعلى بذلك، بل زاد عليه، فأرسل برقية شديدة اللهجة جدا إلى الملك فيصل، مستنكراً، ومندداً بما حصل.

ولعل هذه البرقية أو الرسالة تعد من نواذر المراسلات التي يجراً فيها مواطن على مخاطبة ملك دولته بهذه اللهجة القاسية.

وفيما يلي نص البرقية: "جلالة الملك - بغداد. إن إراقة الدماء البريئة بشكلها الوحشي الفظيع في بلدنا المقدس ليدعو إلى القلق والاستنكار العظيمين، ومن

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٤٩ - ٥٠.

المؤسف إغضاء الحكومة عن ذلك وسلوكها طريق الإرهاب لجميع الطبقات. محسن الطباطبائي الحكيم^(١).

يقول السيد أحمد الحسني المعاصر للحدث معقّباً على نص البرقية ومستعرضاً بعض ما جرى حينها بما يلي: "ويبدو أن السلطة حجبت البرقية عن الملك، فلم يجب عليها في اليوم الأول والثاني، فامتنع سيدنا المفدى عن الخروج إلى الصلاة جماعة، وامتنع العلماء الآخرون عن ذلك، وأضرب البلد لذلك أياما واستمر غضرابها، ثم أضربت بغداد وبعض البلدان العراقية الأخرى، فاضطرت السلطة إلى إيصال البرقية إلى الملك. فأرسل حالاً رئيس مجلس الأعيان ورئيس مجلس النواب إلى النجف الأشرف وبصحبتها الرسالة التالية:

(سماحة العلامة حجة الإسلام السيد محسن الحكيم الطباطبائي. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد أحطنا علماً ببرقيتكم بشأن الحوادث المؤسفة التي وقعت في النجف المقدس، وقد أمرنا الحكومة بما يقتضي. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بغداد في ٣ كانون الأول ١٩٥٦ م ٢٩ ربيع الثاني ١٣٧٦. فيصل)^(٢).

ويضيف السيد الحسني مبيناً شروط سماحة الإمام الحكيم ليخرج للصلاة وينهي الإضراب فيقول: "وأجريت مباحثات مع الحكومة بواسطة الرئيسين اللذين أتيا إلى النجف الأشرف، فقرر الحكيم أن يخرج إلى الصلاة شريطة أن تطلق الحكومة سراح الموقوفين لهذه الحادثة، وألا تتخذ الحكومة أي إجراء ضد أي شخص، سواء أضربوا أم تظاهروا، وأن يعاقب الجناة من الشرطة ويبدل جهازهم،

(١) الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي. السيد أحمد الحسني. طبعة دار الثقافة: ٨١.

(٢) المصدر السابق: ٨١.

وأن ترضي الحكومة ذوي الشهداء، فأعطت الحكومة بذلك وعداً قاطعاً. ودام إضراب النجف أكثر من أسبوع، ولم ينقُص حتى خرج سماحته إلى الصلاة^(١).

ثم بعث الإمام الحكيم في سنة (١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م)، بعد انتصار ثورة ١٤ تموز، برقية إلى مجلس السيادة والزعيم الركن عبد الكريم قاسم في (٦ محرم الحرام ١٣٧٨هـ/ ٢٣ تموز ١٩٥٨م) مباركاً من جهة، وواعظاً، وحاثاً على الاعتبار بمن مضى من الحكام الظالمين من جهة أخرى، جاء فيها: "إن العدل أساس الملك والعطف على الرعية أول النصر، وشكر الله يستوجب المزيد، والظلم والاستئثار من أكبر عوامل الدمار فسيروا مسددين على ضوء تعاليم الإسلام وهدى القرآن... واعتبروا بمن مضى قبلكم فإن الله سبحانه وتعالى كلمته: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾" (٢).

٤ سماحته ﷺ يوقظ الوعي السياسي لشيعة العراق والمنطقة

لقد شكلت الحركة السياسية للإمام الحكيم صحوة سياسية، تخطت حدودها العراق إلى الدول العربية والإسلامية الأخرى، مشكلة أول عمل سياسي واسع ينطلق من المرجعية، بعد نكبة (المشروطة) من ناحية، و(انتكاسة ثورة العشرين) من ناحية أخرى، حيث كانت هناك انتكاسة، ونوع من الركود، في الحركة السياسية، ونجد أن هذه النهضة بدأت من العراق، ومن مرجعية الإمام الحكيم خاصة، وإن الكثير الآن من معالم النهضة الموجودة في العالم الإسلامي، في لبنان،

(١) المصدر نفسه: ٨٢.

(٢) سورة يونس. الآيتان: ١٣، ١٤.

وباكستان، وأفغانستان، ومناطق الخليج كانت أصولها وجذورها قد بدأ من الرجال الذين تربوا في النجف الأشرف، في ظل تلك المرجعية، وعاشوا ظروف تلك النهضة، وتلك الأيام، وأخذوا يتفاعلون معها^(١).

لقد كان الإمام الحكيم "يريد أن يخرج الأمة من حالة العزلة إلى حالة الدخول في العمل السياسي، وهي عملية معقدة لكنها كانت القضية الأساسية المركزية في تصوره لأن الوضع السياسي جزء حقيقي من الدين والسياسة هنا هي السياسة التي تعتمد على دعم الأمة وتريد أن تربط الأمة بالقيم وبالله سبحانه وتعالى والكمالات الإلهية. وهذه هي سياسة الأنبياء، وكان الإمام الحكيم يركز عليها كأساس راسخ في نظريته"^(٢).

ولعل من أوائل اهتمام سماحته بالساحة السياسية الشيعية تفكيره "في جمع الشخصيات السياسية الشيعية... بقصد إلغاء حالة التفرق وأن المصلحة تقتضي الجمع وكان ذلك المسعى في بداية الخمسينات قبل حوادث السويس ١٩٥٦م لأن السيد كان يشعر بوجود بداية لتحرك طارئ في العراق، ولأن الشيعة كانوا تجاراً"^(٣)، فشخص حينها حاجة البلد إلى سياسيين وإداريين على مستوى عالٍ من الكفاءة والقدرة والإمكانية على حسن معاشة الواقع السياسي والإداري المتطور في العراق متى أمكنهم ذلك.

(١) شيعة العراق تاريخ.. مواقف. السيد محمد باقر الحكيم: ٣٦ - ٣٨، وكذا المرجعية الدينية العليا. د. جودت الفزوني: ٢٦٥. ولزيادة الاطلاع على النقلة الفاعلة للدور السياسي للمرجعية زمن المرجع الأعلى السيد الحكيم بعد مرحلة الفتور السابقة عليها ينظر: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي بجزئيه الأول والثاني. محمد الشيخ هادي الأسدي .

(٢) مرجعية الإمام الحكيم نظرة تحليلية شاملة. السيد محمد باقر الحكيم: ١٤٠.

(٣) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٥٠.

"وتنفيذاً لذلك فقد أرسل مجموعة من الأشخاص من جملتهم (الشيخ صادق القاموسي) وهو غير (محمد صادق القاموسي) مار الذكر^(١)، وهو رجل ثقافته جيدة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، أرسله إلى بغداد للاتصال بالعلماء على أساس أن العمل يكون من علماء بغداد لجمع كلمة الشيعة والشخصيات الشيعية"^(٢). وتوحيد صفوفهم مقدمة لتحملهم مسؤولية استنقاذ الحق من الظالمين.

ولم يكتفِ سماحته بذلك بل انتقل إلى طور أوضح في التحرك والدفع برجالات الشيعة إلى النهوض للمطالبة بحقوقهم المهدورة.

يقول السيد مرتضى العسكري في لقاء صحفي له مع صحيفة (لواء الصدر) إحدى صحف المعارضة العراقية في المنفى إنه "في سنة (١٩٦٣م) عندما رجع السيد من سامراء إلى الكاظمية حضرت عنده ليلاً، فإذا بنجله السيد مهدي ومعه الشيخ محمد رضا الشيباني، وعندما جلست قال له: (انفض وأنا أدعمك) وكان الشيباني يتخوف، ولكنه بعد المقابلة قرر القيام بمعارضة الحكومة، وقمنا بجمع الشخصيات المتعاطفة معنا، وكتب الشيباني مذكرة باسمه"^(٣). إلى رئيس الوزراء العراقي الدكتور عبد الرحمن البزاز بتاريخ (٤ رجب ١٣٨٥هـ / ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٥م) بين فيها المستوى العالي للطائفية السياسية في المواقع الرسمية للدولة وتأثيرها السيئ في نفوس الغالبية العظمى من العراقيين بقوله في الفقرة الثالثة من مذكراته: "لم تكن التفرقة الطائفية مشكلة سافرة من مشاكل الحكم كما هي

(١) يسمي الشهيد السيد مهدي الحكيم الشاعر الأستاذ (صادق القاموسي عضو جمعية منتدى النشر والذي ذكره الشهيد سابقاً بكونه من مؤسسي حزب الدعوة باسم (محمد صادق القاموسي) واسمه الصحيح هو (صادق القاموسي). وهو غير الشيخ صادق القاموسي

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٥١.

(٣) جريدة الجهاد: الاعداد ٣٣٠، ٣٣٢، ٣٣٦.

اليوم... ومن الواضح أن الشعب العراقي انتفض أكثر من مرة على سياسة التفرقة النكراء... إن الأحداث الأخيرة برهنت مع بالغ الأسف على انبعاث روح التفرقة بشكل أشد وأعنف من ذي قبل بكثير. ولا نذيع سراً إذا قلنا إن كثرة الشعب ساخطة جداً من جراء ذلك. وأنها تعتبر كرامتها مهانة وحقوقها مهضومة ولا سيما وقد وافق ذلك سوء اختيار بعض من يمثلونها في جهاز الحكم وإذا كان من الممكن أن تغض هذه الكثرة النظر عن التقصير المتعمد في إنعاش مرافقها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وإذا كان من الجائز أن تغض نظرها عن مواقفها المشرفة في الجهاد والنضحية، فإنها لا يسعها غض الطرف عن التعريض بعروبيتها وأصالتها وكرامتها وإخلاصها للوطن وللدولة التي أقامت على جماجم شهدائها الأبرار بذلك التعريض المثير الذي يلوح به بعض المسؤولين والصحف الأجيعة... إذ ليست الدولة وأجهزتها ووظائفها ومجالات العمل فيها وقفاً على طائفة دون أخرى، إنما توزع واجباتها حسب الكفاءة. ولعل نظرة فاحصة إلى الدواوين الكبيرة في الدولة ومن يشغلها تكفي دلالة على سياسة محاباة، خصوصاً وأن كثيراً من المقربين محرومون غالباً من المؤهلات والكفاءات والإخلاص^(١).

ولقد كان لإشراف سماحته وهو المرجع الأعلى للشيعة آنذاك على (جماعة العلماء في النجف الأشرف) مؤشر آخر على توجه سماحته لإيقاظ نشاط الوعي الشيعي.

ذلك أن (جماعة العلماء) هي عنوان لتجمع علمائي تأسس سنة (١٩٥٨م) وضم عدداً من كبار علماء النجف الأشرف وقام بعدد مؤثر من النشاطات

(١) وجريدة الحياة البيروتية في ٥/١١/١٩٦٥. (١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي.

السياسية والثقافية الفاعلة على الساحة العراقية، ولعل من أوائل تأثيرها الكبير في أيقاظ الوعي الشيعي ذلك الوقت إذاعة البيان الأول الصادر عن (جماعة العلماء) من الإذاعة العراقية بصوت سباحة الخطيب السيد هادي الحكيم حيث لم يكن للعلماء حينها صوت عبر وسائل الإعلام الرسمية يعبرون من خلاله عن متبنياتهم الفكرية والسياسية.

إن "نشر هذا البيان من الإذاعة كان شيئاً مهماً جداً في ذلك الوقت، وله تأثير كبير على نفوس الناس وخاصة في تلك الفترة التي سيطر فيها الشيوعيون على الشارع بكل معنى الكلمة".

وقد كان لدعم سماحته المتواصل لنشاطاتها وتبرعه بتمويل منشوراتها واحتفالاتها ونشاطاتها الأخرى وصولاً إلى "الإشراف على كيفية كتابة المنشورات ومن هو الذي يكتبها" حتى أنه "اعترض" مرة على ما ورد "في المنشور الثالث أو الرابع" من منشوراتها.

وبفعل دعم سماحته لـ (جماعة العلماء) أصبح "العلماء حلقة الوصل بين المرجعية والأمة"^(١).

وعلى الرغم من أهمية نشاط هذا الجمع الواعي من العلماء الأعلام، فقد واجهت (جماعة العلماء) حملة شعواء من قبل بعض من فضلاء الحوزيين بسبب تصديها للعمل السياسي غير المقبول عندهم ذلك الوقت، ما استدعى أن يصدر الإمام الحكيم بياناً في دعمها وتأييدها. وفيما يأتي نص بيان الإمام الحكيم الصادر في (٢٧ جمادى الثانية من سنة ١٣٧٨ هـ/ ٨ تشرين الثاني ١٩٥٨ م).

(١) ما بين الأقواس مقتبس من كراس (من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق): ٢٢ و ٢٣ و ٢٣ و ٢٣ و ٢١ على التوالي. وينظر: مذكرات الشيخ الأصفي: ١٧٦.

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

وله الحمد: إن جميع ما أصدره فريق من أعلام أهل العلم أيدهم الله تعالى باسم (جماعة العلماء في النجف الأشرف) وما سيصدر عنهم من نشرات وغيرها ما يتضمن الدعوة إلى الدين والإسلام هو من أهم الوظائف الشرعية التي يجب القيام بها في سبيل إعلاء كلمة الدين وترويج مبادئه الشريفة وتعاليمه القيمة المقدسة، فعلى عامة المسلمين العمل على مؤازرتهم والوقوف إلى صفهم ومشاركتهم في تحمل أعباء هذه الدعوة الدينية المباركة. وفق الله سبحانه وتعالى الجميع لما يحبه ويرضى إنه حسبنا ونعم الوكيل" (١).

وقد أعقب بيان الإمام الحكيم أكثر من بيان من مراجع معروفين منهم كل من صاحبي الساحة السيد عبد الهادي الشيرازي حيث صدر بيانه في (٥ رجب ١٣٧٨ هـ/ ١٥ كانون الثاني ١٩٥٩ م) والسيد أبو القاسم الموسوي الخوئي وقد صدر بيانه في (٦ رجب ١٣٧٨ هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٩٥٩ م).

سماعته رحمته يتصدى لخطوات الحكومة التصعيدية ضد شيعة

العراق والحوزة

بعد انقلاب (٣٠ تموز ١٩٦٨ م) وسيطرة حزب البعث على السلطة بدأت محاولاته التدريجية للتضييق على الحوزة العلمية ومرجعيتها الدينية العليا، في مسعى محموم من السلطة والحزب لتطويقها وتحجيمها، وكانت من أوائل تلك المحاولات والمساعي ذات البعد الطائفي المقيت صدور أمر مفاجئ من وزير الداخلية صالح مهدي عمّاش في (٢ ذي الحجة ١٣٨٨ هـ/ ١٩ شباط ١٩٦٩ م)

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١/ ٢٢٣.

بإلغاء جامعة الكوفة الأهلية - المدعومة من قبل المرجعية - ومصادرة كل أموالها، وهو ما سبب استياء وغضب المرجعية الدينية: يقول الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم: "بعث السيد عليه السلام إليّ وقال لي: (يجب أن تذهب إلى أحمد حسن البكر وتحتجّ على موضوع إلغاء جامعة الكوفة لأنّي أرى أنه ليس من الصّلاح أن يمرّ هذا الأمر دون أن أسجل احتجاجاً، وإن كان في علمي أنهم لا يستجيبون، ولكن ذلك أفضل) فعدت إلى بغداد واتصلت بالقصر الجمهوري وطلبت مقابلة أحمد حسن البكر... وعند وصولنا قام إلينا البكر فاستقبلنا وعانقني وأخذ يسأل عن صحتي وما إلى ذلك فبادرته بالقول: إنني لم آت لكم زائراً، إنما جئت لأسجّل احتجاجاً نيابة عن السيد الوالد فيما يتعلّق بجامعة الكوفة... فحلف اليمين وقال: والله لا الحزب ولا الحكومة لديها علم بالموضوع، وإنما عمّاش فعل ذلك. قلت: نحن نعلم أن الدول تحاول الإكثار من معاهد الثقافة والعلم وليس التقليل منها، وإن هؤلاء الناس لم يكلفوا الدولة شيئاً ولديهم كفاءات علمية وقد جمعوا مبلغاً من أجل أن يقيموا معهداً ثقافياً فلماذا تلغونه أنتم" (١).

وقد أعقبت الحكومة قرارها الخاص بإلغاء جامعة الكوفة ومصادرة أموالها، بإصدارها قانوناً جديداً للتجنيد الإجباري ألغى بموجبه مادة في القانون السابق نصّت على إعفاء طلاب الحوزة العلمية من التجنيد الإجباري إضافة لغير ذلك مما تضمّنه القانون الجديد من تضيق شديد على المواطنين بالتجنيد الإجباري، مما أثار امتعاض المرجعية الدينية وتأثرها. يقول الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم "رأيت أحمد حسن البكر للمرة الثانية، وكان ذلك عندما أرسلني السيد للاحتجاج على قانون التجنيد وخصوصاً فيما يتعلق بعدم إعفاء طلبة العلوم الدينية. وقد

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٤٢ / ٢.

قابلته وقلت له: إن الله سبحانه وتعالى أعفاهم وذلك بالنص الموجود في القرآن الكريم الذي يعتبر الانضمام إلى هؤلاء الجماعة الذين هياؤوا أنفسهم للتفقه في الدين والذي يعتبر بديلاً عن الذهاب إلى ساحة الجهاد وحمل السلاح، وإن كل الحكومات المتقدمة إلى زمن العثمانيين وحتى قبل صدور هذا القانون كانت تعفي علماء الدين من أداء الخدمة العسكرية، فلماذا أصدرتم هذا القانون؟^(١).

ولم يكتف الحزب والحكومة بذلك بل صعدت محاولتها الطائفية مرة أخرى بأن أعدت قانوناً جديداً للعتبات المقدسة يتيح للحكومة التدخل السافر في شؤون العتبات المقدسة في مسعى منها للسيطرة عليها واحتوائها "ولكل ذلك طلب من نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم مقابلة البكر وإبلاغه أيضاً الاحتجاج على اعتقال الزوار الإيرانيين والباكستانيين وغيرهم، وبالفعل قابل الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم البكر وأبلغه ذلك"^(٢). وسيأتي الحديث لاحقاً عن طلب البكر في هذا اللقاء من الإمام الحكيم حل النزاع بين العراق وإيران في قضية شط العرب.

سماعته ﷺ يقف بوجه قرار حزب البعث بتسفير طلاب الحوزة الإ جانب

لقد اتخذ حزب البعث قراراً خلال اجتماع قياداته القومية والقطرية في (١٦ محرم ١٣٨٩ هـ / ٤ نيسان ١٩٦٩ م) ينص على ضرورة القضاء على الرجعية الدينية باعتبارها العقبة الكبرى في طريق مسيرة الحزب^(٣).

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٤٧/٢.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٤٧/٢.

(٣) مقررات المؤتمر القطري السابع لحزب البعث. بغداد. ١٩٦٩ جريدة الثورة بغداد. نيسان ١٩٦٩ م.

وتنظر: مذكرات حردان عبد الغفار التكريتي: ٣٨.

وتنفيذاً لقرارهم هذا سعوا جاهدين للحدّ من نفوذ المؤسسات الدينية الهادفة إلى تخريج طلاب دين وعلم يتحملون مسؤولية التبليغ والتوعية وحمل همّ الإسلام والمسلمين فعمدوا إلى إغلاق المدارس الدينية الابتدائية منها والثانوية، ومصادرة الأرض الواسعة المخصصة لجامعة الكوفة مع مصادرة الأموال المخصصة لبنائها، إضافة إلى ذلك فقد تضمّن قانون التجنيد عدم إعفاء طلاب الحوزة العلمية من الخدمة الإلزامية.

كما شنت أجهزته الأمنية والحزبية حملة ظالمة لتحجيم الحوزة العلمية في النجف الأشرف إدراكاً من الحزب وكوادره وأمنه ومخابراته لخطورتها عليهم، فقامت أجهزته الاستخبارية في يوم (١٨ صفر ١٣٨٩ هـ/ ٦ ميس ١٩٦٩ م) كما يقول شهيد المحراب "بحملة واسعة من تسيير طلاب العلوم الدينية في النجف الأشرف من غير العراقيين... وكان الإمام الحكيم في كربلاء ذلك اليوم حيث أنه سافر لزيارة الأربعين وسمع بالحادث فقرر وأعلن الرجوع إلى النجف لمواجهة هذه القضية... وعند رجوع الإمام الحكيم حصلت ضجة... واضطرت حكومة العفالة المجرمين أن ترسل وفداً إلى النجف لمعالجة الموقف،، وكان في الوفد حردان التكريتي وخير الله طلفاح وآخرون، ليتفاوضوا، وتذكر أنه في اليوم التاسع عشر من صفر عقد اجتماع عظيم في دار الإمام الحكيم حضره جمهور كبير من العلماء للتحديث في هذا الموضوع"^(١)، وقد حضر هذا الاجتماع الوفد الرسمي ومنهم كل من عبد الحسين وداي العطية وزير الزراعة وقتئذ. وأخيه حسن وداي وشبيب لازم المالكي متصرف كربلاء.

يقول شهيد المحراب: "كانت أجواء الاجتماع هادئة وودية أبدى خلالها

(١) مرجعية الإمام الحكيم نظرة تحليلية شاملة. السيد محمد باقر الحكيم: ١٧ - ١٩.

التكريتي شيئاً كثيراً من الاحترام والتبجيل للسيد الحكيم، واستعداداً فورياً لتنفيذ طلباته التي عبّر عنها - حردان التكريتي - بأنها أوامر واجبة التنفيذ. ومن الأمور التي وعد بها (منع أي تسفير لطلاب الحوزات الدينية من غير العراقيين، تسهيل منح الإقامة لمن يريد البقاء للدراسة، منع تسفير الأجانب المقيمين في مدن العتبات المقدسة من غير العراقيين) وأعلنت محطة إذاعة وتلفزيون بغداد تلك القرارات^(١).

أما ما دونّه العطية أح أعضاء الوفد حينها فهو أوسع مما تفضل به شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم، فقد جاء في نص المقابلة الرسمية معه ما نقله عن قول الإمام الحكيم للوفد وهو: "الإيرانيون ليسوا مجرد جالية مهاجرة، إنهم عراقيون أصلاً ونسباً، ولكنهم حرموا من الجنسية العراقية في العهود السابقة، والقيام بطردهم إضافة إلى أنه عمل غير إنساني، ومخالف لأبسط المبادئ الإنسانية فإن من شأنه أن يضعف الجهة الداخلية التي أنتم بأمس الحاجة إليها، ثم أضاف: لنفرض أن الحكومة الإسلامية ظالمة مائة بالمائة فما شأن الإيرانيين العزل المسالمين الذين ولدوا وتربوا وعاشوا في العراق"^(٢).

وباختصار فقد "لخص الإمام الحكيم حديثه مع الوفد الحكومي بالنقاط التالية:
"١. إعلان استنكاره وغضبه على التصرفات الالاقانونية ضد الزوّار والمقيمين الإيرانيين.

٢. استنكاره للقرار الذي اتخذته المؤتمر القطري السابع لحزب البعث بالقضاء على رجال الدين في العراق بأي ثمن كان، والذي ورد في قرارات المؤتمر

(١) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية. ١٩٢١ - ٢٠٠٣ م. بحث.

د. مقدم عبد الحسن فياض. ضمن موسوعة: فتوى الدفاع الكفائي. المرجعية الدينية العليا وأبرز

المواقف الوطنية ١٩١٤ - ٢٠١٤: ٢٣٨/٣.

(٢) المصدر السابق نفسه

المذكور باسم الرجعية الدينية.

٣. دعاهم إلى ملاحظة الوضع الذي تعيشه الأمة في مقابل عدوها وما يجب إعداده من قوى مادية ومعنوية للمواجهة الشاملة والحاسمة وعلى رأس ما يجب السعي إليه الحرص على الوحدة الوطنية والاستقرار.
٤. بيّن لهم دور المرجعية الدينية العليا وعلماء الدين في كفاح الاستعمار الفكري والعسكري وذكرهم بمواقف العلماء في ثورة العشرين ضد الاستعمار الإنكليزي^(١).

ثم بعد أن قررت الحكومة التراجع عن موقفها في ذلك المجلس ونكثها بوعدها الذي قطعته للإمام الحكيم أمام حضار الاجتماع الذي يقضي بوقف تفسير العلماء وطلبة العلوم الدينية الأجانب، قرر سماحة الإمام تصعيد المواجهة مع البعثيين باتخاذ خطوة أشد قوة وأكثر حزمًا ووضوحاً لكل العراقيين تمثل باتخاذ قراراً بعقد اجتماع موسع في الصحن العلوي الشريف في اليوم (٢٧ صفر سنة ١٣٨٩ هـ / ١٤ مايس ١٩٦٩ م) حضره حشد كبير ضم قسماً من المراجع والمجتهدين وكبار العلماء يأتي في مقدمتهم الإمام الحكيم والسيد أبو القاسم الخوئي والسيد عبد الله الشيرازي والشيخ مرتضى آل ياسين والسيد محمد باقر الصدر وأنجال الإمام الحكيم وغيرهم من وجوه رجالات الحوزة والمجتمع وعدد كبير من المواطنين غصّ بهم الصحن العلوي الشريف والساحات والشوارع المحيطة به، فكان اجتماعاً كبيراً قل نظيره لبيان موقف سياسي من الحكومة ببعد تفسيرها لرجالات الحوزة العلمية الأجانب.

وقد ألقى كلمة سماحته ﷺ في هذا الجمع الغفير نجل الإمام الحكيم الشهيد

(١) الإمام الحكيم عرض لدوره السياسي والثقافي. محمد الشيخ هادي الأسدي: ١٥١ / ٢ ..

السيد محمد مهدي الحكيم فكان مما جاء فيها قوله: "إننا نريد أن يصبح واضحاً كل الوضوح للمسلمين حكماً وشعوباً أن العتبات المقدسة في النجف الأشرف وكرבלاء والكاظمية وسامراء هي منارات الإسلام في عراقنا الكريم، شأنها في ذلك شأن مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، تهفو إليها قلوب المسلمين ويقصدونها من كل درب وصوب يؤدون فيها شعائرهم الدينية ويتقربون بتعظيمها إلى الله سبحانه، وهي من أجل ذلك كانت منذ أمد بعيد ولا تزال تضم المسلمين من مختلف أقطار العالم الإسلامي وشعوبه يجدون في ظلالها المقدسة حاجتهم من الغذاء الروحي ومثلهم الدينية الرفيعة، كما أنها تجعل العراق في عداد البلاد المقدسة في نظر المسلمين، وتمنحه مكرمة يفتخر بها على كثير من البلاد الإسلامية".

وأضاف سماحته: "ولا بد أن هذه العتبات محتفظة بطابعها الإسلامي دون أي تخصيص، ويجب أن يظل المسلم من أبناء الأمة الإسلامية قادراً على ممارسة الشعائر الدينية فيها، ومواصلة العيش في كنفها مهما كانت قوميته ما دام منسجماً مع قيمها ومثلها ومحتفظاً بكرامتها. ويجب على المسلمين جميعاً شعوباً وحكومات أن يعملوا على تحقيق هذا الفرض ويقدموا التسهيلات كافة لاحترام هذه العتبات وتعظيمها وإعمارها"^(١).

سماحته ﷺ يحتج على الاعتقالات الظالمة للشيعية في العهدين:

البعثي الأول والعارفي

قرر المرجع الأعلى الإمام الحكيم إظهار سخطه عملياً على النظام الحاكم، عبر سفرة احتجاج كبرى، ابتدأها في (٢٩/٥/١٣٨٣ هـ - ١٧/١٠/١٩٦٣ م)، سبقتها

(١) صورة فوتغرافية لنص الخطاب الذي ألقاه نجل الإمام الحكيم نيابة عنه. من كتاب (الإمام الحكيم عرض لدوره السياسي والثقافي). سابق: ٢/٤٦٩.

تعبئة جماهيرية كبيرة تولتها عدة جهات من أبرزها مكتب المرجعية العليا، ووكائها المنتشرين في أرجاء البلاد، والناشطين المؤمنين، وقد قادت هذه السفارة الاحتجاجية سماحته عليه السلام من مقره في النجف الأشرف إلى كربلاء المقدسة أولاً، ومنها إلى بغداد لاحقاً، يصحبه فيها الآلاف من المواطنين ومئات السيارات التي تلتحق بالموكب تباعاً على طول الطريق الموصل لبغداد، مخترقاً بموكبه الاحتجاجي شارع الرشيد، فالأعظمية، فالكاظمية المقدسة، حيث صلب صلاتي المغرب والعشاء جماعة في الصحن الكاظمي الشريف، ثم بدأ باستقبال الوفود التي تجاوزت العشرين وفداً، زحفت إليه من عموم مناطق العاصمة بغداد وخارجها، حيث ألقى ممثلوها خطاباً وقصائد وكلمات تحث على الجهاد والنضال السياسي، وتعلن ولاءها المطلق للمرجعية، وقد استمرت هذه الوفود سبعة أيام بلياليها بما لا يحصي أعدادها أحد، إلا أنها تجاوزت المليون عراقي بلا شك، وتوجه ركب الإمام إلى سامراء بعد ثمانية أيام قضاها في الكاظمية، وكان برفقته حوالي ألف وستمئة سيارة إحصاءً، حتى إذا وصل موكبه المهيب لمدينة سامراء، خفت المدينة بأهلها لاستقباله، وقرر الإمام الحكيم الإقامة في سامراء عشرة أيام^(١) ثم عاد سماحته إلى الكاظمية ومنها إلى النجف الأشرف بعد أن أوصل رسالته الاحتجاجية القوية إلى السلطات الطائفية الظالمة.

ثم وفي (١٣٨٣ هـ - ١٨ / تشرين الثاني / ١٩٦٣ م) قاد عبد السلام عارف، ومعه ضباط في مقدمتهم طاهر يحيى، انقلاباً ضد البعثيين، لينصب نفسه رئيساً للجمهورية العراقية، وكان عبد السلام عارف متسلطاً وطائفاً، أما متسلطاً،

(١) ينظر: أساطين المرجعية العليا. سابق: ١٤٦-١٤٨. الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي.

فلأنه حصر السلطات كلها بيده. وأما طائفيّاً فلأن الرئيس عبد السلام محمد عارف كان يصرح "بطائفته العلنية، إذ كان يسمّي الشيعة (روافض) و(عجماً)، وجعل مبدأ النقاء العرقي والطائفي أساساً للتقرب إلى السلطة والمناصب الحكومية. كان عارف رائد الحق العرقي والعزل المذهبي في العمل السياسي بشكل صريح"^(١) وهو ما كان واضحاً لدى المرجعية الدينية والسياسيين والمراقبين بل والواعين من شيعة العراق.

لقد كانت طائفية وعنصرية عبد السلام عارف متغلغلة في أعماقه، حتى أنه لا يخفيها بل يجهر بها عندما يجد الظرف مناسباً، فمن ذلك ما صرح به مرة أمام أحد الضباط الأحرار وهو ما نقله الوزير السابق السيد هديب الحاج حمود وزير الزراعة في حكومة عبد الكريم قاسم بقوله: "إن عبد السلام عارف ذكر لأحد الضباط الأحرار الموجودين معه في الفوج ليلة ١٤ تموز ١٩٥٨ بأنهم سينفذون الثورة، وهناك ثلاث جماعات يجب استئصالها وهم: الأكراد، والمسيحيون، والشيعة"^(٢).

وأما الأستاذ حسن العلوي البعثي الكبير سابقاً فيقول "إن وضع الشيعي في السلطة وفي جميع الفترات هشّ دائماً... وأن العراقي في المفهوم الرسمي يظل طائفيّاً إذا لم يشترك في حملة اضطهاد الشيعة وإن كان سنياً"^(٣).

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق ١٣. مبحث الطائفي في العهد الجمهوري والقاسمي والعارفي د. عبد الخالق حسين.

(٢) ثورة ١٤ تموز في العراق. د. ليث الزبيدي: ٤٠٤ - ٤٠٥. والطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق - ١٣. سابق: د. عبد الخالق حسن.

(٣) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق ١٣. مبحث الطائفي في العهد الجمهوري والقاسمي والعارفي د. عبد الخالق حسين. وتنتظر هوامش الصفحة.

لقد تم على يدي عبد السلام عارف "التخلص من الشيعة في السلطة لتصبح خالصة للأقلية السنية وعادت مؤسسات الدولة إلى التعامل مع المواطنين العراقيين على ضوء انتماءاتهم المذهبية وأخضع المبعوثون إلى الخارج إلى فحص مذهبي وأغلقت أمام الطلاب الشيعة أبواب الكلية العسكرية من جديد.. وتشير بعض وثائق السفارة البريطانية في بغداد إلى (سخط الشيعة حول قلة الامتيازات).. (والعراقيون العقلانيون جداً يعتبرون عارف إلى اليوم كمهرج. سنته الصارمة أغاضت الشيعة و) عارف والضباط عازمون جداً على المحافظة على سنية الدائرة السحرية).. فلقد كان عارف في الحقيقة سني (كذا) طائفي (كذا)، وذلك ليس لأنه متأصل في الإسلام السني. وإنما كان يساوي بين المذهب السني واستئثار السنة بالحكم" (١).

لقد نظر الإمام الحكيم في وضع الشيعة الرسمي فإذا بالوزارة الأولى التي شكلت في العهد الجمهوري من حيثية توزيع المناصب العليا على المكونات قد "ضُمَّت ثلاثة عشر وزيراً: تسعة من السنة وأربعة من الشيعة.. لقد بقيت نسبة تمثيل الشيعة قليلة ولا تناسب الأثرية السكانية... وفي الثامن من شباط/ فبراير ١٩٦٣ قام مجموعة من العسكريين وحزب البعث وقيادة عبد السلام عارف بانقلاب دموي انخفضت فيه نسبة تمثيل الشيعة عمّا كانت عليه في العقد الأخير من العهد الملكي، حيث بلغت نسبة السنة العرب في مجلس القيادة (٦٦,٧ ٪) والشيعة (٢٧,٨) والأكراد (٥,٥ ٪).. وكان يشرف على هذه السياسة الطائفية الإقصائية خير الدين حسيب الذي أشرف على إبعاد الكوادر والكفاءات القومية ذات الانتماء الشيعي.. لقد باتت الدولة تحارب الشيعة في أرزاقهم خاصة أن معظم

(١) مشاريع إزالة التمييز الطائفي في العراق. سابق: ٢٢ وتنظر هوامش الصفحة.

الشيعة اتجه نحو التجارة^(١)، بعد أن حرمتهم الدولة من أخذ حقوقهم في أجهزة الدولة المختلفة.

ومذ وقع انقلاب (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م)، وتسلم حزب البعث زمام السلطة في العراق، وبدأت مخططاته لمحاربة المرجعية، والقضاء عليها، تأخذ دورها للتنفيذ كما سلف، قامت أجهزته الحزبية والأمنية باعتقال زعماء العشائر المؤيدة للمرجعية، وزج الشباب المؤمن الموالي لأهل البيت عليه السلام في زنازين السجون والمعتقلات.

سماحته عليه السلام يؤنب رئيس الوزراء على طائفية النظام البعثي ضد الشيعة



لقد زار الفريق طاهر يحيى رئيس وزراء العراق على رأس وفد حكومي بيت الإمام الحكيم في الكوفة بعد ظهر يوم الخميس (٥ ذي القعدة ١٣٨٣هـ/ ١٩ آذار ١٩٦٤م)، وكانت الحالة الطائفية متفشية في البلد، فعرج ساحة المرجع الأعلى بصراحته المعهودة، وتبنيه الواضح لقضايا الأمة بمختلف أديانها ومذاهبها وإثنياتها، وبخاصة شيعة أهل البيت عليه السلام منهم، كونهم الأكثر مظلومية على الرغم من أكثريتهم العددية في التركيبة السكانية لمواطني العراق بقوله: "إن من واجب الحكومة أن تنظر إلى مختلف أبناء الشعب بنظرة واحدة، دون تمييز، أو تفريق، بين قومياتهم أو مذاهبهم حتى يشعر الجميع بأنهم يعيشون في ظل حكومة تسهر على مصالحهم وتحفظ لهم كرامتهم. ويؤسفني أن أرى الآن فجوة بين الشعب والحكومة عمل على إيجادها شرذمة تحاول إثارة الأغراض والنعرات الهدامة بين الشعب فلربما يقول قائل اليوم إن السائد في هذه الدولة هذه الأيام بأن معاملات (عبد القادر)

(١) مشاريع إزالة التمييز الطائفي في العراق. د. صلاح عبد الرزاق ٢١ نقلاً عن العراق. حنا بطاطو

تنفذ ومعاملات (عبد الحسين) تؤخر وتترك، كما أن هناك نعرات بلدية ضيقة مثل هذا (عاني) وهذا (تكريتي)، وهذا (نجفي) وهذا (كوفي)".

وقد كان سماحة الإمام الحكيم ممثلاً بنجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم قد تولّى بيان موقف والده الإمام من الوقوف بشدة "ضد الطائفية الرسمية التي كانت السمة المميزة لحكم عبد السلام عارف، وعلى هذا الصعيد التقى مع عبد الرحمن عارف وهدده باتخاذ مواقف خطيرة من قبل المرجعية ضد السلطة إن لم تتخلّ السلطة عن سياستها الطائفية"^(١).

كما أوعز الإمام الحكيم إلى جماعة العلماء في بغداد والكاظمية التي يرأسها الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم فأكد بتقديم مذكرة إلى عبد السلام عارف بتاريخ (١٨ رمضان ١٣٨٣هـ / ٢ شباط ١٩٦٤م) متضمنة خمسة مطالب منها ما جاء في بندها الثالث فيما يخص نبذ الطائفية ما يلي: "إشاعة العدل والمساواة بين أبناء الأمة وعدم التمييز بينهم في مختلف المجالات"^(٢).

كما عاد سماحته عليه السلام فأكد مرة أخرى في خطاب ألقاه نيابة عنه نجله الشهيد السيد محمد فأكد مهدي الحكيم في الصحن العلوي الشريف بتاريخ (٢٧ صفر ١٣٨٩هـ / ١٥ مايس ١٩٦٩م) على ضرورة "القضاء على جميع عوامل التفكك والتفرقة والتصدع والانحيار وإمداد هذه الأمة بعناصر القوة والعزيمة والصمود، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا... بالقضاء على الفساد الاجتماعي والإثرة والتفرقة والطائفية والعنصرية وإشعار المواطنين بحقوق المواطنة العامة وبالعزة والكرامة"^(٣).

(١) نبذة مختصرة عن حياة وجهاد العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم بقلم محمد هادي ضمن كراس:

من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ١٠.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ٣٥ / ٢.

(٣) ينظر: نص الخطاب في كتاب (الإمام الحكيم عرض لدوره السياسي والثقافي): ٢ / ٢٠٨ - ٢٠٩.

ثم أعقب ذلك بإيعازه إلى جماعة علماء بغداد والكاظمية بارسال مذكرة شديدة اللهجة موجهة إلى رئيس الجمهورية، موقعة من قبل الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم، ومؤرخة بتاريخ (٢١ ربيع الأول ١٣٨٩ هـ / ٧ حزيران ١٩٦٩ م) جاء في بندها السابع فيما يتعلق بوجوب التخلي عن التمييز بين العراقيين بسبب الطائفية قوله: "معالجة مشكلة الطائفية المزمنة التي تتمثل في كثير من ألوان المعاملة والإجراءات كما يحدث في دوائر الجنسية وتجاه بعض الجمعيات ذات النفع العام كجمعية جامعة الكوفة وجمعية رعاية العتبات المقدسة وغيرها، وذلك بالنظر إلى أن جميع المواطنين ينتمون إلى هذا البلد ويجب أن يعاملوا على أساس الإخلاص في العمل"^(١).

وهناك العديد من المواقف الأخرى منها حثّ سماحته عليه السلام للشيخ محمد رضا الشبيبي بقوة على التحرك السياسي لبيان مظلومية الشيعة وطائفية النظام العارفي ضدهم كما سيأتي وأمثال ذلك.

سماحته عليه السلام يتبنّى ويحث شيعة العراق على العمل السياسي والاجتماعي لانتزاع حقوقهم المسلوبة

٩

لقد بذل سماحته الجهد اللازم لتفعيل دور الأمة وخاصة شيعة العراق من خلال حثهم على مزاولة العمل السياسي والاجتماعي المؤثر. وترك الساحة السياسية لغيرهم. يقول نجله سماحة السيد محمد باقر الحكيم شهيد المحراب متحدثاً عن دور الإمام الحكيم في ذلك بعد أن ابتليت الأمة "بمرض الاستكانة والاستسلام للأوضاع القائمة، ولا سيما أن الأكثرية الساحقة لأبناء الأمة كانت

(١) ينظر: نص المذكرة في كتاب (الإمام الحكيم عرض لدوره السياسي والثقافي). سابق: ٢ / ٢١٤.

معزولة عن القرار السياسي، وهم الشيعة الذين يشكلون الأكثرية في العراق، وخصوصاً المتتمين إلى الشعب العربي... ولذا كان الدور الذي قام به الإمام الحكيم في تعبئة الأمة على الجهاد والتضحية والمواجهة وتوعيتها سياسياً على حقوقها المشروعة عملاً عظيماً في هذه الفترة الزمنية الحساسة^(١).

ويضيف إلى ذلك قوله "أنه أعطى للمرجعية بعدها الجهادي وهو بعد التصدي للظالمين ولقضايا الأمة وتحمل المسؤولية... وقد أعطاه هذا البعد بمعنى أنه أعاده إليها، لا أنه أعطاه بعداً جديداً، أي أصبح هناك مرجع يتصدى لهذه القضايا ويواجه الظالمين والأنظمة بعد أن كانت المرجعية منحصرة أو منزوية بسبب الظروف التي فرضت عليها من الخارج، وبسبب الأعمال التخريبية التي قام بها الاستكبار العالمي والاستعمار في بلادنا وغير ذلك من الأسباب"^(٢).

ويرجع شهيد المحراب سبب ذلك إلى أن الإمام الحكيم "كان يؤمن بنظرية تربية الأمة ثقافياً وفكرياً مع الاقتران بالممارسة السياسية في ميدان العمل... ومن مظاهر التعبئة للأمة أنه ولأول مرة في تاريخ المرجعية -بعد الانتكاسة- تدعو المرجعية إلى إضراب في النجف الأشرف، فيستجيب لها النجف الأشرف، وهكذا المظاهرات والاجتماعات العامة الكبيرة التي كان يرعاها والتي تتضمن تعبئة روحية وسياسية تجاه الإسلام... وهذا النوع من الارتباط يمثل أساساً من أسس العلاقة بين المرجع والأمة وكان مكرساً باتجاه تعبئة الجماهير في مواجهة الطغاة والمستعمرين"^(٣). كما سيأتي. خاصة وأن سماحته عليه السلام كان له "الاهتمام التفصيلي

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. السيد محمد باقر الحكيم. الإمام الحكيم: ١٥٧/٣ - ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٢٠/٣ - ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٥٨/٣ - ١٩٥. هامش رقم ١ من المؤلف.

بالوضع السياسي، والالتفات لزعماء الشيعة وشيوخ العشائر الشيعة في المسائل السياسية ودعوتهم لبعض التوجيهات والتوصيات، ولمعرفته بالجغرافيا السياسية والشعبية العراقية... فقد كان يعرف العشائر العراقية وفروعها بشكل كامل وله أنس ومعرفة بالناس" (١).

ويأتي في مقدمة اهتمام سماحته عليه السلام بالساحة السياسية الشيعية تفكيره "في جمع الشخصيات السياسية الشيعية... بقصد إلغاء حالة التفرق، وأن المصلحة تقتضي الجمع، وكان ذلك المسعى في بداية الخمسينات قبل حوادث السويس ١٩٥٦ م، لأن السيد كان يشعر بوجود بداية لتحرك طارئ في العراق، ولأن الشيعة كانوا تجاراً" (٢) فشخص سماحته حينها حاجة البلد إلى سياسيين وإداريين على مستوى عالٍ من الكفاءة والقدرة والإمكانية على حسن معايشة الواقع السياسي والإداري في العراق متى أمكنهم ذلك.

"وتنفيذاً لذلك فقد أرسل مجموعة من الأشخاص من جملتهم (الشيخ صادق القاموسي) وهو غير (محمد صادق القاموسي) (٣) مار الذكر، وهو رجل ثقافته جيدة بالإضافة إلى ورعه وتقواه، أرسله إلى بغداد للاتصال بالعلماء على أساس أن العمل يكون من علماء بغداد لجمع كلمة الشيعة والشخصيات الشيعية" (٤). وتوحيد صفوفهم مقدمة لتحملهم مسؤولية استنقاذ الحق من الظالمين.

(١) مذكرات الشيخ الأصفي: ١٧٤ - ١٧٦.

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٥٠.

(٣) يسمى الشهيد السيد مهدي الحكيم الشاعر الأستاذ (صادق القاموسي عضو جمعية منتدى النشر والذي ذكره الشهيد سابقاً بكونه من مؤسسي حزب الدعوة باسم (محمد صادق القاموسي) واسمه الصحيح هو (صادق القاموسي). وهو غير الشيخ صادق القاموسي

(٤) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٥١.

ثم أعقب اهتمامه المتقدم بالوضع الشيعي بما طلبه من وفد من كبار علماء وشخصيات الشيعة في بغداد كان قد زاره لي طرح على سماحته رأياً يخص العتبات المقدسة، فنقلهم الإمام الحكيم إلى خطوة استراتيجية متقدمه، محملاً إياهم همّها، وحاثهم على التصدي لها، والنهوض بها، مستذكراً ما قام به شيعة العراق من ثورة كبرى ضد المحتلين البريطانيين في (ثورة العشرين) كي يحرروا أرضهم وناسهم من دنس الغزاة الطامعين، وقيموا على أرض العراق حكم الإسلام المحمدي العلوي العادل.

ثم كيف انتهت أمور الثورة الفراتية العراقية الكبرى حين قلب لهم المحتل المعتدي ظهر المجنّ، وسلّط عليهم من مكّن السيف من رقابهم، واستولى على أراضيهم وديارهم، ونهب خيراتهم وثرواتهم، وصادر حقوقهم، واستباح مقدساتهم، وهمّشهم في بلدهم فجعلهم مواطنين من الدرجة الثانية أو دونها. لقد عرض السيد مرتضى العسكري في حديثه ما نبّههم إليه الإمام الحكيم وحملهم مسؤوليته في لقائهم به.

ومن أجل أن تكتمل الصورة أثر السيد العسكري أن يعرض أولاً دواعي طلب وفد رجالات وعلماء الشيعة اللقاء بالإمام الحكيم فقال: "كنا مع جمع من كبار علماء بغداد مثل الشيخ محمد رضا الشيباني وجمع من شخصيات وعلماء الشيعة في جلسة، وخطر لنا في تلك الجلسة أن نهتمّ بالعتبات، لأن العتبات كانت تعاني من إهمال الحكومة وغيرها. ففكرنا في تنظيم أوضاع وإعمار العتبات المقدسة في العراق، واتخذنا قرارنا في تلك الجلسة، ونظّمنا أمرنا، فأخذنا موعداً للقاء آية الله السيد الحكيم وذهبنا لرؤيته، وكان الشيخ محمد رضا الشيباني أكبرنا سنّاً، فطرح الموضوع فأجاب آية الله الحكيم، وكان يتكلم بهدوء - قائلاً -: "إن العتبات تدار على كل حال

قليلاً أو كثيراً، إن قلّ في مكان أو كثر في مكان آخر، لا توجد عندنا مشكلة كبيرة في العتبات".

وأضاف سماحته رحمته الله قائلاً: "أنتم رجال الشيعة يجب أن تفكروا بحل مشكلات الشيعة. يجب أن تفكروا بمظلومية الشيعة، بدأت الشيعة ثورة العشرين، والآن هؤلاء هم أنفسهم يعانون من الظلم، وليس لهم أي دور يذكر في الحكومة العراقية، وصاروا مهمشين في المجتمع، أنتم وجهاء الشيعة، لأنني لو أردت أن أعرف اليوم عشرين أو ثلاثين رجلاً من وجهاء الشيعة فبال تأكيد سأذكر أساميكم، فعليكم بدل التفكير بإعمار العتبات المقدسة أن تفكروا بهذه المسائل... وقررنا هناك أن نقيم جمعية باسم (ثورة العشرين) وطبعاً بقيت هذه الجمعية قائمة حتى تمكن حزب البعث على كامل السلطة (كذا) إذ قاموا باجتماعها بعد ذلك" ^(١).

سماحته رحمته الله يدعو بقوة إلى تشريع أحكام الإسلام في الأنظمة والقوانين جميعها ويهدد ببذل الأرواح والأنفس في سبيل المبدأ والعقيدة

إذا كانت قد فرضت عليّ أصول البحث العلمي أن أستشهد ببعض من أقوال سماحته رحمته الله أو أقوال ممثليه في الأمور الثلاثة المتقدمة، فإني سأستشهد أولاً بما ورد في الخطاب المهم للإمام الحكيم الذي ألقاه الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم نيابة عن والده رحمته الله في الاجتماع الجماهيري والحوزوي الكبير داخل الصحن العلوي الشريف عصر يوم (٢٧ صفر ١٣٨٩ هـ / ١٤ مايس ١٩٦٩ م) والذي جاء فيه إن "كل الناس يعرفون موقع العلماء يوم وضع الاستعمار آنذاك المخطط الرهيب

(١) مذكرات الشيخ الآصفي نقلاً عن السيد مرتضى العسكري. سابق: ٢٧٩ - ٢٨٠.

بتشريع القوانين الكافرة التي استهدفت إبعاد الأمة تدريجياً عن أصالتها الفكرية ودينها القويم... ثم تعاقبت الحكومات واحدة بعد الأخرى وهي تجري وفق هذا المخطط بقصد أو بدون قصد في الأخذ بخناق الأمة وكبت حريتها وإرادتها وإرهاقها بالقوانين الظالمة المرتجلة^(١)، وفي إشارة واضحة جلية إلى هذا الموقف ختم الإمام الحكيم كلمته^(٢) بهذه الفقرات الموحية بالمقصود وهي من دعاء الافتتاح "اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة. اللهم إنا نشكو إليك فقد نبينا صلواتك عليه وآله وغيبة ولينا وكثرة عدونا وقلة عددنا وشدة الفتن بنا وتظاهر الزمان علينا، فصل على محمد وآل محمد وأعنا على ذلك بفتح منك تعجّله ونصر تعزّه وسلطان حق تظهره ورحمة منك تجلّلناها وعافية منك تلبسناها برحمتك يا أرحم الراحمين".

وسأستشهد في هذا المحور أيضاً بما أورده ممثله ونجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم في مهرجان الرسول الأعظم المنعقد في النجف الأشرف مؤكداً مراراً وتكراراً على ذلك بقوله هذه المرة: "كان لزاماً على المسلمين عامة والحكومات القائمة في بلاد المسلمين خاصة أن يرجعوا إلى حضيرة الإسلام ويلتفوا حول لوائه الظافر الذي هو عنوان نصرهم وعزتهم ويستمدوا تشريعاتهم من ينبوعه الثر ومنهله الصافي ليستعيدوا مجدهم وكرامتهم"^(٣).

ثم سأستشهد ثانياً بكلمة سماحته ﷺ التوجيهية بمناسبة حلول ذكرى ولادة

(١) ينظر: نص الخطاب في كتاب (الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي): ٢/ ٢٠٦.

(٢) ينظر: نص الخطاب في كتاب (الإمام الحكيم عرض لدوره السياسي والثقافي): ٢/ ٢٠٩.

(٣) الإمام الحكيم، سابق: ١/ ٢٩٦.

الإمام الحسين عليه السلام في شهر شعبان من عام (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) بعد يأس الإمام الحكيم من استجابة الحكام لطلبه المتكرر بتشريع أحكام الإسلام بقوله عليه السلام: "ما أخرج حكام المسلمين اليوم في جميع البلدان الإسلامية على اختلاف شعوبها إلى الاعتبار بهذه الذكرى التي طالما أسمعتهم من وعدها ووعدتها شيئاً كثيراً، وحذرتهم من سخط الله سبحانه وانتقامه، ونصحت لهم أن يقدروا مسؤولياتهم أمام الله تعالى الذي أوجب عليهم الأخذ بالإسلام وتعاليمه، وتطبيق شرائعه وأحكامه ولم يرض عنه بديلاً" ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، ﴿أَلْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٢).

وأضاف سماحته عليه السلام لقد "دعوتهم إلى هذا مراراً وتكراراً، ونصحت لهم سرّاً وجهراً" ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾^(٣) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْصِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾^(٤)، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٥) إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فُلُجْرًا كَفَّارًا ﴿٧﴾^(٦) ﴿٤﴾^(٧) ﴿٥﴾^(٨).

ثم أخرج ثالثاً على تهديد سماحته للحكام المسلمين لعدم تطبيقهم لأحكام الإسلام وتعاليمه وقيمه فاستشهد بحديث مباشر لسماحته مع رئيس وزراء العراق طاهر يحيى والوفد المرافق له بتاريخ (٥ / ١١ / ١٣٨٣ هـ، الموافق ليوم

(١) سورة آل عمران. آية: ٨٥.

(٢) سورة سورة المائدة. آية: ٥٠.

(٣) سورة نوح. الآيتان: ٦ و ٧.

(٤) سورة نوح. الآيتان: ٢٦ و ٢٧.

(٥) مجلة النجف. النجف الأشرف. العدد التاسع عشر. ١٦ شعبان ١٣٨٠ هجرية.

١٩/٣/١٩٦٤م) الذي جاء فيه: "إن الشعب العراقي شعب مسلم متدين لا يرضى بغير الإسلام شريعة ونظاماً... فاللزام على الحكومة... ملاحظة عقيدة الأمة في سنّ الأنظمة والقوانين" وأعقب جملة القوية بجملة أخرى مشابهة لها في المضمون غير أنه ختمها، بتهديد واضح للحكومة من خلال قوله ﷺ: "إننا لا نرتضي غير الإسلام ديناً ونظاماً ونبدل أموالنا ونفوسنا وما تحت قدرتنا في سبيل الدفاع عن ديننا وعقيدتنا". وزاد على ذلك في حديثه "فأوجب" على الحكومة إلغاء القوانين المخالفة للإسلام التي أصدرتها سابقاً.

فسماحته في هذا اللقاء دعا أولاً رئيس الوزراء إلى تطبيق الإسلام شريعة ونظاماً، وهدّد وتوعد الحكام ثانياً باللجوء إلى القوة من خلال بذل الأنفس والأموال في سبيل تطبيق أحكام الإسلام في العراق، وزاد على ذلك ثالثاً فأوجب إلغاء القوانين المخالفة للشريعة التي سنّتها الحكومة سابقاً. وستأتي أدناه مطالبته بذلك أيضاً عند الحديث عن سنّ دستور للعراق.

سماحته ﷺ يطالب بسنّ دستور للعراق وفق الأحكام الشرعية والأصول الإسلامية وعدم تضمينه ما يخالفها

منذ أن تناهى إلى سمع الإمام الحكيم نية حكومة عبد السلام عارف عام (١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م) سنّ دستور للبلاد طالب سماحته بأن يشرّع الدستور وفق الأحكام الشرعية الإسلامية "ففي احتفال سنوي أقيم في النجف الأشرف في شهر كانون الثاني عام (١٩٦٤) بمناسبة ذكرى ولادة الإمام الحسين عليه السلام ألقى العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم نجل المرجع الأعلى كلمة جاء فيها (الآن وقد عرفنا هذه الحقيقة فهل لنا أن نعود إلى طاعة الله، وهل آن للمسؤولين أن يستجيبوا لدعوة الحق ونصح الناصحين فيحققوا للأمة المسلمة استئناف

الحياة الإسلامية الكريمة في ظل راية القرآن^(١).

كما تضمّنت كلمة الهيئة العلمية في النجف الأشرف المعبرة عن رأي المرجعية والحوزة العلمية أن يكون "وضع الدستور على الأسس الإسلامية وتعاليمه القويمة"^(٢).

ولم تقتصر مطالبته عليه السلام بسنّ دستور وفق تعاليم الإسلام وقيمه على ما تقدم فحسب بل "أوعز الإمام الحكيم إلى جماعة العلماء في بغداد -ومن كبار أعضائها نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم- بتقديم مذكرة... حددت مطالبها بشكل واضح وهي خمسة مطالب - نصّ مطلبها الثاني على ما يلي: (مراعاة شعور الأمة في وضع الدستور والعمل على إخراجها بصورة لا يتنافى مع أحكام القرآن والسنة النبوية المطهرة التي لا يدين المسلمون بغيرها ولا يرتضون بها بديلاً وتشريع مادة في الدستور تنص على عدم جواز وضع أي قانون يخالف الأحكام الإسلامية، وبذلك تزيلون الفجوة السحيقة التي سببت فصل الأمة عن حكامها السابقين الذين فرضوا على الأمة قوانين لا تؤمن بها ولا تلتزم بشرعيتها ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾"^(٣)^(٤)، وقد وقّع هذه المذكرة (٢٩) عالماً ووكيلاً لسماحته عليه السلام في بغداد وذلك بتاريخ (١٨ رمضان ١٣٨٣ هـ/ ٢ شباط ١٩٦٤ م). وعلى الرغم من ذلك كله فقد صدر الدستور العراقي المؤقت في (١٧ من ذي الحجة ١٣٨٣ هـ/ ٢٩ نيسان ١٩٦٤ م) مخيباً لآمال ومطالب المرجعية والعلماء والمواطنين.

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الشيخ هادي الأسدي: ٣٣/ ٢ - ٣٤.

(٢) المصدر السابق: ٣٤/ ٢.

(٣) سورة المائدة. من الآية: ٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ٣٤ - ٣٥.

سماعته رحمته يطالب بإلغاء قانون الأحوال الشخصية رقم ١٨٨ لسنة (١٩٥٩م) والقوانين الاشتراكية



لقد كان موقف سماعته من قانون الأحوال الشخصية المرقم ١٨٨ لسنة ١٩٥٩م، وتعديلاته شديداً جداً فسعى رحمته وكتب وأرسل واشترط وتحدث وعنف كبار المسؤولين على تشريع هذا القانون وطالب ليس بتعديله فحسب، بل بإلغائه، لكونه مخالفاً لأحكام الإسلام وتشريعاته الخالدة.

ذلك أن المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، وهيأتها العلمية^(١) والعديد من العلماء^(٢) وعمادة كلية الفقه^(٣) رأت "في هذا القانون تعدياً صارخاً وصريحاً على التعاليم الإسلامية مما لا يمكن السكوت عليه، ولذلك شنت حملتها على القانون المذكور وعلى من يقف وراءه.

لقد اتخذت معارضة هذا القانون أشكالاً متعددة منها ما بادر به العلماء الأعلام في النجف الأشرف ومناطق أخرى من العراق إلى إرسال برقيات الاستنكار للقانون والمطالبة بإلغائه لمخالفته الصريحة للإسلام"^(٤).

وحين زار الفريق الركن طاهر يحيى رئيس الوزراء العراقي والوفد الوزاري المرافق له الإمام الحكيم في بيته بالكوفة بعد ظهر يوم الخميس المصادف (٥ ذي القعدة ١٣٨٣هـ / ١٩ آذار ١٩٦٤م) "أوجب سماعته عليهم -من جملة ما أوجب- إلغاء قانون الأحوال الشخصية الذي يخالف في قسم كبير من مواده آراء المسلمين

(١) تنظر: مجلة النشاط الثقافي. العدد الثاني من السنة الخامسة. شوال ١٣٨٢م.

(٢) ينظر: أعضاء على قانون الأحوال الشخصية لساحة السيد محمد بحر العلوم.

(٣) تنظر: مجلة النجف. العدد السادس من السنة الخامسة. شوال ١٣٨٢م.

(٤) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١ / ١٨٤.

على اختلاف مذاهبهم، وإرجاع القضاء إلى ما كان عليه سابقاً منذ أيام الخلافة الإسلامية الأولى وإلى أيامنا القريبة ثم أسهب سماحته في بيان خطورة هذا التشريع وما يجرّ على أفراد الشعب من تأثر وتآلم، وضرب الأمثلة على ذلك، ثم أوضح سماحته: أن هذا القانون شرّع في ظروف خاصة يعرفها الجميع، استجداء لرضا المستعمر الكافر، ثم تساءل قائلاً: هل إن الحكومة الحاضرة بالحاجة إلى رضا المستعمر الكافر حتى تبقى..؟

وذكر سماحته أنه طالب المسؤولين الذين شرّعوا هذا القانون مراراً وتكراراً بإلغائه ولكنهم أبوا ذلك فأذاقهم الله وبال أمرهم^(١).

وقد كان الإمام الحكيم قد أشار في لقاء صحفي معه نشرته صحيفة (الجهاد) إلى تصديه للمساعي الحكومية التي سعت لتشريع مثل هذا القانون منذ العهد الملكي بقوله ﷺ: "إن أولى واجبات الحكومة هو إلغاء قانون الأحوال الشخصية وإرجاع الأمور إلى العهد الذي كانت عليه سيرة المسلمين منذ أيام الخلافة الإسلامية، وإن موقفنا هذا هو نفس الموقف الذي وقفنا عليه منذ صدور القانون حتى يومنا هذا وإلى أن يتم رفعه وأضيف هنا أن حكومة العهد الملكي المقبور سبق وأن شرّعت قانوناً للأحوال الشخصية خالفت فيه الشرع الإسلامي وعرضته على مجلس النواب، فأرسلت أحد أولادي للاتصال بالنواب وإبلاغهم استنكاري لهذا القانون ووجوب إلغائه، وأصدرت رأيي صريحاً بهذا الشأن مما حدا بالنواب إلى معارضته فاضطرت الحكومة إلى إحالته على اللجنة التي وضعت لدراسته وإعادة النظر فيه، فكانت هذه نهايته إلى أن بعثه قاسم مجدداً بصورة ممسوخة مشوهة

(١) صورة فوتوغرافية مصورة من كتاب (الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي). سابق

أكثر من ذي قبل فأصدرنا رأينا في وقته بمختلف الوسائل بوجوب إلغائه وما زلنا نصرّ على رأينا هذا حتى يتم إلغاؤه^(١).

وكان سماحته قد تحدث مع وزير الصحة العراقي الدكتور محمد الشواف الذي زاره للاطمئنان على صحته خلال حكومة عبد الكريم قاسم فيّين له إجابة على سؤاله عن صحته فقال عليه السلام: "أتى لي بالراحة والاستقرار وكل ما أسمعته وأراه غير مريح" ثم تابع حديثه فقال: "إن قانون الأحوال الشخصية لا يندمج مع الدين... ولا يمكنني الصبر عليه. وإن من واجب الحكومة أن تعاقب واضعيه لأنهم أساءوا إلى سمعتها بوضعه"^(٢).

ومن الجدير بالذكر أن الرئيس عبد الكريم قاسم أرسل وسطاء يطلبون من سماحته الإذن له بزيارة الإمام الحكيم في بيته "لكن المرجع الأعلى رفض ذلك ما لم يتم إلغاء القانون المذكور - قانون الأحوال الشخصية - ولم يتحقق ذلك على الرغم من المحاولات المتكررة من الحكومة لزيارة سماحته.

ثم لما زاره بعض المقربين من الرئيس عبد السلام عارف طالبين منه الموافقة على استقبال الرئيس العراقي خلال زيارته للنجف الأشرف ومن أواخر من زاره منهم لأجل ذلك مرافق الرئيس العراقي عبد الله مجيد "فتكلم مع السيد كثيراً حول الموضوع وفي النهاية رفض السيد طلبهم واشترط لمقابلة عبد السلام - عارف رئيس الجمهورية - أن يلغى قانون الأحوال الشخصية والقوانين الاشتراكية فوراً وبعدها

(١) أضواء على قانون الأحوال الشخصية. السيد محمد بحر العلوم: ٩ - ١٠، نقلاً عن صحيفة الجهاد. بعدها الثامن من السنة الأولى بتاريخ ١٩ آذار ١٩٦٣ م الصاوي ينظر: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١/ ١٦٥. نقلاً عن صحيفة الجهاد ذي العدد الثامن الصادر في (٢٣ شوال ١٣٨٢ هـ/ ١٩ آذار ١٩٦٣ م) تلك الصحيفة التي كان يصدرها نور الدين الواعظ.

(٢) الإمام الحكيم. عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ٢/ ٤٠٧. ملاحق ووثائق.

تكون المقابلة فاقترحوا عليه أن تتم الزيارة أولاً ثم يجري التباحث أثناءها بتلك المواضيع بشكل مباشر، فأمر السيد بإلغاء تلك القوانين كشرط مسبق^(١). يذكر أن الإمام الحكيم إضافة لكل ما تقدم، كان قد أوعز إلى جماعة العلماء في بغداد والكاظمية التي يرأسها ممثله ونجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم بإرسال مذكرة إلى عبد السلام عارف فأرسلت المذكرة بتاريخ (١٨ رمضان ١٣٨٣هـ / ٢ شباط ١٩٦٤م) وتضمنت فقرتها الأولى من جملة ما تضمنت "إلغاء قانون الأحوال الشخصية وإعادة المحاكم الشرعية ليتاح للمسلمين مزاوله أحكامهم الشرعية وفق مذاهبهم"^(٢).

سماحته رحمته الله والعلماء الأعلام يرفضون سعي الحكومة لتطبيق الاشتراكية وتأميم المصارف والشركات

في مسعى حكومي للتقارب مع الدولة المصرية مقدمة للوحدة العربية معها "أعلنت الحكومة العراقية في يوم ١٤ تموز ١٩٦٤م... وبخطوة مفاجئة قانون التأميم للتحويل نحو الاشتراكية... وفي اليوم نفسه... أتمت حكومة بغداد كل المصارف وشركات التأمين واثنتين وثلاثين مؤسسة صناعية وتجارية كبيرة... فكان أول رد فعل رسمي عن المرجعية الدينية في النجف الأشرف يعارض إعلان قرارات التأميم والتحول الاشتراكي ترجمته برقيتين صدرت الأولى عن (علماء النجف الأشرف) وصدرت الثانية عن (الهيئة العلمية في النجف الأشرف) حيث جاء في البرقية الأولى التي أرسلت إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والحاكم العسكري العام بتاريخ (١٣ ربيع الأول ١٣٨٤هـ / ٢٣ تموز ١٩٦٤م) ما يلي:

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق. سابق: ٦٨.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ٣٥ / ٢.

(إننا نستنكر أشد الاستنكار تطبيق الاشتراكية التي تصطدم بمبادئ الإسلام السامية في البلاد الإسلامية والتي ظهرت طلائعها في الاعتداء على أموال المسلمين في حركة التأميم).

وجاء في البرقية الثانية المؤرخة في (١٩ ربيع الأول ١٣٨٤هـ/ ٢٩ تموز ١٩٦٤م) ما يلي: (في الوقت الذي تتطلع فيه الأمة إلى وضع أفضل وتنتظر من المسؤولين أن يقولوا كلمة الإسلام في حلّ المشاكل الاجتماعية، ترى كارثة الانحراف عن الإسلام تشتد وتنمو ويطلع علينا وضع جديد تستقطب فيه مبادئ غريبة عن مبادئ الإسلام تسمى الاشتراكية.

والهياة العلمية في النجف الأشرف إذ تستنكر هذا الوضع الجديد تلفت نظر الحكومة إلى الوضع غير المستقر الذي تمرّ به البلاد، وتطالب بإلغاء ما أسمته بقوانين التأميم والله من وراء القصد)^(١).

بل إن عبد السلام عارف حاول خلال زيارته الأخيرة للنجف الأشرف في نيسان (١٩٦٦م) طلب "ترتيب لقاء بينه وبين الإمام الحكيم لترطيب الأجواء بينهما، لكن الإمام الحكيم رفض الموافقة على اللقاء إلّا بعد أن يعلن رئيس الجمهورية إلغاء قانون الأحوال الشخصية وقرارات التأميم والقوانين الاشتراكية وقيل إنه عندما علم برفض الإمام الحكيم لهذا اللقاء هدد وتوعّد بعمل أشياء بعد عودته إلى بغداد^(٢) وهو ما يكشف شدة استياء سماحته من تشريع هذه القوانين والإجراءات المخالفة للإسلام وتشريعاته. وهناك غيرها لا يسع المجال لذكرها^(٣).

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الشيخ هادي الأسدي: ٤٢/٢ - ٤٣.

(٢) المصدر نفسه: ٧١/٢ - ٧٢.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٠/٢. وتنظر الصورة الفوتغرافية للبرقية في المصدر نفسه: ٣٣٤/٢.

سماعته ﷺ يطالب بتعميم الثقافة الدينية والمعارف الروحية ومكافحة التفسخ الخلقي وتعديل مناهج التربية والتعليم



لقد أكد الإمام الحكيم أكثر من مرة على أهمية تنشيط وتفعيل الجانب الروحي والأخلاقي للإنسان المسلم، فمن ذلك ما تضمنته كلمة ممثله ونجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم في المهرجان الديني الذي أقامته جماعة علماء بغداد والكاظمية بذكرى المولد النبوي الشريف سنة (١٣٨٧/ ١٩٦٧ م) بقوله: "إننا بدل أن نقدم للعالم من واقع حياتنا الحي المضمون الروحي والأخلاقي والاجتماعي لحضارتنا الإسلامية العظيمة النبيلة اقتبسنا مضموناً حضرياً غريباً عن تراثنا الروحي ومثلنا الأخلاقية وشريعتنا الإسلامية... وقد كان عاقبة ذلك أن الإسلام أخذ يفقد مواقعه في حياتنا اليومية باستمرار".

وأضاف ممثل الإمام الحكيم في كلمته: "ومن أجل إعادة البناء الروحي لا بد من وضع حد لجميع عمليات التخريب الرخيصة والدعوات الشريرة التي يتعرض لها الكيان الروحي للإنسان المسلم منذ أمد بعيد. ولا بد من العمل لإدخال مزيد من الإسلام في الحياة اليومية عن طريق القضاء والتعليم والصحافة والإذاعة وغير ذلك. ولا بد من إتاحة جميع الفرص أمام القيادة الروحية لتقوم بهذه المهمة العظيمة"^(١).

وفي مجال مكافحة التفسخ الخلقي فقد أوعز سماعته ﷺ إلى جماعة العلماء في بغداد بتقديم مذكرة إلى عبد السلام عارف تضمنت من جملة ما تضمنت "مكافحة التفسخ الخلقي الذي عمل المستعمر الكافر على إيجاده وتوسيعه في مناهج الإذاعة والتلفزيون والخمور وأشباهاها، والحث على التحلي بالخلق الإسلامي الكريم

(١) إمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي: ٤٣٢/٢.

لتقضوا بذلك على وسائل هدم كيان الأمة الاجتماعي. - كما طالب - بـ "تعديل مناهج التعليم ووسائل التربية والتوجيه بشتى أنواعها ومختلف مجالاتها، وتوجيهها توجيهاً سليماً لتكون أدوات فعّالة لنشر المعارف الحقّة في المجتمع والحث على التحلي بالخلق الإسلامي الكريم، والعمل لإنشاء جيل مسلم صالح في البلاد ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْاً أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾^(١)"^(٢).

وقد كان الإمام الحكيم قد طلب من الدولة خلال حديثه مع طاهر يحيى رئيس وزراء العراق في (٥ ذي القعدة ١٣٨٣ هـ/ ١٩ آذار ١٩٦٤ م) "بتعميم الثقافة الدينية، وبث المعارف الروحية في العراق، ليكون قدوة للبلدان الإسلامية الأخرى وذلك بقوله لرئيس الوزراء: "إن العراق بلد يتموّن منه العالم الإسلامي من أقصاه بالثقافة الدينية، والمعارف الروحية، لذلك لا بدّ أن يراعى فيه هذا الجانب ويكون قدوة حسنة للبلاد الأخرى"^(٣).

١٥ سماحته ﷺ يفتي بأن الشيوعية كفر وإلحاد

بعد أن سمح عبد الكريم قاسم للشيوعيين بأن يتمددوا ويهددوا من يقف في طريق نشر دعوتهم وزادوا على ذلك فـ "بدأوا بإهانة مبادئ الإسلام والمقدسات"^(٤) وطالبوا بالاشتراك في الحكم عبر شعارات رفعوها وتظاهرات قادوها أفتى الإمام الحكيم في (١٧ شعبان ١٣٧٩ هـ/ ١٢ شباط ١٩٦٠ م) جواباً على استفتاء وجه إليه بعدم جواز الانتماء إلى الحزب الشيوعي بقوله:

(١) سورة التحريم. من الآية: ٦.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ٣٥/ ٢.

(٣) حديث الإمام الحكيم مع رئيس الوزراء. مختارات إسلامية: ١٢.

(٤) مذكرات الشيخ الآصفي: ١٧٦.

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٧ شعبان ١٣٧٩

محسن الطباطبائي الحكيم^(١).

ولو وقفنا على السبب الرئيس الذي حدا بالإمام الحكيم إلى إصداره فتواه هذه لعرفنا حرجة الوضع المعاش ذلك الوقت، وهو ما كشف عنه نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم في حديث مباشر له مع الباحث حسن العلوي نقله في كتاب له جاء فيه قول الشهيد الحكيم: "لا بدّ لمعرفة هذه الأسباب من العودة إلى تلك الأيام الصعبة، والشيوعيون والمحسوبون عليهم يحيطون حول ضريح أمير المؤمنين عليه السلام هاتفين بشعارات لا يرضاها المسلم. فترك السيد -الإمام الحكيم- أمرهم أول وهلة لله تعالى، وإذ تجبروا وعلوا في الأرض وكثرت مفسدهم، وصار المسلم في النجف غربياً غربة الكافر فيها وتعالّت الأصوات بإيقاف الحملة التي استهدفت الإسلام عند حدها"^(٢).

وهناك سبب آخر للفتوى نص عليه السيد أحمد الحسيني المعاصر لظروف الفتوى جاء فيه: "قررت الشيوعية في العراق أن تبديد كل إنسان ربما يعارضها أو

(١) جريدة العراق. العدد الصادر في ٢٢ آذار ١٩٦٠ م نقلاً عن الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الاسدي: ٣١٦/١. وقد طبعت الفتوى ووزعت في أنحاء العراق كافة.

(٢) الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. سابق: ٢١٤. حديث أجراه العلوي في لندن بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٨٦ م مع الشهيد الحكيم.

يقف في طريقها فنظمت القوائم الطوال في جميع المدن بأسماء الأشخاص الذين يجب أن يقتلوا، والبيوت التي يلزم أن تكون عرضة للنهب والخراب، وكان موعد العملية ليلة (١٤ تموز ١٩٥٩ م الموافق ٨ محرم سنة ١٣٧٩ هجرية) حيث تطفأ المصابيح، وتقطع جميع الأسلاك الكهربائية والتلفونية، وتبدأ المقتلة العامة، ولكن رجال الأمن عرفت هذه الخطة الجهنمية فاتخذت الإجراءات الصارمة ووقفت وقفة مشكورة يذكرها الشعب العراقي فيشكرها^(١) حينها بعد وصلت الأمور إلى هذا الحد أصدر سماحته فتواه التاريخية ضد الانتماء إلى الحزب الشيوعي.

"وكان هذا أول صراع وتحدٍّ يواجهه آية الله السيد الحكيم، ولقد بدأ سماحته العمل على مواجهته بدراية وحكمة وعقل ومقاومة"^(٢) وهو ما كان.

لقد أحدثت الفتوى هزة عميقة في العراق وعدت أقوى ضربة وجهت إلى الحزب الشيوعي في العراق وأنها "بمثابة إعلان حرب على أقوى تيار سياسي في البلاد في ذروة طغيانه وقمة جبروته... فقد شهد العراق تراجعاً ملحوظاً في المد الشيوعي، واعترفت القيادات الشيوعية بـ(إن فتوى الحكيم قد أخرت العمل التنظيمي للأحزاب الشيوعية والاشتراكية لسنوات عدّة) فانحسر التأييد الشعبي للشيوعيين وتوافد الكثير منهم على دار السيد محسن الحكيم لإعلان التوبة"^(٣).

كما توافدت الجماهير الغفيرة على دار سماحته أيضاً بعد أن "حاول الشيوعيون التعدي على مقام السيد الحكيم، فرسموا صورة لحمار وألبسوه نظارات وكتبوا

(١) الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي. سابق: ٨٨.

(٢) مذكرات الشيخ الأصفي: ١٧٧.

(٣) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية. ١٩٢١ - ٢٠٠٣ م. بحث. د. مقدم عبد الحسن فياض. ضمن موسوعة: فتوى الدفاع الكفائي. المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف

عليه (الهمار الحكيم)، وهي مسرحية كانت شائعة للكاتب المصري توفيق الحكيم. وقام أحد الشيوعيين في سوق العمارة بالنجف أثناء مرور السيد الحكيم، فرمى على السيد الحكيم بشيء من اللبن. فاحتجب السيد في حينه مستنكراً، فجاءته الوفود من شتى أنحاء العراق تعرب عن ولائها للإسلام وقيادته الحكيمة^(١).

وقد تبعت فتوى الإمام الحكيم المتقدم ذكرها العديد من فتاوى المراجع الكبار المؤيدة والداعمة لمضمونها حيث صدرت من قبل المراجع كل من: السيد أبو القاسم الخوئي، والسيد محمود الشاهرودي، والسيد عبد الهادي الشيرازي، والسيد عبد الله الشيرازي، والسيد محمد جواد الطباطبائي التبريزي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ مرتضى آل ياسين، والسيد مهدي الحسيني الشيرازي^(٢). وغيرهم^(٣).

سماعته ﷺ يفتي بحرمة قتال الأكراد خلافاً لقرار الحكومة العراقية

١٦

لقد وقف الإمام الحكيم موقفاً مشهوداً تجاه الاخوة الأكراد، فحين قررت الحكومة العراقية (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م) قتالهم وإبادتهم بكافة أنواع الأسلحة الفتاكة فدعت إلى "عقد مؤتمر في أيام عبد السلام عارف حضره شيخ الأزهر وكل العلماء البارزين في العراق من إخواننا السنة وحاولوا أن يضغطوا على النجف لأجل حضور هذا المؤتمر، إلا أن الإمام الحكيم رفض الحضور، وأصدر هذا المؤتمر قراراً

(١) الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠. سابق: ٢١٤ نقلاً عن: تاريخ الحركة الإسلامية في العراق. عامر الحلو: ٤٣.

(٢) تنظر نصوص هذه الفتاوى في: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الاسدي: ٣١٧ - ٣١٨.

(٣) ينظر: الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي. سابق: ٨٩ - ٩٢.

بأن الأكراد بغاة، والباغي يجب أن يقتل.

ولم يكتفِ الإمام الحكيم بعدم الحضور، بل عقد اجتماعاً يوم الأربعاء في صحن الإمام الحسين عليه السلام، داخل مقبرة آية الله العظمى الإمام محمد تقي الشيرازي قائد ثورة العشرين، دعا له جميع العلماء الذين حضروا هذه الزيارة، وكما هو معلوم فإن زيارة الأربعين تكتظ بالعلماء من كل صوب، وفي هذا الاجتماع أعلن -الإمام الحكيم- أولاً: رفضه لهذا المؤتمر. ثانياً: بين أن الإخوة الأكراد مسلمون، ولا يجوز قتلهم. ودماؤهم لها حرمة، ويجب أن تحل قضيتهم بالطرق السلمية، وليس عن طريق الإبادة والقتل والتدمير للبلاد والعباد.

وبعد ذلك أخذ -الإمام الحكيم- يفتي كل من يستفتيه ممن يشترك في الجيش العراقي بحرمة قتال الأكراد بحيث خلق تياراً واسعاً وكبيراً^(١).

ويضيف الشهيد السيد محمد مهدي نجل الإمام الحكيم قائلاً: "وكان موفدو الملا مصطفى -البارزاني- يقابلون السيد مباشرة وأحياناً كان الاتصال يتم بشكل غير مباشر عن طريق اللقاء بي أو السيد مرتضى العسكري والسيد هادي الحكيم والسيد محمد بحر العلوم والسيد محمد باقر الحكيم"^(٢).

ومن جملة زيارات موفدي الملا مصطفى البارزاني للإمام الحكيم "أن جاء لزيارته مرة إدريس بارزاني ومسعود بارزاني مبعوثين من أبيهم (الملا مصطفى)، ليشكروه على مواقفه مع الكرد، لأنه كان قد دافع عنهم في تلك الحقبة.

وفي تلك الجلسة قصّ آية الله السيد الحكيم تاريخ أجداد الملا مصطفى بارزاني وأجداد إدريس ومسعود بارزاني، ففغروا أفواههم مفتوحة عجباً من تلك

(١) مرجعية الإمام الحكيم نظرة تحليلية شاملة. السيد محمد باقر الحكيم: ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٧٣.

المعلومات والذاكرة، لأنهم لم يكونوا قد سمعوا تاريخ أجدادهم. فلقد حكى لهم عن أجدادهم، وعن الشخصيات المعروفة من عائلة بارزاني، كما عرفهم بدور والدهم في المواجهة ضد بريطانيا والاحتلال، وأدى هذا الموقف إلى أن يشغف البارزانيون به^(١).

ولم يكتف سماحته رحمته الله بموقفه الذي تقدم ذكره، بل عاد وسعى مرة أخرى إثر استغاثة الملا مصطفى البارزاني بسماحته من أجل منع الحكومة العراقية من حرق القرى الكردية وإبادة أهلها.

يقول الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم: "أتذكر أن الملا مصطفى -البارزاني- بعث إلى المرحوم السيد بخبر يعلمه فيه بأن لدى الحكومة اتجاه للقيام بحرق القرى الكردية وإبادة السكان، وكان يستغيث بالسيد، وقد تجاوب السيد، فأرسل إلى وزير الداخلية، وكان تركمانياً، ونصحه بأن هذا العمل قبيح جداً وغير مقبول، وأظهر احتجاجه على ذلك، فقال الوزير: (سيدنا ماذا نفعل مع هؤلاء وهم يقلقون البلاد) فقال المرحوم السيد: (عليكم أن تحلوا القضية بشكل سلمي، ولا يجوز التعامل معهم بهذا الشكل)"^(٢).

وكان سماحته رحمته الله قد أرسل رسالة جوابية إلى الملا مصطفى البارزاني في (٤ ذي الحجة ١٣٨٤ هـ / ٥ نيسان ١٩٦٥ م) ضمّنها رؤيته لحل النزاع بين الحكومة في بغداد والأكراد جاء فيها:

"جناب المكرّم الملا مصطفى البارزاني وفقه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد تسلّمت كتابكم، ولا بدّ أنكم

(١) مذكرات الشيخ الآصفي. سابق: ٢٧٩.

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٧٣.

قد عرفتم أنا راجعنا الحكومة الحاضرة حول ما تضمنه كتابكم فطلبنا الوزير السيد عبد الحسين زلزلة ونصحنا الحكومة بكل ما من شأنه المحافظة على الدماء البريئة من أن تراق، وعلى الأعراض والأموال المحترمة من أن تنتهك أو تنهب، فأجابت إلى ذلك كله وتعهدت بالمحافظة على جميع ذلك حسب الإمكان، ونحن الآن نصصح لكم كما نصحناهم. فاللازم عليكم المحافظة على هذه الأمور كلها، وإذا أردتم المطالبة بشيء من الحقوق فاللازم حسب الإمكان أن تكون على نهج هادئ وبشكل سلمي يحفظ هؤلاء المسلمين الذين هم في مناطقكم من كل خطر أو قلق" (١)

ونظراً لهذا الموقف الإسلامي والإنساني الكبير فقد ظل الإخوة الكرد زعماء ومواطنين بعد أكثر من قرن يذكرون هذا الموقف المشرف للإمام الحكيم ويمجدونه. وقد سمعت شخصياً من زعمائهم من أمثال السيد مسعود البارزاني والسيد جلال الطالбاني غير مرة كما سمعت من غيرهم من زعماء الكرد مراراً وتكراراً بعد أكثر من نصف قرن إشاراتهم الكبيرة بموقف الإمام الحكيم، وكيف أنه حال بين الحكومة الظالمة وإبادتهم أو تهجيرهم وحرق مدنها وقراهم ومزارعهم وأملأهم.

ويلمس كل من التقى بالأكراد مدى تبجيلهم للإمام الحكيم ولأسرته ومتعلقها. كما يشاهد كل من زار مدينة السليمانية بناء الكرد لجامع وحسينية في مدينة السليمانية أسموها باسم الإمام الحكيم شكراً له وتثميناً لموقفه منهم، وهي الآن مركز اجتماعي ضخم للشيعية الكرد في كردستان العراق يحيون فيها شعائر عاشوراء سنوياً لمدة عشرة أيام بذكرى استشهاد الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام، كما يقيمون فيها المراسم الدينية الشيعية الأخرى من قبيل الليالي الفاطمية بمناسبة ذكرى شهادة الصديقة الزهراء عليها السلام، وربما يحيون فيها غير

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ٥٣/٢ - ٥٤.

هاتين المناسبتين من المناسبات الدينية الشيعية أيضاً.

سماعته ﷺ يدين حملات الاعتقال بسبب الخلاف العقائدي والفكري خلافاً للقانون



سبق أن تحدثت عن زيارة طاهر يحيى رئيس وزراء العراق على رأس وفد وزاري للإمام الحكيم في (٥ ذي القعدة ١٣٨٣ هـ / ١٩ آذار ١٩٦٤ م)، وخلال هذا اللقاء أشار الإمام الحكيم من الحكومة "إيصاء الحكام جميعهم بوجوب الثبت والتروي في إصدار الأحكام، وعدم التسرع فيها، ومعاملة الناس بالعدل والإحسان"^(١).

ثم بعد أن تفتشت ظاهرة الاعتقالات الظالمة للمواطنين من قبل الحزب والحكومة أكثر فأكثر بسبب خلاف في الموقف السياسي أو العقائدي أو الفكري أو الرأي، أكد الإمام الحكيم مجدداً عبر مثله الشخصي ونجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم إدانة هذه الاعتقالات الجائرة بما أورده في الفقرة الثالثة من مذكرته التي أرسلها إلى رئيس الجمهورية العراقية موقعة باسمه نيابة عن جماعة علماء بغداد والكاظمية في (٢١ ربيع الأول ١٣٨٩ هـ) تلك الفقرة من المذكرة التي جاء فيها: "إن البلد يعيش مشكلة خطيرة هي مشكلة الاعتقالات... فمن الناحية النظرية يبدو أن هناك اتجاهاً إلى اتخاذ الاختلاف في وجهات النظر السياسية بل والعقائدية والفكرية وحده سبباً كافياً للإدانة والتشهير، ومن الناحية التطبيقية يلاحظ وبكل مرارة أن الاعتقالات تتم في كثير من الأحيان بدون مذكرة توقيف رسمية، وأحياناً من قبل أناس لا يحملون أية صفة رسمية، ويمارس بعض الأشخاص مع المعتقلين

(١) تنظر تفاصيل الزيارة في كتاب (الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي). سابق: ٣٤٢/٢.

نقلاً عن تقرير عنها نشرته مجلة الإيهان النجفية.

ألوان التعذيب الجسدي والنفسي في سبيل الإدلاء بأقوال وشهادات كاذبة بالقوة والإكراه، ولهذا فإن السلطة مدعوة من الناحية النظرية إلى عدم اتخاذ الاختلاف العقائدي أو السياسي بمجرد سبباً للإدانة أو التشهير بالعمالة والتجسس. ومن الناحية التطبيقية إلى عدم أخذ المعتقلين بدون مذكرة توقيف رسمية، وعدم ممارسة التعذيب معهم بقصد الإدلاء بشهادات كاذبة بالقوة والإكراه، وجعل التحقيق معهم من قبل لجنة تحت إشراف محكمة تميز العراق، والسماح لأهالي المعتقلين وذويهم بزيارتهم^(١).

سماعته عليه السلام يرى فشل المؤتمرات الإسلامية في تأدية مهماتها الأساسية



لقد كان الإمام الحكيم يدرك بوضوح أن المؤتمرات الإسلامية التي تعقد في هذه الدولة أو تلك ليس لها أي طعم أو رائحة، فهي لا تقدم ولا تؤخر، وليس لأغلبها أثر محمود على صعيد خدمة الإسلام والمسلمين.

وقد أوضح موقفه بجلاء حين تلقى رسالة من المكتب الدائم للمؤتمر الإسلامي في القدس تضمنت قرب انعقاد المؤتمر في مدينة القدس بتاريخ (٢٧ رجب ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م)، راجية منه - من بين أمور أخرى - إرسال مرشحين عنه لحضور هذا المؤتمر، فأصدر عليه السلام بموقفه الجلي ليس من حضور أمثال هذه المؤتمرات فحسب، بل ومن انعقادها أصلاً لعدم جدواها، وصولاً إلى التشكيك في دوايعها وأغراضها أيضاً.

فقد جاء في بعض رسالة سماعته الجوابية الطويلة المؤرخة في (١٥ جمادى

(١) تنظر نص المذكرة في كتاب: (الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي). سابق: ٢ / ٢١٢ - ٢١٣.

الثانية ١٣٨١هـ / ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦١م) والمرسلة إلى أعضاء المؤتمر الإسلامي بعد السلام والدعاء لهم بالتوفيق ما نصّه: "إن الحقبة التي يجب أن تقال بهذا الصدد ونعترف بها بمرارة هي أن المؤتمرات الإسلامية التي تألفت حتى الآن لم تؤدّ وظيفتها بالصورة المطلوبة منها فإن الصحيح منها ما كان ليعقد في الغالب إلا للتنفيس عن عاطفة إسلامية مشكورة أما المساهمة الحقيقية في حل مشاكل الأمة في مختلف مجالات حياتها فليس للمؤتمرات التي عاصرناها نصيب ملحوظ من ذلك وهذا هو أحد أسباب الانفصال الذي أحسنه بين المؤتمرات والأمة... إن هذه الحكومات بحاجة إلى التعرف على الإسلام نفسه في جهازها وقوانينها ليتاح لها بعد ذلك أن تتعارف بينها على أساس إسلامي، فلن يكون التعارف أو الاتحاد بين حكومات المسلمين مهما كان شكله إسلامياً ما لم تكن الحكومات إسلامية بحدّ ذاتها، وإلا فهي جهاز من أجهزة أعداء الإسلام لتحيطه والقضاء عليه، وبالأخير القضاء على الشعوب الإسلامية وكيانها الذاتي"^(١).

سماحته ﷺ يوافق بشروط على طلب رئيس الجمهورية منه التوسط لحل النزاع بين العراق وإيران بخصوص شط العرب.

١٩

لقد أشرت سابقاً إلى لقاء عقد بين الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم ممثلاً عن الإمام الحكيم وبين البكر حول موضوع القانون الجديد للعتبات المقدسة. وقد تضمن هذا اللقاء طلباً من البكر لأن يتدخل الإمام الحكيم لحل الخلافات بين الحكومة العراقية والإيرانية حول شط العرب. وقد ردّ الشهيد الحكيم على

(١) صورة فوتوغرافية عن نص رسالة الإمام الحكيم المنشورة في مجلة الأضواء النجفية. العدد الخامس من السنة الثانية. رجب ١٣٨١. تحت عنوان (الإمام الحكيم يوجه رسالة إلى المؤتمر الإسلامي).

طلب البكر بأن ذلك يستلزم "مراجعة الإمام الحكيم في هذا الأمر"^(١).

كما سبق أن تحدثت عن زيارة وفد حكومي رسمي كبير للإمام الحكيم في (١٦ ذي الحجة ١٣٨٨ هـ/ ٦ آذار ١٩٦٩ م)، ضم وزير الدفاع ونائب رئيس الجمهورية حردان التكريتي، وعبد الحسين وداي العطية وزير الزراعة، وأخيه حسن وداي العطية، وغيرهم، ولأهمية ما دار في هذا الاجتماع أرى من المفيد أن نقل النص الحرفي للمقابلة الرسمية، كما رواها مبعوث الحكومة للاجتماع الوزير عبد الحسين وداي العطية وزير الزراعة. قال الوزير: "ذهبنا إلى النجف وانتظرنا مع كثيرين من جنسيات مختلفة عربية وإيرانية وباكستانية، خليجيين، وعراقيين من أنحاء البلاد كلها، وكان السيد كما قيل لنا منشغلاً بكتابة رسالة إلى أحد ممثليه في أفريقيا. دخلنا عليه فقال له أخي عبد الحسين: (إن الحكومة تنتظر منكم الدعم في مشكلتها مع إيران بخصوص شط العرب) فرد عليه السيد: (أنا أمثل المسلمين الشيعة جميعاً، ولا أفرق في موقفي بين العراقي والإيراني والهندي والإفريقي، وبالنسبة لي ليس الشيعة فقط بل المسلمون كلهم شيء واحد، ولا يجوز أن أميل لطرف دون آخر... أنا رجل علم لا أتدخل إلا في حالة واحدة، عندما أقتنع أن الخلاف يؤدي إلى إراقة دماء المسلمين، وحينها سأسعى إلى حقن الدماء)"^(٢).

ويضيف عضو الوفد الرسمي في تدوينته قائلاً: "ورغم ذلك فقد فاجأنا السيد باقتراح إيجابي وغاية في الأهمية إذ قال: (إذا طلبت مني الحكومة العراقية

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٤٧/٢،

(٢) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية. ١٩٢١ - ٢٠٠٣ م. بحث.

د. مقدم عبد الحسن فياض. ضمن موسوعة: فتوى الدفاع الكفائي. المرجعية الدينية العليا وأبرز

المواقف الوطنية ١٩١٤ - ٢٠١٤: ٢٣٨/٣.

التدخل رسمياً، وأعلنت ذلك على الملأ من الإذاعة، سأكون ملزماً، وسأقول لكم شكّلوا وفداً يضم فريقاً حكومياً متخصصاً فنياً وسياسياً، يعرف ملابسات القضية جيداً، وسأرسل معه من جانبي إن شئتم عدداً من العلماء العراقيين، فضلاً عن شخص سياسي مقبول من طرفي ومن الحكومة... وهناك يذهب الموظفون للحوار مع نظرائهم، أما العلماء فسيتصلون بالحوزة الإسلامية لشرح الأمر لعلماء إيران، وهم أعضاء كبار في حوزتنا، ومؤتمنون وسينظرون في كيفية التصرف بهذه القضية" (١).

ويستمر عضو الوفد ومقرر اللقاء في محضره الرسمي فيقول: "عدنا إلى بغداد، وذهب عبد الحسين -عضو الوفد- إلى القصر، ثم عاد بعد قليل قائلاً: (أخبرت البكر بكل شيء، وفرح، وقال إنها خطوة جيدة، وسنصدر بياناً تبثه إذاعة بغداد مساء اليوم أو صباح الغد، يلتبس من السيد الحكيم التدخل لتسوية الخلاف بين البلدين). انتظرنا عدة أيام ولم يصدر شيء. وبعد التحري علمنا أن قيادة الحزب القائم رفضت هذا الاتجاه قائلة للبكر: (نحن نريد التقليل من شأن علماء الدين، فكيف نعطيهم دوراً يعزز مكانتهم السياسية)" (٢).

لقد ضيعت حكومة البعث فرصة سنحت لحل النزاع العراقي / الإيراني على شط العرب، ولو سمعت الحكومة العراقية نصيحة الإمام الحكيم لأوقفت سيل

(١) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية. ١٩٢١ - ٢٠٠٣ م. بحث. د. مقدم عبد الحسن فياض. ضمن موسوعة: فتوى الدفاع الكفائي. المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية ١٩١٤ - ٢٠١٤: ٣/٢٣٩. وينظر: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الشيخ هادي الأسدي: ١٤٨/٢.

(٢) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية. ١٩٢١ - ٢٠٠٣ م. بحث. د. مقدم عبد الحسن فياض. ضمن موسوعة: فتوى الدفاع الكفائي. المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية ١٩١٤ - ٢٠١٤: ٣/٢٣٩. نقلاً عن: عراق ٨ شباط ١٩٦٣. علي كريم سعيد. ٣١٣ - ٣١٤. وينظر: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٤٨/٢.

دماء تدفق بعد ذلك بسبب هذا النزاع الدموي الطويل، ولـ ﴿كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾^(١).

سماعته ﷺ يطالب بتحوّل العراق من الحكم العسكري إلى الحكم المدني النيابي



بالنظر لما عاناه الشعب العراقي من ظلم واستبداد وتجبر الحكام العسكريين
جميعهم منذ انقلاب أو ثورة (١٤ تموز ١٩٥٨ م) وما بعدها، وبعد ما جرّه حكم
العسكر من سفك للدماء واستباحة للأعراض وهتك للحرّمات وسلب للأموال
وتجاوز على الحقوق والحريات فقد مالت المرجعية الدينية العليا زمن مرجعية الإمام
الحكيم إلى الحكم المدني النيابي وطالبت بالتحوّل اليه. خاصة بعد تولي عبد الرحمن
عارف رئاسة الجمهورية مما "عزز لدى المرجعية الدينية الأمل بالانتقال من الحكم
العسكري إلى الحكم المدني النيابي القائم على التوازن.

يقول الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم: "إنه نقل إلى عبد الرحمن البزاز
-رئيس الوزراء آنذاك- رغبتهم بالتحوّل إلى الحكم المدني النيابي والتخلص من
الحكم العسكري في العراق، وتحقيق التوازن في الهيئة السياسية الحاكمة، وكان
المقترح يقوم على أساس تشكيل مجلس رئاسي من ثلاثة أشخاص يمثلون المكونات
الرئيسية الثلاثة (الشيعية والسنة والكرد) وأن يكون واحداً من بين هؤلاء الثلاثة
مرشحاً من قبل المرجعية الدينية أو ينال رضاها ولكن عبد الرحمن البزاز لم يتجاوب
مع هذا المقترح"^(٢).

(١) سورة الأحزاب. آية: ٢٥.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. نقلاً عن الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم:

وعلى الرغم من ذلك فقد كان الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم يتحرك هنا وهناك، يلتقي مع هذا، ويحاول إقناع ذاك بوجهات نظر المرجعية في ضرورة الوصول إلى الحكم المدني مقدمة لإعطاء الحريات العامة للشعب العراقي في ممارسة معتقداته وشعائره الدينية وحرية العراقيين في التعبير عن آرائهم المختلفة دون خوف أو وجل.

سماحته ﷺ يرفض طلب رؤساء الجمهورية العراقية الثلاث - عبد السلام عارف، وعبد الرحمن عارف، وأحمد حسن البكر - زيارته



لقد طلب عبد السلام محمد عارف رئيس الجمهورية، عبر وسيط، الاجتماع بالمرجع الأعلى السيد محسن الحكيم، فرفض سماحته الاجتماع به إلا بشرطين:

أولهما: إلغاء قانون الأحوال الشخصية.

وثانيهما: إلغاء قوانين مصادرة أموال الناس، وتأميم الشركات الخاصة، والمصانع، والمعامل، بحجة الاشتراكية.

ثم كرر رئيس الجمهورية عبد السلام محمد عارف الرغبة بالاجتماع بالمرجع الأعلى السيد محسن الحكيم عبر وسيط آخر، فقبول بالجواب السابق نفسه، ثم زار عبد السلام محمد عارف رئيس الجمهورية مدينة النجف الأشرف، وأراد الاجتماع بالمرجع الأعلى السيد الحكيم، فرفض المرجع الأعلى طلبه مجدداً.

يقول صاحب كتاب (محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق) متحدثاً عن رفض الإمام الحكيم للرئيس العراقي عبد السلام عارف ما يلي: "حاول الرئيس عبد السلام إعادة الاعتبار إلى نفسه بعد أن وصلت شعبيته إلى الحضيض وازدادت معارضة حكمه بعد المحاولة التي قام بها من أجل ضرب مرجعية السيد محسن الحكيم فحاول إعادة ترميم الجسور مع المرجعية فقام في نيسان

١٩٦٦م/ ذي الحجة ١٣٨٥ هـ) أي بعد ١١ شهراً من تأزم الوضع بزيارة إلى مدينة النجف الأشرف بهدف لقاء السيد الحكيم وقد حطت طائرته العمودية الخاصة في وسط مسجد الكوفة الكبير قبل أن يتوجه موكبه إلى النجف الأشرف".

ويضيف إلى ذلك قوله "وفي النجف الأشرف رفض السيد محسن الحكيم الالتقاء به - وكان قد رغب في لقائه مرات قبل ذلك وقوبل بالرفض الأمر الذي رفع درجة حقه على المرجعية. فوعد بالانتقام منها بعد رجوعه من سفرته إلى البصرة جنوب العراق"^(١) حيث تحطمت طائرته في ٢٢ ذي الحجة ١٣٨٥ هـ/ ١٤ نيسان ١٩٦٦م.

وإذ تحطمت طائرته وجاء الجيش بأخيه عبد الرحمن رئيساً للجمهورية حاول أن يتحجب إلى المرجعية العليا، وسعى حثيثاً لأن يرضيها ما أمكنه ذلك،، وكان رجلاً مسالماً، لم يتظاهر بالتعصب الطائفي، خلاف أخيه، وإن كان التمييز الطائفي موجوداً على حاله خلال حكم أخيه وفي حكمه أيضاً، فكان يداهنها في مواقفه السياسية معرفة منه بضعفه، وقوتها، وخشية من صولتها، فمن مظاهر تحببه تلك، إرساله رسالة إلى المرجع الأعلى سماحة السيد محسن الحكيم يستنجد به لجمع شمل الأمة، بعد العدوان الإسرائيلي في (٢٦ صفر ١٣٨٧ هـ - ٥ حزيران ١٩٦٧م)، ومنها تقديمه طائرة الرفّ الجمهوري، وهي طائرته الخاصة، لنقل المرجع الأعلى، ووفده، إلى الحج ذهاباً وإياباً، ونحوها.

ومع ذلك كله، فقد رفض سماحته استقباله بسبب بقاء الحالة الطائفية تجاه الشيعة، وبقاء القوانين المخالفة لأحكام الإسلام وفي مقدمتها قانون الأحوال الشخصية.

(١) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. أحمد عبد الله أبو زيد العاملي: ٥٨ / ٢ - ٥٩.

وكان بعد ذلك أن قاد البعثيون وبعض المتعاونين معهم، انقلابهم الثاني في (١٣٨٨ هـ - ١٧ / تموز / ١٩٦٨ م) فابتلي الشعب العراقي، وبخاصة أغليته الشيعية المطلقة، وفي مقدمتها، مرجعيته العامة، بأشد أنواع القهر، والتعذيب، والاضطهاد، والتسفير، والتنكيل، والقتل، والإقصاء، والعزل، والحروب الطائشة، والمقابر الجماعية، وغيرها كثير، كثير، مما هو معروف ومشهور.

لقد بدأ الحضور الشيعي عام (١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م) "بالتراجع بشكل تدريجي ما أدى إلى فصل كامل بين الدولة وتكوينه البلد الشيعية، إذ بدأ الميل الطائفي الصريح للنظام الرسمي بالاكتمال، ما أدى إلى مأسسة الطائفية. فمجلس قيادة الثورة الأول في حكومة انقلاب (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) كان بكامله من السنة، وتم تصفية جميع الشخصيات الشيعية البارزة في حزب البعث وإقصاؤها من المشاركة الفعالة في الحكومة، وهمش الشيعة بالكامل عن شغل مناصب حساسة حتى على مستوى إدارة المحافظات الشيعية. وكان المسؤولون الشيعة في الحكومة يستعملون فقط للمساهمة في قمع أي نشاط شيعي مضاد، أو في امتصاص الأزمات الحادثة".

ويستمر الكاتب متحدثاً عن مقاومة المرجع الأعلى السيد الحكيم لهذه السياسة الظالمة فيقول: "عندها ناهض المرجع الأعلى السيد الحكيم هذه السياسة، بشدته المعروفة، وعارض معارضته المشهودة، فأوفد، وحاجج، ورفض، وأعلن مؤتمر الصحن الحيدري الشريف لإدانة الإرهاب... وكان ذلك في صفر من عام (١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م)... وتليت طلبات المرجعية بإلغاء القوانين الكافرة، وإتاحة الحرية للحوزة العلمية في الدراسة في العتبات المقدسة، ورفع الحجر عن الزائرين للمشاهد، وتحقيق العدالة الاجتماعية"^(١)، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك سابقاً.

(١) مشوار الطائفية في العراق دراسة في تغييب مجتمع الدول. عمار الكعبي: ٢ و ٣.

ومذ تولى أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية سعى لزيارة سماحة الإمام الحكيم في الكوفة بعد اتهام نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم، فرفض سماحته استقباله " ما لم تستجب السلطة لطلبه بإبطال التهمة التي وجهتها لنجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم، ولإدراكه أن موقفه الرفض للسلطة سيؤدي إلى إيجاد حاجز كبير بين السلطة والشعب يمتد تأثيره لسنوات قادمة" (١).

سماحته ﷺ يرفض استقبال صدام حسين، ويرفض أيضاً أن يلبي نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم رغبة صدام لزيارة نجله

لم يكتفِ الإمام الحكيم برفض استقبال الملك خلال العهد الملكي في العراق لعدم تنفيذه ما وعده به، ولم يكتفِ سماحته أيضاً برفض استقبال رؤساء الجمهورية العراقية الثلاث: عبد السلام عارف، وعبد الرحمن عارف، وأحمد حسن البكر فحسب، بل رفض استقبال صدام حسين أيضاً "عندما زار النجف الأشرف لتشجيع عضو القيادة القطرية لحزب البعث عبد الوهاب كريم، فقد أرسل المرحوم السيد حسين الرفيعي سادن الروضة الحيدرية في النجف الأشرف من أجل البحث حول إمكانية مقابلة صدام حسين للمرجع الأعلى، وقد عرض السيد حسين الرفيعي الأمر على شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم - وكان يومها يدير شؤون والده - ونقل له رغبة صدام في مقابلة الإمام الحكيم من أجل حلّ كل القضايا وتسويتها - يقول شهيد المحراب في حديث خاص - "ولكن الإمام الحكيم عندما نقلت إليه هذه الرغبة أصرّ على موقفه الرفض لمقابلة أي مسؤول بعثي" (٢).

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٨٦/٢ - ١٨٧.

(٢) حديث خاص بين الأسدي وشهيد المحراب الحكيم نقله الأسدي في كتابه: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٨٦/٢.

ولم يتوقف رفض ساحة الإمام الحكيم لاستقبال صدام حسين عند هذا الحد بل طلب من نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم مثله ووكيله في بغداد برفض زيارته لصدام أيضاً. على الرغم من محاولات صدام الاجتماع بساحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم أربع مرات عبر إرساله موفدين عنه إليه. وقد تحدث ساحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم عن تلك المحاولات العديدة.

ونظراً لأهمية توثيق هذه المحاولات وردها، فسأنقل نص كلام ساحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم على الرغم من طول الاقتباس.

يقول الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم: "قال لي خالد -موفد صدام- (إن أبا عديّ يريد رؤيتك...؟) فقلت: (أهلاً وسهلاً، فمتى يجب القدوم فأهلاً به...؟). قال: (هل بإمكانك أن تذهب أنت إلى بيته...؟). قلت: (لكن نحن هنا -ولو أننا كالدراويش - إلا أنه نستقبل أشكال الناس، وهو واحد من الإخوة)، وانتهى اللقاء.

في اليوم التالي اتصل بي وقال: (إن أبا عدي يقول: لو يأتي عندي في البيت أفضل ولا اعتبارات أمنية لا نستطيع أن نذهب إليكم؟). فقلت: (كيف تقول هذا، فهنا دولة، ونحن نعيش في رعايتها وننام آمين على اعتبار أنها تحرسنا، فكيف لا نستطيع حماية شخص يأتي زائراً لشخص آخر...؟ وعلى كل حال فإن ذهابي إليه صعب، وإذا كان يجب الحضور فأهلاً وسهلاً، وأن الأمر يتعلق به)... ولكن خالد لم يترك الأمر حيث اتصل بي مرة ثالثة، وقال لي: (حسناً لماذا ذهبت إلى أحمد حسن البكر، ولم تأتي (كذا) إلى صدام...؟). قلت له: (أحمد حسن البكر رئيس دولة... وصدام لا توجد له صفة رسمية. فعلى أي أساس أذهب إليه، فليس بيني وبينه صداقة شخصية، ولا له صفة رسمية حتى أقول إنني جزء من

الناس الموجودين في هذه الدولة فأبرر ذهابي). واتصل خالد بي مرة رابعة وقال: (إن صدام يقول: لنعقد اجتماعاً ثلاثياً معكم بحضور أحمد حسن البكر في القصر الجمهوري). فقلت له: (أنا لست مستعداً لذلك. يأتي إلى هنا أهلاً وسهلاً، لا يأتي في أمان الله)"^(١).

ويعقب سماحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم على محاولات صدام تلك بقوله: "وأذكر أن السيد عليه السلام -الإمام الحكيم- عندما أخبرته بتفاصيل القضية قال: (نعم ما صنعت، وستدفع الثمن غالياً). وقد سمعت -والحديث للشهيد السيد محمد مهدي الحكيم- أن صداماً قال: (إن هذا العطاس الذي في أنفه يجب أن أخرجه)"^(٢).

سماحته عليه السلام يقرر قيادة عملية تنوير الشعب العراقي بشخصه الكريم هذه المرة من أجل تغيير النظام الطائفي الدكتاتوري الظالم



بعد أن تصاعدت وتائر مواجهة الإمام الحكيم للنظام الطائفي الدكتاتوري كان على المرجعية ومكتبها ومستشاريها والمخلصين من الطبقات الجماهيرية المؤمنة أن يشخصوا الخطوة التالية خاصة بعد أن بات الشعب وقواه الوطنية والسلطة وحزبها وأمنها ومخابراتها وجيشها وشرطتها تنتظر الموقف المحدد اللاحق.

ونظراً لأهمية هذا الموقف ودقته وخصوصيته أجدي اقتبس من حديث خاص أجراه الأخ المرحوم الصديق محمد الأسدي مع الشهيد السيد محمد باقر الحكيم النص الآتي توثيقاً للمباحثات التي جرت وقتئذ بين من تقدم ذكره أعلاه قبل أن يحسم الإمام الحكيم الموقف المختار من بين أحد الخيارين أو الاتجاهين الآتين

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨١ - ٨٣.

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨٣.

الذين حددتهما شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم وهما:

"الاتجاه الأول: يدعو إلى الاكتفاء بهذا الموقف والتوقف عند هذا الحدّ

- بعد كلمة الإمام الحكيم في الصحن العلوي الشريف بتاريخ (٢٧ صفر ١٣٨٩ هـ/ ١٥ مايس ١٩٦٩ م) المتقدم ذكره في أعلاه- ظناً من أصحاب هذا الاتجاه أن هذا الموقف كفيل بتغيير النظام كالذي حصل عام (١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م).

الاتجاه الثاني: فكان يدعو إلى استمرار المرجعية في المواجهة ضد السلطة

على اعتبار مسؤوليتها، وبالتالي فلا بدّ أن تعطي هذه القيادة الموقف للجماهير^(١).

وقد كان أن رجّح الإمام الحكيم الاتجاه الثاني بعد أن استدعى نجله الشهيد ومثله ووكيله في بغداد الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم طالباً منه عقد اجتماع علني في بغداد لعلماء بغداد بعد أن "بلغ السيل الزبى وطفح الكيل وبدأت الناس تخاف خوفاً شديداً حينذاك أمرني السيد بجمع علماء بغداد وأطرافها لطلب المشورة -بخصوص- ماذا يصنع المرجع في هذه الحالة؟ وأوصى بأن يكون الاجتماع بصورة علنية، وبالفعل تم دعوة علماء بغداد ومناطقها المختلفة: الشعلة، الزعفرانية، الحرية، الكاظمية... إلخ واجتمعنا في حسينية الكرادة الشرقية في رحيته... وبعد دراسة الموقف قالوا: إن الشعب العراقي سيطر عليه الخوف بشكل غير طبيعي، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يمارس أي عمل في مواجهة السلطة ما لم يكسر هذا الخوف ويجب بيان إسناد وتأيد الناس للمرجع"^(٢).

ويضيف الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم في موقع آخر من مذكراته إلى ما تقدم قوله: "وبالفعل فقد حصل الاجتماع وحضر نحو سبعين معمماً وقد تم انتخاب

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٥٧/٢.

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨٥.

عشرة من هؤلاء ليكونوا ممثلين عن علماء بغداد وكان منهم أنا والشيخ علي الصغير والسيد محمد الخلافي والسيد هادي الحكيم والباقيين نسيت أسماءهم، وذهبنا إلى الكوفة فزرنّا السيد، وفتح الحديث وتحدث الموفدون وكنت أنا ساكتاً، فسألني السيد: (لماذا أنت ساكت؟). قلت: (أنا أرى أن من الصعوبة بمكان أن أبدي رأياً يتعلق بك، لأنك لا تمثل نفسك، وإنما تمثل أمة، وخطؤك ليس خطأ فرد، وإن الله قد عودك على الجميل، وأنت بحمد الله تملك القدرة على التفكير بشكل جيد، لذلك أرى أن تخلو بنفسك وتفكر والله سبحانه وتعالى يلهمك الصواب، وانظر ماهي المصلحة). عند ذلك قال: (إنه وافق على الذهاب إلى بغداد)^(١).

وقد ورد أن الإمام الحكيم قال: "يومذاك (أنا) أشعر بأنني لا أطمع في أي شيء من الحياة، في أي شيء من الأشياء حتى في الأشياء العادية التي يشتهيها الإنسان من الأكل والشرب وما أشبه ذلك... ولكنني أشعر أن سفري إلى بغداد كسفر الحسين بن علي عليه السلام إلى كربلاء. فأنا أشعر بمسؤولية شرعية لا بد لي أن أتحمّلها في هذا الموضوع. والقضية ليست قضية مصالح أو جاه أو سمعة أو استقبال أو أي شيء"^(٢).

ويصف نجله شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم تنفيذه لقراره بالسفر إلى بغداد ومراسيم سفره العاصف بقوله لقد: "جرت تمهيدات لهذا السفر، وإذا به يصاب بالحمى مما جعله يتردد في سفره، لأنه كان يقصد من سفره لقاء الجماهير

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨٥.

(٢) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. محمد عبد الله أبو زيد العاملي: ١٩٣/٢. نقلاً عن

كتاب: الإمام محسن الحكيم. عدنان السراج: ١٨٨ - ١٨٩.

ومخاطبتهم، ثم تحسنت حالته نوعاً ما فجاء القرار منه وقال: (أنا أشعر أن سفري إلى بغداد هو كسفر الإمام الحسين إلى كربلاء، وأنا أشعر بمسؤولية شرعية لا بدّ من أن أتحملها) حتى أننا عندما اتصلنا ببعض العلماء في بغداد وأخبرناهم بعزم السيد الحكيم على السفر استغربوا كثيراً لأنه كان بالأمس مريضاً وقد عدل رأيه عن السفر "فكيف يسافر اليوم.

أما نجله الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم فيصف اللحظات الحاسمة لاتخاذ الإمام الحكيم لقراره بعد يوم أو يومين من مرضه بقوله: "اتصل -بي- السيد كاظم - نجل الإمام الحكيم- وقال: (نحن وصلنا بغداد)، وكان وصول السيد إلى بغداد مفاجئ (كذا) بالنسبة لي، وحين سألت السيد كاظم حول الموضوع قال: (استيقظ السيد صباحاً، وقال لي: قل لسيد عباس، السائق الخاص، يملأ السيارة بالبنزين، ولما أراد الخروج قال: (قل لعكمك السيد سعيد^(١)) يأتي على أثرنا. أنا ذاهب، ولم ينتظر). ويضيف السيد كاظم: (لا أدري لم هذا الاستعجال

(١) آية الله السيد سعيد السيد حسين الحكيم. ولد سماحته حوالي عام ١٢٩٧ هجرية في النجف الأشرف بالعراق وبدأ دراسته للعلوم الدينية وهو شاب فكان من العلماء الذين يدرسون علوم الشريعة بمقدماتها وسطوحها. تخرج عليه كل من نجله السيد محمد حسين والسيد محمد تقي والشيخ علي سماكة. حضر سماحته بحوث أستاذه المحقق الشيخ أغا ضياء العراقي. وصفه بعض مترجميه بأنه "فقيه أصولي مجتهد عالم فاضل كامل صالح ورع زاهد تقي مصلح مبجل من أساتذة الفقه والأصول كان مجلسه في داره عامراً بالفضلاء والعلماء خلال النهار في كل يوم من أيام السنة" وقد رأيت من بين حضار مجلسه كل من سماحة الأمام الحكيم وسماحة الشيخ حسين الحلي وسماحة المرجع السيد عبد الأعلى السبزواري وسماحة المرجع الكبير السيد محمد سعيد الحكيم وسماحة السيد يوسف الحكيم وسماحة السيد محمد علي الحكيم ومن في طبقتهم كثير. وقد كان سماحته معتمداً من قبل المراجع كل من أصحاب الساحة السيد محمد كاظم اليزدي والسيد أبو الحسن الأصفهاني والسيد محسن الحكيم. شارك في حركة الجهاد ضد الإنكليز سنة ١٣٣٣ هجرية ١٩١٤ م. وحدثنا عن دوره المهم فيها. توفي في ١٣ محرم الحرام في النجف الأشرف سنة (١٣٩٥ هـ) ودفن في مقبرة آل الحكيم المشرفة أبوابها على المسجد الهندي.

عند السيد، وهذه الحالة ليست من عادات السيد، حتى أنه كان يلح على السيد عباس -السائق- ويقول له: (سر بسرعة) ^(١).

وإذا كان لي أن أخنّ سبب اتخاذ الإمام الحكيم السرعة في تنفيذ قراره بثوير الشارع العراقي ضد النظام الدكتاتوري الطائفي قبل أن يتطور الوضع إلى ما يفقده زمام المبادرة في تنفيذ مخططه فهو ما استشفه من سؤال وجهه إليه أحد كبار السادة العلماء بقوله: "سيدنا أنا لا أرجح لأن هؤلاء أطفال" فأجابه الإمام الحكيم بقوله: "إنهم لا يسكتون عني، وعليه فأنا أفجر الموقف أفضل من أن أنتظرهم يفجرونه" ^(٢)

وهي خطوة قد تتسق مع تشبيه ساحة الإمام الحكيم موقفه آنذاك بموقف الإمام الحسين عليه السلام مرتين ^(٣) وتمثله له فغادر النجف الأشرف مسرعاً إلى بغداد يوم الجمعة (١٤ ربيع الأول (١٣٨٩ هـ/ ٣٠ مايس ١٩٦٩ م) مثلما غادر الإمام الحسين عليه السلام مكة المكرمة يوم التروية إثر علمه بتأمر يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص على الحاج وأوصاه بالقاء القبض على الحسين عليه السلام سراً وإن لم يتمكن منه يقتله غيلة فحلّ عليه السلام من إحرام الحج وجعلها عمرة مفردة وعزم على التوجه إلى العراق مسرعاً مخافة أن يقبض عليه أو يقتل حتى وإن تعلّق بأستار الكعبة.

وما أن شاع خبر وصول ساحة الإمام الحكيم إلى الكاظمية المقدسة حتى بدأت الوفود تترى من مختلف أنحاء العراق على مقر سماحتة فيلتقيها نجلا الإمام الحكيم كل من الشهيدين السيد محمد مهدي الحكيم والسيد محمد باقر الحكيم

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨٥.

(٢) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨٦.

(٣) أولاهما ما تقدم ذكرها في الفقرة السابقة والثانية ستأتي في الفقرة القادمة.

أو غيرهما من العلماء وأعضاء مكتب سماحته فيوضحون لها موقف المرجعية العليا من السلطة المستبدة تحت سمع وبصر السلطات الغاشمة.

يقول سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي مستذكراً زيارة سماحة الإمام الحكيم إلى بغداد والكاظمية: "في بدايات مجيئه إلى بغداد والكاظمية استقبل استقبالاً عجباً من مئات الألوف ورحّب به آلاف الناس من دون مبالغة، لكن عندما شعرت الحكومة البعثية بالخطر من أن هذه الجماهير الكبيرة يمكن أن تسبب المشاكل للدولة العراقية"^(١)، ولذلك فقد اتخذ المسؤولون إجراءات احترازية، منها: "العمل على عرقلة توافد الجمهور على مقر إقامة الإمام الحكيم بشتّى الوسائل ومنها استخدام القوة"^(٢)، ثم أردفوا ذلك بسعيهم الحثيث إلى عقد لقاء مع الإمام الحكيم علّهم يستطيعون تلافي الأزمة المستفحلة وقد تمكن اضطروا إلى إرسال (حماد شهاب التكريتي)، وهو أحد الخمسة الذين كانوا يسيطرون على الحكم آنذاك في العراق. وخلال اجتماعه به أوضح سماحة الإمام الحكيم رأيه بصراحة ووضوح. غير أن الاجتماع لم ينتهِ إلى نتيجة تذكر.

ثم تقرر بعد دراسة الموقف من جميع جوانبه عقد اجتماع تشاوري مع علماء بغداد حضره الشهيدان السيد محمد مهدي والسيد محمد باقر نجلا الإمام الحكيم حيث أسفر عن توجيه رسالة مطولة من المجتمعين إلى رئيس الجمهورية أحمد حسن البكر وقّعها نيابة عنهم الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم بتاريخ (٢١ ربيع الأول ١٣٨٩هـ / ٧ حزيران ١٩٦٩م) تضمنت ثلاثة عشر بنداً منها "دعوة السلطة إلى إعطاء الإسلام حقّه الطبيعي في أجهزة الإعلام المختلفة

(١) مذكرات الشيخ الآصفي: ٢٥٢. و ٣٨٠.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٦٢ / ٢.

والحيلولة دون تسخير الرقابة على المطبوعات لخنق الفكر الإسلامي والتضييق على تراثنا الديني ومنح إجازة صدور لصحيفة إسلامية تعبّر عن عقيدة الأمة وتربطها بقيادتها الدينية وعدم اتخاذ الاختلاف العقائدي أو السياسي بمجرد سبب للإدانة أو التشهير بالعمالة والتجسس ومعالجة مشكلة الطائفية المزمنة كما يحدث ذلك في دوائر الجنسية وتجاه الجمعيات ذات النفع العام كجمعية جامعة الكوفة والتوقف عن ممارسة التعذيب مع المعتقلين لإجبارهم على الإدلاء بشهادات كاذبة بالقوة والإكراه والسماح لأهالي المعتقلين وذويهم بزيارتهم، والاعتراف بالدراسات الحوزوية وإعفاء طلبتها العراقيين من التجنيد ومنح طلبه الحوزة غير العراقيين وأبناء الشعوب الإسلامية الساكنين في العتبات المقدسة جوازات الإقامة كما كان معمولاً به في السابق^(١) وغير ذلك.

ويستذكر سماحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم ما جرى قبل يوم اتهامه بلبلة واحدة بقوله "قبل الحادث (التهام) بلبلة جاء عبد الحسين ودّاي إلى السيد وكنت أنا جالساً وكذلك العقيد سلمان وهو من جماعتنا قال له: (سيدنا: أحمد حسن - البكر - يسلّم عليك ويقول أنت عمي وأنا أشرّف بالتراب الذي يدوسه فلماذا يؤذينا ونحن نعطيه كل ما يريد) ثم قال: (إن هناك تحقيق (كذا) وهو سليم وأن الجماعة مصرين أن ينتهي مهما تكن الظروف بحيث قالوا لأحمد حسن البكر إذا جاء اسمك في التحقيق فنحن نستجوبك كذلك). وهذا معناه: احذر.

عند ذاك أهانه السيد وقال له: (الآن بلغ كره الناس لكم إلى حدّ لو أنهم تمكنوا منكم لما قتلوكم بالرصاص، لأنهم يأسفون على خسارة الخمسين فلساً

(١) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٦٥ / ٢ - ١٦٦.

عن الطلقة الواحدة، بل سيقطعونكم بأسنانهم)"^(١).

كما يستذكر شهيد المحراب تلك المرحلة متحدثاً عن موقف حزب الدعوة المخيب للآمال من التعدي الصارخ على المرجعية بل على شخص المرجع الأعلى الإمام الحكيم ونجله الشهيد هذه المرة بقوله "تردد الحزب في القيام بعمل سياسي في هذا المجال واكتفى بمراقبة الأوضاع -وقد كنت- طلبت من الشهيد السعيد الحاج عبد الصاحب دخيل شخصياً إصدار منشور يتضمّن على الأقل دعاء الفرج لإشعار الأمة بالمحنة ووعد بذلك ولكن لم ينفذ الوعد".

ويضيف: كما "انسحبت القيادة من تعهداتها بالقيام بتظاهرات عندما يقوم البعثيون بالتحرش بالمرجعية"^(٢).

وإذ بلغت المواجهة بين المرجع الأعلى سماحة الإمام الحكيم وبين الحكومة البعثية أشدها، دبرت الحكومة تهمة لسماحة -الشهيد لاحقاً- السيد محمد مهدي الحكيم بـ"التآمر على نظامهم من أجل إلقاء القبض عليه ولتشويه سمعة المرجعية وكسر هيبتها، وقد كانت المرجعية حينذاك تحوض صراعها المرير ضد النظام العفلقى، وقد جاء هذا الاتهام عبر إذاعة اعترافات مدحت الحاج سري من خلال الإذاعة والتلفزيون يوم ٢٢ ربيع الأول ١٣٨٩ هـ/ ٧ حزيران ١٩٦٩ م) وقد صدر عليه فيما بعد الحكم بالإعدام ومصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة كافة، كما خصص النظام جائزة مالية... لمن يلقي القبض عليه أو يدلي بمعلومات عن مكان اختفائه"^(٣) كما اهتمته أيضاً بالتعاون مع الأكراد^(١).

(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٨٩.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١٦٩/٢.

(٣) نبذة مختصرة عن حياة وجهاد العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم بقلم محمد هادي ضمن مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ١١. وينظر: مذكرات الشيخ الآصفي: ١٧٩.

ثم وبعد إذاعة اعترافات مدحت الحاج سري مساء يوم السبت (٢٢ ربيع الأول ١٣٨٩ هـ/ ٧ حزيران ١٩٦٩ م) خلت الساحات والشوارع المحيطة بمنزل إقامة سماحة الإمام الحكيم بتفرق الناس عن سماحته تفرقاً موجعاً وصل إلى الحد الذي وصف به السيد مرتضى العسكري ما شاهده وقتها بقوله: "ولمّا ذكر اسم السيد مهدي نجل السيد الحكيم في الساعة الثامنة مساءً من إذاعة وتلفزيون بغداد بتهمة التجسس تفرّق الناس عن السيد الحكيم كما تفرق الناس عن مسلم بن عقيل في الكوفة فبقي السيد الحكيم وحده في البيت مع أولاده ونحن خمسة من المعممين من غير أولاده"^(٢) أحدهم سيدي جلد سماحة السيد سعيد الحكيم.

حتى إذا حلّ منتصف الليل شنت قوات السلطة هجومها على بيت سماحة الإمام الحكيم فدخلت في صراع مع السادة الموجودين تم اقتحام الدار وتفتيشها بما في ذلك غرفة سماحة الإمام الحكيم واستمرت عملية التفتيش أربع ساعات تقريباً من دون العثور على شيء يفيدهم^(٣).

وكان سماحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم قد استطاع الخروج بشكل

(١) شن الرئيس العراقي عبد السلام عارف حرباً قاسية على الأكراد فقد جمع كل علماء السلطة وأتى بشيخ الأزهر ومفتي بغداد في مؤتمر إسلامي من أجل أن يصدر فتوى بأن الأكراد بغاة، وحكم الباغي في الإسلام القتل والقتال، ولكن في مقابل هذا الاجتماع نرى الإمام الحكيم يعقد اجتماعاً آخر في كربلاء المقدسة في أربعينية الإمام الحسين سنة (١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م) ويعلن: بأن الأكراد مسلمون ولا يجوز قتالهم، ويجب أن تحل هذه القضية عن طريق الحوار والطرق السلمية. وقد كان رد فعل عبد السلام عارف أن يقوم بهجمة شرسة ضده (...) ولكن الله وقف له بالمرصاد فكان حادثة سقوط طائرته المعروفة (شيعة العراق). السيد محمد باقر الحكيم: ٦٧-٦٨.

(٢) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ٢/ ١٧٠ نقلاً عن لواء الصدر، العدد ٩٢٤ لسنة ٢٠٠١ م. ص: ٦.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ١٧٢/٢ نقلاً عن تقرير عن محنة الدين في العراق: ٢٤.

سري من خارج العراق إلى دولة الباكستان.

ثم، ونتيجة لقلّة العدد، وخذلان الناصر ولأنّ "الأمة حينذاك لم تتجاوب بالشكل الذي يتناسب مع هذا الوضع والموقف، ولهذا مبررات عديدة ومن جملتها عدم بلوغ الأمة مرحلة النضج العام الذي يوحدها لأن تقف موقفاً جماهيرياً"^(١) شاملاً يحقق الغرض الذي من أجله سافر الإمام الحكيم إلى بغداد، حتى "صارت قصّة آية الله السيد الحكيم مثل قصّة مسلم بن عقيل، يعني كما تفرّق الجمع المصلّي من أطراف مسلم فجأة كذلك تفرقت الجموع من حول السيد الحكيم وبقي سمّاحته وحيداً"^(٢) كما سيأتي.

ثم ولما تقدم ولأسباب عديدة أخرى معيقة أقدمت عليها الحكومة الظالمة منها قطع الطرق الموصلة بين المرجع وجماهيره في بغداد، ومنع إقامة المجالس، وتفريق الناس من حول السيد الحكيم^(٣) قرر الإمام الحكيم العودة من بغداد إلى النجف الأشرف ومعه خاصته وفي مقدمتهم سيدي الجد سماحة آية الله السيد سعيد الحكيم، ليقرر سماحة الإمام الحكيم الاعتكاف في بيته، محتجاً على سياسات النظام القمعية. ثم بعد مضي مدة من الزمن أثر سمّاحته أن يخرج من بيته أسبوعياً ليزور جدّه الإمام علي عليه السلام ولإمامة صلاة الجماعة التي دأب على إقامتها في باب القبلة من الصحن الحيدري الشريف.

وعلى الرغم من كل ما تقدم بيانه من خذلان الأمة لموقف مرجعها الأعلى من الحكم الدكتاتوري الطائفي البشع واتهام نجله الشهيد السيد محمد مهدي

(١) من مذكرات العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ١٠٠.

(٢) مذكرات الشيخ الأصفي: ١٧٩.

(٣) ينظر: المصدر السابق نفسه

الحكيم بالارتباط بالأجنبي والحكم عليه بالإعدام ومصادرة أملاكه المنقولة وغير المنقولة كافة وتخصيص جائزة مالية لمن يلقي القبض عليه أو يدلي بمعلومات عن مكان اختفائه. بل سعت بكل ما تستطيعه من قوة لكسر هيبة المرجعية العليا. أقول على الرغم من كل ذلك فإن سماحة الإمام الحكيم بقي لسنوات لاحقة يعتقد بصحة موقفه الذي اتخذته وقتئذ من السلطة الدكتاتورية الطائفية كما هو مبين في الفقرة اللاحقة.

سماحته ﷺ يرى صحة موقفه النضالي ضد النظام البعثي على الرغم من شدة معاناته منه

٢٤

يقول الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم: "عندما مرض السيد وأخذ إلى لندن للعلاج كنت حينها في باكستان، فانتهزت الفرصة وسافرت إلى لندن لملاقاته، وكان آخر لقاء معه قبل وفاته (رض). في إحدى الليالي صارت عندي حالة أرق في منتصف الليل فخرجت متوجهاً إلى المستشفى الذي يرقد فيه السيد. رأيته ساهراً، قبل الفجر، فجلست عنده وتحدثت معه أحاديث مختلفة من جملتها سألته هذا السؤال: قلت يا أبي: (أنت الآن شاهدت كل النتائج التي ترتبت على موقفك، فهل تعتبر نفسك أخطأت التقدير. يعني تقدير الطرف. أم أنك مصرّ على صحة العمل والموقف...؟)، فقال: وإليكم قوله -والله شاهد- للتأريخ: (لا زلت أعتقد بأن الموقف صحيح). قلت: (كيف؟) فقال: (إني أعرف بأن الشعب العراقي يحبني ولي مكانة في نفوس الشعب تختلف مع مكانتي كمرجع لهم... لهذا كان موقف البعثيين مني. ظلّامتهم لي، هذا ما لا ينساه الشعب العراقي... فقد خلقت حاجزاً بين الشعب وبين أطروحة البعثيين... حيث يتذكرون فعلة البعث بمرجعهم،

لهذا اعتبر نفسي مصيباً في عملي... ثم ضرب مثلاً بمعركة الإمام الحسين عليه السلام، وكيف أنه لم يحقق نصراً عسكرياً، بل استطاع أن يضع حاجزاً نفسياً بين الأمة وبين السلطة، لهذا كلما ذكر الناس قضية الإمام الحسين عليه السلام تنظر إلى السلطة بأنها ظالمة ويجب التخلص منها)^(١).

ثم عقب سماحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم -نجل سماحة الإمام الحكيم على وجهة نظر والده الإمام الحكيم قبل وفاته بأيام- على صحة موقف سماحته من السلطة البعثية بقوله: "الحمد لله. نرى الآن وبعد مضي ثمانية عشر عاماً على وفاته لا زال الناس يعايشون ذكره كأطروحة فكرية، لذلك لا يزال العراق حتى هذه اللحظة وحتى ينتصر الإسلام ثورة عارمة مستمرة ضد الظلم والطغيان"^(٢).

الخاتمة

لقد قدر الله لسماحة الإمام الحكيم أن يختاره إلى جواره، فأصيب بالسرطان، ولم تنفع في علاجه العملية الجراحية التي أجريت له في لندن بتاريخ (اليوم الأول من شهر محرم الحرام لسنة ١٣٩٠هـ / ٩ آذار ١٩٧٠م)، وإن أدت إلى تحسن صحته نسبياً فقرر سماحته العودة إلى بلده، غير أن صحته انتكست مرة أخرى ليجيب داعي ربه مساء يوم الثلاثاء (٢٧ ربيع الأول ١٣٩٠هـ / ٢ حزيران ١٩٧٠م). ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



(١) من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ١٠٠ - ١٠١.

(٢) المصدر نفسه: ١٠١.



الفصل الثالث عشر

ثانياً

**الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري
وتوالي فجاجه العابرة لقرنه**

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية في
الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري
وامتداداته وفجاجه العابرة لقرنه من خلال
مقاومة الطائفية السياسية والتهميش والظلم
والتفسير ضد الشيعة في العهد الجمهوري

* * *

"مرجعية الإمام الخوئي"



مرجعية الإمام الخوئي رحمته الله

بعد وفاة سماحة الإمام الحكيم برز أكثر من مرجع ديني على الساحة العراقية النجفية منها بالأخص، بيد أن مرجعية سماحة السيد الخوئي تقدمت على بقية المرجعيات المتصدية لموقع المرجعية العليا فباتت مرجعيته هي المرجعية العليا دون منازع.

وقد قدر الله لسماحته أن يمتد به عمره الشريف ليس إلى نهاية القرن الرابع عشر وهو الظرف الزمني المحدد لهذا البحث وهذا ما سيضطرني -وأنا أبحث عن دور مرجعيته السياسي التي لا يمكن إلا أن تنتهي بوفاته- إلى أن أتجاوز السقف الزمني الموضوع في عنوان الكتاب - إلى ما بعد العقد الأول من القرن الخامس عشر تاريخ وفاته رحمته الله.

لقد عاصرت مرجعية سماحة السيد الخوئي مرجعيات أخرى قدر الله لها أن تجيب داعيها سبحانه وتعالى والمرجع الأعلى السيد الخوئي حي يرزق. ويأتي في مقدمة هؤلاء المراجع سماحة المرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر المستشهد سنة (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) -ومع ذلك وخلافاً لأتباع التسلسل الزمني المؤلف في الدراسات التاريخية بتقديم الأسبق فالأسبق بحسب تاريخ الوفاة- سيحتّم عليّ البحث -نظراً لوحدة الموضوع المبحث- أن أتناول المواقف السياسية لسماحة المرجع الأعلى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي المتوفى سنة (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) بتمامها من بداية مرجعيته إلى وفاته، ثم أعود فأتناول المواقف السياسية للمرجع الشهيد السيد محمد باقر الصدر.

وبناء على ذلك فيمكنني أن أتناول المواقف السياسية لسماحة المرجع الأعلى السيد الخوئي في النقاط الآتية:

١ استفراغ الوسع في البحث والتأصيل العلمي

منذ أن تولى سماحة السيد الخوئي زمام المرجعية الدينية العليا بعد وفاة الإمام الحكيم سنة (١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م)، حرص على حصر نشاطات الحوزة العلمية في النجف الأشرف بدراسة وتدريس العلوم الدينية ومقدماتها من النحو العربي والصرف والبلاغة والمنطق والعقائد وغيرها. ثم دراسة الفقه والأصول والتفسير والرجال والحديث وغيرها وصولاً إلى التخصص الدقيق في علمي الفقه وأصوله.

وقد وقف سماحته نفسه ووقته وجهده على العلم والبحث والتدقيق والتمحيص فأمضى ستين سنة متواصلة من عمره الشريف في تدريس البحث الخارج وهو أعلى مستوى للتخصص العلمي في الحوزات العلمية فأصدر خلال عمره الشريف "من التراث الفقهي والأصولي والحديثي (٤٥) خمسة وأربعين مجلداً. وطبعت تقارير طلابه في الفقه بعنوان (فقه الإمام الخوئي) في (٥٠) خمسين مجلداً، وتخرج على يديه الآلاف من رجال العلم وفيهم المجتهدون"^(١)، وكبار العلماء والفقهاء والأصوليين حتى قيل بأن سماحته أول مرجع علمي ديني تخرج على يديه هذا الكم الكبير من الفقهاء والمجتهدين والباحثين "ربما لم يجتمع ذلك لفقيه إمامي قبله في تاريخ الزعامة الشيعية والسبب في ذلك أن الخوئي سعى لتخريج نخبة عالية من الطلاب خلال أكثر من نصف قرن تأثروا بمدرسته

(١) المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف مسيرة ألف عام. الشيخ محمد حسين الصغير: ٢٦٦.

الفكرية وكتبوا تقارير بحوثه في علمي الفقه والأصول^(١).

ولعل لعدم انشغاله بالأوضاع السياسية انشغالاً كبيراً يستدعي استهلاك كثير من وقته الثمين، هو ما ساعده على إنجاز هذا الكم الكبير من الكتب والبحوث والدورات العلمية عدا الدورة الأصولية الثامنة حيث استنزفت فيها الضغوط السياسية وإدارة شؤون المرجعية إضافة لدفعه ضريبة العمر ومستلزماتها الكثير من وقته خلال تدريسه لهذه الدورة. فقد أنهى سماحته خلال عمره الشريف سبع دورات من تدريس علم أصول الفقه وبدأ في الدورة الثامنة "لكنه لم يكملها، فمن جهة كهولة السن والمشاكل الصحية ووضع الجسدي، ومن جهة أخرى ضغوطات مهام المرجعية، حتى الضغوطات السياسية تسببت في عدم الاستمرار في تدريس الأصول"^(٢) فترك سماحته تدريسه.

يذكر أن كل دورة كاملة في علم الأصول كانت تستغرق ما بين سبع سنوات إلى عشر.

٢ عدم التدخل في الشؤون السياسية ما أمكن

حرص سماحته أيضاً على عدم التدخل المباشر في العمل السياسي كمنهج عملي واقعي يتناسب مع ظرف العراق الظالم المعاش وقتئذ، وبخاصة حقبة تسلمه زمام المرجعية الدينية العليا، محافظة منه على بقاء الحوزة العلمية واستمرار نشاطها البحثي في النجف الأشرف بخاصة، وفي العراق بعامة، وهي السياسة التي وصفها نجله الشهيد السيد محمد تقي الخوئي في ظرفها الدكتاتوري الخانق بقوله: "إن الظرف

(١) المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف. د. جودت القزويني: ٢٧٦.

(٢) مذكرات الشيخ الآصفي. سابق: ٢٤٥.

الذي حتمّ على السيد الخوئي تجنب السياسة في العراق هو في حدّ ذاته نوع آخر من السياسة".

لقد كان سماحته يعي تماماً بأن السلطة الغاشمة "تريد منه أحد شيئين، وكان هذا الأمر بمستوى عال من الحساسية:

أ - إما أن يعترض على الحكومة بشكل مباشر وحادّ ليسبب هذا الاعتراض في أن يهاجم حزبُ البعث حوزة النجف الأشرف وكان رأيه الذي سمعته منه مراراً هو: (إننا لا نملك القدرة لمواجهة الحكومة العراقية الفعلية) فالعراقيون هم الذين تركوا آية الله السيد الحكيم وحيداً، إذ ذهب محتجاً إلى الكاظمية، والتفّ حوله جمع عظيم من الناس من جميع أطراف بغداد والعراق، ولكنهم تفرّقوا عنه عندما أتهم ابنه السيد مهدي الحكيم، فكان سماحته -السيد الخوئي- يقول: (لا نستطيع الوقوف بوجه الحكومة البعثية في هذا الجو السياسي مع هذا الحضور الشعبي الضعيف).

ب - لذا كان موقفه مبنياً على عدم الاحتكاك بالحكومة البعثية، لأنّ المواجهة الصريحة كانت تتسبب بتضعيف حوزة النجف الأشرف. وبالطبع كان يعترض وينتقد، لكنه كان يحذر من تحوّل هذه الانتقادات والاعتراضات إلى المواجهة الصريحة والعنيفة حتى لا يعطيهم العذر لتفكيك الحوزة العلمية. فكان كل سعيه عدم إعطائهم العذر لتعطيل الحوزة وتدميرها^(١).

لقد واصل الإمام السيد الخوئي سياسته تلك باستثناء ما إذا شخص أن الظرف ومتعلقاته لا يستلزمان الانجرار إلى مواجهة صريحة مع النظام الدكتاتوري. وهو ما أشار إليه المرحوم الدكتور الشيخ محمد حسين الصغير متحدثاً عن هذا الجانب من مقاومة سماحة السيد الخوئي لـ"تحركات الظالمين، وتصرفات المستبدين

(١) مذكرات الشيخ الأصفي. سابق: ٢٤٩ - ٢٥٠.

- حيث - نصب نفسه علماً شاخصاً لنصرة المسلمين، وصرح وكتب وألف فيما له العلاقة بالكفاح اللساني والإنكار الجنائي (...)، وعرّى المخططات الصهيونية، لغزو الفكر والاقتصاد والسياسة، وواجه نزعات الانحراف العقائدي، وقابل التصرفات الشاذة، وكان وراء الشعور الدائم بمسؤولية المرجعية، (...) ودعا إلى الوحدة الإسلامية وتقارب الأمة، ونعى دعاة الفرقة والتخلف^(١). كما "ساند أو شارك في البداية مع بقية علماء النجف الأشرف في مواقفهم السياسية ضد الشيوعية، وفي الحركة الإصلاحية العامة في العراق... ولكن توقف عن ذلك في مرحلة متأخرة، ثم شارك بشكل فاعل في انتفاضة شعبان عام (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م) ودخل فيها بكل وجوده وقدراته وإمكاناته، فاعتقلته السلطات الأمنية البعثية وجميع أصحابه وتغيبهم بسببها"^(٢). كما سيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً لاحقاً.

٣ مراقبة النظام البائد ومتابعته الحثيثة لسماحته

وعلى الرغم مما اشتهر به منهج سماحته القاضي بعدم التدخل في الشؤون السياسية إلا إذا حتمت عليه الظروف المعاشة ذلك، وهو ما حصل في الانتفاضة الشعبانية كما سيأتي الحديث عنها لاحقاً، فقد أثبتت وثائق القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي التي عثر عليها بعد سقوط النظام البائد بأن "قيادة البعث لم تعد السيد الخوئي مسالماً أو مهادناً على عكس ما وصفته دراسات كثيرة، بل تبين أن أعلى كوادر الحزب والدولة العراقية وفيهم نائب صدام حسين قضوا عقد الثمانينات في (دراسات نشاطات الخوئي وأولاده ووكلائه) والتخطيط

(١) دور المرجعية الدينية من زعيم الأحرار إلى السيد السيستاني. الشيخ محمد حسين الصغير. مجلة آفاق نجفية. العدد ١٤: ٢١.

(٢) الحوزة العلمية المشروع الإسلامي والحضاري. السيد محمد باقر الحكيم: ٢٤٠.

من أجل إيجاد أفضل السبل لـ(تحييمها).

لقد رفض السيد الخوئي وكثير من وكلائه التعاون مع البعث حتى في أبسط الأمور كقول كلمة إيجابية في حق النظام أو في تأييده، ولمدة ثلاثين عاماً... إن الحقيقة الواضحة في هذه الوثائق هي كون النظام قد رضي بأن يكون بينه وبين الحوزة جدار من نار، لأن قيادات البعث أيقنت بأن البديل الوحيد لهذه المواقف هو قتل السيد الخوئي أو تسفيره كما بيّنت الوثائق وكان ذلك أكثر كلفة من إبقاء الحال على ما كان عليه^(١).

كما أن "الوثائق أثبتت كون بقاء الحوزة في النجف خلال مرحلة الثمانينات الخطيرة يعود إلى القيمة العلمية الكبيرة لآية الله العظمى السيد الخوئي إذ بيّنت الوثائق قناعة القيادة العراقية بأن انتقال السيد الخوئي من العراق كان سيتسبب في انتقال الحوزة من النجف إلى المكان الجديد الذي سيستقر فيه السيد الخوئي خارج العراق"^(٢).

وأشار تقرير حزبي أنيطت به مهمة تقييم التهديدات المحتملة في إحياء شيعة العراق لشعيرتي استشهاد الإمام الحسين في العاشر من المحرم وفي أربعينته عاشوراء سبق أن أعدته لجنة عليا في الحزب ورفعته إلى عزت الدوري الذي رفعه بدوره إلى صدام حسين في (٢٣ ذي القعدة ١٤٠٤ هـ/ ٢٠ آب ١٩٨٤ م)^(٣) إلى "اثنتي عشرة

(١) الحوزة تحت الحصار. دراسة في إرشيف حزب البعث العراقي. د. عباس كاظم: ٧٧-٧٨.

(٢) الحوزة تحت الحصار. دراسة في إرشيف حزب البعث العراقي. سابق: ٧٩..

(٣) الحوزة تحت الحصار. دراسة في إرشيف حزب البعث العراقي: ٢٤. وينظر: هامش رقم ١ مذكرة من مكتب أمانة سر القطر إلى ديوان الرئاسة في ٢٢ آب ١٩٨٤. إحدى وثائق القيادة القطرية لحزب البعث العراقي، والتي كانت حين كتابة البحث في إرشيف معهد هوفر في الصندوق ٢٣-٤-٧. وقد سلمت الوثائق الملبوينة إلى العراق وهي الآن بحوزته. غير أنه لا يسمح للباحثين مع الأسف بالرجوع إليها ودراسة محتوياتها المهمة.

ملاحظة على ما كان السيد الخوئي وأولاده وأتباعه يفعلونه في تحدّ للنظام، ليس في كربلاء فقط، وإنما في البصرة أيضاً وفي ميسان والمشخاب والحمزة وكركوك ومدن أخرى، ومن بين هذه الأفعال... قيام جماعة الخوئي بحث أصحاب المجالس المدعومة من قبلهم والمحسوبة عليهم بعدم السماح للتعازي بالتطرق إلى مدح السلطة^(١).

وأوصت اللجنة الحزبية العليا بـ"تحجيم تصرفات الخوئي"، ويستفيد الباحث في الوثائق د. عباس كاظم أن من "بين الأشياء التي تعنيها كلمة (التحجيم) هذه تسليط ضغوط قاسية جداً على الخوئي ووكلائه في عموم البلاد وجعلهم تحت المراقبة الشديدة وسجن بعضهم وإعدام بعضهم الآخر إضافة إلى استحداث قرارات وسياسات لتقليص عدد طلاب الحوزة العلمية خصوصاً الأجانب منهم، وقد أعطي لكل فرع في تنظيم حزب البعث دور خاص به في إطار هذه الخطة المعقدة الكبرى لتحجيم دور السيد الخوئي"^(٢).

ويضيف الباحث: لقد "كانت توصية (تحجيم تصرفات الخوئي) إحدى التوصيات التي وافق عليها صدام حسين دون تريث، ففي ٩ أيلول ١٩٨٤ م، أبلغ مكتب رئاسة الجمهورية وزارة الداخلية ومديرية الاستخبارات بموافقة صدام حسين على التوصيات التي رفعتها لجنة علي حسن المجيد وأمره بأن يقوم حزب البعث والجهات الأمنية بدراسة تصرفات الخوئي وأولاده ووكلائه من أجل تحجيمها"^(٣).

(١) الحوزة تحت الحصار. دراسة في إرث حزب البعث العراقي. سابق: ٢٥ - ٢٦.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٧.

(٣) المصدر السابق نفسه. وتظهر في هامش رقم ٢ مذكرة من مكتب أمانة سر القطر إلى مكاتب التنظيمات في

ثم بعد ذلك بأيام وبالتحديد "في ٢٣ أيلول أمر مكتب أمانة سرّ القطر لحزب البعث مكاتبه التنظيمية... (بدراسة تصرفات الخوئي وأولاده ووكلائه من أجل تحجيمها)"^(١).

كما وجّه عزت الدوري بإعداد دراسة عن (الحوزة العلمية) أنجزت في كانون الثاني ١٩٨٥ في أربعين صفحة أرسلت إلى صدام حسين في ٦ شباط. يقول الباحث عباس كاظم: "ويرى في الوثائق هوامش كتبها صدام بيده... وتتضمن قسمين أحدهما هو عرض عام للحوزة وتاريخها ومناهجها الدراسية وتوصيات بشأن احتواء الحوزة والمدارس الدينية.

أما القسم الثاني فعنوانه (الخوئي ووكلاؤه ومريدوه) ويقدم هذا القسم خمس عشرة علامة على انخراط آية الله الخوئي في (أعمال عدائية للحزب والثورة) إضافة إلى أن ما وصفته الدراسة بـ(الممارسات غير الدينية وغير الأخلاقية التي تمارسها حاشية الخوئي وأبناؤه ووكلاؤه مما جعلهم معزولين عن الجماهير) ومع ذلك فقد وجدت اللجنة مجالات واسعة يستطيع الخوئي أن يمارس فيها دوراً معادياً للنظام. ومن بين أنواع السلوك التي أبرزتها الدراسة كان حديث الخوئي وأولاده وحاشيته بالفارسية مما يثبت ولائهم للعنصر الفارسي وشعوبيتهم... وعلى صعيد العلاقة مع النظام فقد اتهمت اللجنة الخوئي وأتباعه بالقيام بجهد استثنائي لرفض التواريخ التي تبنتها الحكومة للمناسبات الدينية والأعياد وإصرارهم على الاحتفال بها في أيام مختلفة لا لشيء سوى (المغالطة والمخالفة للدولة وما يصدر عنها من قرارات رسمية... وسجّل على الخوئي

(١) الحوزة تحت الحصار. دراسة في إرشيف حزب البعث العراقي. سابق: ٢٦-٢٩. وينظر هامش رقم ١

مذكرة من ديوان الرئاسة إلى وزارة الداخلية وجهاز المخابرات في ٩ أيلول ١٩٨٤.

والمحيطين به عدم حضور مجالس الفاتحة للجنود المستشهدين في الحرب^(١).
وقد ختمت اللجنة الحزبية العليا تقريرها المطول عن الحوزة العلمية ومرجعها
الأعلى السيد الخوئي بتوصيات منها: "إلزام الخوئي بإعطاء موقف واضح من
حربنا العادلة مع العدو الإيراني الغاشم"^(٢) وهو ما لم يلتزم به سماحته.

يقول سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي متحدثاً عن الموقف السياسي
للإمام الخوئي خلال تسلط النظام الدكتاتوري البائد على مقاليد حكم العراق:
"في عهد حكومة البعث بعد وفاة آية الله السيد الحكيم كان وضع السيد الخوئي
كأنه بين حجري رحى، لأنه كان يعاني من ضغط مزدوج، فمن جهة كان يعاني
من ضغط الشارع عليه بمطالبته بالاصطدام الشديد والحاد مع الحكومة. لكنه
كان يعلم أن هذا الاصطدام الشديد ولقوي يؤدي إلى تعطيل الحوزة العلمية على
يد حزب البعث، وكان يعلم أنه لن يكون أقوى من آية الله السيد الحكيم، لقد
جعلوا آية الله الحكيم جليس المنزل ولم يقدر على فعل شيء.

من جهة أخرى أراد البعثيون أن يأخذوا منه كلمة تأييد، ولو نصف كلمة
تأييد لصالح حزب البعث ودولة العراق بأي ثمن، ولكنه قاوم من هذه الناحية
أيضاً، ولم يقل حتى نصف كلمة تأييد للدولة البعثية منذ أن تولى زعامة الحوزة
العلمية والمرجعية بعد وفاة آية الله السيد الحكيم إلى أن توفاه الله"^(٣).

ويعود مرة أخرى وهو يختتم حديثه عن المنهج السياسي للإمام الخوئي
قائلاً: "الخلاصة إنه لم يقيم بفعلين - مع ما تحمّل من ضغوطات - لكنه لم يقيم بهما.

(١) الحوزة تحت الحصار. دراسة في إرث حزب البعث العراقي. سابق: ٣١ - ٣٢. استناداً إلى الصفحات

٣٠ - ٣٦ من الوثيقة نفسها.

(٢) الحوزة تحت الحصار. سابق: ٣٤. نقلاً عن الوثيقة نفسها ص: ٣٧.

(٣) مذكرات الشيخ الآصفي: ٢٥٣ - ٢٥٤

أحدهما: الاصطدام المباشر مع البعث... ثانياً: إن حزب البعث كان يريد أن يأخذ منه كلمة تأييد، وهذا أيضاً لم يقدّم به، ولم يستطيعوا أن يحصلوا منه على تأييد... إنه تحمّل ضغطاً كبيراً... من أجل حفظ الحوزة العلمية. لا بدّ من معرفة حقائق التاريخ... معرفتها كما هي بشكل صحيح، وهذه حقيقة تاريخية" (١).

حملات التفسير التي طالت مئات الآلاف من الشيعة العراقيين بحجة واهية



في مسعى واضح الأهداف والمقاصد، سعى النظام الدكتاتوري الطائفي البائد إلى حملات تفسير ممنهجة لمئات الآلاف من العراقيين الشيعة من ذوي الأصول الإيرانية رغم حصولهم على الجنسية العراقية. فضلاً عن حاملي الجنسية الإيرانية. حيث "كان قرار الحكومة العراقية بتهجير أكثر من نصف مليون نسمة إلى إيران. أي ٦٪ من نفوس العراق" (٢) وقتذاك.

وكانت أولى حملات التفسير الممنهجة موجهة بشكل خاص نحو الحوزة العلمية في النجف الأشرف بهدف تحجيمها حيث هجر النظام البائد سنة (١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) أول ما "هجر مائة من طلاب وأساتذة حوزة النجف الأشرف، فيما تم اعتقال حوالي ألف ومائة وخمسين طالباً وأستاذاً من ذوي الجنسيات اللبنانية والباكستانية والبحرينية والسعودية والإيرانية" (٣) إثر مهاجمته للمدارس الدينية في النجف الأشرف.

(١) مذكرات الشيخ الآصفي: ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) محمد بقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. محمد عبد الله أبو زيد العاملي: ١٦٤/٢.

(٣) حكم صدام وتعزيز البنية الطائفية العنصرية للسلطة. د. يحيى الشامي. بحث ضمن كتاب صدمة التاريخ:

ثم أعقب النظام البائد حملته الأولى بحملة أخرى سنة (١٣٩١هـ / ١٩٧١م) وبالتحديد في (٢٦ كانون الأول ١٩٧١م) حيث "بدأت حملات التسفير على نطاق واسع إذ وصل عددهم (٢٠٨٤) شخصاً من المسفرين إلى الحدود العراقية الإيرانية"^(١).

ولم يكتفِ النظام البائد بذلك بل أعاد الكرّة من جديد وبشكل واسع بعد سنوات معدودة حيث "هجّرت مفازر الأمن والاستخبارات العراقية بالقوة آلافاً من العوائل العراقية بينها العديد من أساتذة الحوزة العلمية وطلابها واحتجزت شبابها في السجون ولم يعرف حتى اليوم كيف أعدمتهم السلطات الجائرة ومتى وأين دفنوا، كما ألغت سمات الإقامة لطلاب الحوزة العلمية وأساتذتها من غير العراقيين لغرض تسفيرهم... وفي أوائل الثمانينات تم اعتقال بعض من أعضاء لجنة الاستفتاءات بمكتب المرجع الأعلى السيد الخوئي"^(٢) للغرض نفسه.

. وفي عام (١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ألحقها بحملة كبيرة لم يعرف العراق لها مثيلاً وبعيدة عن كل الأخلاق والقيم والأعراف الدولية والإنسانية"^(٣).

وعلى الرغم من ذلك فإن الأعداد الحقيقية للمسفرين جبراً من بلدهم زمن النظام البائد لم يتحدد بدقة، فإن الباحث إسحاق نقاش قد ذكر بأن عدد المسفرين "قارب (٢٠٠ ٠٠٠ عراقي) -مائتي ألف- أجبروا بالقوة على مغادرة بلدهم"^(٤)، وإن الباحث حسن العلوي ذكر أنهم قاربوا "نصف مليون إنسان مطرودين

(١) السيد أبو القاسم الخوئي رؤاه ومواقفه السياسية. محمد جواد جاسم الجزائري: ٦٥.

(٢) ينظر: دور النجف الأشرف في انتفاضة شعبان ١٩٩١ م. المرجعية الدينية مشاريع علم وعمل. عبد الهادي الحكيم. مجلة النور. لندن العدد ١٦١ تشرين الأول والثاني ٢٠٠٤ م: ٦٢ - ٦٧.

(٣) الحوزة العلمية المشروع الإسلامي والحضاري. السيد محمد باقر الحكيم: ١٦١. هامش رقم ٢.

(٤) الوصول إلى السلطة. إسحاق نقاش: ١٧٥.

وراء الحدود بعد أن انتزعت وثائقهم وأموالهم وحجز أبناؤهم في معسكرات صحراوية^(١) فإن الباحث والوزير السابق عبد الكريم الأزري قد ذكر بـ "تجاوز مجموع من تم تهجيرهم أو على الأصح سبيهم بحسب تقدير بعضهم الثلاثمائة ألف نسمة، وربما بلغ نصف مليون، أو أكثر مشرد ومشردة رجالاً ونساء وأطفالاً.

أما أموالهم غير المنقولة من بيوت وعقارات ومتاجر ومعامل ومزارع فقد صفت إما بمزادات شكلية على أيدي موظفي الحكومة وبيعت بأقل من عشر معشار أثمانها الحقيقية أي بالمجان تقريباً إلى أشخاص من المحظوظين المقرّبين أو من أقارب رجال الحكم أو نقلت ملكيتها بقرارات من مجلس قيادة الثورة إلى أسماء أشخاص آخرين من المحظوظين والمقرّبين^(٢).

ولم يتضح بعد ما إذا كانت الأعداد المذكورة فيما تقدم قد شملت الكرد الفيليين الشيعة الذين قدر عدد المسفرّين منهم بأكثر من (٣٥٠٠٠٠) - ثلاثمائة وخمسين ألفاً - واختفى ما لا يقل عن (١٥ ألف) - خمسة عشر ألف كردي فيلي، ولم يعثر على رفاتهم. وأرجعت الدولة العراقية في قرارها (٦٦٦) إسقاط الجنسية عنهم لكونهم من "أصل أجنبي" من جهة، ولـ "عدم الولاء للشعب والأرض والمبادئ السياسية والاجتماعية للثورة" من جهة أخرى، بسبب "خلفيتهم العرقية، ومذهبهم الشيعي"^(٣). كما ورد في النص المقتبس. على أن كثيراً من معاصري حملات تسفير العراقيين يرفعون العدد إلى أكثر من ذلك بكثير.

لقد "كان التسفير أشد ممارسات القمع السلطوي آنذاك في عهد مرجعيته رحمته الله

(١) الشيعة والدولة القومية. حسن العلوي: ٣٨٢.

(٢) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. سابق: ٢٩٠.

(٣) إضطهاد الكرد الفيليين في عهد صدام حسين. موقع ويكيبيديا. وتُنظر مصادر بحثه.

وهو عبء عن عملية تدميرية منظمة للمجتمع العراقي وسياسة عنصرية بحتة... فقد تم إلقاء القبض على عدد كبير من الفضلاء وطلبة الحوزة العلمية وعدد يصعب إحصاؤه من التجار والكسبة العراقيين بحجة أصولهم الإيرانية على الرغم من أن بعضهم عرب خلّص، علماً أن بعضهم ادّعوا التبعية الأجنبية منذ زمن بعيد للتخلص من الخدمة العسكرية، وكان لدى عدد منهم ولادة مضاعفة في العراق ويحمل الجنسية العراقية منذ التعداد السكاني لعام ١٩٤٧ و ١٩٥٧ لكن السلطة كانت تسقط عنهم تلك الجنسية ويسفرون مع عوائلهم إلى حدود إيران في أسوأ الظروف ليعيشوا فيها لاجئين... وكانت العمليات أكثر قسوة... إذ لم يتم السماح للمسافرين أحياناً ببيع ممتلكاتهم وتصفيتها واستمر إخراجهم مع عائلاتهم بطريقة لا إنسانية على وجبات في الأعوام ١٩٧٢ و ١٩٧٤ وتساعد حتى وصل ذروته في عامي ١٩٨٠ - ١٩٨٢^(١).

أما كيف تمت عمليات التسفير للعراقيين الشيعة فسأكتفي بوصف واحدة منها تتعلق بـ "ما جرى لعدد كبير من التجار الذين وجهت غرفة تجارة بغداد دعوة إليهم للحضور إلى مقرها وطلبت إليهم اصطحاب هويات انتسابهم إليها معهم بحجة توزيع إجازات الاستيراد عليهم بموجهها، فلبّوا الدعوة وحضروا مبنى غرفة تجارة بغداد، ثم وقف أحد الموظفين وقال لهم إن محل الاجتماع قد تغير وأنه سيكون في قاعة الخلد في جانب الكرخ، وأن السيارات قد أعدت لنقلهم إلى هناك. وهكذا أركب أولئك التجار السيارات المعدة لهم، وبدلاً من

(١) المرجعية الدينية العليا وموقفها من أبرز التطورات السياسية الوطنية والعربية ١٩٢١ - ٢٠٠٣. د.

مقدم عبد الحسن فياض. بحث ضمن موسوعة فتوى الدفاع الكفائي. قسم الشؤون الفكرية والثقافية

وقسم الإعلام. ٢٤٦/٣.

أن تتوجه بهم إلى قاعة الخلد في جانب الكرخ، توجهت بهم إلى مديرية السفر والإقامة والجنسية أو إلى مديرية الأمن العامة، وهناك أخبروا بالحقيقة المرة، وأدركوا الخديعة المخزية التي دبرّت لهم، فانتزعت منهم هويات غرفة التجارة، وأخبروا أن سيارات قد أعدت لنقلهم إلى الحدود العراقية الإيرانية"

ويضيف الباحث متحدثاً عن طريقة تعامل الأجهزة الأمنية مع كبار التجار بقوله: " لم يسمح لهم -للتجار المغدورين- حتى بالاتصال ولو هاتفياً بعوائلهم وذويهم لإخبارهم بالمصير المظلم الذي كان قد بيّت لهم. وأغلبهم مع أنهم من الموسرين لم يكونوا يحملون مبالغ كافية من النقود معهم لكي ينفقوا على إعاشة أنفسهم. وهكذا أُلقي بهم على الحدود العراقية الإيرانية في الصحراء وفي الظلام الدامس وأخذوا يتخبطون في الأتربة وفي الرمال وهم لا يعرفون في الليل البهيم إلى أين يتوجهون"^(١).

بل وصل الأمر بمجلس قيادة الثورة أن شرّع قانوناً في (١١ جمادى الآخرة ١٤٠١هـ/ ١٥ نيسان ١٩٨١م) "يحرّض على التفريق بين الزوج وزوجته إذا كانت من التبعية الإيرانية وذلك في حال طلاق زوجته أو تسفيرها إلى خارج العراق -مشجعاً- بإغراءات مادية على التفريق بين زوج وزوجته وعلى تهديم الأسرة وتيتيم الأطفال"^(٢). ويقصد بـ(التبعية) ما إذا كانت جنسية المواطن السابقة أو جنسية أبيه أو جنسية أجداده غير عثمانية عندئذ ينظر ما إذا كان حاملها شيعياً أو غير شيعي، فإن كان غير شيعي ترك شأنه كالعراقي الآثوري أو الأرمني أو

(١) مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: ٢٨٩. وتنظر ناذج أخرى لحالات تسفير بشعة في الصفحات: ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٤ وأمثال ذلك كثير.

(٢) مشكلة الحكم في العراق. سابق: ٢٩٠.

الجورجي أو الألباني إما إذا كان شيعياً أسقطت عنه الجنسية العراقية وسفر إلى خارج العراق دون إجراء أي تحقيق أو تدقيق في ولائه.

لقد "تم انتزاع أموال - (من أطلق عليه النظام صفة التبعية) - من متاجر ومعامل ومزارع وأملاك وعقارات وغيرها موروثه من آبائهم وأجدادهم أو مكتسبة بتعبهم وعرق جباههم وبيعها بمزاد شكلي وتسليمها بأثمان بخسة إسمية تقرب من المجان إلى المحظوظين من أتباع وأزلام النظام الحاكم ومن أقرباء وأنسباء الحاكمين البعثيين الجدد" (١).

يقول الوزير السابق في العهد الملكي والباحث عبد الكريم الأزري، ملقياً الضوء على سبب تجنس الكثير الكثير من العوائل العراقية ذات الأصول العربية العراقية الأصلية بالجنسية الإيرانية أيام العثمانيين بما يأتي: "هناك عدد كبير من الأسر الشيعية المعروفة بنجارها العراقي، التي تجنست بالجنسية الإيرانية في العهد العثماني تخلصاً من الجندية في الجيش العثماني الأجنبي. ولا حاجة لتعداد تلك الأسر، فهي معروفة، فالتجنس بالجنسية الإيرانية في العهد العثماني من قبل مواطنين عثمانيين من أصل عربي نقي ويحملون شعوراً عربياً خالصاً كان بسبب هذا التمييز أو التفريق الطائفي الذي كانت تمارسه ضدهم الحكومة العثمانية وهي حكومة أجنبية" (٢).

ويوضح سبب تجنس العراقيين الشيعة من ذوي الأصول العربية الأصلية بالجنسية الإيرانية ذلك الباحث حسن العلوي بقوله: "إن أحداً لا يجهل بأن سياسة التمييز العنصري والطائفي وعمليات زج الفقراء العراقيين إلى حروب التوسع

(١) مشكلة الحكم في العراق. عبد الكريم الأزري: سابق: ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢١١. هامش رقم ١.

التركي قد أُلجأت العديد من الناس آنذاك في محاولة لحماية عوائلهم من الجور والاضطهاد والسوق التعسفي إلى القتال بأنهم من تبعية إيرانية. وكانت إيران تشجع القبائل العربية على التجنس بالجنسية الإيرانية إلى الحد الذي جعل الحكومة العراقية بعد تأسيسها تناشد سلطان طهران بالتوقف عن عمليات التجنيس. ولم يكن يعلم هؤلاء الذين أرادوا الإفلات من التمييز الطائفي والعنصري التركي يتصورون إنهم سيقعون بعد قرن أو قرنين من الزمان ضحايا التمييز الطائفي^(١).

وحسبك من غرابة ذلك أن شاعراً كشاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري كان رفض مدير المعارف العام في العهد الملكي، ساطع الحصري، ذو التبعية التركية^(٢)، تعيينه سنة (١٣٤٥هـ / ١٩٢٧م) معلماً للغة العربية في العراق، بسبب تبعية الجواهري الإيرانية.

رسالة سماحته ﷺ إلى صدام حسين مهدداً إياه بالهجرة من العراق

لقد سافر السيد أبو القاسم الخوئي إلى لندن "لإجراء عملية جراحية في (٢٩ كانون الأول ١٩٧١م) وفي (الأول من كانون الثاني ١٩٧٢م) زاره في المستشفى موظف من السفارة الإيرانية في لندن كمبعوث لشاه إيران وطلب منه الانتقال إلى إيران فأجابه سماحة السيد الخوئي بأن الشاه له ارتباطات وعلاقات قديمة مع الصهيونية العالمية وسوف لن أغادر العراق بغض النظر عن مضايقات السلطة العراقية للحوزة العلمية، وفي اليوم اللاحق زاره مبعوث الحكومة العراقية فأخبره السيد الخوئي بطلب السفير الإيراني بترك العراق وأبلغه باعتزامه على

(١) الشيعة والدولة القومية. حسن العلوي: ٢٥٧.

(٢) ينظر: الوصول إلى السلطة. الشيعة في العالم العربي المعاصر. إسحاق نقاش: ١٦٥.

اتخاذ قرار المهجره إلى إيران ما لم تتوقف الإجراءات القمعية ضد الحوزة العلمية في النجف الأشرف من السلطة العراقية ولا سيما تسفيرات طلبة العلوم الدينية الأمر الذي أدى بالمبعوث العراقي إبلاغ السيد الخوئي برغبة رئيس الجمهورية ببقاء قيادة المرجعية في النجف الأشرف^(١). وتصاعدت الحملات حتى "بلغت في عنفها وشراستها أن كثيراً ممن لا يطالهم سيف التسفير فضلوا مغادرة الحوزة إلى حوزة أخرى يتمكنون من خلالها مواصلة دروسهم بهدوء بال وارتياح أعصاب فتحرك السيد محمد باقر الصدر لمعالجة هذه المشكلة إذ قام بزيارة المرجع الأعلى الإمام الخوئي (طيب الله ثراه) وشرح له الحال بالتفصيل، كما شرح له مخاطر هذا الأمر على الحوزة العلمية في النجف وعلى الوضع الإسلامي في العراق عموماً، واستطاع أن يقنع الإمام الخوئي بعد أن هاجرت أعداد كبيرة بأن يحكم بعدم السفر خارج العراق لطلاب وأساتذة الحوزة، وفوراً تناقل تلامذة السيد الصدر هذا الحكم وبدؤوا بنقله إلى مختلف رجال الحوزة العلمية إلى حدّ قصدوا فيه منازل الطلبة أنفسهم وبلغوهم بحكم الإمام الخوئي ففسخ المئات عزمهم على السفر بعد أن سمعوا هذا الحديث وأصبح الموقف معلوماً ومقتضى المصلحة الإسلامية محدداً"^(٢)

ومما يؤكد صحة الخبر المنقول أعلاه ما أشارت إليه رسالة سماحة السيد الخوئي إلى صدام حسين. تلك الرسالة التي بعثها سماحته نتيجة لاستمرار وتصاعد وتائر

(١) السيد أبو القاسم الخوئي رؤاه ومواقفه السياسية. محمد جواد جاسم الجزائري: ٦٥ - ٦٦ نقلاً عن مقابلة شخصية مع السيد عبد الصاحب نجل الإمام الخوئي وأمين عام مؤسسة الخوئي في لندن بتاريخ ٢٧ أيلول ٢٠١٣ م.

(٢) الحوزة العلمية في النجف الأشرف معالمها وحركتها الإصلاحية ١٣٣٩ - ١٤٠١ هـ. علي أحمد البهادلي. ٣٦٠ - ٣٦١، وينظر: مع علماء النجف الأشرف. السيد محمد الغروي: ٤٦/٢.

المضايقات المستمرة من الحكومة العراقية لأساتذة وطلاب الحوزة العلمية في (٥ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ/ ٥ كانون الثاني ١٩٨٧ م) التي جاء فيها: "إن وجود الحوزة العلمية في النجف الأشرف مما لا يخفى على سيادتكم أهميتها في العالم الإسلامي، كما إن دعوتكم لي بالرجوع إلى النجف الأشرف عند سفري إلى لندن تدل بوضوح على اهتمامكم بحفظها. وقد بلغني المرسل من قبلكم إلى لندن بأنكم تدعونني إلى الرجوع إلى العراق على أن أكون مستمراً في القيام بوظائفي الدينية ورعاية الحوزة وإدارة شؤونها فلبيت دعوتكم، وقدمتها على دعوة الشاه لذهابي إلى إيران مع العلم بأنها كانت قبل وصول دعوتكم لي فرجعت إلى النجف الأشرف، وبعد مضي سنين انقلب الأمر وحدث التشويش والاضطراب في الحوزة العلمية حتى بلغ ما بلغ مما هي عليه الآن بما هو غير قابل للتحمّل، فإن كنتم على العهد السابق كما هو المأمول فالمرجو إصدار الأمر للمسؤولين بالاهتمام بشؤون الحوزة ورفع ما يوجب التشويش، وإن كان وجود الحوزة العلمية لا يسمح الله يتناهى مع مصالح الدولة فالمرجو إصدار أوامركم للدوائر المختصة بتسهيل مغادرتنا العراق مع من يتبعنا من أفراد الحوزة على أن يمهّلونا مدة شهر واحد لتصفية أمورنا. هذا وقد راجعنا بعض المسؤولين في هذا الموضوع فلم نحصل على النتيجة المطلوبة والله ولي التوفيق" (١).

وتتسق مطالبة رئاسة الجمهورية العراقية ببقاء المرجعية العليا في النجف الأشرف مع ما ورد في وثائق القيادة القطرية لحزب البعث مما تقدم ذكره أعلاه.

(١) السيد أبو القاسم الخوئي رؤاه ومواقفه السياسية. محمد جواد جاسم الجزائري: ٧٥ نقلاً عن مكتبة الإمام الخوئي العامة رسالة السيد الخوئي إلى صدام حسين رئيس الجمهورية في ٥ كانون الثاني ١٩٨٧.

اعتقال العشرات من رجال أكبر أسرة علمية دينية في الحوزات العلمية كلها، زمن مرجعية سماحة السيد الخوئي

لقد سعى النظام الصدامي البائد بكل ما يستطيع من قوة وحزم إلى تحجيم دور المرجعية الدينية الشيعية والحوزات العلمية في العراق عامة، وفي النجف الأشرف خاصة بمختلف الوسائل المتاحة من الاغتيال... إلى اعتقال العلماء والمجتهدين والطلاب... إلى اعتقال المراجع والمجتهدين... إلى التفسير القسري للحوزويين العراقيين من ذوي الأصول الفارسية ومن يمت إليهم بصلة، رغم أنهم يحملون الجنسية العراقية... إلى التضييق الخائق على كل النشاطات التبليغية المؤثرة... إلى منع طباعة الكتب الرسائل العملية... إلى مصادرة الكتب الفقهية والرسائل العملية المطبوعة... إلى منع السفر... إلى الرقابة الصارمة على البيوت والمساجد والحسينيات... إلى منع الشعائر الحسينية... إلى استباحة المدن المقدسة وغيرها من مدن الفرات والجنوب الشيعية... إلى رفع شعار (لا شيعة بعد اليوم)... إلى تنفيذ شعار الإبادة الجماعية بالحديد والنار دون أي عائق وإن أدى إلى ما أدى إليه... إلى غيرها كثير.

وتحقيقاً لذلك أقدمت قوات الحزب وأجهزته الأمنية العديد من رجالات الأسر العلمية الدينية وبخاصة من أسر الحوزة العلمية النجفية، وفي مقدمتها رجال أكبر أسرة علمية نجفية هي: أسرة آل الحكيم العلمية الدينية حيث أمر رئيس النظام الدكتاتوري الطائفي البائد باقتحام بيوتها واعتقال جلّ رجالها وبعض نساؤها وعدد من أطفالها حيث تم اعتقال من تتراوح أعمارهم ما بين (١٣ سنة - ٨٠ سنة) من الأسرة العلمية، ليلة ٢٦ رجب ١٤٠٣ هـ، الموافق لمساء يوم (٩ ميس ١٩٨٣ م)، وكان في مقدمة المعتقلين عدد من المجتهدين وكبار العلماء والأساتذة المدرسين من

أمثال أصحاب السماحة كل من: السيد يوسف الحكيم، والسيد محمد علي الحكيم، والسيد محمد حسين السيد سعيد الحكيم، والسيد محمد تقي السيد سعيد الحكيم، والسيد محمد رضا السيد محسن الحكيم، والمرجع المعاصر السيد محمد سعيد الحكيم، والسيد مجيد الحكيم، والسيد عبد الصاحب الحكيم، وعدد كبير آخر من خيرة أساتذة الحوزة العلمية والعلماء والفضلاء والمدرسين والكتاب والأدباء وغيرهم، ومنهم كاتب هذه السطور. وقد وثقت أسماؤهم في قائمة مثبتة في الأمم المتحدة ضمت أسماء السجناء في حقبة البعث، حيث كان رقم تسلسلي (٩٠٤) بعنوان (محبوز).

ولم تنتهِ العذابات القاسية الموجهة لأفراد هذه الأسرة العلمية المنكوبة مثلما لم تنتهِ الإعدامات في رجاها وأطفالها، فكانت الإعدامات تترى بأساليب شتى كان من أقساها وأشدّها وقعاً على الأسرة والحوزة العلمية والنجف الأشرف والعراق عامة إعدام وجبتين من رجالات هذه الأسرة: شملت أولى الوجبتين ستة شهداء كلهم من أنجال وأحفاد سماحة الإمام السيد محسن الحكيم، بينهم المجتهد والعالم الكبير والأستاذ والباحث والمبلغ من أصحاب السماحة والفضيلة والأساتذة، فأما أنجال الإمام الحكيم فهم كل من الشهداء: آية الله السيد عبد الصاحب، وحجة الإسلام والمسلمين السيد علاء الدين، وحجة الإسلام والمسلمين السيد محمد حسين. وأما أحفاد الإمام الحكيم فهم كل من الشهداء: حجة الإسلام والمسلمين السيد كمال الدين، وحجة الإسلام والمسلمين السيد عبد الوهاب، نجلي آية الله المقدس السيد يوسف الحكيم كبير أنجال الإمام الحكيم، والأستاذ الصديق العزيز أحمد أكبر أنجال آية الله السيد محمد رضا الحكيم ثاني أكبر أنجال الإمام الحكيم. وقد تم تنفيذ حكم الإعدام الظالم بحقهم في يوم (٧ شعبان ١٤٠٣هـ / ٢٠ مايس ١٩٨٣م).

وزيادة في التعذيب الممض للأسرة العلمية وإمعاناً في الوجع الحارق كبار رجالاتها، وفي وضعية لا يقدم عليها إلا من نزع الله من قلبه بقايا إنسانية الإنسان، أقدم النظام الدموي على إعدام شهداء هذه الوجبة الأولى من الأسرة الحكيمة الصابرة بعد إجبار عمي الكبير سماعة آية الله الحجة الصابر المحتسب السيد محمد حسين السيد سعيد الحكيم عميد الأسرة الاجتماعية وهو شيخ كبير ضعيف على مشاهدة عملية إعدام ستة من وجوه رجال أسرته العلمية بعينه وقلبه وعقله وأعصابه.

وإذ لم تشف غليل الدكتاتور المجرم كل تلك المآسي والمجازر والعذابات والفظائع والمحن التي ابتلاها بها، قرر بحقد أعمى تنفيذ حكم الإعدام بعشرة آخرين من السادة آل الحكيم بعد حوالي سنتين بينهم علماء كبار وحجج وأساتذة وفضلاء ومربين وبينهم أيضاً من لم يبلغ السن القانونية بعد، وهم كل من الشهداء: آية الله السيد مجيد السيد محمود ابن الأخ الأكبر للإمام الحكيم ومعه نجله الأستاذ السيد محمد علي. وآية الله السيد عبد الهادي نجل الإمام الحكيم ومعه ولديه كل من العلامة الفاضل السيد حسن، والفاضل السيد حسين حفيدي الإمام الحكيم، وحجة الإسلام والمسلمين السيد محمد رضا الأستاذ في كلية الفقه بالنجف الأشرف وأخويه كل من الأستاذ المربي الفاضل السيد محمد، وحجة الإسلام والمسلمين السيد عبد الصاحب أنجال آية الله الصابر المحتسب السيد محمد حسين السيد سعيد الحكيم المتقدم الذكر، وكذلك الشهيدين الأخوين العلامة السيد ضياء الدين وأخيه الفاضل السيد بهاء الدين نجلي الشهيد السيد كمال الدين حفيد الإمام الحكيم. وقد تمت عملية الإعدام الجماعية في يوم (١٢ جمادى الثانية ١٤٠٥ هـ / ٥ آذار ١٩٨٥ م).

ويحسن بي أن أتوجه - حين أستذكر ضراوة ما عانته أكبر أسرة علمية دينية - بالشكر الجزيل والعرفان الجميل إلى سماحة الإمام السيد الخوئي ونجمله الشهيد حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد تقي الخوئي ونسيبه العالم الفاضل السيد محمد أمين الخلخالي من وجوه مكتب سماحته عليه السلام لما قاموا به من رعاية نساء وأطفال الأسرة المنكوبة بعد أن خلت بيوتها ليس من الرجال والشباب فحسب، بل حتى ممن لم يبلغ الحلم من بعض أولادها أيضاً.

وعلى الرغم من كل ما تقدم مما ارتكبه النظام البائد من جرائم بحق هذه الأسرة الحسنية الحُسينية لم تنتهِ جرائم النظام البائد عند هذا الحد الفظيع من الحقد المجنون على هذه الأسرة بل عمد إلى اغتيال الشهيد سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد محمد مهدي الحكيم نجل سماحة الإمام السيد محسن الحكيم في جمهورية السودان سنة (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م)، ثم أعاد النظام البائد الكرّة ثانية وثالثة فشنّ حملة اعتقالات أخرى لمجموعة من رجالات الأسرة الحكيمة بعد الانتفاضة الشعبانية شملت بعض كبار العلماء والوجهاء والفضلاء وخدمة العتبة العلوية المقدسة والطلاب بينهم عمي الشهيد الفاضل السيد علي السيد سعيد الحكيم الذي اعتقل سابقاً معنا وأطلق سراحه من السجن لكبر سنّه، وقد دفن جميع شهداء الأسرة الذين أعدموا في العراق من جميع وجبات تصفية هذه الأسرة في مقابر جماعية، ولم نعثر على رفات أي شهيد منهم حتى تاريخ كتابتي هذه.

كما تمت تصفية بعض مجتهدَي الأسرة وكبار رجالاتها أيضاً حتى بعد سقوط النظام الدكتاتوري الدموي البائد على يد القتل المتطرفين المتشددّين المتعاونين مع أزام النظام البائد حيث تم تفجير موكب شهيد المحراب سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم واستشهاده في (الأول من رجب ١٤٢٤ هـ / ٢٩ آب ٢٠٠٣ م).

وبالإجمال فقد بلغ من استشهاد من رجال ونساء وأطفال هذه الأسرة العلمية أو من سجن وعذب منها (١١١) مائة وأحد عشر فرداً، بينهم بعض ربات البيوت، بل والشابات من غير المتزوجات أيضاً. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

هذا وقد وثقت في كتابي المطبوع (على بوابة النزع الأخير) بعض ما عانيت وأسرتي العلمية من جور وظلم وعسف وتعذيب قاس خلال سنوات اعتقالنا الرهيبة الممتدة لأكثر من ثماني سنوات، في زنازين ومعتقلات مديرية الأمن العامة، أول الأمر، ثم في قسم السجن الخاص المغلق بالسياسيين أحد أقطاع أقسام سجن أبي غريب، المعروف عند السجنائين والسجناء باسم (ق ٢ من الخاصة المغلقة)، كل تلك المعاناة الشديدة القاسية طوال هذه السنوات العديدة من السجن والاعتقال والترهيب والتعذيب قد تمت من دون تحقيق أو محاكمة، وذلك لعدم وجود تهمة للمحتجزين أصلاً كي يحاكموا بسببها حسب اعتراف السجنائين أنفسهم. ولذلك سمّونا في وثائقهم الرسمية بالمحجوزين.

دور الإمام الخوئي رحمته الله في حفظ الأمن المجتمعي ودعم الانتفاضة الشعبانية

منذ أن أعلنت الحكومة العراقية انسحاب الجيش العراقي أو بالأصح هزيمته المذلة في الكويت في (١٢ شعبان ١٤١١ هـ/ ٢٦ شباط ١٩٩١ م) وشاهد الضباط والجنود العراقيون تدمير ناقلاتهم ودباباتهم ومدركاتهم ومصفحاتهم وسياراتهم وبقية أنواع آلياتهم المختلفة مع أسر عشرات الآلاف منهم، اضطر من لم يقع في الأسر من العسكريين العراقيين إلى العودة سيراً على الأقدام إلى محافظاتهم ومدنهم وقراهم معبئين بالغضب الجارف ضد النظام وقراراته العنيفة وقواته المنهزمة بعد

"ندمير (٢٩) تسع وعشرين فرقة و (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف دبابة ووصل عدد الأسرى إلى أكثر من (٦٠٠٠٠) ستين ألف أسير"^(١). وعلى إثر ذلك رمى أحد الجنود العائدين في فجر اليوم الثاني من آذار (١٩٩١م) بإطلاق النار والشتائم على تمثال الدكتاتور العراقي المنهزم آنذاك في ساحة سعد في البصرة الفيحاء لتنتقل حينها الانتفاضة الشعبانية ولتتمدد خلال أيام إلى (١٤) أربع عشرة محافظة عراقية كما امتدت هذه الانتفاضة الشعبية العامة إلى المحافظات الكردية ذلك الوقت فحررتها من سطوة النظام الدكتاتوري البائد.

ونظراً لصعوبة الإمام التام بمجريات مجازر الإبادة الجماعية بما في ذلك الوقوف على بشاعة ما اقترفته أيدي جلاوزة النظام الدكتاتوري الطائفي البائد في محافظات وأقضية ونواحي وقصبات المناطق الشيعية المتفضضة لذا فسأقتصر على بعض من وحشية يوميات الإبادة الجماعية في مدينة النجف الأشرف حسبما دون يومياتها والشاهدان على مجرياتها الأخوان الفاضلان مكي زبيبة وعبد اللطيف العميدي يوماً بيوم ابتداء من أول أيام الانتفاضة وانتهاء بأواخر أيامها المؤلمة.

ويصف السيد العميدي متحدثاً عما شاهده ظهر يوم (١٥ شعبان ١٤١١هـ/ ٢ آذار ١٩٩١م) حيث كان الشباب الثائر متجمعاً في شارع عيسى الرسول الصادق فخرج علينا أزالام البعث بأسلحتهم من داخل الصحن العلوي وقسم منهم أخرج السلاح من سياراتهم المتوقفة في الشوارع فأطلقوا النار العشوائي علينا لإفراغ الشوارع وقمع المتفضزين فسقط العشرات من الشهداء كما سقط العشرات منهم أيضاً قرب مقر شرطة التسفيرات (الجامعة الإسلامية حالياً) وفي صباح اليوم التالي (١٦ شعبان/ ٣ آذار) سقط العشرات كذلك في المكان نفسه.

(١) يوميات الحرب والانتفاضة. مكي زبيبة نقلاً عن قائد القوات الأمريكية في يوم ٢٧ شباط ١٩٩١: ١١٢.

ويضيف "وكانت لنا زيارات ليلية لمركز قيادة الانتفاضة (الأبوي غير الرسمي) وهو منزل المرجع الأعلى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي وأخذ التوجيهات من نجله المتصدي للقيادة ساحة العلامة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي"^(١).

أما الأخ الصديق المرحوم مكي زبيبة رئيس اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين في النجف الأشرف خلال الانتفاضة فدوّن في يومياته ما شاهده يوم الإثنين (١٧ شعبان ١٤١١هـ / ٤ آذار ١٩٩١م) ما يأتي: "مررت على أربع جثث للجيش الشعبي أمام الكراج الموحد كما شاهدت عشرات السيارات العسكرية وسيارات الحزبيين محترقة في ساحة ثورة العشرين وفي شارع الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام المؤدي إلى مرقد أمير المؤمنين عليه السلام وكانت إحدى السيارات المحترقة في ساحة ثورة العشرين... ورأيت أكثر من عشرين مجموعة تهزول في الشوارع وهي تهزج (يا حسين يا حسين) وترفع البيارق الخضراء والسوداء والحمراء... لقد تفجر هذا الحب فجأة وتمخض عن هذه الانتفاضة التي شارك فيها الألوف بالخنجر والسيوف وبال عصي والسكاكين يقتحمون المدافع والدبابات ويستولون عليها... لقد خرجت الدفوف والطناجر والأبواق والرايات الحسينية، لقد خرجت مآتم الأطفال والنساء والفتيان وهي تهتف يا حسين وبدأت القصائد تشدو حزناً للحسين من مكبرات الصوت المحمولة على السيارات في أيدي الأفراد وبدأ البعض يوزع الماء والشاي والطعام على مواكب المعارضين... طعام أبي عبد الله في خدمة مواكب الانتفاضة الشعبانية هذا عالم يختلط فيه البكاء والهتاف مع زغاريد النساء"^(٢).

وإذ شاع القتل في المحافظات المتفضة وانتشرت الجثث في الشوارع والطرق

(١) مشاهداتي وما حفظته الذاكرة من الانتفاضة الشعبانية لسنة ١٩٩١ م. السيد عبد اللطيف العميدي.

(٢) يوميات الحرب والانتفاضة. مكي زبيبة: ١٢٠.

والأحياء وتقابل العنف بالعنف والدماء بالدماء لتنتهي بتحرير محافظة النجف الاشرف في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم (الاثنين الرابع من آذار ١٩٩١م) ما استدعى لأن يصدر المرجع الأعلى سماحة السيد الخوئي بيانه الأول في (الخامس من آذار ١٩٩١م) وهذا نص البيان:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبناءؤنا الأعزاء المؤمنون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله على نعمه وآلائه والصلاة والسلام على أفضل أنبيائه محمد وآله (صلوات الله عليهم أجمعين).

وبعد، لا شك أن الحفاظ على بيضة الإسلام ومراعاة مقدساته أمر واجب على كل مسلم، وإنني بدوري أدعو الله تبارك وتعالى أن يوفقكم لما فيه صلاح الأمة الإسلامية، أهيب بكم أن تكونوا مثلاً صالحاً للقيم الإسلامية الرفيعة برعاية الأحكام الشرعية رعاية دقيقة في كل أعمالكم وجعل الله تبارك وتعالى نصب أعينكم في كل ما يصدر عنكم، فعليكم الحفاظ على ممتلكات الناس وأموالهم وأعراضهم وكذلك جميع المؤسسات العامة، لأنها ملك الجميع، والحرمان منها حرمان الجميع، كما أهيب بكم بدفن جميع الجثث الملقاة في الشوارع ووفق الموازين الشرعية لا المثلة بها، لأنها ليست من أخلاقنا الإسلامية، وعدم الشروع باتخاذ الإجراءات غير المدروسة التي تتنافى والأحكام الشرعية والمصالح العامة. حفظكم الله ورعاكم لما يحب ويرضى إنه سميع الدعاء.

الختم

١٨ شعبان المعظم ١٤١١هـ^(١).

(١) دور النجف في انتفاضة شعبان ١٩٩١. سابق: ٦٢ - ٦٧.

ذلك أن الجثث المكدسة المتروكة في الشوارع والطرق من الحزبيين خاصة بقيت أياماً دون دفن حتى من قبل ذويهم. وبعد صدور البيان خلت الشوارع من الجثث. وبعد يومين من صدور البيان الأول كما في أعلاه أصدر سماحته البيان الثاني الذي شكل بموجبه لجنة من العلماء الأعلام للحفاظ على الأمن العام، ومسك زمام الأمور، خشية من انفلاتها، ما أمكن، بعد أن سقطت مؤسسات الدولة تحت ضربات الانتفاضة الشعبانية.

وفيما يأتي نص البيان الثاني الصادر في (٢٠ شعبان ١٤١١ هـ / ٧ آذار ١٩٩١ هـ).

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين. وبعد، فإن البلاد تمرّ في هذه الأيام بمرحلة عصيبة تحتاج فيها إلى حفظ النظام واستتباب الأمن والاستقرار والإشراف على الأمور العامة والشؤون الدينية والاجتماعية، تحاشياً من خروج المصالح العامة عن الإدارة الصحيحة إلى التسبب والضياع.

من أجل ذلك نجد أن المصلحة العامة للمجتمع تقتضي هنا تعيين لجنة عليا تقوم بالإشراف على إدارة شؤونها كلها، بحيث يمثل رأيها رأينا، وما يصدر عنها يصدر عنا، وقد اخترنا لذلك نخبة من أصحاب الفضيلة العلماء المذكورة أسماؤهم أدناه ممن نعتد على كفاءتهم وحسن تدبيرهم.

فعلى أبنائنا المؤمنين أتباعهم وإطاعتهم والانصياع إلى أوامرهم وإرشاداتهم ومساعدتهم في إنجاز هذه المهمة.

نسأل الله ﷻ أن يوفقهم لأداء الخدمة العامة التي ترضيه سبحانه وتعالى

ورسوله ﷺ.

الله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أ. السيد محيي الدين الغريفي.

ب. السيد محمد رضا الموسوي الخلخالي.

ت. السيد جعفر بحر العلوم.

ث. السيد عز الدين بحر العلوم.

ج. السيد محمد رضا الخرسان.

ح. السيد محمد السبزواري.

خ. الشيخ محمد رضا شبيب الساعدي.

د. السيد محمد تقي الخوئي.

النجف الأشرف في العشرين من شهر شعبان المعظم سنة ١٤١١هـ.

ذ. ملحوظة: لقد تقرر إضافة السيد محمد صالح السيد عبد الرسول الخرسان

إلى اللجنة المذكورة أعلاه.

في ٢١ شعبان ١٤١١هـ

الختم الشريف^(١)

قمع الانتفاضة الشعبانية بأبشع إبادة جماعية لشيعه العراق تحت شعار (لا شيعه بعد اليوم)

لقد أعطت قوات الاحتلال الأمريكي الضوء الأخضر للنظام البائد في (آذار ١٩٩١م) بدفع من السعودية ومصر وغيرهما من دول الخليج الأخرى، لإخماد الانتفاضة الشعبانية بأقصى ما يملكه النظام البائد من قوة وعنف وشراسة

(١) دور النجف في انتفاضة شعبان ١٩٩١. المرجعية الدينية مشاريع علم وعمل. عبد الهادي الحكيم: ٦٢ - ٦٧.

من أجل استعادة السيطرة على (١٤) محافظة نائرة، فشنت طائرات النظام السمتية المقاتلة، وصواريخ أرض أرض، والدبابات، والمجنزرات، والمدفعية الثقيلة، وراجمات الصواريخ، والجيش الجرارة بكامل تجهيزاتها الحربية وبخاصة قوات الحرس الجمهوري رافعة شعار (لا شيعية بعد اليوم) ذلك الشعار الذي "بُلبغ به منتسبو قوات الحرس الجمهوري والحرس الخاص قبل قيامهم بقمع الانتفاضة"^(١)، وهو ما كتبت شعاراته على جدران المدن المقدسة ومنها مدينة النجف الأشرف، بل وكتبوها "على الدبابات"^(٢) المقتحمة للنجف الأشرف وغيرها من المحافظات والأقضية والنواحي الشيعية.

كل ذلك وحمم النار الملتهبة تنهال على رؤوس السكان والدور والمساكن دون هوادة.

وإذ استنجدت مدينة كربلاء المقدسة بنخوة النجفيين لصد ما تعرضت له من هجمات إبادة جماعية قبل استباحة النجف الأشرف قال المقاتل السيد العميدي لقد "تجمعنا في ملعب النجف الأشرف حيث خطب بنا الشهيد السيد محمد تقي الخوئي والشهيد السيد حسن بحر العلوم ثم سرنا إلى كربلاء بعجلات مدنية تحمل ما بين ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ من شباب الكوفة والنجف الأشرف حتى إذا وصلنا بوابة كربلاء قرب المقبرة اشتبكنا بحرب شوارع مع البعثيين الذين كانوا يسيطرون على المدينة وجرت هنالك ملاحم بطولية لا تكفي لاستعراضها هذه السطور فقد تمكن شباب النجف الأشرف من الدخول لكربلاء وتحرير أغلب شوارع المدينة

(١) الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. سابق ١٤٠ نقلاً عن (الزلال) الفريق الركن نجيب الصالح: ٤٥٣.

(٢) الطائفية والحكومة ومستقبل العراق. رانج علاء الدين. مركز بركنجز الدوحة:

وبقينا نقاتلهم يوماً وليلتين حيث سالت دماء الشهداء أنهاراً واشتد قصف الهاونات والصواريخ علينا حتى انسحبنا باتجاه مقبرة كربلاء بعد أن استشهد غالبية إخواننا المجاهدين... لقد سطر شباب النجف الأشرف في تلك الصولة مواقف وملاحم لا زالت تفتقر إلى من يؤرخها فعشرات الدبابات البعثية أحرقت ومئات البعثيين قتلوا وشاهدت بأم عيني أشلاءهم تملأ شارع العباس عليه السلام، لكن تفاوت القوة والأسلحة حال دون تمسكنا بالأرض فانسحبنا إلى النجف الأشرف".

ويضيف المقاتل السيد العميدي قائلاً: "بعد يومين زحف الجيش على مدينتنا المقدسة النجف الأشرف مستخدماً القصف الإجرامي بالصواريخ والمدافع ولمدة ثلاثة أيام ليفرغ المدينة من أهلها ويحرقها، وعندها استبسل المجاهدون على قلة مؤنهم العسكرية وعتادهم فدارت معارك ضارية في مناطق ساحة ثورة العشرين والحي العسكري وساحة الميدان والساحة المحيطة بالصحن العلوي الشريف ولولا الطائرات العمودية والدبابات والأسلحة الثقيلة التي كانت تحرق كل ما يصادفها لما تمكن المهاجمون من دخول النجف.

ثم وبعد يوم من دخولهم وسيطرتهم على مستشفى الصدر رموا عشرات الجرحى والمرضى الراقيدين فيها من أعلى بناية المستشفى إلى الشوارع"^(١).

أما المرحوم الصديق السيد مكي زبيبة فيصف في مذكراته اليومية ما شاهده من قساوة معاناة النجفيين من مخطط إبادة الجماعة على أيدي الجلاوزة ابتداء من يومي الثلاثاء والأربعاء (٢٥-٢٦ شعبان ١٤١١هـ/ ١٢-١٣ آذار ١٩٩١م) بقوله: "بدءاً من الساعة العاشرة مساءً -من يوم الثلاثاء- قصفت النجف بالصواريخ واستمر القصف ولم تشهد المدينة مثل هذا القصف خلال الحرب

(١) مشاهداتي وما حفظته الذاكرة من الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١. السيد عبد اللطيف العميدي.

كلها ولا خلال تاريخها وأخذت البيوت تهتز والزجاج يتطاير وشرفات البيوت تتهدم وخرجت بعض العوائل إلى الشوارع ليلاً هلعاً من الموت الذي يترصدها مع كل قذيفة وإني لأجزم أن لا أحد ذاق النوم هذه الليلة وقد كتبت هذه السطور تحت القصف وكل شيء يهتز حولي، الأبواب تتفتح وزجاج النوافذ يتطاير... ربما ذهب ضحية ليلة الأمس المئات من الأطفال والنساء وهذا الصباح وقبل هذا القصف الشديد ستذهب مئات أخرى من الضحايا".

ويضيف في وصفه لما حدث يوم الأربعاء ما يأتي: "في الصحن الشريف تجمع الألوف من النساء والأطفال هرباً من القصف، وكان لصراخهم دوي يسمع من بعد، وقد أصيبت منطقة الجديدة الرابعة بصاروخ ربا (أرض - أرض) وهدم أكثر من ثلاثين بيتاً، كما سقط صاروخ - أرض أرض - في شارع المدينة وفي منطقة حنون وذهب ضحيته أكثر من (١٥٠) - مائة وخمسين - شخصاً كما يقال... ما زال القصف على أشده، ولا يدري أحد متى تأخذه إحدى هذه القذائف إلى العالم الآخر، فما رأينا بالأمس وهذا اليوم من الصواريخ والقنابل، أكثر من مائة مرة من أيام الحرب. إن النجف تتعرض إلى هدم دون تمييز، تتعرض بكل الأسلحة التي كانت مدخرة إلى الحرب البرية المزعم وقوعها مع قوات أمريكا والحلفاء"^(١).

ويتحدث عما جرى في النجف الأشرف خلال يومي الخميس والجمعة (٢٧-٢٨ شعبان ١٤١١هـ/ ١٤-١٥ آذار ١٩٩١م) فيقول موثقاً ما جرى وشاهده أمامه يوم الخميس بما يأتي: "منذ ليلتين لم نمن نتيجة الصواريخ والقنابل التي تتساقط على مدار الدقيقة، لا على مدار الساعة، لقد أحصيت عدد أصوات القذائف خلال الدقيقة الواحدة كانت ثلاثين قذيفة وصاروخاً، ومراراً أحصيت

(١) يوميات الحرب والانتفاضة: ١٥٠ - ١٥١ و ١٥٢ - ١٥٣. على التوالي.

أصوات القنابل على مدار الدقيقة وكانت النتيجة هي هي... النجف كلها هدف للمدفعية... الكل مشروع انتظار على لائحة القتل القادم عبر آلة الموت التي تحملها الصواريخ الثقيلة والقنابل وقذائف المدفعية... وقالت امرأة وهي تحمل طفلها وفراشاً على رأسها هاربة: بهذه الطائرات والصواريخ والمدافع لو حاربنا أمريكا لهزمنها، ولكنها بقيت لذبحنا... وقالت امرأة: لو ضربنا بالأسلحة الكيماوية لاسترحنا من هذا الموت البطيء... لقد فضلت الموت العاجل على الموت ببطء جوعاً وقصفاً... لقد مات الناس من الرعب قبل أن يموتوا بالقصف ومنهم من مات مرتين مرة من الخوف ومرة من سقوط منزله عليه".

ويقول عما جرى يوم الجمعة ما يأتي: "لم يكن الموت أرخص في أي وقت من هذا اليوم حيث جث القتلى مرمية على أرصفة الشوارع وفي منتصفها، وتداس من قبل الدبابات والمدركات والقصف المدفعي على أشده ليست هناك فترة توقف ولو لدقائق للتعرف على جث القتلى... لا انقطاع للقصف... لم تر النجف أياماً عصيبة مثل هذه الأيام طوال تاريخها فالكل مستسلم للموت إلى الموت والكل يقرأ الأدعية عسى أن تردع عنه القنابل أو سقوط البيت على رأسه نتيجة القصف الذي لم يتحملة أي عقل، قصف قطع الأعصاب قبل أن ينقل الأرواح. وما برحت مئات الجثث دون دفن ويقدر بعض الناس أنها تربو على ألف جثة في هذا اليوم فقط دون عدد المدفونين تحت أنقاض بيوتهم... الطائرات المروحية تجوب السماء وتلتقط المشاة موتاً. ومع الجوع جاء العطش... وأكد لي أحدهم أن أكثر من أم راحت تبحث عن ابنها بين الجثث وأن عدة؟ أمهات أو أخوات سقطن صرعى بالرصاص فوق القتلى" (١).

(١) يوميات الحرب والانتفاضة. سابق: ١٥٣ - ١٥٧ و ١٥٧ - ١٨٥ على التوالي.

ويستمر في توثيقه لما شاهدته خلال يومي السبت والأحد (٢٩-٣٠ شعبان ١٤١١هـ/ ١٦-١٧ آذار ١٩٩١م) فيقول: "ليلة أخرى مرصعة بالقصف المدفعي وبأصوات الطائرات، ليلة بطولها لم تهدأ المدفعية لحظة واحدة وهي تضرب كل أحياء النجف، النجف كلها: نساءها ورجالها أطفالها وشيوخها هدفها، وتصبح على قصف أشد وعلى أصوات عشرات الطائرات المروحية والكل في بيته منتظر موته... وصوت مكبرات الصوت في مراكز المدينة بصوت أقبل من قبل القوات المسلحة: على جميع السكان مغادرة المدينة وعليهم الاتجاه إلى طريق كربلاء. وخلال ساعة واحدة... بدأت مسيرة النساء والأطفال ولشيوخ تسير تجاه طريق كربلاء، أكثر من خمسين ألف مواطن بين امرأة وطفل وشيخ ومريض غادر مركز المدينة... امرأة عجوز كسيحة محمولة على عربة يدوية وشيخ بصير يتوكأ على عكازة وتقوده امرأة... الكل يسير نحو الصحراء... وما زالت الصواريخ والقنابل تتساقط على المدينة... والماء منذ ثلاثة أيام مقطوع في كل من النجف والناس تنقل الماء الملوث من الحفر المبتوثة في الشوارع. تتجمع وتفرق على تلك الحفر وفقاً للقصف... قيل: إن القتلى بالآلاف بل يتجاوز المئات إلى الألوف... مشروع ذبح في كل لحظة من قبل قذائف الدبابات وإطلاقات الكلاشنكوف. إنه الموت دون دفن... إنه مسرح الذبح الذي يمارس في كل ساحة وشارع وفي كل بيت".

ويضيف عن مشاهداته في يوم الأحد فيقول: "هذا هو اليوم الرابع والنجف دون ماء والناس لا ماء ولا طعام ولا دخان والطائرات السمتية تجوب سماء النجف وترمي الصواريخ على البيوت بلا تمييز... صفقوا لها أيها الموتى حيث تركتم دون دفن... وأنتن أيتها النسوة وزغردن بأعلى أصواتكن ولا تشغلن هموم البحث عن أولادكن المظمورين والمقتولين لأنهم أحبوا هذا الوطن وأنهم

أرادوا أن يتنفسوا هواء نقيّاً... لقد قضي على التمرد أليس كذلك؟ إذن لماذا هذا القصف العنيف ليل نهار وعلى مدار الدقيقة من قبل الدبابات والطائرات والمدافع والهاونات... ألم توقف نظرة طفل وصرخة أم وكلمة شيخ هذه اليد التي تضغط على زناد المدفع أو الرشاش... أهكذا يحوّل الدم هذا الكائن الرقيق الذي يحب الورد، والمرأة إلى هذا الوحش الحديدي الذي يطحن اللحم والعظم ويشرب الدم ولم يشبع، وكلما التهم جثة طلب جثة وعاشت البطن المنتفخ المملوء بجثث النساء والأطفال والشيخ والشباب^(١).

اعتقال الإمام الخوئي ولديه وخاصته من المجتهدين وقتل عشرات الألوف من شيعة الوسط والجنوب الثائر

لقد تم خلال أيام الإبادة الجماعية في محافظات ومدن وأقضية ونواحي وسط وجنوب العراق "قتل عشرات الآلاف من الشيعة بشكل ممنهج، فدمرت الأماكن المقدسة والمراكز التعليمية التابعة للشيعة"^(٢)، وتحولت الكثير من مساحات محافظات جنوب بغداد إلى وسطه فشاله إلى مقابر جماعية كبرى، تضم عشرات الآلاف من الجثث، بمن فيهم الكثير من كبار رجالات الحوزة العلمية، من خاصة المرجع الأعلى السيد الخوئي الذين تجاوز عددهم المائة، وغيرهم من المجتهدين الكبار، والعلماء الأعلام، والأساتذة، والطلاب، بل تعدى جورهم ذاك إلى اعتقال المرجع الأعلى السيد الخوئي نفسه، ومعه ولدها فاقتادت سماحته "وقد ناهز الخامسة والتسعين من العمر تحت تهديد السلاح من بيت نجله الشهيد السيد محمد تقي في النجف الأشرف الذي كان مقرأً للقيادة الدينية والعسكرية للانتفاضة إلى

(١) يوميات الحرب والانتفاضة. سابق: ١٥٨ - ١٦١ و ١٦١ - ١٦٤. على التوالي.

(٢) الطائفية والحوكمة ومستقبل العراق. رانج علاء الدين. مركز بركنجز الدوحة: ٩.

بغداد صحبة ولديه الكريمين السيد محمد تقي الذي اغتيل في حادث مدبر لاحقاً والسيد إبراهيم مع جميع مساعدي السيد المرجع ومعهم العشرات من أفضل العلماء والأساتذة في الحوزة العلمية النجفية ليحتجزوا هناك ثم ليَجبر الطاغية المرجع الأعلى مع نجله السيد محمد تقي على إجراء مقابلة قسرية معه ثم ليقترف جريمة تنفيذ حكم الإعدام بالعلماء المعتقلين الباقين ودفنهم في مكان مجهول لم يكتشف موقفه حتى اليوم، بالإضافة إلى تنكيل صدام وزبانيته بالمرجع الديني السيد عبد الأعلى السبزواري وأنجاله وقد توفي سماحته بشكل يثير الريبة والتساؤل^(١).

لقد اعتقل مع سماحة المرجع الأعلى السيد الخوئي وولديه من المجتهدين وكبار العلماء كل من: سماحة المرجع الأعلى الخلف السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) أيضاً، والسيد رضي الخلخالي، والسيد مرتضى الخلخالي، والسيد إبراهيم الشيرازي، والسيد محمود الميلاني، والسيد عز الدين بحر العلوم، والسيد علاء الدين بحر العلوم، والسيد جعفر بحر العلوم، والسيد محمد رضا نجل المرجع الأعلى السيد الحكيم، وغيرهم.. وغيرهم الكثير، مما لا يسع المجال لاستعراض أسمائهم في هذا البحث، حيث اقتيدوا جميعاً مع كبار المجتهدين الآخرين مخفورين إلى بغداد.

كما تم اعتقال وتصفية (١٠٥) مائة وخمسة من المجتهدين من علماء الدين والطلبة في النجف الأشرف بتاريخ ٢٠ آذار (مارس) ١٩٩١ م، وهو ما وثقه الممثل الخاص للأمم المتحدة في تقريره.

"يقول المقرر الخاص للجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة (ماكس فان

(١) دور النجف في انتفاضة شعبان ١٩٩١ المرجعية الدينية مشاريع علم وعمل: ٦٢ - ٦٧.

شتويل) في تقريره عن الوضع في العراق بعد الانتفاضة الشعبانية ما نصه: (فما بين ١٩-٢٣ من آذار مارس ١٩٩١م) اعتقلت السلطات في النجف المرجع الديني آية الله العظمى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي البالغ من العمر (٩٥ عاماً) ومائة وخمسة (١٠٥) من عائلته ومريديه.

وفي كانون الثاني-يناير من العام نفسه حاول المقرر الخاص مرة أخرى الضغط على الحكومة العراقية للحصول على معلومات عن المعتقلين وسلّم شخصياً إلى نائب رئيس الوزراء طارق عزيز قائمة حديثة لمائة وخمسة (١٠٥) من المختفين من مريدي آية الله العظمى التي قالت عنهم مؤسسة الخوئي إنهم اعتقلوا واختفوا منذ اندلاع الانتفاضة، ولم يتسلّم المقرر الخاص أي جواب من الحكومة العراقية بعد مضي خمسة أشهر^(١).

سماحة المرجع الشيخ الفياض يروي عن الشهيد السيد محمد تقي الخوئي تفاصيل ما جرى خلال الاعتقال

لقد حدثني سماحة المرجع الشيخ إسحاق الفياض خلال تشرفي بزيارة سماحته في مكتبه في النجف الأشرف بحضور نجله الكبير سماحة الشيخ محمود الفياض وأخي سماحة السيد علاء الحكيم، وذلك مساء يوم الجمعة (١١ رمضان ١٤٤٥ هـ/ ٢٢ آذار ٢٠٢٤م) ناقلاً (دام ظله) عن سماحة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي قوله بالمعنى وأنا أنقله عنه بالمعنى أيضاً.

قال: (بعد اعتقال سماحة المرجع الأعلى واعتقالي معه نقلنا إلى فندق السلام في النجف الأشرف على الطريق الرابط بين النجف و كربلاء، وأدخلونا

(١) عذاب بلا نهاية. انتفاضة آذار ١٩٩١ م في العراق وما أعقبها من الكوارث. مراجعة د. عبد الصاحب الحكيم. ص: ١١٣. الهامش. نقلاً عن: تقرير عن حالة حقوق الإنسان في العراق. ماكس فان شتويل. ص: ٣٦.

على قاعة كبيرة مملوءة بأصحاب الساحة من المجتهدين وكبار العلماء والفضلاء وأجلسونا معهم.

ثم دخل علينا المجرم طه ياسين رمضان مسؤول قاطع النجف الأشرف فلم يسلم وطلب تعريفه بالحضور واحداً واحداً. حتى إذا انتهى من استعراضهم والتعرف على أسمائهم اسماً اسماً، قال لمرافقيه نفذوا حكم الإعدام بالجميع.

فأخبره أحد مرافقيه من كبار الضباط بأن التعليمات تقضي باستثناء المرجع سماحة السيد الخوئي كي يسفر معتقلاً إلى بغداد ليُدخل على صدام. فرفض سماحته الذهاب إلى بغداد إلا بصحبة نجله السيد محمد تقي فوافقوا على طلبه.

وهكذا سفر سماحته ونجله إلى بغداد. ولما وصلوا بغداد تم إبعاد نجله السيد محمد تقي عن أبيه أول الأمر ثم جاؤوا به إليه لاحقاً فباتا سوياً في المعتقل.

ومذ اضطلع سماحة المرجع الأعلى على السرير حتى غط في نوم عميق، وبقي السيد محمد تقي مستيقظاً حتى الصباح. وحين وصل سماحة المرجع الشيخ الفياض إلى هذا الموضع من حديثه معي، عقّب على ذلك قائلاً: عجيب مزاج السيد الخوئي، لم يكذب يستلقي على الوسادة حتى ينام.

ثم استمر سماحة المرجع الفياض في سرد ما سمعه من سماحة السيد محمد تقي فقال: (دخل علينا أحد المسؤولين وتوجه بالسؤال إليّ قائلاً: (هل عرفتنى؟) فأجبته: (كلا). قال: (أنا جارك في النجف وكل ما يحدث عندكم كان يدون يا سيد محمد تقي).

ثم دخل علينا في الصباح أحد كبار المسؤولين الأمنيين ليستجوب سماحة السيد المرجع الأعلى طالباً توجيه بعض الأسئلة لسماحته. فقال له سماحته: (اكتب أسئلتك وأنا أجيب عنها). فكتب أسئلته، وأجاب عنها سماحته.

يقول الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: (ثم أبعدوني عن والدي ففتشوني تفتيشاً دقيقاً وأخذوا كل ما كان معي من حاجيات وأشياء ولم يفتشوا والدي المرجع، ثم جمعوني بوالدي وأدخلونا سوياً على صدام).

فقال صدام لوالدي بعد أن أمسك يده: (أنت بريء ولا شيء عليك، ولكن المشكلة في أولادك). فطلب منه والدي: (أن يطلق سراح جميع المعتقلين). وهكذا انتهى اللقاء الذي كان قصيراً.

(ثم أخذوني -والكلام للسيد السيد محمد تقي- إلى غرفة دخل علي فيها كبير ضباط الأمن والمخابرات ويده رزمة كبيرة من الأوراق فسألني: (هل هذه صادرة منكم؟ وهل هذه أختامكم؟ ولما كانت كلها صحيحة قلت له: (نعم)).

بعد ذلك صدرت الأوامر بأن نرجع رفقة جلاوزتهم إلى النجف. (ولما وصلنا إلى كربلاء علم الجلاوزة أن ثوار الانتفاضة لا زالوا يقاومون قوات النظام، وأن دخول النجف غير ممكن. فطلبنا منهم أن نبقي في بيت لنا بكربلاء، فرفضوا لأن الأوامر هي أن يوصلونا إلى النجف، ما استدعاهم إلى إرجاعنا إلى بغداد ثانية، ثم عادوا بنا إلى النجف لاحقاً).

١١ مشاهداتي الشخصية عن معتقل الرضوانية إثر الانتفاضة الشعبانية

لا زلت أذكر كما لو كنت أعيش تلك اللحظات الحية المؤلمة الموجهة لحظة بلحظة كيف أني نقلت من سجن أبي غريب/ ق ٢ من سجن الأقسام الخاصة المغلقة المليء بسجناء الرأي، إلى معتقل الرضوانية سيئ الصيت بعد الانتفاضة، ومعني قسم من كبار أرحامي، وفي مقدمتهم المرجع الديني سماحة السيد محمد سعيد

الحكيم للتحقيق معنا، وكان المعتقل غاصاً بالمعتقلين المؤمنين المعذبين في ظرف يصعب إدراك شدته وقساوته إلا لمن ابتلى به، أو قاسى ويلاته، أو عاش مواجهه وفواجهه، أو صبر على شتم أئمه وأوليائه، أو غص الطرف عن شتمه وسبه وسب آبائه وأجداده وأمهاته وذويه من غبر منهم ومن حضر، أو اكتوى بلفح ناره، أو تلوى على سياط جلاديه، أو.. أو.. أو، ولا أقول أكثر من أن الوضع حينها كان لا يطاق، ولا يصدق لو قيل، ولا يتصور، ولا يحتمل، و﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، و﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، و﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١). والحمد لله على كل حال.

الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة يوثق وضع الشيعة والعلماء القاسي أمام مجلس الأمن الدولي

نظراً للانتهاكات الفظيعة لحقوق الإنسان بما قد يصعب تصديقها على غير معاشيه تلك الآونة فسأكتفي بما وثقه أُمياً المقرر الخاص لحقوق الإنسان السيد ماكس فان دير شتول وشهد به ودونه سواء في كلمته أمام مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة، أم في تقاريره الخاصة عن وضع الشيعة المأساوي في العراق.

أما حديثه أمام مجلس الأمن الدولي فقد جاء فيه بتاريخ (١٣ صفر ١٤١٣هـ/ ١١ آب ١٩٩٢م) ما نصّه: "يجب أن أعبر عن قلقي العميق حول معاملة رجال الدين الشيعة بعد الانتفاضة في الجنوب في ربيع العام الماضي. إن كثيراً منهم

(١) سورة البقرة: آية: ١٥٦. وسورة الطلاق: آية ٣. وسورة هود: آية: ١١٥، وسورة آل عمران: آية: ٢٠٠، وسورة البقرة: آية: ١٥٣.

معتقلون، وقد بذلت جهوداً للحصول على معلومات عن مصيرهم من الحكومة العراقية دون جدوى. إن معاملة الحكومة العراقية للمعتقد الشيعي ظهرت بوضوح بعد وفاة آية الله أبو القاسم الخوئي، حيث منعت الحكومة مقلديه من المشاركة في تشييعه ومراسيم الدفن حيث من المتعارف أن آلافاً من الشيعة يشاركون في تشييع جثمان زعيمهم الديني. ولم تسمح سوى لستة مساعدين وشخص واحد من الأسرة بحضور مراسيم الدفن التي أجريت فجراً، كما منعت الحكومة عائلة الراحل من حقها في إقامة مجلس الفاتحة... إلخ" (١).

ممثل الأمين العام للأمم المتحدة يوثق في تقريره المطول السياسة التمييزية القمعية لشيعة العراق



وأما ما أثبتته المقرر الخاص لحقوق الإنسان الأممي في تقاريره عن وضع الشيعة في العراق، فهو ما لا يسعني ذكره كله لضيق المساحة المخصصة في هذا الكتاب عن استيعابها كلها، إلا أنني سأستعرض أنموذجاً منها، على الرغم من طوله لأهميته، حيث جاء في تقريره ما نصه: "ومنذ تقديم هذه التقارير، لا يزال المقرر الخاص يتلقى معلومات تشير إلى استمرار قيام الحكومة العراقية بتطبيق السياسات التمييزية والقمعية بصفة منتظمة على أتباع هذا المذهب الإسلامي. لا سيما على أعضاء ومنشآت مؤسسته الدينية. بل إن التدابير القمعية ضد الاقليات الإثنية لطائفة الشيعة، مثل الأكراد الفيليين، وعرب الأهوار، والتركمان الشيعة، كانت أشد ضراوة في أحيان كثيرة. وفيما يتعلق بالممتلكات المادية لطائفة الشيعة" (٢).

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي. مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية: ٨٢-٨٣.

(٢) المصدر نفسه: ٨٤ وما بعدها.

تدمير وتدنيس العتبات المقدسة والمساجد والحسينيات وإتلاف الكتب والمكتبات خلال وبعد الانتفاضة الشعبانية



لقد "أشار المقرر الخاص من قبل في تقاريره السابقة إلى تدنيس وتدمير مقامات مقدسة للشيعة. وبينما تم بشكل رئيس ترميم أشهر هذه المقامات، لا سيما مقام الإمام الحسين ومقام الإمام علي، رفضت الحكومة فعلاً إعادة بناء عدد كبير من المساجد الأخرى، والمكتبات والحسينيات (وهي مراكز دينية للمجتمعات المحلية سميت باسم الإمام الحسين، تيمناً بأعظم أئمة الشيعة تبجيلاً). وقيل إن الحكومة قابلت العروض التي قدمتها طائفة الشيعة لتوفير الأموال اللازمة لإعادة بناء الممتلكات المهدمة، إما بالرفض، وإما بوضع شروط مهينة للموافقة عليها. فمثلاً تطلب الموافقة المشروطة، التي أعطيت لطلبات قليلة جداً لإعادة بناء الحسينيات التالفة أو المدمرة، أن يعاد بناؤها دون أدنى إشارة أو بيان، إلى أنها من الحسينيات وذلك لتجريدها من هويتها المحددة كمراكز شيعية للتعليم والعبادة"^(١).

ويضيف مقرر الأمين العام للأمم المتحدة وتفيد التقارير بأن الحكومة قامت في معرض منع أو عرقلة جهود الطائفة في هذا الشأن بطرح مواقع كثيرة للبيع بالمزاد العلني وشجعت المقاولين المحليين على استخدام الأرض لبناء الأسواق التجارية أو لأغراض تجارية أخرى. ويدعى أن مقامات ومراكز تعليمية أو مراكز عبادة أخرى حولت إلى مكاتب لوكالات حكومية مختلفة، ومراكز للشرطة ودوائر الأمن، بل إنها استخدمت أحياناً كمراكز احتجاز. والواقع أنه لم يصرح إطلاقاً بإعادة فتح المعهد الديني الوحيد في مدينة النجف المقدسة، وهو كلية الفقه،

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٨٤ وما بعدها.

كأكاديمية أو مركز للتعليم منذ انتفاضة آذار (مارس) ١٩٩١ م. ويقال إن قاعات الدرس فيها تستخدم كحوانيت ومخازن تجارية عامة للوالم المنزلية. ويقال إن مؤسسات أخرى للتعليم العالي تعاني من قيود على مناهجها التعليمية. يقال في الوقت نفسه، إن الحكومة تنقل سندات ملكية وإدارة حسينية مختلفة (تبلغ وفقاً للتقارير عدة آلاف في جميع أرجاء القطر) وممتلكات أخرى للشيعية، إلى وزارة الأوقاف والشؤون الدينية التي تقوم عندئذ بتغيير أسمائها، ووظائفها المحددة، وهويتها الأساسية. وقد استمر ورود تقارير بشأن تدمير ممتلكات الشيعة منذ انتفاضة آذار مارس (١٩٩١ م) أو في أعقابها. ويقال إن مرقد الشيخ الكيلاني في سوق النهر في بغداد، ومرقد ابن طاووس في الحلة قد هدماً^(١).

يذكر أن بعض المؤمنين الحريصين على سلامة الكتب والمكتبات سعوا بجهود فردية مخصصة على إخراج قسم منها من دائرة الخطر.

يقول الشيخ إحسان الفضلي: "عند دخول الجيش العراقي أبان الانتفاضة الشعبانية بدأت عمليات السرقة من قبل الجنود للمنازل الفارغة، وكان مكتب زعيم الحوزة العلمية السيد الخوئي يحتوي على أموال الخمس ورواتب طلبة الحوزة العلمية والوثائق والأختام، فكانت معرضاً للسرقة من قبل الجنود، خصوصاً بعدما تم اعتقال سمّاحته عليه السلام من قبل أزام النظام عنوة إلى بغداد.

وحينذاك لم تكن السيارات أو التليفونات متوفرة، ولا يستطيع أحد الخروج، لأنه سوف يُعتقل، وبهكذا ظروف صعبة وقاهرة رأيتُ الشيخ شريف كاشف الغطاء عليه السلام يرتدي ملابس الحمالين - وهو الوجه الوقور وصاحب الشيبة المحترمة - ويدفع عربانة حمّالين، فصُدمتُ من المنظر، أهذا شيخ شريف؟!!

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي. سابق: ٨٤ وما بعدها.

فسلمت عليه وقال لي: ناد لي جدك، وهو ساحة آية الله الشهيد السيد محمد رضا الحكيم (طاب ثراه). فناديته له. فدخل وتحدث معه وقال: خفت على أمانات المرجعية، فاتفقت مع السيد محسن الخوئي الذي كان في البراني وادّعت أنني حمّال وأدفع عربانة، وقمت بنقل الأموال والوثائق إلى مكان آمن. وأمسك بي الجنود مستفهمين عما أقوم به، فأخبرتهم بأنني حمّال، ورزقي يومي، وأعمل لأعيش، فتخلصت منهم. ونجح الشيخ بذلك في حماية ممتلكات المرجعية الدينية^(١).

١٥ اعتقال الكثير من كبار العلماء وتهديد أسر قسم منهم بالتسفير

ولم يقتصر أمر اعتقال وتصفية الأسر العلمية الحوزوية على من وما تقدم ذكرهم، بل تم اعتقال الكثير الكثير من رجالات الأسر العلمية، النجفية، والعراقية المناضلة الأخرى، مما يصعب تعداد أسماء هذه الأسر الكريمة في هذا المختصر، من أمثال العلماء الشهداء من السادة آل الصدر، والسادة آل بحر العلوم، والسادة آل الخوئي، والسادة آل المرعشي، والسادة آل شبر، والسادة آل الخرسان، والسادة آل الخلخالي، والسادة آل الميلاني، والسادة آل المبرقع، والسادة آل القبانجي، والسادة آل الشيرازي، والسادة آل الميلاني، والسادة آل الحلو وغيرهم كثير، وهو ما أشار إليه المقرر الأممي في تقريره بقوله: "ولا يزال رجال الدين وعلماء الشيعة يتواجدون بكثرة في مدينتي كربلاء والنجف المقدستين، مضارين بشدة لاختفاء (١٠٥) من علماء الدين والطلبة وأسره أثناء الاحتجاز، ومعروف أنه أُلقي القبض عليهم في (٢٠ آذار مارس ١٩٩١ م) مع المرحوم آية الله العظمي أبو القاسم

(١) ينظر: <https://bit.ly/٣vtZSh٦>

الموسوي الخوئي. وقد أشار المقرر الخاص بقلق شديد من قبل إلى أن التقارير التي تلقاها تدعو إلى الاعتقاد باحتمال تعرض هؤلاء الأشخاص لسوء معاملة وتعذيب شديدين. وإزاء استمرار إنكار الحكومة العراقية احتجازهم، فإن الخوف على مصيرهم بعد إلقاء القبض عليهم لا يزال كبيراً، أما الآثار الضارة التي لحقت بأسرهم وأتباعهم فهي عميقة. وفي الأشهر الأخيرة، علم المقرر الخاص أن السلطات العراقية هددت، على ما يبدو، بترحيل أسر رجال الدين المقبوض عليهم وأسر الغائبين، وأرسلت إشعارات إلى عدة أسر بوجوب مغادرة القطر في موعد غايته (٢٠ رمضان ١٤١٤هـ / ٢ آذار مارس ١٩٩٤م).

وفما يتعلق برجال الدين وعلماء الشيعة الذين بقوا في العراق، لا تزال التقارير ترد عن مضايقتهم والتدخل في شؤونهم (...). إذ تفيد التقارير، مثلاً، بأن الحكومة قامت بالقوة، بإغلاق المدخل الرئيس لمسجد الخضراء في النجف الذي يؤدي فيه آية الله العظمى السيستاني الصلاة وبذلك منعت وصول الجماهير إليه أثناء تأديته لإحدى أهم الشعائر الدينية^(١).

١٦ حظر طباعة وتوزيع (الرسائل العملية) للفقهاء

وقال المقرر الأممي الخاص في تقريره أيضاً: "إن أكثر أشكال التدخل تطفلاً وإساءة وغدراً، هو الحظر الذي فرضته الحكومة، وفقاً للتقارير، على نشر وتوزيع تفسير آية الله العظمى السيستاني لرسالة الأحكام العملية (الدليل العملي لتأدية الشعائر اليومية والموسمية مثل الصلاة والصيام والوضوء وما إلى ذلك. الذي يحتوي على الفتاوى الدينية لآية الله العظمى) الذي يعتبر الكتاب والمرجع الرئيس لأتباعه^(٢).

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٨٤ وما بعدها.

(٢) يقصد بذلك (منهاج الصالحين) و (المسائل المنتخبة) وأمثالها.

وعلى ذكر منع طباعة ونشر وتداول الكتب التي تحتوي على الأحكام الشرعية الخاصة بالمكلفين والمعروفة باسم (الرسائل العملية) فقد تم حظر تداول كتابي المعنون بـ (المسائل الميسرة) وفق فتاوى سماحة المرجع الأعلى السيد الخوئي المكتوبة نسخته الأولى بخط اليد والمصورة والمكثرة نسخته بأجهزة الاستنساخ نتيجة لعدم السماح بطبعته في المطابع. ومع ذلك فقد كانت السلطات تداهم المكتبات والبيوت التي توزعه سرّاً وتلاحق الأشخاص الذين يتولون أمر بيعه من سوق إلى سوق ومن شارع إلى شارع في النجف الأشرف وفي بغداد وبقية المحافظات الأخرى.

"ويرى المقرر الخاص أن التدخل في مثل هذه المؤلفات البسيطة، وإن تكن مهمة، لا يشكل فقط انتهاكاً للمادة (١٨) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، ولكنه يشكل أيضاً انتهاكاً للمادة (١٩) المتعلقة بحرية المعلومات. إن الطبيعة الغادرة لهذا الحظر بالتحديد تكمن في منع الاتصال الفعلي بين الزعامة الدينية والشعب على حساب تنمية المجتمع"^(١).

انتهاك الحقوق المدنية والسياسية للشيعية ومعتقداتهم وشعائهم

وأضاف المقرر الخاص للأمم المتحدة إلى ما تقدم قوله: "وبينما استمر تدخل الحكومة، وفقاً للادعاءات، في المؤسسات المادية والاجتماعية الأساسية لبنية الطائفة الدينية والمحافظة عليها، فإن تدخلها استمر أيضاً، انتهاكاً للمادة (١٨) من العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، في الممارسات الجوهرية لمعتقدات الشيعة وشعائهم. وتحديداً، تفيد التقارير بأن حرية العبادة كتأدية الصلاة أصبحت جريمة من الجرائم، واضطر آلاف الأتباع لتأدية الصلاة في مجموعات صغيرة

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٨٤ وما بعدها.

وبشكل سري خوفاً من اكتشاف أمرهم. وفي السياق نفسه، منع مرة أخرى، في السنة الماضية، الاحتفال العام بذكرى استشهاد الإمام الحسين، وهو ركن أساس من الحياة الدينية للطائفة الشيعية الذي يتم خلال عاشوراء وفي أوقات أخرى. كما منع تقليد إعداد الطعام وتوزيعه خلال شهر محرم الحرام. وبالمثل، منع تشكيل (المجالس) للاحتفال بذكرى استشهاد الإمام الحسين في كربلاء (هذه اللقاءات تتم في جميع أرجاء العراق منذ عدة قرون للاستماع إلى رواية بسيطة لسيرة الإمام)^(١) الحسين وقصة مقتله ومصرع أهل بيته وأصحابه وسبي نسائه (صلوات الله عليهم أجمعين) خلال مجالس عاشوراء.

وأضاف المقرر الأممي الخاص: "ويقال أيضاً إنه فرض الحظر (سراً وعلانية) على تجمعات ومجالس تقليدية أخرى للاحتفال بذكرى وفيات أئمة آخرين مثل مجلس الإمام موسى الكاظم في حي الكاظمية في بغداد. وعلم المقرر الخاص كذلك أنه نتيجة لإغلاق كلية الفقه في النجف كان على طلبة أصول الدين والفقه الشيعي أن ينتقلوا إلى كلية الشريعة في بغداد حيث تقدم دروس في فلسفة الشيعية وفقههم. ويقال أيضاً إن الوصول إلى مجموعات مهمة من كتب الشيعية الموجودة في المكتبات والجامعات (مثل المكتبة الوطنية ومكتبة الأكاديمية العراقية، ومكتبة الأوقاف في بغداد) أصبح ممنوعاً وذلك بسحب الكتب الشيعية التقليدية من التداول أو بفرض حظر دائم عليها. كذلك، تفيد التقارير التي وردت إلى المقرر الخاص بأن أكثر من ألف من الكتب الدينية تعتبر غير مشروعة في العراق. والشائع أيضاً أن الحكومة استغلت احتكارها لوسائل الإعلام، في مهاجمتها لعقيدة الشيعية وطائفتهم، ومواصلة حملة تضليل وسخرية وإذلال ترمي إلى زعزعة الثقة بالشيعية

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٨٤- وما بعده.

ومعتقداتهم. فمثلاً، في عدد (٢١ حزيران يونيو ١٩٩٣) وفي صحيفة بابل (التي يشرف عليها عدي، ابن صدام حسين)، أعلن أنه سيعقد حفل زواج جماعي في (الأول من تموز يوليو ١٩٩٣ م) وأنه سيقدم إلى جميع الذين يرغبون في الزواج مجاناً ما يأتي: (حفل في نادي الصيد العراقي، ومأدبة عشاء المدعوهم، وأزياء للأزواج وفساتين زواج للزوجات، وفرقة موسيقية بمطربين مشهورين، وسيارة لكل زوجين لأغراض الحفل، وليلة في فندق المنصور). وذكر الإعلان بعد ذلك أنه (يمكن الحصول على مزيد من المعلومات عن طريق اللجنة الأولمبية العراقية (التي يرأسها عدي صدام حسين)، وأنه يمكن الاستعلام عن طريق صوت الشباب في محطة إذاعة دار السلام (التي يشرف عليها عدي أيضاً))^(١).

كما "أذيعت قصة حفل الزواج الجماعي والاحتفالات التي أُقيمت نتيجة لذلك في قناة التلفزيون الدولية بتاريخ (٢ تموز يوليو ١٩٩٣ م). بيد أن ما فات قناة التلفزيون المذكورة في الواقع، ولم يكن خافياً على الملايين من الشيعة في جميع أرجاء العالم، هو أن يوم (١ تموز يوليو ١٩٩٣ م) وافق يوم عاشوراء الذي ينعى فيه جميع الشيعة استشهاد الامام الحسين الذي اعتاد فيه العراقيون الآخرون على إبداء احترامهم بالامتناع عن اقامة الاحتفالات. فاذا تركنا جانب الإذلال الذي يبدو أن هذا العمل كان يرمي إليه بوضوح، ويصرف النظر عن الاستخدام المعيب للموارد التي استهلكها قطعاً مثل هذا الاحتفال، في وقت يعاني فيه الشعب، فإنه ينبغي أيضاً النظر إلى استخدام وسائل الاعلام في سياق الحظر الفعلي المفروض على البرامج الدينية للشيعة في التلفزيون والراديو"^(٢).

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٨٤ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ٨٤ - ٨٨.

الشهيد السيد محمد تقي الخوئي يوثق جرائم البعث برسائل سرية خاصة



وإذا كان المقرر الخاص لحقوق الإنسان الأممي السيد ماكس فان دير شتول قد أشار إلى تهديم المؤسسات الدينية الشيعية، ولم يسمها، فقد ورد أساء بعضها، وخاصة المدارس الدينية المهذومة، والمكتبات العامة المنهوبة وغيرها، في رسائل سرية خاصة بعثها الشهيد السيد محمد تقي الخوئي من النجف إلى أخيه الشهيد السيد عبد المجيد الخوئي جاء في بعضها: "الوضع العام سيئ ويسير إلى الأسوأ. مدرسة دار الحكمة نسفت، ومدرسة القزويني حرق، ومدرسة المهدي أصبحت مقراً للجمعية الاشتراكية، ومكتبتنا في دار الحكمة ومكتبة السيد الحكيم نهبتا تماماً بما في ذلك المخطوطات القيمة، وكذا الحال في بقية المدارس الدينية حيث لم يبق فيها سوى الطابوق (...) ويقال إن مدرسة سامراء أيضاً سويت بالأرض (...). أغلب الحسينيات في كربلاء بما فيها حسينية السيد-الخوئي - نسفت (...) يقدر عدد معتقلي الجنوب والفرات بمائة وخمسين ألفاً، بينهم حوالي (١٥ ألفاً) تقريباً من النجف وحدها، جميعهم في مقر الأمن القومي ببغداد (منطقة الرضوانية). الدبابات موجودة حول الصحن الشريف والدخول إليه ممنوع، وأكثر مقابر وادي السلام سويت مع الأرض، الدفن هناك ممنوع، وتستخدم الحكومة الديناميت لهدم القبور، ولعل الحال في كربلاء من هذه الناحية أشد من النجف"^(١).

يقول الشهيد السيد محمد تقي الخوئي في رسالة سرية أخرى: "منعت الحكومة هذه السنة إقامة المجالس نهائياً حتى مجالس النساء واعتقلت بعض أهل العلم لإقامتهم مجلساً صغيراً وخاصاً في بيتهم، وفي قبال ذلك أعلنت جريدة الجمهورية

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٩٣-٩٤.

في عددها (٧٩٣٧ الإثني ٢٢ تموز ١٩٩١م) عن إقامة "أمسية غنائية في كربلاء في قاعة مركز شباب كربلاء والدعوة عامة للجميع في يوم ٢٤ تموز".

ومن الجدير بالذكر أنه يصادف يوم دفن الحسين عليه السلام كما أقدمت على غلق مداخل كربلاء يومي تاسوعاء وعاشوراء، وردّت السيارات التي اتجهت إلى كربلاء، أما بالنسبة إلى الحسينيات فعمليات الهدم مستمرة خصوصاً في كربلاء حيث لم تبقَ ولا حسينية واحدة إطلاقاً بما فيها مدرسة السيد البروجردى، والحسينية التي لا يمكن تفجيرها تحال إلى المزاد العلني لبيع الأنقاض، والناس همج رعاع، وهذه الحالة جارية بالنسبة لبعض حسينيات بغداد أيضاً، أما سامراء فقد سويّ الموجود بالأرض^(١).

وفي نص رسالة أخرى بعثها سماحته إلى الحاج الوجيه كاظم عبد الحسين في الكويت بتاريخ (٢٠ شعبان ١٤١٢هـ / ٢٤ شباط ١٩٩٢م) يستعرض فيها سماحة السيد محمد تقي الخوئي الحاجة الماسة للمواطنين العراقيين وخاصة "الفقراء والمحتاجين - حيث - المشكلة تكمن في الغلاء الفاحش الذي استولى على كل شيء بما في ذلك الضروريات التي لا غنى لأحد عنها، فقد تضاعف سعر الطحين لأكثر من سبعين ضعفاً، وسعر الرز أربعين ضعفاً، والسكر مائة ضعف، والدواء الضروري لخمسین ضعفاً. ناهيك عن مثل اللحم الذي بات لا يدخل أكثر البيوت حتى في الشهر مرة، وأنتم أعرف بما يستتبع الفقر والحاجة من مأس ومشاكل أخلاقية واجتماعية وغيرها، علماً بأن رواتب الموظفين الذين يمثلون الشريحة العامة في المجتمع لا يتجاوز في أحسن أحوالها مائتين وخمسين ديناراً، والكل يدفع ضريبة ظالم لا حول لهم تجاهه ولا قوة، وأقصى الحالات هي حالة العوائل التي

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٩٦.

فقدت معيّلها، سواء الذين طمرتهم السجون أو الذين شردوا إلى الخارج فبقيت عوائلهم بلا وال. والمشتكى إلى الله وحده... فإن شئت المساهمة في ذلك، وكانت ظروفكم تسمح بذلك، فلكم الشكر والأجر إن شاء الله" (١).

المقرر الخاص للأمن العام للأمم المتحدة يوثق معاناة العلماء وخاصة نجل المرجع الأعلى سماحة السيد الخوئي

١٩

بعد أن وثّق السيد ماكس فان دير ستويل أمام مجلس الأمن الدولي في (١٣ صفر ١٤١٣ هـ / ١١ آب ١٩٩٢ م) قسماً من معاناة الشيعة القاسية كما تقدم. عاد فأرسل المقرر الخاص لحقوق الإنسان رسالة إلى وزير الخارجية العراقي في (١١ ربيع الثاني ١٤١٣ هـ / ٧ تشرين الأول أكتوبر ١٩٩٢ م) وثّق فيها احتجاز السيد محمد تقي الخوئي، وقبله من اعتقال العشرات من علماء وطلبة العلوم الدينية من خاصة المرجع الأعلى سماحة السيد الخوئي مشيراً إلى قلقه البالغ على سلامته وسلامتهم بقوله: "لقد لفت انتباهي مؤخراً أن السيد محمد تقي الخوئي ابن المرحوم آية الله العظمى الخوئي قد احتجز لبضع ساعات من قبل موظفي الحكومة العراقية في ٢٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٢. ووفقاً للمعلومات الواردة، طلب موظفو الحكومة العراقية من السيد الخوئي أن يدلي بتصريحات علنية معينة، وأن يقوم بزيارة تقدير للرئيس صدام حسين في بغداد، وذكر أن تلك المطالب كانت مصحوبة بالتهديدات والتخويف من جانب موظفي الأمن العراقيين (...). معطوفاً على ذلك استمرار اختفاء ما يزيد على ١٠٠ من كبار العلماء الموالين للمرحوم آية الله العظمى الذين اعتقلوا في النجف في نيسان (إبريل) ١٩٩١ م (...). إن هذه التقارير تسبب لي الكثير

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٩٨.

من القلق على سلامة السيد الخوئي الشخصية، وسلامة الآخرين من الموالين للمرحوم آية الله العظمى المقربين.. يجب أن أعبر عن قلقي العميق حول معاملة رجال الدين الشيعة بعد الانتفاضة في الجنوب في ربيع العام الماضي، إن كثيراً منهم معتقلون، وقد بذلت جهوداً للحصول على معلومات عن مصيرهم من الحكومة العراقية دون جدوى^(١).

وقد تحقق فعلاً قلق المقرر الخاص لحقوق الإنسان عليه، وعلى حياة كبار العلماء المعتقلين قبله، بل قلق جميع من يعرفونهم ويعرفونه من المراجع والمجتهدين والطلبة والمؤمنين، فقد استشهدوا جميعاً، ودفنوا في مقابر جماعية لم يعرف مكانها لليوم، كما تم نصب كمين للسيد محمد تقي الخوئي ورفاق دربه الحسيني كل من السيد محمد أمين الخلخالي، وطفله محمد الخلخالي ذي السنوات الست، وسائقه، على الطريق العام بين كربلاء والنجف بواسطة شاحنة كبيرة مطفأة الأنوار كي لا ترى من الجهة المعاكسة، أعدت وهيئت بانتظار قدوم سيارته لتسحقها، وليتم إشعال النار فيها، فيستشهدوا جميعاً في (١٢ صفر ١٤١٥ هـ - ٢٢ تموز ١٩٩٤ م).

كما تم اعتقال الكثير من المجتهدين الآخرين، وكبار العلماء، والفضلاء، والخطباء، والوجهاء، والشيوخ، والشباب المؤمن، على الظن والتهمة، كما تقدم.

١. توثيق لبعض انتهاكات النظام البائد لحقوق الإنسان في العراق بحق رجالات الحوزة العلمية.

لقد سعى الأخ الكبير السيد الدكتور صاحب الحكيم مقرر حقوق الإنسان في العراق إلى توثيق جرائم النظام البائد بحق المراجع والمجتهدين والعلماء في الحوزات

(١) نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السيد محمد تقي الخوئي: ٨٣.

العلمية في العراق فأصدر موسوعته الثرية تحت اسم (موسوعة عن قتل واضطهاد مراجع الدين وعلماء وطلاب الحوزة الدينية لشيعة بلد المقابر الجماعية (العراق) ١٩٦٨-٢٠٠٣م) بطبعتها الأولى الصادرة في شهر (ذي القعدة ١٤٢٦هـ/ كانون الأول ٢٠٠٥ م)، وذلك بعد جهد جهيد وسعي حثيث وعمل دؤوب استمر لأكثر من عشرين عاماً وثق فيه ما استطاع توثيقه والحصول عليه منها بالتواريخ والأرقام والأدلة والبراهين مع صور للضحايا وغير ذلك كثير.

كما نشرت مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية كتاباً باسم (أزمة شيعة العراق) احتوى في نهايته على جداول وإحصائيات لثلاث نماذج من انتهاكات حقوق الإنسان في العراق تخص الحوزة العلمية.

أولها: قائمة بأسماء ومحل إقامة وتاريخ الإعدام والمستوى العلمي لمائتين وأربعة عشر حوزوياً من علماء الدين وطلبة العلوم الدينية ممن أعدمهم النظام البائد في العراق ختمت بملاحظات عن كل شهيد منهم.

ثانيها: قائمة بأسماء مائة وعشرة من المفقودين الذين لم يعثر لهم على أثر من علماء الدين وطلبة الحوزة العلمية بعد قمع الانتفاضة الشعبانية سنة ١٩٩١م، ولم يعلم مكان دفنهم حتى الآن، مع ذكر محل إقامة كل منهم قبل الاعتقال وتاريخ اعتقاله، ملحقة بملاحظات عن مستويات كل منهم العلمية.

ثالثها: قائمة بأسماء أربع وستين مدرسة حوزوية جرى تهديمها أو الاستيلاء عليها مع بيان لموقع المدرسة الدينية المستهدفة وتاريخ تأسيسها ملحقة بملاحظات عما فعله النظام البائد بها^(١).

(١) لمزيد من الاطلاع: تنظر: موسوعة الدكتور السيد صاحب الحكيم. وكتاب: أزمة شيعة العراق: ١٤١ -

١٥٢ و ١٥٣ - ١٥٦ و ١٥٧ - ١٦٠. على التوالي.

٢. الإعدامات ذات الطبيعة السياسية والطائفية ودفناء المقابر الجماعية

تعد العقود الزمنية التي استولى فيها النظام الدكتاتوري البائد على الحكم في العراق أسوء العقود التي مرت على الشعب العراقي في العصر الحديث وخاصة في عدد الشهداء الذين لا قوا حتفهم بسبب "عمليات الإبادة الجماعية للشيعية والأكراد وعمليات التطهير العرقي الذي طال عشرات الآلاف من الأقليات الذين يعيشون في مناطق تقع شمال العراق، والإعدامات الجماعية ضد الأكراد والشيعية المتفضين في عام (١٩٩١م) إضافة إلى اغتيال كبار رجال الدين الشيعة وأبنائهم وتعذيب عوائلهم في غياهب السجون، فضلاً عن تهجير أكبر سلسلة بشرية في سبعينات القرن الماضي ونقلهم بعجلات عسكرية ورميهم على الحدود بسبب انتماهم المذهبي.

وتابع رئيس جهاز الأمن الوطني قائلاً: "إن التحقيق جار مع متهمين بإعدام ودفن آلاف المواطنين من المعارضين للنظام البائد وغير المعارضين خصوصاً من الطائفة الشيعية في عقود السبعينات والثمانينات والتسعينات والتي ترقى إلى جرائم الإبادة الجماعية"^(١).

وكأنموذج على مدى استهانة رئيس النظام البائد ونجله بسفك الدم العراقي فسأنقل ما كشفه المجرم خالد الجنابي أحد ضباط مخابرات صدام الذي تدرج في عدة مناصب حساسة في أجهزته الأمنية لكنه هرب إلى الأردن فيما بعد لأنه أحس بقرب تصفيته من قبل النظام. لقد كان خالد الجنابي أحد أعضاء لجنة

(١) عبد الكريم عبد فاضل رئيس جهاز الأمن الوطني في حديث لصحيفة الصباح العراقية شبه الرسمية في

تشرف على سجن أبي غريب مكونة من ضباط من المخابرات والأمن الخاص والأمن العامة^(١).

وقد نقلت وكالة الأنباء الكويتية الخبر عن صحيفة "اوبزيرفر" البريطانية تحت عنوان (قاتل عراقي برتبة ضابط يكشف تفاصيل اعدامات جماعية مروعة ارتكبها نظام بغداد في ٣-١٢-٢٠٠٠).

(كونا) نقلت صحيفة بريطانية اليوم شهادة مروعة أدلى بها عضو سابق في أحد أجهزة الاستخبارات الأمنية الداخلية العراقية كشف فيها تفاصيل مرعبة حول الكيفية التي ساعد بها على قتل "عدد غير محدد" من السجناء.

وعرفت صحيفة "اوبزيرفر" المنشق العراقي على أنه خالد الجنابي الذي كان ضابطاً في جهاز أمني داخلي مهمته حماية صدام حسين والذي هرب من العراق معلناً انشقاقه عن نظامه كاشفاً عن تفاصيل مذهلة تتعلق بكيفية إشرافه شخصياً على قتل آلاف السجناء بأوامر من صدام حسين.

وأشارت الصحيفة إلى أن هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها أحد أعضاء النظام العراقي بالاعتراف بالتورط بارتكاب جرائم قتل جماعي نيابة عن صدام وولديه عدي وقصي.

وتؤكد شهادة الجنابي ما أوردته تقارير نشرت في وقت سابق من العام الجاري تضم تفاصيل مرعبة عما يحدث داخل العراق وبخاصة المذابح الدموية التي يرتكبها النظام هناك بصورة دورية.

وأضافت الأوبزيرفر: إن الأدلة المستقاة تميظ اللثام كذلك عن تفاصيل

(١) المذبحة الكبرى التي أطلق عليها اسم (تنظيف السجون) لسنة ١٩٩٨ م. موقع منظمة اللاعنف العالمية

جديدة لعمليات القمع والقهر التي تنفذها الأجهزة الاستخبارية العراقية مروية بشكل غير مسبوق على لسان أحد قتلة صدام لا ضحايا فقط كما كان يحدث في السابق.

وخدم الجنابي الذي هرب إلى الأردن العام الماضي كضابط في الاستخبارات العراقية من عام (١٩٧٩ حتى ١٩٩٩ م).

وأدلى خالد الجنابي بشهادته خلال مقابلة طويلة أجرتها معه إذاعة تسمى "راديو العراق الحر" التي تبث من العاصمة التشيكية براغ وهي الشهادة التي أعادت الصحيفة اليوم نشرها مؤكدة صحتها نقلاً عن مصادر دبلوماسية. وتتعلق أكثر شهادات المنشق العراقي إثارة للجدل بالأحداث التي وقعت بعد ١٥ مارس من عام ١٩٩٨ وهو اليوم الذي أصدر فيه مكتب صدام حسين أمراً "بتنظيف" السجون العراقية.

وذكرت الصحيفة... أن صدام أصدر أمراً لاحقاً بتشكيل "لجان إشراف" تقوم بالتأكد من تنفيذ أوامر التنظيف في كل سجن.

وتم تعيين الجنابي وثلاثة ضباط من أجهزة أمنية أخرى كلجنة إشراف مختصة بتنظيف سجن أبو غريب القريب من بغداد قامت باختيار ألفين من سجنائه وأشرفت على تصفيتهم والتخلص منهم.

وفي يوم ٢٦ إبريل من نفس العام أي قبل يومين من عيد ميلاد صدام حسين قام ابنه قصي بزيارة السجن في الوقت الذي أحاطت فيه قوات من وحدات العمليات الخاصة بموقع الزيارة مؤفرة حماية له.

ودخل قصي الذي كان يصاحبه حاكم السجن حسن العميري منطقة داخل السجن الضخم تحتوي على خمس مباني (كذا) تضم عدة زنازين سأل عن المساجين

من المحكوم عليهم بالحبس فترات طويلة وقليل منهم من ينتظر إفراجاً قريباً. ومنح قصي في ذلك اليوم مدير السجن أوامر مشددة بقتل جميع المساجين في المباني الخمس وذلك في اليوم التالي لزيارته.

وعلى الرغم من أن حاكم السجن احتج لاستحالة تنفيذ مهمة قتل كل ذلك العدد من المساجين في يوم واحد إلا أن قصي أصر على ما أمر به.

وقالت الصحيفة استناداً إلى شهادة الجنابي: إن القتل بدأ في وقت مبكر في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي لزيارة قصي المشؤومة بتجمع فرق إطلاق النار تحت إشراف حاكم السجن ولجنة الجنابي نفسه قبل أن يتم إحضار المساجين في مجموعات لقتلهم في غرف تصفية مغلقة فيما تم قتل آخرين بشنقهم فيما يعرف باسم "حفرة الشنق" داخل سجن الموت نفسه في أبو غريب.

وقال الجنابي إن فرق إطلاق النار عادة ما تتبع أسلوب إعدام يقضى بإطلاق طلقتين على كل سجين في الصدر ثم طلقة ثالثة في الرأس لضمان الوفاة إلا أنه أشار أن "ضغط العمل" للعدد الكبير من المدومين يوماً كان يعنى أن الطلقات لن توجه سوى للرؤوس.

ولم يتم الاكتفاء بذلك بل حُرم أهالي السجناء من استلام جثثهم التي تم إلقاؤها في النهاية في مقبرة خاصة تعرف باسم "الطريق الخاص" بالقرب من السجن.. دون تحديد أسمائهم مكتفين بترقيمهم.

وأضاف القاتل العراقي المحترف أنه بحلول الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم الرهيب كان قد تم التخلص من ألفي سجين.

وقدم الجنابي كذلك تفاصيل مروعة عن الابتزاز الجنسي الذي تستخدمه أجهزة صدام السرية ضد خصوم النظام وتلقي شهادته المزيد من الضوء على الفساد

المنهجي المستشري بعمق داخل أنسجة النظام العراقي وتزايد حالات التهديد التي تتعرض لها عائلات كثيرة بأكملها حتى من قبل سيدات يعملن لحساب الأجهزة الاستخبارية.

وقال إن هناك نحو (٩٠) سيدة برتب ضباط مختلفة يشاركن في عمليات الابتزاز بإشراف قصي.

ورداً على سؤال حول سبب اتخاذ قرار التحدث الآن قال الجنابي "نحن الذين حمينا صدام ونحن الذين جلبناه إلى حيث يقف اليوم ولا يمكن أن نظل صامتين في الوقت الذي يقوم فيه صدام بإهانتنا مقابل مراكزنا ومزاينا" حسب قوله. من جانب آخر علّق وزير الدولة البريطاني للشؤون الخارجية بيتر هين على حديث القاتل العراقي بقوله للصحيفة "لا يجب أن ينسى أحد وحشية صدام"^(١).

ونظراً لعدم وجود إحصائيات تفصيلية دقيقة عن أعداد الشهداء والمدفونين أحياء في المقابر الجماعية أو عن المدومين لأسباب سياسية حتى بعد مضي أكثر من عقدين على سقوط النظام البائد، فإن هناك بحوثاً لأكاديميين قدّرت "أعدادهم بمئات الآلاف من جميع طبقات المجتمع حتى النساء والأطفال والشيوخ والرضع"^(٢)، وهو ما يؤكّده المؤرخ العراقي د. حميد عبد الله الذي كان يجري لقاءات مباشرة مع مسؤولين كبار خلال مدة حكم النظام البائد وبعد سقوطه.

لقد عرض المؤرخ الدكتور حميد عبد الله في برنامجه (تلك الأيام) على الأنستغرام تسجيلاً فيديوياً بصوت صدام حسين رئيس النظام البائد يخاطب فيه

(١) <https://www.kuna.net.kw/ArticlePrintPage.aspx?id=1129153&language=ar>

(٢) المرجعية الدينية العليا. في النجف الأشرف. د. جودت القزويني: ٣٣٦.

أعضاء القيادة الذين سيتوجهون إلى محافظات الوسط والجنوب ليقمعوا الانتفاضة الشعبانية سنة ١٩٩١ م.

يقول حميد عبد الله معلقاً على التسجيل الصوتي لصدّام: "كل من يسمع هذا النص لصدّام حسين بهذا الفيديو يتيقن أن صدّام قد أصدر أوامره بتصفية جميع المتفضّين حتى لو كان عددهم بالملايين، وليس بمئات الآلاف بدليل أنه أصدر أوامره بقوله: (أبيدوهم)" وهو ما وقع فعلاً. فقد اقتحمت محافظات الفرات الأوسط والجنوب بعد قصفها بالطائرات السمتية المقاتلة وبصواريخ أرض-أرض والدبابات والمدرعات والمجنزرات وبالأسلحة الفتاكة الأخرى ثم بزحف الجيوش الجرارة لتدمر كل شيء أمامها مستبيحة بالنار دماء المدنيين رجالاً ونساء وأطفالاً، ومنتهكة حرمة المدن المقدسة وأضرحتها الشريفة لتقتل بدم بارد من لاذ بها من المستجيرين بأئمتها عليه السلام عسى أن تحميهم من هول ما تعرضوا له فكان أن تناثرت شلالات دمائهم وسالت وهم متعلقون بالأضرحة المقدسة وبحضراتها وصحونها الشريفة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لقد وثّق المؤرخ العراقي الدكتور حميد عبد الله خلال حديث نادر له في إحدى حلقات برنامجه المعروف (تلك الأيام) تلك المجازر الدامية خلال حكم النظام البائد بقوله: "دعوني أقول معلومة. أنا منذ عام (٢٠٠٧م) أشتغل في برنامج (شهادات) حيث أستضيف ضيوفاً يدلون بشهادتهم على ذمتهم للتاريخ، وفي هذه الشهادات الكثير الكثير من الحقائق الصادمة، ثم ومنذ أربع سنوات وأنا أشتغل ببرنامج (تلك الأيام) بالوثائق".

ويضيف: "الحقيقة التي تأكدت عندي حدّ اليقين: أن مجموع الذين أعدموا من (١٧ تموز ١٩٦٨م حتى نيسان ٢٠٠٣م) إعداماً وتصفيات بالحدّ الأدنى لا يقلّ

عن نصف مليون عراقي، هذا هو الحد الأدنى. وأنا مسؤول تاريخياً، وأخلاقياً، وقانونياً، ووثائقياً، عن هذا الرقم. ولو تبين لاحقاً أن رقم المعدومين أقل من هذا الرقم فسوف لا أخرج وأقول جملة بالإعلام على الإطلاق".

ويؤكد المؤرخ مرة أخرى إن "الحد الأدنى نصف مليون سياسي معدوم، سواء أحدث الإعدام بمحاكمات شكلية. طبعاً لا أتحدث عن الجنائية. القاتل والسارق لا لا، لا أتحدث عنهم. أتحدث عن السياسية فقط. سواء أكان الإعدام بمحاكمات شكلية أم تصفيات. الشغل يحفر قبوراً جماعية ليدفن فيها ضحايا الإعدامات الجماعية"^(١).

ولك أن تتصور كم حفر الشغل من المقابر الجماعية لتتسع لدفن نصف مليون معارض سياسي؟. وأين؟.

كما لك أن تتصور كم ضمت تلك المقابر الجماعية من قبور؟، وكم ضم كل قبر من جثث الشهداء الأبرار؟، سواء أكانوا قد دفنوا أحياء أم أعدموا ودفنوا فيها وخاصة بعد الانتفاضة الشعبانية كما تقدم.

يقول الأستاذ الدكتور حسين الزيايدي في بحث له عن المقابر الجماعية ما يلي:
"عقب عام ١٩٩١... بعد الانتفاضة الشعبانية... عاشت العوائل العراقية فصولاً من الرعب والإرهاب عندما تحوّل النظام إلى كائن متعطش للدماء يقتل كل من يشك بولائه... فانتشرت القيادات البعثية على كل المحافظات العراقية بأوامر من هرم السلطة، وهؤلاء يحملون كافة الصلاحيات من إعدام وضرب قرى وتهديم مساكن، وهؤلاء خوّلوا الأدنى بكل صلاحياتهم، فكان شعارهم (اقتل ثم اقتل،

(١) نص الحديث باللهجة المحلية العراقية/ وقد غيرت سياق الأقل منه إلى الفصحى كي يفهم مضمونه قارئه غير العراقي. مع الاعتذار من المتحدث.

لا تسأل عن الاسم، لا تنظر في العين، لا تحقق في الأمر) وهذا المنطق يفسّر لنا حملات الإعدام الواسعة والقسوة التي امتازت بها قيادات البعث. إذ صدرت قرارات من القيادات العتية بالقبض على كل من شارك في الانتفاضة، وفي مواقع المدن قامت القيادات بإعطاء الأوامر بإعدام مئات الشباب المشاركين وغير المشاركين ودفنهم في مواقع وجود تلك الوحدات من دون إجراء تحقيقات أو محاكمة ومن دون أن يعرف العديد من الشباب بالاتهامات الموجهة لهم... وبالنظر لكثرة عدد الذين تم تنفيذ حكم الإعدام بهم صار الأمر إلى دفنهم بشكل جماعي، وآخر المقابر هي تلك التي عثر عليها في منطقة سيد ذهب في الناصرية التي ضمت رفات (٧٠٠) مواطن من محافظة ذي قار، يرجح أنهم دفنوا أحياء، إذ لا توجد آثار طلقات نارية عليهم، وقد عثر على المقبرة في موقع بناء شقق سكنية قيد الإنشاء^(١).

وقبل ذلك وبالتحديد في عام (٢٠١٠م) تم فتح "مقبرة المحاوليل بتل أبو حجل في محافظة بابل إذ بلغ عدد الرفات (٧٩٦)"^(٢).

لقد سعت مؤسسة الشهداء مشكورة إلى العثور على بعض هذه المقابر الجماعية المنتشرة في وسط وجنوب العراق وشماله حيث عثرت على (سبعة وتسعين موقعاً لمقبرة جماعية) تم فتح (ثمانين) موقعاً منها فوجدوا فيها (مائة وستين قبراً جماعياً ضمت الآلاف من الرفات). ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإذا كان لي أن أختتم حديثي عن جرائم النظام البائد البشعة ضد شيعة العراق وصولاً بها إلى جرائم الحرب، والجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الإبادة الجماعية

(١) المقابر الجماعية في العراق إرث دموي وشواهد صامتة. د. حسين الزيايدي. بحث منشور على موقع المركز العراقي لتوثيق جرائم التطرف. الأمانة العامة للعتبة العباسية المقدسة في ٢٠ مايو ٢٠٢٥م.

(٢) المصدر نفسه.

حسب وصف كل منها، وفق تصنيف قوانين المجتمع الدولي، فإنني سأختمه بإحصائية عددية تفصيلية أعدها الباحث د. علي المؤمن عن عدد الجرائم التي ارتكبتها النظام البائد خلال ثلاثة عقود ضد العراقيين، غير أنني سأقتصر على نقل ما يتعلق بجرائم النظام البائد ضد الشيعة وحدهم أو مع غيرهم من العراقيين -على طوله- لأهميته في مجال بحثي هنا، مبتدئاً إياه بما قدمه الباحث لإحصائيته بقوله:

"كان نظام البعث متفرداً في ممارسة الجريمة وحجم الفساد والفسل مقارنة بكل أنظمة العالم. ولفهم هذا التفرد نعرض قائمة سريعة بأهم ما قام به خلال (٣٥) من سنوات حكمه:

١. جرائم القتل والإعدامات والمقابر الجماعية

أ. قتل نظام البعث وصدّام (خمسة) مراجع دين شيعية و(٣٢) مجتهداً و(٨٧٠) علم دين شيعي.

ت. قتل ما يقرب من (١٦٠) ألف رجل وامرأة وصبي وطفل من الشيعة.

.....

ح. دفن ضحايا الشيعة في مقابر جماعية، منها (٤٢٠) مقبرة مكتشفة.

٢. جرائم الاعتقال والحبس:

بلغ عدد من تعرضوا للاعتقال والسجن بمدد مختلفة، أكثر من ثلاثة ملايين شخص، وذلك بشبهة معارضة نظام البعث أو انتقاده.

٣. جرائم التعذيب والتنكيل:

أ. لم يثبت دولياً لدى منظمات حقوق الإنسان والعتفو وجود تعذيب نفسي وجسدي في أي بلد في العالم، يشبه ما كان يحصل في معتقلات نظام البعث وصدّام.

ب. تعرضت مئات النساء الشيعيات والكرديات المعتقلات إلى الاغتصاب، بما في ذلك الاغتصاب أمام أعين ذويهن، لحملهن على الاعتراف أو حمل ذويهن على الاعتراف.

ت. تعرض مئات الأطفال إلى الخنق وتهشيم الجمجمة أمام آبائهم وأمهاتهم لحملهم على الاعتراف.

٤. جرائم الملاحقة وإسقاط الجنسية والتهجير القسري إلى خارج العراق:

أ. تسبب نظام البعث وصدام في هجرة أكثر من مليوني عراقي إلى الخارج، بسبب ملاحقة من يشته بمعارضته، أو للتخلص من مطاحن الحروب، أو بسبب الفقر والمرض وانعدام الخدمات. مع الإشارة إلى أن عدد سكان العراق ما يقرب من نصف عدد السكان حالياً.

ب. تهجير ما يقرب من (٣٠٠) ألف مواطن عراقي شيعي إلى إيران بحجة التبعية، وهم يمتلكون الوثائق العراقية كافة، بعد إسقاط الجنسية عنهم، ومصادرة أموالهم، ونقلهم إلى الحدود دون أي سابق إنذار.

ت. إسقاط الجنسية عن مئات العراقيين ممن يشته بمعارضتهم للنظام، بينهم شخصيات شهيرة.

٥. جرائم التهجير داخل العراق:

أ. جرائم تهجير الأكراد.

ب. جرائم تهجير التركمان.

ت. جرائم تهجير الفيليين.

٦. جرائم محاربة الدين والمرجعية والحوزة:

أ. محاربة الشعائر الدينية ومنعها، وخاصة ذكريات وفايات وولادات أئمة

آل البيت عليهم السلام، وفي المقدمة مراسيم استشهاد الإمام الحسين، ومن بينها مهاجمة مشاة الاربعين بالدبابات والطيران، واعتقال الخطباء وقتلهم.

ب. محاربة المرجعية الدينية والحوزة العلمية والتنكيل بها ومنعها من ممارسة دورها الديني والتوجيهي، وصولاً إلى قتل المراجع وعلماء الدين وحبسهم وتسفيرهم وفرض الإقامة الجبرية عليهم، حتى انخفض عدد منتسبي حوزة النجف في العام (١٩٩٠م) إلى ٥ بالمائة من عددهم في عام (١٩٦٨م).

ت. تخريب المدارس الدينية الحوزوية أو إغلاقها.

ث. منع طباعة وتوزيع واستيراد الكتب الدينية الشيعية، بما فيها كتب الأدعية.

٧. جرائم التمييز الطائفي والعنصري:

أ. كان نظام البعث وصدام أبشع أنواع التهميش والاقصاء والقمع والظلم للأكثرية السكانية الشيعية، وبصورة لا نظير لها عالمياً؛ فالسنة العرب، ونسبتهم من عدد السكان ١٦٪ فقط، كانوا يسيطرون على ٩٠٪ من المسؤوليات الرأسية، كرئاسة الجمهورية ومجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية للحزب والوزارات وقيادات الجيش والقوات المسلحة. أما الشيعة الذين تشكل نسبتهم السكانية ٦٥٪، فكانوا يشغلون ٥٪ فقط من المسؤوليات، ومن يشغلها كانوا مجرد عبيد عند أسيادهم المسؤولين السنة العرب، سواء في الحزب أو الحكومة أو الجيش.

ب. كانت رمزيات الدولة التاريخية والمعاصرة، السياسية والدينية، ومناهجها الدراسية وأدبيات الإعلام والصحافة، والتوجهات الثقافية، كلها سنّية طائفية، وموجّهة بالدرجة الأساس ضد الشيعة وهويتهم ومذهبهم.

ت. كانت معاناة الشيعة الفيليين والشيعة التركمان مركبة، طائفيًا وعنصريًا.
ث. كانت الحالة نفسها موجهة ضد الكرد، وبالشدة نفسها، ولكن في الجانب
العنصري.

٨. جرائم التسبب في انهيار الواقع المعيشي:

تسببت سياسات نظام البعث وصدام في انهيار الواقع المعيشي وانهيار دخل الفرد، وفي مظاهر فقر وجوع ومرض غير مسبوق في تاريخ العراق، حتى أصبح دخل الموظف يكفي لطبقة بيض فقط، واضطر الناس إلى بيع أثاث بيوتهم.

٩. السرقات والرشوة والفساد:

أ. في الوقت الذي كان الشعب يعاني الفقر والجوع والمرض، كان صدام وأسرته وفريقه الحزبي، يهرّبون عشرات مليارات الدولارات إلى الخارج، في صفقات الكوبونات النفطية، فضلاً عن السرقات الداخلية، بل أن العراق بأكمله كان ملكاً لصدام وعشيرته وفريقه وحزبه.

ب. كانت الرشوة متفشية وجزءاً من روتين الدوائر الحكومية، من أصغر موقع وظيفي إلى أكبر موقع، وبلغ الأمر أن أحكام السجن والاعدام تلغى بالمال.

١٠. جرائم التسبب في انهيار البنى التحتية والخدمات:

بدأ انهيار البنى التحتية والخدمات تدريجياً في مطلع ثمانينات القرن الماضي، حتى تحول العراق في نهاية المطاف إلى بلد بدون كهرباء وبنى تحتية وخدمات حكومية، وبدون إعمار، ما عدا قصور صدام الباذخة التي بناها بأموال الشعب.

١١. الحروب على الشعب:

أ. الحروب على الأكراد طوال عقد الثمانينات، وأغلبها كانت تستهدف المواطنين الأبرياء.

ب. الحرب على الشيعة في العام ١٩٩١م، والتي تسببت في تدمير عشرات المدن الشيعية.

١٢. الحروب على دول الجوار، والتسبب في نقص سيادة العراق واحتلاله:

- أ. القيام بأعمال إرهابية وقتل وتفجيرات داخل سوريا.
- ب. القيام بأعمال إرهابية وقتل وتفجيرات داخل لبنان.
- ت. القيام بأعمال إرهابية وقتل وتفجيرات داخل إيران.
- ث. القيام بأعمال إرهابية وقتل وتفجيرات داخل الكويت.
- ج. الحرب على إيران، والتسبب في مقتل مليون إنسان، وتدمير البلدين.
- ح. تسليم أجزاء واسعة من أراضي العراق إلى السعودية وإيران والأردن وتركيا.
- خ. غزو الكويت، والتسبب في مقتل عشرات الآلاف من العراقيين والكويتيين، وتدمير البلدين.
- د. التسبب في حصار جائر للعراق، لمدة ثلاثة عشر سنة، نتج عنه جوع ومرض وفقر وهجرة ملايين العراقيين، ودمار في البنية التحتية، في حالة لم يشهد تاريخ العراق مثيلاً له.
- ذ. التسبب في جلب القوات الأجنبية الاستعمارية إلى المنطقة الخليجية.
- ر. التسبب في نقص سيادة العراق في أرضه وسمائه، وصولاً إلى احتلاله.

١٣. انعدام الحقوق والحريات السياسية والإعلامية والدينية والاجتماعية:

أ. كان حكم البعث منذ اللحظة الأولى، حكماً شمولياً يحتكر السلطة بالكامل.

ب. بعد وصول صدام إلى السلطة، أضاف إلى شمولية البعث واحتكار السلطة، حكماً فردياً دكتاتورياً مطلقاً، جعل من البعث أداة بيد صدام، وحوّله إلى آلهة وصنماً، حتى أصبح صدام هو العراق والعراق هو صدام.
ت. لم يكن هناك أي فصل بين السلطات، بل كان صدام وأسرته وفريقه الحزبي الخاص هم الدولة والحكومة والسلطة والتشريع والتنفيذ والقضاء.

ث. لم تكن هناك انتخابات لتداول السلطة على أي مستوى من المستويات.

ج. لم يكن هناك دستور دائم للدولة.

ح. لم تكن هناك أية محاكمات حقيقية لمعارضين النظام، بل تأتي الأحكام جاهزة من الأجهزة الأمنية أو صدام نفسه، حتى لو كانت المعارضة بكلمة واحدة أو جملة واحدة فقط.

خ. كان المواطن يتعرض إلى عقوبة الاعدام إذا انتقد سراً أو علناً رئيس النظام وأسرته أو حزب البعث أو الثورة كما يسمونها، أو نظر بشكل غير مناسب لصورة صدام في الشارع.

د. زرع البعث حالة الرعب لدى المواطن العراقي من أقرب الناس إليه؛ فكان المواطن يخاف على نفسه من الوشاية والتقارير حتى من أفراد أسرته وأصدقائه المقربين، وهي التقارير التي توصل إلى جبل المشنقة، وكثير منها كان كيدياً.

- ذ. لم تكن هناك أية صحيفة ومجلة وإذاعة وقناة تلفزيونية غير رسمية أو غير تابعة للنظام.
- ر. كانت خدمة الموبايل ممنوعة؛ فالعراقيون استخدموا الموبايل بعد العام ٢٠٠٣م.
- ز. كانت خدمة استقبال البث التلفزيوني الفضائي ممنوعة؛ إذ لا يسمح للمواطن بمشاهدة سوى القنوات المملوكتين للنظام، ويتعرض للإعدام من تعثر السلطة على جهاز ستلايت في منزله.
- س. كان استخدام أجهزة الاستنساخ ممنوعاً، إلا من قبل مؤسسات النظام.
- ش. كانت أجهزة الكمبيوتر ممنوعة، إلا من قبل مؤسسات النظام^(١).



(١) <https://t.me/alialmomen64>. قد يجد القارئ بعض الاختلافات بين الباحثين فيما دونوه عن الأعداد. وهذا شيء طبيعي لأن الأرقام تقريبية نتيجة لعدم وجود إحصائيات رسمية إلا ما ندر توثق رقم هذا الباحث أو ذاك.



الفصل الرابع عشر

ثالثاً

الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري

الحضور الفاعل للمرجعية الدينية
على الساحة السياسية العراقية في
الربع الرابع من القرن الرابع عشر الهجري
من خلال مقاومة الطائفية السياسية والتهميش
والظلم ضد الشيعة في العهد الجمهوري

* * *

مرجعية الشهيد الصدر الأول



مرجعية الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمته الله

لقد تصدى سماحة الشهيد السيد محمد باقر السيد حيدر إسماعيل الصدر للمرجعية خلال حقبة مرجعية أستاذه المرجع الأعلى سماحة السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي بعد وفاة سماحة الإمام الحكيم.

١ نواعي تصدي سماحته رحمته الله للمرجعية

ربما يعود سبب التصدي سماحة السيد الشهيد الصدر للمرجعية منذ عام (١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م) إلى شعوره بحسب رأي بعض الباحثين بـ "أن المرجعية الدينية المتمثلة بالخوئي لا يمكن أن تجابه أحداث الصراع الذي يمر به العراق السياسي في هذه المرحلة" ^(١) وأن "الظروف التي تعيشها الحوزة العلمية النجفية حرجة تحتاج إلى رأي إلا أن الخوئي برهن على أنه رجل فتوى وتدریس وليس رجلاً ذا رأي سياسي، ولذلك ظهرت (منطقة فراغ) في المرجعية لا تلتئم إلا بوجود مرجع يرتفع بمستوى الحدث الذي تشهده تلك المرحلة" ^(٢) فجاهد سماحته في حقبة شديدة قاسية على شيعة أهل البيت في العراق وخاصة على المجتهدين وكبار العلماء والفضلاء وطلاب الحوزة العلمية، والمؤمنين الحركيين النشطين وشيعة العراق المقهورين جميعاً.

(١) المرجعية الدينية العليا. د. جودت القزويني: ٢٨٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٨٠.

إسهامه الفعّال في تأسيس حزب الدعوة وعضويته فيه ثم انسحابه منه

لقد أسهم سماحته إسهاماً فعّالاً في تأسيس حزب الدعوة الإسلامية ونظر له فقهياً وفكرياً بوضع (الأسس) كأصول لدستور إسلامي مقترح ولكي تشكل أيضاً المنهج الفكري والتثقيفي لـ (حزب الدعوة الإسلامية).

ثم وبعد سنتين من تأسيس حزب الدعوة الإسلامية في أواخر صيف (١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨ م) خرج من الحزب أو كما يقول أحد أعضاء القيادة العليا لحزب الدعوة سماحة الشيخ محمد مهدي الآصفي بأن الشهيد السيد محمد باقر الصدر قد "انصرف" عن "العضوية" في الحزب وأبلغ الحزب بذلك "في رسالة رسمية، ولم يشأ الاستمرار فيه، أي أن المباني التي كان يعتقد بها لم تتلاءم مع تأسيس الحزب" (١).

ويرجع شهيد المحراب سبب خروج الشهيد الصدر من حزب الدعوة إلى شك سماحته "في دلالة آية الشورى على الحكم الإسلامي من خلال شبهة كنت أثرتها حول آية الشورى في بداية تكون النظرية ولكنه أجاب عنها في حينه ثم بدا له صحتها بعد ذلك وقد دون هذه الملاحظات ضمن مجموعة من المراسلات -معه- وانتهى به الشك إلى الشك في صحة العمل الحزبي بمعناه الواسع الذي لا معنى له -في نظر الشهيد آنذاك- إلا إذا كان يتضمن تصوراً كاملاً عن نظرية الحكم الإسلامي وطريقة ممارسته، فإذا لم تكن النظرية حول الحكم الإسلامي وإطاره ومؤسساته واضحة فكيف يمكن إيجاد تنظيم يسعى إلى هذا الهدف من دون أن يكون الهدف نفسه واضح المعالم. وعلى هذا الأساس انسحب الشهيد

(١) مذكرات الشيخ الآصفي. سابق: ٣٧٦.

الصدر من تنظيم حزب الدعوة بعد أن كان يمارس فيه دور القيادة الفكرية والإشراف العام^(١) ثم وبعد زمن انتهى سماحته إلى ولاية الفقيه مستفيداً من دلالة التوقيع المشهور عن الإمام المنتظر (عجل الله فرجه) وهو: "وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله"^(٢).

لقد استفاد سماحته من نص التوقيع السابق أوسع مما استفاده منه الكثير من الفقهاء. فقد استفاد سماحة السيد الشهيد الصدر منه "الدلالة على ولاية الفقيه بعد أن كان الفقهاء يستفيدون منه الدلالة على صحة وجواز تقليد المجتهد في الفتاوى الشرعية فقط حيث كانوا يفسرون الرجوع فيه بخصوص الرجوع إليهم بالفتوى وأما الشهيد فيفهم منه الرجوع إليهم في قضايا الولاية بقرينة قوله ﷺ (الحوادث الواقعة). وكان الالتزام بولاية الفقيه فقهاً يمثل تطوراً نوعياً في النظرية السياسية للشهيد الصدر"^(٣).

٣ النظرية السياسية لسماحته ﷺ بقلمه

لقد أبان سماحة السيد الشهيد الصدر بقلمه لاحقاً للفترة الزمنية التي أوضحها سماحة شهيد المحراب سماحة السيد محمد باقر الحكيم، وذلك في بحث السيد الشهيد الصدر المعنون بعنوان (لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية) ذاهباً سماحته إلى أن نظريته السياسية تقوم على المبادئ التشريعية الآتية في الفقه الإسلامي وهي:

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٧/٤ - ١٥٩.

(٢) الإحتجاج للطبرسي: ٢/٢٨٣. وكمال الدين وتام النعمة. الشيخ الصدوق: ٤٨٤ باب ٤٥ التوقيعات وغيرها من الكتب الحديثية كثير: ينظر وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: ٢٧/١٤٠.

(٣) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر. بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٩/٤ - ١٦٠.

أ. لا ولاية بالأصل إلا لله تعالى.

ب. النيابة العامة للمجتهد المطلق العادل الكفوء عن الإمام وفقاً لقول إمام العصر عليه السلام: (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله) فإن هذا النص يدل على أنهم المرجع في كل الحوادث الواقعية بالقدر الذي يتصل بضمان تطبيق الشريعة على الحياة، لا الرجوع إليهم بما هم رواة أحاديثهم وجملة الشريعة يعطيهم الولاية بمعنى القيمومة على تطبيق الشريعة وحق الإشراف الكامل من هذه الزاوية.

ت. الخلافة العامة للأمة على أساس قاعدة الشورى التي تمنحها حق ممارسة أمورها بنفسها ضمن إطار الإشراف والرقابة الدستورية من نائب الإمام.

ث. فكرة أهل الحل والعقد التي طبقت في الحياة الإسلامية التي تؤدي بتطويرها على النحو الذي ينسجم مع قاعدة الشورى وقاعدة الإشراف الدستوري من نائب الإمام إلى افتراض مجلس يمثل الأمة وينبثق عنها بالانتخاب^(١).

الفرق بين رؤية الإمام الحكيم للعمل السياسي ورؤية الشهيد الصدر

ما دمت قد بينت فيما سبق رؤية سماحة الإمام الحكيم للعمل السياسي ورؤية سماحة الشهيد الصدر فمن الحسن أن أقف على الفرق بين الرؤيتين.

ومن حسن الحظ أن سماحة شهيد المحراب السيد محمد باقر الحكيم نجل سماحة الأمام الحكيم وخاصته من جهة وعضد السيد الشهيد الصدر وخاصته من جهة أخرى قد وقف على ما بين الرؤيتين السياسيتين من فروق لذلك فأسأستعرض

(١) لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية. بحث من كتاب (الإسلام يقود الحياة). الشهيد السيد محمد باقر الصدر: ١٦.

تلك الفروق باختصار معتمداً على ما كتبه سماحة السيد شهيد المحراب.

يقول سماحة السيد الشهيد محمد باقر الحكيم: "إن رؤية الإمام الحكيم -الذي كان يمثل المرجعية في ذلك العصر- للأمور ومسلكيته كانت تختلف في هذه المرحلة عن رؤية الشهيد الصدر ومتبنياته العملية... ويمكن أن نلخص نقاط الاختلاف... في الأمور الآتية:

أ. ولاية الفقيه: حيث يرى الإمام الحكيم الولاية للفقيه بمستوى معين مستنداً إلى دليل (الحسبة)، وبعض النصوص الأخرى في بعض الموارد، وضرورة إقامة الحكم الإسلامي لحفظ كرامة الدين وعزّته وعقيدة المسلمين، وأن الفقيه يمثل القدر المتيقن الذي يتولى ذلك، وكان يمارس هذا الدور عملياً في حدود المجالات التي تنالها يد الفقيه وقدرته"^(١). في حين يرى سماحة السيد الشهيد الصدر "ولاية الفقيه المطلقة"^(٢) كما تقدم.

ب. "المرجعية الدينية: وهي الإطار الأفضل للعمل الإسلامي ونشاطاته، ولذا لم يتخذ سماحة الإمام الحكيم العمل المنظم الخاص قاعدة أساسية للعمل السياسي بل اتجه بشكل عام لتشجيع العمل العلمائي كقاعدة وأساس -معتبراً العمل الحزبي ليس أكثر من- "مفردة إسلامية يمكن أن يكون لها دور محدد في خدمة الإسلام، وكان يتعامل مع هذه المفردة بتحفظ ملحوظ"^(٣)، خلافاً لرؤية سماحة السيد الشهيد الصدر المبينة بوضوح لرؤية سماحة الإمام الحكيم، سواء أذهبنا في ذلك إلى ما ذهب إليه كل من سماحة السيد كاظم الحائري بقوله: "إن أستاذنا

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٥/٤.

(٢) المصدر نفسه: ١٩٤/٤

(٣) المصدر نفسه: ١٥٥/٤

الشهيد رحمته الله أسس في أوائل شبابه حزباً إسلامياً باسم (حزب الدعوة الإسلامية)^(١) والباحث علي المؤمن من أن الشهيد الصدر هو من قاد عملية تأسيس الحزب بقوله: "قاد السيد محمد باقر الصدر عملية تأسيس حزب الدعوة... وأصبح... عضواً في أول لجنة قيادية للحزب انبثقت بعد التأسيس واستمرت حتى العام (١٩٦١م) وهو العام الذي انسحب فيه الصدر من القيادة والتنظيم"^(٢) أم ذهبنا إلى ما ذهب إليه الباحث محمد الأسدي من أن الشهيد الصدر فوَّتح بعد تأسيس الحزب فوافق على الفور مستتجاً ذلك مما ذكره سماحة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم في مذكراته بقوله: "إن الاجتماع الأول حول التأسيس أو المفاتحة حول التأسيس قد تم بين أربعة أشخاص فاتحهم كلهم الشهيد العلامة السيد مهدي الحكيم وهم العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم والشهيد الحاج عبد الصاحب دخیل والمرحوم الشيخ الأستاذ محمد (كذا) صادق القاموسي والسيد طالب الرفاعي، ويمكن أن نقول أن هؤلاء الأربعة شكلوا النواة الأولى أو المرحلة الأولى التي قادت فيما بعد إلى التأسيس بصورة أوسع، وقد عقد هؤلاء الأربعة عدة اجتماعات قبل أن تتم مفاتحة الآخرين بهذا الموضوع"^(٣) ومنهم سماحة السيد الشهيد الصدر.

وكان الشهيد سماحة السيد محمد مهدي الحكيم قد دوّن في مذكراته ما يلي: "اقترح علي السيد طالب -الرفاعي- طرح الموضوع على السيد الشهيد محمد باقر الصدر، ولما كنا نخشى طرح مثل هذا الموضوع على مثل السيد الشهيد باعتباره

(١) سمو الذات وسمو الموقف. السيد كاظم الحائري: ١٢١ و ١٢٥.

(٢) السيد محمد باقر الصدر وحزب الدعوة الإسلامية علاقة القمة والمهرم. علي المؤمن. موقع (كتابات) الألكتروني. ٩ إبريل ٢٠١٨م.

(٣) الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. سابق: ١/ ٢٥٥.

مجتهداً لأننا كنا نخشى أن نسبّ أو نلعن أو نكفر، فقد أبدت خشيتي ولكن السيد طالب أخبرني بأن السيد الصدر ليس من ذلك النمط. التقيت بالسيد الصدر في بيته وعرضت عليه الموضوع فوافق عليه من دون ممانعة أو تردد^(١).

ووفقاً لما ذهب إليه كل من الباحثين: السيد الحائري والمؤمن والأسدي، أو غيرهم ممن كتب عن ذلك وهم كثر فإن رؤية الشهيد الصدر النظرية والتطبيقية لأهمية وجدوى وجود التنظيم الحزبي وسعيه الخيبي لذلك وتسميته وتبنيه وتنظيره له أمر لا نقاش فيه. وهو ما يختلف به مع رؤية سماحة الإمام الحكيم للعمل الحزبي. ت. "إن الوسط الحوزوي والوكلاء وأمثالهم يشكلون حلقة الوصل الطبيعية بين الأمة والقيادة المتمثلة بالفقيه الجامع للشرائط، في الوقت نفسه الذي يمكن للأحزاب السياسية والجمعيات ذات الأهداف المختلفة القيام بهذا الدور في أوساط محدودة كوسط طلاب الجامعات والموظفين وأمثالهما"^(٢) خلافاً لرؤية سماحة السيد الشهيد الصدر المتقدم ذكرها أعلاه.

ث. يرى سماحة الإمام الحكيم ضرورة استقلالية المرجعية عن الحزب ويتضح ذلك بجلاء بطلب سماحته من نجليه الشهيدين صاحب السماحة كل من السيد محمد مهدي والسيد محمد باقر وغيرهما من القريين منه جداً والمحسوبين عليه الخروج من الحزب.

ويبين سماحة الشهيد السيد مهدي الحكيم بعد أن عرف والده سماحة الإمام الحكيم بخبر انتماء نجليه هو وشهيد المحراب سماحة السيد محمد باقر الحكيم،

(١) من مذكرات العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٣٧ و٤٣ على التوالي.

(٢) موسوعة الحوزة العلمية والرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٥ / ٤.

بقوله: "كان يفترض أننا ننتمي إليه - الإمام الحكيم - وهو مرجع، والمرجع يجب أن يحافظ على الصفة العامة، وليس مثل الناس الآخرين، فإذا كان جماعة من الحزبيين في حاشيته أو أولاده أو جماعته المقربين فسوف يفقد الناس ثقتهم به أو تقل به هذه الثقة كمرجع - لكل الناس - ومن أجل الحفاظ على الصفة العامة للمرجعية... نخرج من الحزب" (١).

ويوضح نجل الإمام الحكيم الثاني سماحة الشهيد السيد محمد باقر ذلك بقوله: إن "استقلالية المرجعية عن العمل المنظم الخاص (العمل الحزبي) وأصالتها وضرورة بقائها على قدسيته ونقاها بعيداً عن الظنون أو الشكوك أو الأوهام التي قد تحيط بالعمل الحزبي، ومن هنا نجد الإمام يطلب من ولده السيد مهدي وكذلك من الشهيد الصدر الخروج من التنظيم، ويعلل ذلك بأنهما مرتبطان به، ولا يصح أن يكونا مرتبطين بالتنظيم، الأمر الذي قد تكون له آثار سلبية على المرجعية نفسها" (٢).

ووفق كلا الرأيين المتقدمين للباحثين المذكورين وغيرهما مما هو متداول مشهور فإن رؤية سماحة السيد الشهيد الصدر الموضحة في الفقرة (ب) أعلاه مختلفة اختلافاً واضحاً عن رؤية سماحة الإمام الحكيم.

ج. "السرية: حيث كان الإمام الحكيم يرى أن القيادة لا يصح أن تكون سرّية في إطار الجماعة التي ترتبط بها، وإن ذلك يؤدي إلى احتمال وقوع القيادة في خطر الانحراف أو التأثير عليها من الخارج من خلال ارتباطات مشبوهة أو فاسدة، وقد لخص ذلك في جواب أحد الاستفتاءات بقوله: (إذا كانت القيادة سرّية فلا

(١) من مذكرات العلامة الشهيد السيد محمد مهدي الحكيم حول التحرك الإسلامي في العراق: ٤٠ - ٤١.

(٢) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٥ / ٤ - ١٥٦.

يمكن الانقياد إليها؛ لأنها إذا كانت ذكية يخاف منها، وإذا لم تكن ذكية فيخاف عليها). وهذا التصوّر ينطلق من نقطة نظرية مبدئية ترتبط بالرواية المشهورة المتواترة: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)^(١) حيث يفهم من هذا الحديث أن معرفة المأمومين للإمام قضية أساسية في النظرية الإسلامية^(٢) التي تذهب إلى أنه "لابدّ أن يعرف الإمام حتى يكون الإنسان موالياً له، وأما إذا كان الإمام مجهولاً فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يوالي الشيء المجهول... وأما في النظرية الحزبية فلا يجب أن تكون هذه القيادة معروفة... بل العكس هو الموجود"^(٣).

وقد كان أجاب سماحته عن سؤال وجه إليه جاء فيه: "قرات فتوى للمرجع سماحة الإمام الحكيم" أنه لا يجوز اتباع القيادة المجهولة" فكيف يكون موقفنا من الحركة الإسلامية العراقية، والحال أن قيادتها سرّية...؟

فكان جواب سماحته الآتي: "الجواب واضح من نفس السؤال، ورأيه أن الانتماء للحزب يجب أن يكون بهذا الشكل ولكنه كان يحتمل أن يكون البقية مقلدين لأشخاص آخرين وبالتالي فهم معذورون أمام الله سلطانه وتعالى... فرأيه في المسألة واضح، ولكن لا ينبغي أن نأخذ موقفاً عدائياً لتلك التنظيمات فقد يكونون معذورين أمام الله سبحانه وتعالى"^(٤).

ونتيجة لهذه الرؤية أشار سماحة السيد شهيد المحراب موضحاً ما أدى إليه الاختلاف بين رؤية مرجعية سماحة الإمام الحكيم ورؤية سماحة الشهيد الصدر بقوله: "وهذا الاختلاف في الرؤية أدى بعد ذلك إلى بروز حالة الانفصال النسبي

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة. ابن طاووس: ٢/ ٢٥٢.

(٢) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٥ - ١٥٦.

(٣) مرجعية الإمام الحكيم نظرة تحليلية شاملة. السيد محمد باقر الحكيم: ٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ٥٧ - ٥٨. وينظر: ص: ٨٩.

تدريجياً في التحرك السياسي بين موقف المرجعية وبين الكادر الإسلامي الذي تربى في أحضان التنظيم الحزبي^(١). خلافاً خلافاً لقناعات الشهيد الصدر كما سنرى.

لقد تظاهر هذا الاختلاف بين تنظيم حزب الدعوة الإسلامي - ونشاطات مرجعية الإمام الحكيم بانتقاد الأول لـ "نشاط الاحتفالات والزيارات العامة التي كانت تستخدم - من قبل المرجعية - كوسيلة للتعبئة العامة السياسية، وكذلك مضمونها، ومحتواها السياسي مثل تأسيس المدارس الرسمية... والانفتاح في العمل المرجعي وفي الحوزة على العلماء والطلبة غير المنظمين والاعتماد عليهم في الأعمال الرئيسية - إن مثل هذه النشاطات للمرجعية العليا - كانت تواجه انتقاداً - أحياناً - من قادة العمل الحزبي بادعاء أنها لا جدوى منها - و - لا تنسجم مع المرحلة التي تعيشها الأمة"^(٢).

كما تظاهر ذلك الاختلاف بين النهجين أيضاً بعدم مشاركة التنظيم الحزبي الخاص - حزب الدعوة الإسلامية - مع موقف المرجعية العليا الصلب "ضد تشريع قانون الأحوال الشخصية، وسياسة التمييز الطائفي، وسياسة تأمين التجارة وتحويل النظام الاقتصادي إلى الاشتراكية، وغيرها... ولم يتناولها - الحزب - في أدبياته إلا على المستوى الفكري أحياناً"^(٣).

وتظهر هذا الاختلاف كذلك بعدم قيام حزب الدعوة بعمل سياسي فعال حينما حاولت حكومة البعث ضرب الوجود الإسلامي من خلال ضرب "القواعد المهمة له مثل: الحوزة العلمية، والشعائر الحسينية، من خلال الإجراءات التي

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٦/٤ - ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ١٨٩/٤.

(٣) المصدر نفسه: ١٨٩/٤ - ١٩٠.

اتخذها النظام كتفسير طلبه الحوزة العلمية والمقيمين الإيرانيين، ومنع الزائرين من زيارة العتبات المقدسة، والتحرش بالشعائر الحسينية، والإرهابات باتهام المرجعية. الأمر الذي انتهى إلى قيام الإمام الحكيم بزيارته إلى بغداد للمواجهة. وقد تردد الحزب في القيام بعمل سياسي في هذا المجال، واكتفى بمراقبة الأوضاع. وبعد ضغط الشهيد الصدر والعلامة السيد مرتضى العسكري وغيرهما من العناصر المؤثرة على الحزب، استجاب جزئياً في أول الطريق ثم عدل عن المواجهة بدعوى الالتزام بمنهج المرحلية... ففي مثل هذا الظرف لم تكن القيادة في التنظيم الخاص -حزب الدعوة- على استعداد لإصدار منشور يشجب هذا الموقف تجاه الأمة والمرجعية، بل ولا توزيع منشور أبسط من ذلك^(١).

ويوضع شهيد المحراب مرادة بقوله: ولا "أبسط من ذلك" بما يلي: "طلبت من الشهيد السعيد الحاج عبد الصاحب دخیل شخصياً إصدار منشور يتضمن على الأقل (دعاء الفرج) لإشعار الأمة بالمحنة، ووعد بذلك، ولكن لم ينفذ الوعد"^(٢).

كما اتضح هذا الاختلاف بين قناعات الحزب ومرجعية الإمام الحكيم بـ"الموقف من المواكب الحسينية، حيث تم إيقاف مواكب الطلبة في الجامعة والتي كان وراء تنظيمها (التنظيم الخاص) -حزب الدعوة- والتي كانت تحظى بتأييد متميز من المرجعية الدينية بحيث تحولت بهذا الاسناد إلى ثقل سياسي بعد أن أخذت تشترك فيه عناصر ذات انتماءات عامة، الأمر الذي أدى بالتنظيم أن يوقف إخراج هذه المواكب تجنباً للمواجهة مع النظام.

... هذا الموقف من التنظيم الخاص كان بخلاف موقف الشهيد الصدر الذي

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ٤/ ١٨٩ - ١٩١.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ١٩١ هامش رقم ٢.

كان يرى في وجود واستمرار المواكب الحسينية ضرورة وأهمية خاصة، وكان يحث طلابه على الاهتمام بها وتشجيع الآخرين على الاستمرار^(١) فيها.

يذكر أن الإمام الحكيم كان من شدة اهتمامه بمواكب الطلبة الحسينية ومسايعه لإظهار هذا الاهتمام للطلبة الجامعيين من جهة، ولعامة المؤمنين من جهة أخرى إرساله وفداً برئاسة سيدي الجد سماحة آية الله السيد سعيد الحكيم الزعيم الاجتماعي لأسرتنا الحكيمية ليتقدم مسيرة مواكب^(٢).

٣. لم يلبث سماحة الإمام الحكيم إلا دقائق بعد تأكده من ارتباط سماحة الشهيد الصدر بحزب سياسي حتى كلف أحد أنجاله بالذهاب إلى الشهيد الصدر قائلاً له على لسان والده ما يلي: "إن دعم كل الوجودات الإسلامية والأعمال الإسلامية هو من شأنك، ومما ينبغي لك أن تقوم به، أما أن تحسب على جهة إسلامية معينة وحزب خاص، فهذا مما لا ينبغي لمن هو مثلك في المقام العلمي والاجتماعي الشامخ والذي يجب أن يكون دعامة لكل الأعمال الإسلامية من دون التأطر بإطار خاص. قال السيد الشهيد سأفكر وأتأمل في الأمر.

وفي اليوم التالي أرسل -الشهيد الصدر- رسالة مفصلة إلى حزب الدعوة... وكانت خلاصة ما هو مكتوب في الرسالة... أن آية الله الحكيم طلب مني ألا أكون في التنظيم، وأنا أفهم أن هذا رأي إلزامي له، وعليه فأتوقف الآن عن الانتماء إلى التنظيم، طالباً منكم الاستمرار بجهد في هذا العمل وأنا أ دعمكم في عملكم الإسلامي المبارك"^(٣).

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٩٢/٤ - ١٩٣.

(٢) ينظر كذلك: الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الشيخ هادي الأسدي: ٩٩/٢. نقلاً عن شهيد المحراب سماحة السيد محمد باقر الحكيم.

(٣) الشهيد الصدر سمو الذات وسمو الموقف السيد كاظم الخائري: ١٢٢ - ١٢٣.

الشهيد الصدر (يحكم)^(١) بوجوب الفصل بين العمل الحزبي والحوزة العلمية



بعد أن كان السيد الشهيد الصدر قد قرر الفصل بين الانتماء إلى حزب الدعوة والحوزة العلمية أواخر سنة (١٣٩٣هـ) حيث "قام بطرح موضوع حساس ومهم حول العلاقة بين الحوزة العلمية وبين التنظيم الخاص الذي كان يوليه حينذاك رعاية خاصة.

وكان هذا الطرح في المجلس الاستشاري الخاص به وكانت تصورات السيد الصدر تقوم على أساس أن الحوزة بتشكيلاتها وتنظيماتها تمثل القيادة الأساسية للعمل الإسلامي. ولا بد لهذه الحوزة من أن تكون مستقلة عن العمل المنظم الخاص. وقد بحث هذا الموضوع في عدة اجتماعات... وفي النهاية تم التوصل إلى قرار عملي مع التحفظ تجاهه من قبل بعض أعضاء الجلسة"^(٢).

وقد تضمن هذا القرار المهم أربع نقاط هي:

١. الفصل كلياً بين أجهزة المرجعية الخاصة والعناصر الإدارية والاستشارية لها. وبين العمل المنظم الخاص - حزب الدعوة -، تحقيقاً لاستقلال المرجعية.

٢. الفصل بين الحوزة بشكل عام وبين العمل المنظم على مستوى دراسة السطح والخارج. ويتم إبلاغ الطلبة المنظمين على هذا المستوى بشكل خاص بفك الارتباط العضوي مع التنظيم الخاص.

٣. السماح للطلبة ذوي الدراسات الأولية (المقدمات) الارتباط بالتنظيم الخاص مؤقتاً من أجل تحقيق التوعية السياسية في هذا القطاع مؤقتاً.

(١) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق: سابق: ٦٢ / ٣.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٠ / ٣.

٤. يستثنى من البند الثاني الأشخاص المرتبطين بالتنظيم الخاص الذين يكون لوجودهم دور مهم في إدارته وتثقيفه. بحيث يؤدي فك ارتباطهم منه إلى إيجاد الاختلال في الوضع التنظيمي الخاص على المستوى العملي والثقافي^(١).

ورغم وضوح القرار وصراحته فقد رفض بعض المشمولين به الالتزام بفحواه. بل زاد بعضهم على ذلك فأسمع السيد الشهيد الصدر كلاماً قاسياً ما أدى إلى انزعاج السيد الشهيد الصدر انزعاجاً شديداً^(٢).

ثم وبعد حملة الاعتقالات الواسعة التي شنها النظام البائد في صفوف أنصار سماحته وإثر انكشاف خطوط مهمة من تنظيم حزب الدعوة أمام الأجهزة الأمنية نتيجة اعتراف بعضهم على مجموعة مهمة شملت خيرة طلبة العلوم الدينية

"قام الشهيد الصدر باتخاذ إجراء عاجل وهو إبلاغ كل هؤلاء الطلاب والمقربين بضرورة الخروج من العمل المنظم الخاص، كما قام بإبلاغ بعض المسؤولين الكبار في التنظيم بضرورة إصدار بلاغ من القيادة إلى التنظيم الخاص يطلب منهم فك الارتباط مع جميع طلاب ومدرسي الحوزة والوكلاء في البلدان، وبدون ذلك فسوف يقوم الشهيد الصدر بإصدار (حكم) باعتباره الفقيه الولي بحرمة الانتماء إلى التنظيم الخاص - حزب الدعوة - بالنسبة إلى طلاب الحوزة العلمية وغيرهم من الأجهزة. وقد تم اعتقال عدد كبير من طلاب الشهيد الصدر ووكلائه وأصدقائه من العلماء وغيرهم وكانت هناك قوائم معدة للمزيد من الاعتقالات كان بضمنهم الشهيد الصدر وأنا"^(٣).

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ٢٠٣/٤. ومحمد باقر

الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. سابق: ٢١/٣. مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. سابق: ٢٢/٣ و ٦٨.

(٣) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ٢٠٨-٢٠٩.

حينها وفي مسعى من سماحته لتخفيف الضغوط قرر سماحته ﷺ أن يجيب كتابة على سؤال يوجه إليه بهذا الشأن. فكان هذا هو السؤال وجوابه.

السؤال:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سماحة آية الله العظمى الإمام السيد محمد باقر الصدر (دام ظله)
بعد الدعاء لسيدي بمزيد التأييد والتسديد. أرجو التفضل بالجواب على
السؤال التالي:

ما هو رأي سماحتكم في موقف الحوزة العلمية تجاه الأحزاب السياسية
الدينية كحزب الدعوة وغيره، فهل يجوز الانتماء إليها أو لا. أفتونا مأجورين.

السيد حسين السيد محمد هادي الصدر^(١).

فأجاب سماحته على السؤال أعلاه بما نصه:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا يجوز ذلك. لأننا لا نسمح بشيء من هذا القبيل. وقد ذكرنا رأينا هذا
مراراً إذ أوضحنا أن طالب العلم الديني وظيفته أن يعظ ويرشد ويعلم الأحكام
الشرعية بالطريقة الواضحة المألوفة بين العلماء. ومن الله نستمد الاعتصام وهو
وليّ التوفيق.

١٠ شعبان ١٣٩٤ هـ

محمد باقر الصدر^(٢)

(١) محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. سابق: ٦٣/٣.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٦٣/٣.

لقد " انتهى الشهيد الصدر بعد ذلك إلى الانتهاء مع رؤية الإمام الحكيم" ^(١).

بعض من نماذج التطبيق العملي لسماحته بشأن قراره الملزم بفك الارتباط بين حزب الدعوة والحوزة العلمية

تبعاً لهذا النهج فقد " منع -سماحته- بعض الوجوه المعروفة بانتمائها إلى التنظيم الخاص لا سيما من صدر منه الاعتراف بذلك عن التردد إلى منزله من أجل تغيير الصورة الشكلية لحوزته وإعطائها البعد الديني العام. -ف-المنع من الحديث عن علاقته بالتنظيم الخاص سواء على مستوى التأييد أم الرعاية، وكان يظهر انفعالاً شديداً من سماع ذلك. -مع- التوجه بشكل أشمل وأوضح إلى الأعمال الحوزوية بالصيغ المعروفة والانفتاح الواسع عملياً على القطاعات العامة للأمة والحوزة كمجلس التعزية الأسبوعي والمقابلة العامة مع الناس والاهتمام ببعض الوجوه الحوزوية التقليدية النظيفه والمعروفة بل وغيرهم وإدخالهم في بعض نشاطاته" ^(٢).

ولم يكتف سماحته بذلك بل زاد عليه "حتى أنه امتنع أن يمنح أحد كبار طلابه وكالة عنه، بعد أن أصرّ هذا (الأخ) على البقاء في الحزب لمصلحة كان يعتقد بوجودها، بالرغم من طلب الشهيد الصدر منه الخروج من التنظيم الخاص علماً بأن الشهيد كان بتدينه وفضله، كما أنه لم يرشحه للقيادة النائبة" ^(٣) وغير ذلك مما يصب في الهدف نفسه ويحققه.

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ١٥٧ / ٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢١١ / ٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢١٥ / ٤.

معالم من النضال الجهادي والثوري لسماحة السيد الشهيد الصدر الأول



لقد سبق للسيد الشهيد الصدر أن قام أو كاد أن يقوم بعدة نشاطات جهادية وثورية في مواجهة النظام البائد سأذكر أنموذجاً لهذا وأنموذجين لذلك قبل انتصار الثورة الإسلامية وبعدها حسبما تسمح به المساحة المخصصة لهذه المعالم

أ. محاولة سماحته الاستشهادية لتخليص الدين والشعب من الطغمة الحاكمة

في أحداث سنة (١٣٩١هـ / ١٩٧٢م)^(١) ذكر سماحة السيد كاظم الحائري خبراً عن حوار دار بينه وبين سماحة السيد الشهيد الصدر. أنقله بنصه عنه رغم طوله لأهميته التاريخية. وقد جرى هذا الحديث بينهما في الفترة التي عينت فيها حكومة البعث الدكتاتورية ستة أيام لتسفير الإيرانيين إلى إيران بمن فيهم طلاب الحوزة العلمية ولأن الحديث طويل فسأكتفي منه بنقل أهم ما قاله السيد الشهيد الصدر للسيد الحائري.

يقول السيد الحائري نقلاً عن سماحة السيد الشهيد الصدر أنه قال له ما يلي:

"علينا أن نضحى بنفوسنا في سبيل الله ونبذل دماءنا بكل سخاء في سبيل نصره الدين الحنيف، والخطة التي أرى ضرورة تطبيقها اليوم هي أن أجمع ثلّة من طلابي، ومن صفوة أصحابي الذين يؤمنون بما أقو ويستعدون للفداء، ونذهب جميعاً إلى الصحن الشريف متحالفين فيما بيننا على ألا نخرج من الصحن أحياء. وأنا أقوم خطيباً فيما بينهم ضد الحكم القائم، ويدعمني الثلّة الملتفة حولي، ونثور بوجه الظلم والطغيان. فسيجابهنا جمع من الزمرة الطاغية، ونحن نعارضهم،

(١) يتردد السيد الحائري في تحديد السنة بين سنتي ١٩٩١ و ١٩٩٢. في حسن يرى أحمد عبد الله أبو زيد العاملي أنها في سنة ١٩٩١م وهو ما اعتمدته.

(ولعله قال: ونحمل السلاح)، إلى أن يضطروا إلى قتلنا جميعاً في الصحن الشريف. وسأستثني ثلثة من أصحابي عن الاشتراك في هذه المعركة، كي يبقوا أحياء من بعدي، ويستثمروا الجو الذي سيحصل نتيجة لهذه التضحية والفداء^(١).

وأضاف السيد الشهيد الصدر متحدثاً مع السيد الحائري إلى ما تقدم قوله: "إن هذا العمل مشروط في رأيي بشرطين:

الشرط الأول: أن يوجد في الحوزة العلميّة مستوى من التقبّل لعمل من هذا القبيل. أمّا لو أطبقت الحوزة العلمية على بطلان هذا العمل، وكونه جنونياً، أو مخالفاً لتقيّة واجبة فسوف يفقد هذا العمل أثره في نفوس الأمة، ولا يعطي ثماره المطلوبة.

والشرط الثاني: أن يوافق أحد المراجع الكبار مسبقاً على هذا العمل كي يكتسب العمل في ذهن الأمة الشرعية الكاملة.

فلا بدّ من الفحص عن مدى تواجد هذين الشرطين"

ويضيف السيد الحائري: أما الشرط الأول فصمم الأستاذ رحمته الله على أن يبعث رسولاً إلى أحد علماء الحوزة العلمية لجسّ النبض ليعرض عليه هذه الفكرة، ويستفسره عن مدى صحتها. وبهذا الأسلوب سيعرف رأي عالم من العلماء كنموذج (كذا) لرأي يوجد في الحوزة العلمية.

وقد اختار رحمته الله بهذا الصدد إرسال الشيخ محمد مهدي الآصفي إلى أحد العلماء وأرسله بالفعل إلى أحدهم كي يعرض الفكرة عليه ويعرف رأيه. ثم عاد الشيخ

(١) الشهيد الصدر. سموّ الذات وسموّ الموقف. السيد كاظم الحائري: ٦٣ - ٦٥. ومحمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. أحمد عبد الله أبو زيد العاملي: ٤٤٦/٢. نقلاً عن مقدمة مباحث الأصول للسيد كاظم الحائري: ٤٩ - ٥١، وصحيفة الجهاد. العدد ١٣١ في ٧ رجب ١٤٠٤ هـ. في حديث مع السيد كاظم الحائري. ومقابلة مع السيد عبد العزيز الحكيم في صحيفة المبلغ الرسالي. العدد ١٠٨. وغيرها.

إلى بيت أستاذنا الشهيد وأخبر الأستاذ بأنه ذهب إلى ذلك العالم في مجلسه ولكنه لم يعرض عليه الفكرة وكان السبب في ذلك أنه حينما دخل المجلس رأى أن هذا الشخص مع الملتفين حوله قد سادهم جوّ من الرعب والانهيـار الكامل نتيجة قيام الحكومة البعثية بتفسير طلبـة الحوزة العلمية، ولا توجد أرضية لعرض مثل هذه الفكرة عليه إطلاقاً.

وأما عن الشرط الثاني فرأى أستاذنا الشهيد رحمته الله أن المرجع الوحيد الذي يترقّب بشأنه أن يوافق على فكرة من هذا القبيل هو السيد الخميني فلا يصح هذا العمل من دون استشارته، فذهب هو رحمته الله إلى بيت السيد الإمام -الخميني-، وعرض عليه الفكرة، مستفسراً عن مدى صحتها، فبدأ على وجه الإمام عليه السلام التألم، وأجاب عن السؤال بكلمة: (لا أدري)... وبهذا وذاك تبين أن الشرطين مفقودان فعـدل أستاذنا الشهيد رحمته الله عن فكرته^(١).

ب. دوره ودور شهيد المحراب سماحة السيد محمد باقر الحكيم رحمته الله في انتفاضتي صفر سواء المحدودة منها سنة (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) أم الدموية سنة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، تلك الانتفاضة التي زحفت فيها الجماهير النجفية المؤمنة مشياً على الأقدام لإحياء شعيرة زيارة الإمام الحسين عليه السلام المعروفة بزيارة الأربعين، وإذ وصلت الجماهير المؤمنة إلى خان النخيلة تصدت لها خلال طريقها نحو كربلاء الطائرات الحربية العراقية (كطائرات ميغ ٢٣ المقاتلة) و(طائرات عمودية) ترافقها القوات البرية المدرعة وغيرها وإعطائها الأوامر بإطلاق النار، فاعتقلت ما قدر بحوالي ثلاثين ألف زائر وأودعتها في سجون النجف الأشرف والكوفة والحلة وكربلاء وبغداد.

(١) المصدر السابق نفسه: ٢/ ٤٤٦ - ٤٤٧.

يقول شهيد المحراب سماحة السيد محمد باقر الحكيم أحد أشخاص المحكومين بالسجن المؤبد بعد هذه الانتفاضة: لقد "كانت لتلك الجهود التي بذلها الشهيد الصدر أثر مهم في تأخير تنفيذ النظام المجرم لمؤامراته ضد الإسلام وضد الشعائر الحسينية بشكل خاص... وبسبب هذه الجهود التي كنت أساهم فيها مع شهيدنا الغالي حتى كانت ردّة فعل النظام القيام باعتقالي، والمحاولة الفاشلة لاعتقال الشهيد الصدر، ونقله إلى بغداد سنة ١٣٩٢هـ، وكذلك اعتقال عدد من العلماء والمجاهدين في الوقت نفسه وإطلاق سراحهم في النجف"^(١).

ويضيف إلى ذلك قوله: "انتهت انتفاضة صفر (١٣٩٧هـ) التي استمرت أربعة أيام إلى اعتقال وتعذيب أكثر من عشرة آلاف شخص من الجماهير المؤمنة، وإعدام أكثر من عشرة أشخاص والحكم بالسجن المؤبد على ستة عشر شخصاً"^(٢)، وهو ما أدى إلى إعلان الشهيد الصدر إضراباً عطّل بموجبه الدراسة الدينية في الحوزة العلمية النجفية.

ت. بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران انتقل سماحة السيد الشهيد الصدر إلى مرحلة النضال الثوري أو الجهادي متمثلاً بما سمي بـ(أسبوع البيعة) الذي قامت به جماهير ووفود وهيئات بقيادة العلماء من مناطق مختلفة من العراق بدأت تتوافد فيه على النجف الأشرف وتحتشد لتعلن البيعة لسماحة الشهيد السيد محمد باقر الصدر مع الاستعداد للجهاد والتضحية وفق منهجه وطريقته الثورية وقد كان ممن اشترك في هذه الوفود مجموعة من علماء وشباب وعناصر منظمة تنظيمياً فكرياً سياسياً وجماهير مؤمنة، وتجاوب مع هذا الأسبوع الجماهيري

(١) موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. الشهيد الصدر. بقلم السيد محمد باقر الحكيم: ٤/ ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ١٩٩. هامش رقم ١.

تنظيم حزب الدعوة الإسلامية مع بقية المؤمنين الواعين.

وكان مما زاد من حقن السلطات الجائرة اقتران أسبوع البيعة الجماهيرية مع برقية أرسلها سماحة المرجع السيد الخميني إلى سماحة الشهيد السيد الصدر يطلب منه فيها عدم مغادرة النجف الأشرف، فبادرت السلطة البائدة إلى اعتقال بعض المؤمنين ومطاردة ومراقبة آخرين أمنياً، وهو ما دعا الشهيد الصدر إلى طلب توقف الوفود عن التوجه إلى النجف الأشرف، وأغلق بابه احتجاجاً على تصرفات المتسلطين. فأقدمت السلطة الجائرة على اعتقاله في (١٧ رجب ١٣٩٩ هـ/ ١٣ حزيران ١٩٧٩ م) ونقله إلى أحد معتقلات بغداد مما أثار موجة غضب كبيرة بادرت السلطة الجائرة على إثرها إلى إطلاق سراحه في يوم اعتقاله نفسه ووضعتة تحت الإقامة الجبرية في بيته نحواً من تسعة أشهر كما تم إلقاء القبض على "رؤساء الوفود من العلماء وعشرات الألوف من الشباب العراقي" من المؤمنين الذين لاقوا من صنوف التعذيب أشدها قساوة وفضاضة ثم تم تنفيذ حكم الإعدام بما ينوف على سبعين من العلماء البارزين والفضلاء والنشطاء والحكم بالسجن المؤبد على ما يزيد عن مائتين منهم سنة ١٣٩٩ هـ.

مرحلة الجهاد الحاسم

وإذ وصلت الأمور إلى هذا الحد بادر سماحته إلى توجيه نداءاته الثلاثة إلى العراقيين وأرسلها بصوته إلى سماحة الشهيد السيد محمد باقر الحكيم وطلب منه ألا تنشر إلا بعد استشهادة وهو ما كان.

وقد حدد سماحة السيد الشهيد الصدر مطالبه من السلطة الدكتاتورية في هذه البيانات حيث جاء "في البيان الأول الذي وجهه إلى الشعب العراقي في

(٢٠ رجب ١٣٩٩ هـ / ١٦ حزيران ١٩٧٩ م) التي تنص على:

- أ. إطلاق حرية الشعائر الدينية وشعائر الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام.
 - ب. إعادة الأذان وصلاة الجمعة والشعائر الإسلامية إلى الإذاعة.
 - ت. إيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كل المستويات.
 - ث. الإفراج عن المعتقلين بصورة تعسفية، وإيقاف الاعتقال الكيفي الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.
 - ج. إجراء انتخاب حرّ ينبثق عن مجلس حرّ يمثل الشعب.
- وإني أعلم أن هذه الطلبات سوف تكلفني غالباً، وقد تكلفني حياتي، ولكن هذه الطلبات ليست طلب فرد لتموت بموته وإنما هذه الطلبات هي مشاعر أمة وإرادة أمة، ولا يمكن أن تموت أمة تعيش في أعماقها روح محمد وعلي والصفوة من آل محمد وأصحابه^(١).
- ثم أصدر بيانه الثاني المؤرخ في (١٠ شعبان ١٣٩٩ هـ / ٦ تموز ١٩٧٩ م) إلى الشعب العراقي يدعوه فيه إلى الثورة على النظام الدكتاتوري المتسلط جاء فيه وختم سماحته بيانه الثاني مخاطباً الشعب ومتحدثاً عن اعتقال عشرات الآلاف من العلماء والشباب الناهض وما يلاقونه من حملات تعذيب وإعدام بقوله "وإني في الوقت الذي أدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمر بك يا شعبي، يا شعب آبائي وأجدادي، أو من بأن استشهاد هؤلاء العلماء واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين، وأبنائك الغيارى تحت سياط العفالة لن يزيدك إلا صموداً وتصميماً على المضي

(١) الملحق السادس من كتاب (المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني): ٣٩٩-

٤٠٠. وقد أدرج بعضها دون البعض الآخر د. جودت القزويني في: ٢٨٥. نقلاً عن (الشاهد الشهيد.

في هذا الطريق، حتى الشهادة أو النصر. وأنا أعلن لكم يا أبنائي أني صممت على الشهادة، ولعل هذا آخر ما تسمعون، وإن أبواب الجنة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر.. فعلى كل مسلم في العراق، وعلى كل عراقي خارج العراق أن يعمل كل ما بوسعه، ولو كلفه ذلك حياته، من أجل إقامة الجهاد والنضال لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق، وتحريره من العصابة اللاإنسانية، وتوفير حكم صالح فذّ شريف طيب يقوم على أساس الإسلام^(١).

وقال سماحته في ختام بيانه الثالث والأخير مخاطباً الشعب بكافة مكوناته وطوائفه بقوله: "... فلتتوحد كلمتكم، ولتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلطة، وبناء عراق حرّ كريم، تغمره عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان ويشعر فيه المواطنون جميعاً على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم بأنهم إخوة، يسهمون جميعاً في قيادة بلدهم، وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلامية العليا المستمدة من رسالتنا الإسلامية، وفجر تاريخنا العظيم"^(٢).

٩ الاعتقال الأخير

وإزاء ثورية موقف سماحته وفدائيته، وفشل النظام في الحدّ من عزمه على الماضي قدماً في ثوريته اشترط عليه الحكام الظالمون تقديم تنازلات مذلة، فأبى إباءً شديداً عندها أمر رئيس النظام الدكتاتوري البائد باعتقاله فاعتقل واعتقلت

(١) الملحق السادس من كتاب (المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية) د. جودت القزويني. البيان الثاني:

(٢) الملحق السادس من كتاب (المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية) د. جودت القزويني. البيان:

معه أخته الشهيدة الفاضلة العلوية آمنة الصدر المعروفة بـ (بنت الهدى) وأعدم شنقاً حتى الموت في (الساعة السادسة من مساء يوم الأحد ١٣ نيسان ١٩٨٠م) حسب كتاب وزارة العمل والشؤون الاجتماعية. سري وشخصي-المكتب الخاص. المرقم ١٩٤ في ١٣/٤/١٩٨٠م. الموضوع تنفيذ حكم. والوارد إلى رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية بموجب ختمها. رقم الوارد ٩٧٩٤ في ١٤/٤/١٩٨٠. خلافاً للشائع من أن سماحة السيد الشهيد الصدر الأول أعدم في يوم ٩/٤/١٩٨٠م.

هذا، وقد تقدمت ترجمة سماحة السيد الشهيد الصدر في (الكتاب الخامس) من كتيبي عن (الحوزة العلمية في النجف الأشرف) كما تقدم الحديث عن دور سماحة السيد الشهيد العلمي وكتبه ومؤلفاته ونظرياته المهمة ورأيه في أطروحة (المرجعية الصالحة) في (الكتاب السابع) منها، وفي (الكتاب الثاني عشر)، وربما يأتي الحديث عنه في غيرها من كتيبي أيضاً.

١٠ العلاقة بين المرجعين السيد الخوئي والشهيد الصدر

لا يسعني بعد أن انتهيت من الحديث عن نهج سماحته السياسي إلا أن ألقى الضوء على موقف سماحته عليه السلام من أستاذه سماحة المرجع الأعلى السيد الخوئي، وذلك نظراً لاختلاف نهج المرجعين كل من صاحبي السماحة السيد الخوئي والشهيد الصدر الأول، ولوجود من سعى لنشر ما قد يوحي بأن الخلاف بينهما قد تجاوز المبنى الفقهي لكل منهما إلى غيره. لذا يحسن بي أن أدرج نص ما كتبه سماحة السيد الشهيد الصدر الأول جواباً عن سؤال وجه إليه حول هذه الدعاوى فأجاب سماحته جواباً وافياً شافياً وضع فيه النقاط على الحروف حول علاقته بأستاذه سماحة السيد الخوئي. وفيما يأتي نص السؤال والجواب.

السؤال: "من المعلوم لدينا علاقاتكم الروحية منذ القديم مع سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الأعلى السيد الخوئي (دام ظله الوارف). لكن هناك بعض المسموعات التي أوجبت الإجمال مما استدعى أن نتوجه إليكم بالسؤال مباشرة عن هذا الموضوع. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته."

الجواب:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

إن هذا السؤال الذي تتفضلون بتوجيهه إليّ يوجب شكري من ناحية إذ تتيحون لي بذلك الفرصة للتعبير عن واقع يعيش في نفسي ويؤلمني من ناحية أخرى ألماً شديداً، إلا أنه يوحي بأن العلاقة هي من أشرف وأطهر وأقدس العلاقات في حياتي وكأنها عرضة للشك والإجمال وهي علاقتي بسيدنا وأستاذنا وسندنا وأستاذنا آية الله العظمى الإمام الخوئي (دام ظله الوارف)، هذا الأستاذ الذي أبصرت نور العلم في حوزته وذقت طعم المعرفة على يده. وإن أعظم ما ينعم الله به على الإنسان بعد الإيمان العلم، ولئن كنت قد حصلت على شيء من هذه النعمة فإن ذلك يعود إليه فلست إلا ثمرة من ثمرات وجوده وفيضه الشريف وولداً من أولاده الروحانيين.

وإذا كان هناك من يحاول غض النظر عن هذه الحقيقة أو ينسب هذا الغض إليّ أما لأجل صرف قلب الأب عن ابنه أو لأجل استغلال مكانة هذا الابن للتأثير على المقام الأعلى للأب، فإني أغتنم فرصة سؤالكم الكريم لأقول لكم بكل وضوح إنني أتعامل مع السيد الخوئي دام ظله. وسأظل كذلك كما يتعامل الابن مع أبيه والتلميذ مع أستاذه والطالب مع مرجعه، وقد صرحت بذلك مراراً للناس

وللطلبة وللمسؤولين، ولا أرضى عن أي شخص إلا أن يعترف بذلك ويتعامل معي ومعهم (دام ظله) على هذا الأساس. وإذا أراد شخص أن ينوّه باسم هذا الجانب فليعلم أنه يزعجني أشد الإزعاج أن يخرج هذا التنويه عن مقتضيات العلاقة الطولية بين الابن وأبيه والتلميذ وأستاذه وكل خروج عن هذه المقتضيات مناقض لسلوكي وتعاملي وقد جرى ديدن العلماء على التمييز بين الأمرين بين الإفتاء وإصدار ما يتضمن ذلك لمن يحتاج إليه في علمه الديني الشخصي وبين الالتزام بمتطلبات المرجعية العليا وصيانتها.

ونحن نرى لزوم التمييز بين هذين الأمرين فلا يجوز الخلط بينهما ولا يجوز مس مقام المرجعية العليا، ولا يجوز أي عمل يقصد به تفتيت الشمل المجتمع للمؤمنين على مرجعيتهم العليا وتمزيق كلمتهم.

وإني أبتهل إلى المولى سبحانه وتعالى أن يمتعنا بدوام وجود السيد الأستاذ والاستظلال بظله الوارف والقيام بواجب البنوة له، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

٨ جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ

محمد باقر الصدر





الفصل الخامس عشر

رابعاً

تمظهرات الطائفية السياسية

ضد الشيعة في العهد الجمهوري

القرن الرابع عشر - القرن الخامس عشر الهجري



لقد سبق أن تحدثت عن بعض من مظاهرات الطائفية في العهد الملكي بشكل مفصل. بيد أنني أحجمت عن الدخول في تفاصيل طائفية العهد الجمهوري بالأرقام تجنباً للتكرار. ذلك أنني حين استعرضت مواقف مراجع الشيعة في هذا العهد: وهم كل من أصحاب الساحة: الإمام الحكيم، والإمام الخوئي، والشهيد الصدر الأول، وما لاقوه هم والشيعة من ويلات ومصائب وقتل وسجن وتهجير وتسفير ومجازر ومقابر جماعية لذلك وجدت أن لا حاجة بعد إلى مزيد من البيان.

ولو اقتصرنا من طائفية ودكتاتورية العهد الجمهوري وبخاصة خلال عقود حكم حزب البعث الدكتاتوري الطائفي فقط على الإبادة الجماعية في قمع الانتفاضة الشعبانية، تلك الإبادة المتمثلة أصدق تمثيل بشعارهم المرفوع على واجهة الدبابات التي اقتحمت المدن الشيعية المنتفضة وهو (لا شيعة بعد اليوم) لكفى.

ومع ذلك فسأستعرض بإيجاز شديد وبما يشبه النقاط لأهم ما لم أتناوله سابقاً من طائفية ودكتاتورية هذا العهد الدموي بإيجاز.

لقد امتد العهد الجمهوري حتى سقوط النظام البائد لمدة "(٥٥) عاماً بين عامي (١٩٥٨-٢٠٠٣) شغل رئاسة الوزراء (شيعيان) أحدهما ناجي طالب لمدة (عشرة شهور) في عهد عبد الرحمن عارف، وسعدون حمادي لمدة (ستة أشهر) بعد انتفاضة شعبان/ آذار ١٩٩١"^(١) في بلد غالبية العظمى شيعية. ولعل للانتفاضة الشيعية دخل في مجيء سعدون حمادي البعثي ليكون رئيساً لوزراء العراق ولو لمدة ستة أشهر. أما لو تمعنا النظر فيما قبل الانتفاضة الشعبانية سنة (١٩٩١م) لوجدنا

(١) مشاريع إزالة التمييز الطائفي في العراق. د. صلاح عبد الرزاق: ٥.

خلال الثلاثين سنة الماضية من العهد الجمهوري، أي ما بين سنة (١٩٥٨م) حيث بدأ العهد الجمهوري، لسنة (١٩٨٨م) أي لثلاثة عقود من العهد الجمهوري لوجدنا أنه "اشغل رئاسة الوزراء رجل شيعي مرة واحدة ولمدة عشرة شهور... أي بنسبة (٧, ٢٪)"^(١). كما لم يشغل خلال هذه العقود الثلاثة من العهد الجمهوري أي شيعي لوزارة الأوقاف بل ولا ديوان الوزارة ولا مديريتها العامة.

يقول الباحث حسن العلوي: "إن وزارة الأوقاف أو ديوانها أو مديريتها العامة، لم تسند قطّ إلى أي شيعي خلال سبعين عاماً، ولا يسمح للعراقيين الشيعة بأن يكونوا موظفين فيها حتى الدرجة الخامسة. ولست متأكداً إذا كان مسموحاً للشيعي أن يكون حارساً أو بواباً فيها وهو الحقل المتروك لأبناء المذهب المحكوم عادة"^(٢).

بل لو ألقينا نظرة ليس على تولي السنة من مختلف المحافظات العراقية لمعظم الوزارات السيادية المهمة في العهد الجمهوري، بل على تولي أبناء مدينة تكريت وحدها من بين أبناء سنة العراق خلال حكم حزب البعث المناصب العليا الفاعلة المؤثرة -ناهيك عن نسبة تمثيلهم العليا في مجلس قيادة الثورة- لوجدنا "أنهم لم يشغلوا فقط كل المناصب العليا في الحزب والجيش والحكومة، بل شغلوا أيضاً -بين مناصب أخرى- حقيبة الدفاع، وحاكمة بغداد وإدارة أمنها، وقيادات سلاح الطيران، وحامية بغداد، وقاعدة الحبانية الجوية، وكتيبة دبابات الحرس الجمهوري، واستمر دور التكرارة في أهميته إلى درجة أنه لم يمضِ وقت طويل حتى قيل بأن التكرارة يحكمون من خلال حزب البعث وليس حزب البعث

(١) الشيعة والدولة القومية. سابق: ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٧٨. وتنظر الممارسات الطائفية في وزارة الأوقاف في الصفحات ٢٧٩ - ٢٨٢.

هو الذي يحكم من خلال التكرارة"^(١).

ولو ألقينا نظرة أخرى على ما هو أرقى من الوزارات وما بدرجتها مرتبة في السلم الوظيفي العراقي منذ استولى حزب البعث على السلطة أواخر الستينات من القرن الماضي فلاحقاً، وتأملنا في التركيبة الطائفية لأرفع أجهزة الحكم وأعلىها مستوى في الدولة العراقية وقتئذ، وأقصد به (مجلس قيادة الثورة) الذي أشرت إليه سابقاً منذ بداية تشكيله وما بعده لوجدنا تركيبته الطائفية المناطقية ممثلة فيه أصدق تمثيل:

يقول الباحث حنا بطاطو: "بدأ المجلس في ٣٠ تموز (يوليو) عمله كهيئة مؤلفة من خمسة أشخاص، ثم زيد عدد هؤلاء إلى خمسة عشر في ٩ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٦٩، ليخفّض مجدداً إلى أحد عشر في العام ١٩٧٠، وإلى تسعة في العام ١٩٧٣، وستة في العام ١٩٧٤، وخمسة في العام ١٩٧٧. ولكن كل هذا التغيير في عدد الأعضاء أبقى عليهم كلهم، على الإطلاق، من السنة"^(٢).

لما تقدم ونظراً لشدة التمييز الطائفي ضد الأغلبية الشيعية في وظائف الدولة الرسمية خلال العهد الجمهوري.. وقبله.. وقبله، وغلق أبواب الوظائف بوجوههم باستثناء الوظائف الدنيا "فقد ارتقى التجار الشيعة ليحتلوا المكان الأول في التجارة في بغداد بعد هجرة اليهود في العام ١٩٤٩... فقد حوّل الشيعة كل طاقاتهم باتجاه التجارة وهكذا فقد برعوا في نشاطهم هذا"^(٣) حيث أنهم "انصرفوا كما في العهد العثماني إلى التجارة الخارجية والداخلية بالجملة والمفرق وإلى الزراعة والصناعة

(١) العراق الشيوعيون والبعثيون والضباط الأحرار. حنا بطاطو. الكتاب الثالث: ٤٠١.

(٢) المصدر نفسه. الكتاب الثالث: ٤٠٠.

(٣) المصدر نفسه. الكتاب الأول: ٦٩.

وبعض الحرف... وأصبحوا أي الشيعة قوة اقتصادية مهمة في المجتمع العراقي وهذا أمر لم تكن تستسيغه الأقلية الحاكمة ولا سيما الضباط العسكريون منها، الذين كانوا بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ يسيطرون على الدولة سياسياً والذين بدؤوا يجدون في هذه القوة الاقتصادية التي كان يتمتع بها المواطنون الشيعة خطراً يهدد سيطرتهم وسيطرة الأقلية الحاكمة على الدولة^(١) فكان تطبيق الاشتراكية والتأميم هو السبيل المتاح لانتزاع السيطرة الشيعة على النشاط التجاري العراقي وقسم من النشاط الصناعي المرتبط بالاستيراد "ولنأخذ على سبيل المثال تجارة الاستيراد، بعد أن أصبحت تحت سيطرة الحكومة، وقبل أن تحتكرها الحكومة نهائياً وقتئذ، كان المستفيد الأهم منها بالحصول على ايجازات الاستيراد أصحاب الخطوة لدى رجال الحكم، وكان هذا هو أحد أسباب تملل (الشورجة) وهي كناية عن الوسط التجاري الذي كان يتمثل فيه النشاط الاقتصادي الشيعي، وكذلك بالنسبة للتعينيات في مختلف وظائف المؤسسات الاقتصادية المؤممة، فقد أصبح حالها مشابهاً لبقية الأجهزة الحكومية... لقد أصبحت الحكومة ولا سيما بعد تأميم المصارف هي التي تغني وهي التي تفقر وهي التي تحيي وهي التي تميت"^(٢).

وفي ذلك من الدلالة على التعصب الطائفي والتهميش ما فيه. مما لا يحتاج إلى زيادة بيان.



(١) مشكلة الحكم في العراق من فيصل الأول إلى صدام. سابق: ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق نفسه: ٢٧٦ - ٢٧٧.

الخاتمة

أما وقد وصل بي البحث إلى ما وصل إليه فإنه ليحسن بي أن أختمه بما يأتي:

لقد اتضح من خلال فصول الكتاب العديدة الدور السياسي الفعال للمرجعية الدينية في النجف الأشرف على الساحة السياسية العراقية ابتداءً من القرن الثاني عشر الهجري وانتهاءً بسقوط النظام الدكتاتوري الطائفي الدموي البائد سنة (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

كما اتضح قبل ذلك مدى عمق الطائفية المذهبية السياسية خلال الاحتلال العثماني للعراق، تلك السياسة الطائفية التمييزية بل التكفيرية ضد شيعة العراق بموجب فتاوى علمائهم وممارساتهم الإجرامية البشعة على الأرض العراقية وشعبها المظلوم، ثم ما أنتجت تلك السياسية العدائية ضد شيعة العراق من سياسات التهميش والعزل والإقصاء الطائفي وصولاً إلى التدمير والتخريب والقصف وحرق المزارع والحقول والاعتقال والنفي والتسفير والسجن والإعدام وأمثالها خلال الاحتلال والانتداب البريطاني للعراق وما بعده خلال العهدين الملكي والجمهوري بما حوته من مذابح ومجازر وإبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية وجرائم حرب منظمة ومنهجية قتل وتشريد وتسفير وسجن وتعذيب واستباحة للمدن والحوضر وقصف للعتبات المقدسة وتخريب للبنى التحتية يندى لها جبين الإنسانية. كل ذلك وغيره لخصه شعارهم (لا شيعة بعد اليوم).

وإذا كان بعض الباحثين قد أوصل جذر المشكلة إلى نهاية القرن العشرين، فإني أراها ممتدة - بسبب سياسة المداراة الخاطئة - إلى العقدين الأول والثاني من

القرن الحادي والعشرين كما سبق أن تحدثت في الديباجة وأعيد تكرارها الآن، وأزعم باستمرار هذه التبعات حتى يأذن الله بانتهائها متى ما غيّرنا ما بأنفسنا، وفق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

وما مآسي وويلات ما بعد سقوط النظام البائد في سنة (٢٠٠٣م) ثم الحرب الطائفية الدموية الشرسة وآخرها وليس آخرها، اعتصامات المحافظات السنية سنة (٢٠١٢م) وما بعدها، ثم تسويق المنظمة الإرهابية: (القاعدة في بلاد الرافدين) الوهابية الفكر والممارسة، ثم تصنيع (داعش) التكفيرية الإرهابية اللاحقة لها، أقول هذه كلها ما هي إلا امتداد لجذر المشكلة الطائفية نفسه منذ الاحتلالين العثماني والإنكليزي للعراق.

ويعلم الله ما هي المنظمة الإرهابية اللاحقة لداعش التي ستصنع وتسوق ضد شيعة العراق مستقبلاً.

في ثورة العشرين كسب شيعة العراق (الوطنية)، كما يقول باحث عراقي، وخسروا (الوطن) مائة عام، ولا زالوا بعد حوالي عشرين عاماً من سقوط النظام الدكتاتوري الطائفي البائد -على الرغم من أغليبتهم الطاغية، وكل ما قاسوه من قتل على الهوية، وإعدام على الظنة، وتهجير، وتسفير، واستباحة للأفئس والأموال والثمرات، وتهميش وإقصاء، وسجون، ومقابر جماعية، وقصف للعتبات المقدسة- أقول ما زال الشيعة غير قادرين، أو غير مسموح لهم أن يكونوا قادرين على أن يحكموا الوطن بالنجاح الذي يستحقه شيعة العراق وذلك بفعل عوامل خارجية كما تقدم: أهمها تدخلات من قبل الدول الكبرى، ودول الخليج، وتركيا وغيرها من دول المنطقة، وعوامل داخلية أغلبها ناتج من تأثيرات هذه الدول وتبعية بعضهم لها.

(١) سورة الرعد. الآية ١١.

ناهيك عن التراكمات النفسية للكبت والقهر والإذلال والتهميش التاريخي وغيرها.

ترى متى يعي شيعة العراق جذر المشكلة؟

متى ندرك ويدرك العراقيون المخلصون لوطنهم حقيقتها وجوهرها، ويقرروا بعد وعي المشكلة وقبل فوات الأوان السعي الحثيث لإعداد استراتيجيتنا العادلة المحققة وآليات وخطط تنفيذها على الأرض، وربما من أهمها إنشاء إقليم الوسط والجنوب ضمن حكومة اتحادية قوية مقتدرة على إعطاء كل ذي حق حقه بعدالة وواقعية وإنصاف. وهو ما نظرت له وطرحته بخارطة طريق من عدة صفحات على زعماء وقادة (الائتلاف العراقي الموحد) وأنا منهم سنة (٢٠٠٥م) بعد فوزي بعضوية الجمعية الوطنية العراقية وقبل كتابة الدستور العراقي.

ولقد ناقش كبار قادة الائتلاف العراقي الموحد ما عرضته عليهم بدقة في عدة اجتماعات ترأسها الفقيه المغفور له سماحة السيد عبد العزيز الحكيم ووافق القادة والزعماء على تبنيه بل ووقع زعماء الائتلاف على ورقتي بالموافقة التحريرية عليها. غير أن الظروف حالت دون تطبيقها.

وإذا قدر للظروف القاسية المريعة ولتدخلات الدول الكبرى وبعض دول المنطقة -القلقة من إقليم شيعي مزدهر يضمن حسن توزيع الثروة بما يتناسب طردياً مع ما يقدمه الإقليم للخرينة العامة للدولة، مدعوماً بإعلام محترف ومحروساً بقوة عقائدية شابة غير مسيسة مرضية من المرجعية الدينية العليا في النجف الأشرف، إضافة إلى كون هذه النخبة مدربة تدريباً قوياً يتجدد باستمرار وتحدث معلوماته العسكرية والأمنية دوماً، شرط أن تكون مخلصه لدينها وشعبها وقيمها ومبادئها الولائية الحققة-، أقول: إذا قدر أن تحول الظروف القاسية بين شيعة العراق وإقليمهم الحضاري الثري مادياً وبشرياً وقيماً، فلا أقل من إنشاء إقليم عربي

يضم كل مناطق العراق بالمواصفات السابقة عدا إقليم كردستان.

أعود فأقول: إذا أدركنا ذلك واستوعبناه فعلينا - من جملة ما علينا من أمور كثيرة- أن נוّهل شبابنا الطالع لأعلى مستويات فن القيادة والإدارة في أرقى الجامعات العالمية الرصينة.

لقد كفي لـ "المذهب الشيعي... ولزمن طويل -أن يكون- مذهب ضحايا الاضطهاد"^(١) في العراق.

لقد كفاكم يا شيعة العراق ما قدمتموه لتكسبوا -مع وطنيتكم المضمخة بالدماء- وطنكم الغالي بالعدل، والمساواة، والإنصاف، اقتداء بسيرة إمامكم العادل (أمير المؤمنين) عليه السلام، ومحاكاة لها. متى...؟

نعم، كفاكم فشلاً استراتيجياً وإدارياً بعد فشل، ومداراة إثر مداراة على حساب معتقدكم، وقيمكم، وأهلكم، ومصالحكم، وثوراتكم. وأجيالكم القادمة. كفاكم أيها المخلصون المبادرون المضحون.. كفى.. نعم كفى. ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على رسولنا الكريم محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

عبد الهادي السيد محمد نقي الحلي

النجف الأشرف. العراق

رجب المرجب ١٤٤٦هـ/كانون الثاني ٢٠٢٥م

(١) العراق الشيعيون والبعثيون والضباط الأحرار. حنا بطاطو. الكتاب الثالث: ٢٩٨.

مصادر البحث ومراجعته

١. الأحلام. الشيخ علي الشرقي. ط ١. شركة الطبع والنشر الأهلية. بغداد. العراق. ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.
٢. أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث. بحث عن تاريخ العراق في العصور المظلمة. المستر ستيفن هيمسلي لونكريك. ترجمة. جعفر الحياط. ط ٥. الفرات للنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.
٣. أزمة شيعة العراق. منشورات مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية. المملكة المتحدة. لندن. ١٩٩٣.
٤. أساطين المرجعية العليا في النجف الأشرف. د. محمد حسين الصغير. ط ١. مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ٢٠٠١ م. الآداب. النجف الأشرف. العراق. ١٣٨٥ هجرية. ١٩٦٥ م.
٥. الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري. السيد أحمد الحسيني. سلسلة أعلام الإمامية. الكتاب الثاني. ط ٢ دون ذكر اسم المطبعة ومكان الطبع. ١٤٢٤ هجرية.
٦. الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي. دار الثقافة. النجف الأشرف. العراق. ١٣٨٤ هجرية.
٧. الإمام الحكيم: السيرة الذاتية، الجانب العلمي، المرجعية الدينية، الحوزة العلمية. بقلم السيد محمد باقر الحكيم: مؤسسة تراث شهيد المحراب. النجف. جمهورية العراق. ٢٠٠٥ م.

٨. الإمام الحكيم عرض تاريخي لدوره السياسي والثقافي. محمد الشيخ هادي الاسدي. ط ١. مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية/ ٥. ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٧ م.
٩. التاريخ الإسلامي. محمود شاكر. بلاد العراق ج ١١. ط ١. المكتب الإسلامي. بيروت. لبنان ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢ م.
١٠. تاريخ المشعشين وتراجم أعلامهم. جاسم حسن شبر. مطبعة
١١. تاريخ النجف الأشرف. الشيخ محمد حسين بن علي بن محمد حرز الدين. ط ١. منشورات دليل ما. قم. إيران. ١٤٢٧ هـ.
١٢. تاريخ القضية العراقية. محمد مهدي البصير. الطبعة الأولى. مطبعة الفلاح. بغداد. ١٣٤٢/ ١٩٢٣ والطبعة الثانية. لندن. المملكة المتحدة. ١٩٩٠ م.
١٣. التقليد والحالة القومية. الشيخ محمد مهدي الآصفي. منشور في دائرة المعارف الشيعية. الجزء العاشر.
١٤. تنبيه الأمة وتنزيه الملة. الشيخ محمد حسين النائيني. ترجمة مشتاق الحلو. مراجعة وتقديم د. عبد الجبار الرفاعي. ط ١. دار التنوير للطباعة والنشر. بغداد. العراق. ٢٠١٤ م.
١٥. مذكرات شاهد عيان عن ثورة النجف ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٨ م. الشيخ محمد أمين الإمامي الخوئي. ترجمة بشرى ضياء مشكور. تقديم وتحقيق وتعليق د. كامل سلمان الجبوري. ط ١. مؤسسة المواهب للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٨ م.
١٦. ثورة النجف على الإنكليز. حسن الأسدي. منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية. سلسلة الكتب الحديثة ٧٩. بغداد. ١٩٧٥ م.

١٧. جامعة النجف. الشيخ محمد تقي الفقيه. موسوعة النجف الأشرف. جمع بحوثها جعفر الدجيلي. ط ١. الجزء السادس. بيروت. لبنان. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
١٨. جنة المأوى. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. تقديم السيد محمد علي القاضي الطباطبائي. ط ٢. دار الأضواء. بيروت. لبنان. ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
١٩. حركة التجديد في الحوزة العلمية في العراق إبان الحكم العثماني المباشر. د. علاء الدين السيد محمد تقي الحكيم. رسالة دكتوراه. قسم التاريخ الحديث. كلية الآداب جامعة الكوفة. ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٣م.
٢٠. الحقائق الناصعة في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ ونتائجها. فريق المزهرة آل فرغون. ط ١. مطبعة النجاح. بغداد. العراق. ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.
٢١. الحوزة العلمية المشروع الإسلامي والحضاري. السيد محمد باقر الحكيم. ط ٢. إعداد وتحقيق السيد محمود الحكيم. مؤسسة تراث الشهيد الحكيم رحمته. قم. إيران. من دون ذكر سنة الطبع.
٢٢. دور النجف في انتفاضة شعبان ١٩٩١. عبد الهادي الحكيم. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣ لسنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م، نقلاً عن مجلة النور. المملكة المتحدة. لندن. العدد ١٦١. شعبان-رمضان ١٤٢٥هـ/ تشرين الأول-الثاني ٢٠٠٤م.
٢٣. الذخيرة في العقبي في مودة ذوي القربى. تأليف السيد شبر بن محمد بن ثوان الحويزي المشعشي. تحقيق السيد مهدي الرجائي. إيران. قم ١٤٢٩ هجرية.
٢٤. ذكريات بغدادية العراق بين الاحتلال والاستقلال. موسى الشابندر. ط ١.

- رياض الريس للكتب والنشر. بيروت. لبنان قبرص. ١٩٩٣ م.
٢٥. الرحلة العلاجية لسماحة السيد السيستاني وأزمة النجف عام ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م. حامد الخفاف. ط ١. دار المؤرخ العربي. بيروت. لبنان. ١٤٣٣ هـ/ ٢٠١٢ م.
٢٦. الزعيم الموهوب آية الله الأعظم والإمام الأكبر السيد أبو الحسن الأصفهاني. د. موسى الأصفهاني. منشور ضمن المجلد الثالث من كتاب: السيد أبو الحسن الأصفهاني. سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه العلمية والسياسية. ط ١. ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥ م.
٢٧. السمات المطلوبة للمجتهد. الشيخ محمد إبراهيم الجناتي. بحث. مجلة الفكر الإسلامي. العدد ٦. البحث مترجم عن مجلة كيهان الفارسية. العدد ٥٢. قم. إيران.
٢٨. السيد أبو الحسن الأصفهاني سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه العلمية والسياسية. د. كامل سلمان الجبوري. دار الضياء للطباعة والنشر. النجف الأشرف. العراق.
٢٩. السيد محسن الحكيم وفقه الزعامة الدينية. سعود المولى. بحث. خاص لبنان الجديد. الأربعاء. ١١ آذار ٢٠١٦ م.
٣٠. السيد محمد كاظم اليزدي سيرته وأضواء على مرجعيته ومواقفه ووثائقه السياسية. كامل سلمان الجبوري. ط ١. منشورات ذوي القربى. إيران. قم. ١٣٨٥ هـ.
٣١. سيرة وذكريات ثمانين عاماً ١٨٩٤-١٩٧٤ م. ناجي شوكت. منشورات مكتبة النهضة العربية. بغداد. العراق.

٣٢. الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤-١٩٩٠. دار الثقافة للطباعة والنشر. إيران. قم. من دون ذكر سنة الطبع.
٣٣. شيعة العراق. إسحاق نقاش. ترجمة عبد الإله النعيمي. ط ١. دار المدى للثقافة والنشر. دمشق. سوريا. وبيروت. لبنان. ١٩٩٦م.
٣٤. شيعة العراق تاريخ.. مواقف. السيد محمد باقر الحكيم. ط ١. مؤسسة تراث الشهيد الحكيم. النجف الأشرف. العراق. ٢٠٠٥م.
٣٥. الشهيد الصدر سمو الذات وسمو الموقف. السيد كاظم الحسيني الحائري. ط ١. دار البشير. ١٤٢٧هـ.
٣٦. الطائفية السياسية ومشكلة الحكم في العراق. د. عبد الخالق حسين. ط ١. الناشر دار ميزو بوتيميا. بغداد. العراق. ٢٠١١م.
٣٧. الطائفية في العراق الواقع والحل. د. سعيد السامرائي. ط ١. مؤسسة الفجر. لندن. المملكة المتحدة. ١٤١٣/١٩٩٣م.
٣٨. الطائفية والحوكمة ومستقبل العراق. رانج علاء الدين. دراسة تحليلية صادرة عن مركز بروكنجز الدوحة. رقم ٢٤. أكتوبر ٢٠١٨م.
٣٩. ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية. د. حسنين توفيق إبراهيم. ط ٢. مركز دراسات الوحدة العربية. سلسلة أطروحات الدكتوراه (١٧). بيروت. لبنان. ١٩٩٩م.
٤٠. العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية. سماحة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء. ط ١. تحقيق الدكتور جودت القزويني. بيسان للنشر والتوزيع. بيروت. لبنان. ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
٤١. العثمانيون وشيعة العراق. كربلاء أنموذجاً ١٨٤٣. خوان كول وموجان مومن.

- دراسة وترجمة د. نهار محمد نوري. ط ١ شركة دار الوراق للنشر. بيروت. لبنان. ٢٠١٦.
٤٢. العراق تأسيس النظام الملكي وتجربته البرلمانية تحت الانتداب البريطاني (١٩٢٠-١٩٣٢). د. محمد مظفر الأدهمي. مكتبة الذاكرة. بغداد. العراق. ٢٠٠٩ م.
٤٣. العراق. الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية. الكتاب الأول. ترجمة عفيف الرزاز. الطبعة العربية الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. لبنان. ١٩٩٥ م.
٤٤. العراق الحديث من سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩٥٠. ستيفن همسلي لونكريك. ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي. ط ١. الفجر للنشر والتوزيع. بغداد. مطبعة حسام. بغداد. العراق. ١٩٨٨.
٤٥. العراق في رسائل المس بيل ١٩١٧-١٩٢٦. ط ١. ترجمة وتعليق جعفر الخياط. الدار العربية للموسوعات. بيروت. لبنان. ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.
٤٦. العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه. ترجمة وتعليق محمد الشيخ هادي الأسدي. ط ١. مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية ٢٢. بغداد. العراق. ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١ م.
٤٧. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. د. علي الوردي. طبعة مصورة. انتشارات الشريف الرضي. إيران. ١٤١٣.
٤٨. لمحة تمهيدية عن مشروع دستور الجمهورية الإسلامية. بحث من كتاب (الإسلام يقود الحياة). السعيد السيد محمد باقر الصدر. وزارة الإرشاد الإسلامي. ط ٢. طهران. إيران: ١٤٠٣ هـ.

٤٩. ماضي النجف وحاضرها. الشيخ جعفر محبوبة. ط ٢. ج ١. دار الأضواء. بيروت. لبنان. ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٥٠. محمد باقر الصدر السيرة والمسيرة في حقائق ووثائق. أحمد عبد الله أبو زيد العاملي. ط ١. مؤسسة العارف للمطبوعات. بيروت. لبنان. ٢٠٠٦م/ ١٤٢٧هـ.
٥١. مختارات إسلامية. كتب تصدر عن مجموعة من الناشرين في النجف الأشرف. عنوان المراسلات والحوالات. عبد الكريم القزويني. مدرسة الخليلي الكبرى في النجف الأشرف. مطبعة النعمان. النجف الأشرف. العراق. من دون ذكر سنة الطبع.
٥٢. مذكرات الشيخ الآصفي تاريخ الحوزة العلمية في النجف الأشرف ونشوء التيارات والمشاريع. ١٩٣٩-٢٠١٥. ط ١. مؤسسة در الإسلام. النجف الأشرف. العراق. ٢٠٢٥م.
٥٣. مذكرات العلامة الشيخ موسى العصامي. مجلة آفاق نجفية. العدد ٢٣. النجف الأشرف. العراق. ١٤٢٢هـ/ ٢٠١١م.
٥٤. مرجعية التقليد. أحمد الكاظمي الموسوي. ضمن دائرة المعارف الشيعية. ج ١٠. إيران.
٥٥. المرجعية الدينية. الحلقة الثانية. حوار صريح مع المرجع السيد محمد سعيد الحكيم. ط ٣. مؤسسة المرشد. بيروت. لبنان. ٢٠٠١م.
٥٦. المرجعية الدينية العليا عند الشيعة الإمامية. د. جودت القزويني. ط ٢. الخزان لإحياء التراث. ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
٥٧. المرجعية العاملة. دراسة تحليلية لحياة المرجع الديني الأعلى آية الله العظمى

- السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني. السيد ضياء الحسن. منشورات هيئة محمد الأمين عليه السلام. ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
٥٨. مذكرات الشيخ محمد رضا الشيباني ورحلاته. الشيخ محمد رضا الشيباني. تقديم وإعداد وتوثيق د. كامل سلمان الجبوري. دار الرافدين. النجف الأشرف. العراق. ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٥٩. مرجعية الإمام الحكيم نظرة تحليلية شاملة. خطب وأحاديث ومقالات سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم. دار الحكمة. القسم الثقافي. قم. إيران. ١٤٢٤ هجرية.
٦٠. مشاريع إزالة التمييز الطائفي في العراق من مذكرة فيصل إلى مجلس الحكم ١٩٣٢-٢٠٠٣. د. صلاح عبد الرزاق. بغداد. العراق. ٢٠٠٧م.
٦١. مشكلة الحكم في العراق من فيصل إلى صدام. عبد الكريم الأزري. ط ١. لندن. المملكة المتحدة. ١٩٩١م.
٦٢. معارف الرجال. الشيخ محمد حرز الدين. تعليق حفيده الشيخ محمد حسين حرز الدين. نشر مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي. مطبعة الولاية. قم. إيران. ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٦٣. معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام. الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني. ط ٢. ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
٦٤. من مذكرات العلامة الشهيد محمد مهدي الحكيم (رض) حول التحرك الإسلامي في العراق. إعداد مركز شهداء آل الحكيم للدراسات التاريخية والسياسية. دون ذكر سنة الطبع ولا المطبعة ولا مكان الطبع.
٦٥. موسوعة الحوزة العلمية والمرجعية. ط ١. السيد محمد باقر الحكيم. الجزء الرابع.

- الشهيد الصدر قراءة تحليلية في السيرة الذاتية. مؤسسة تراث الشهيد الحكيم. النجف الأشرف. العراق. ٢٠٠٦م.
٦٦. الموسوعة الفقهية الميسرة. الشيخ محمد علي الأنصاري. ط ١. مجمع الفكر الإسلامي. ١٩. قم المقدسة. إيران. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٦٧. موقف المرجعية الدينية العليا من الأحداث السياسية الداخلية بين عامي (١٩٥٨-١٩٦٨م) ومواجهة المد الشيوعي والبعثي. وموقف المرجعية الدينية العليا من القضايا الوطنية بين عامي (١٩٦٨-٢٠٠٣م). د. مقدم عبد الحسن الفياض. بحثان منشوران ضمن موسوعة فتوى الدفاع الكفائي. المرجعية الدينية العليا وأبرز المواقف الوطنية. (١٩١٤-٢٠١٤). الجزء الثالث. قسم الشؤون الفكرية والثقافية وقسم الإعلام. العتبة العباسية المقدسة. ط ١. ١٣٤٢هـ/ ٢٠٢٠م.
٦٨. موقع المرجع الديني الأعلى السيد السيستاني على الإنترنت.
٦٩. موقع المرجع الديني الشيخ إسحاق الفياض على الإنترنت.
٧٠. موقع المرجع الديني الشيخ بشير النجفي على الإنترنت.
٧١. موقع المرجع الديني الكبير السيد محمد سعيد الحكيم على الإنترنت.
٧٢. نبذة عن حياة العلامة الحجة الشهيد السعيد السيد محمد تقي الخوئي. مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية. لندن. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
٧٣. النجف والمجلس التأسيسي. الشهيد عبد الرحيم محمد علي. مجلة آفاق نجفية. العدد ١. النجف الأشرف. العراق. ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
٧٤. نظرية العمل السياسي عند الشهيد السيد محمد باقر الصدر. بقلم الشهيد السيد محمد باقر الحكيم.

٧٥. هكذا عرفتهم. جعفر الخليلي. منشورات الشريف الرضي. قم. إيران.

١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

٧٦. الوصول إلى السلطة الشيعة في العالم العربي المعاصر. إسحاق نقاش. ترجمة مختار

الأسدي. مراجعة عماد الهلالي. لبنان. بيروت. ٢٠١٢م.

٧٧. يوميات الحرب والانتفاضة. مكي زبيبة. إعداد وتقديم: مصعب مكي زبيبة.

ط ١. دار الشؤون الثقافية العامة. وزارة الثقافة والسياحة والآثار. بغداد.

العراق. ٢٠٢١م.

وغيرها ممّا ترد في ثنايا الكتاب وهوامشه.



الفهرست